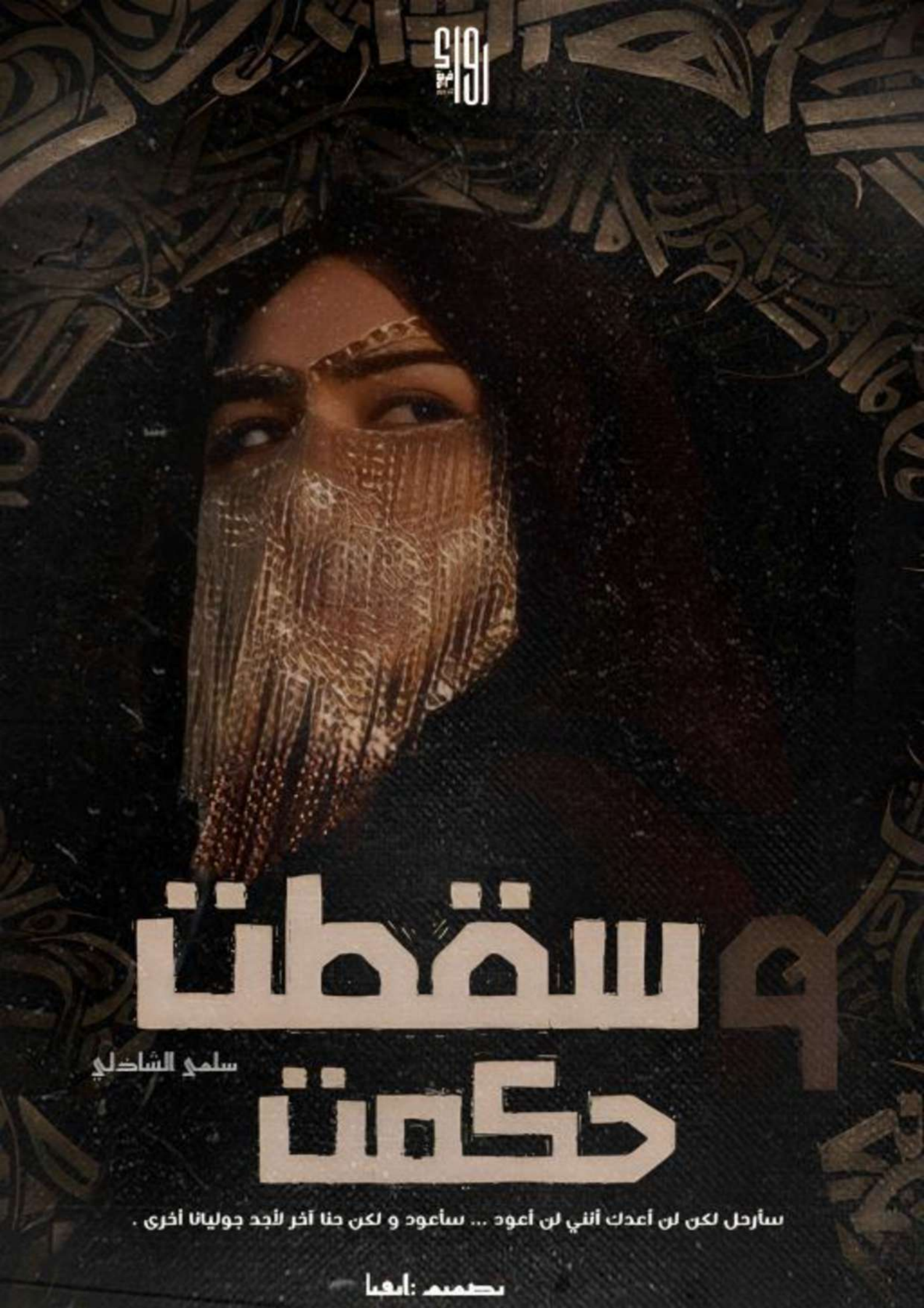
سقطتنا
حكمتنا
سلمى الشاذلي
سأرحل لكن لن أعدك أنني لن أعود ... سأعود و لكن حتا آخر لأجد جوليانا أخرى .
تصميم :ابيا

رواية وسقطت حكمت!

الفصل الاول

في ورشة نجارة في العام 1967 كان الراديو المغربى في مدينة طنجة يصدح بإذاعة القرآن الكريم بصوت الشيخ محمد رفعت المصرى صاحب الصوت الملائكى.

واسفل الراديو الموضوع على ذلك الرف كأن هناك رجل في الخمسين من عمره غزى الشيب رأسه وقد أمسك بقطعة الصنفرة الخشنة وأخذ في تسوية جميع جوانب الرف الذى يصنعة لتكوين مكتبة صغيرة وإلى جانبة ابنه الأكبر في الرابعه والعشرون من عمره وقد اقبلت ابنته الصغرى ذات التاسعة عشر ربيعًا منذ قليل تحمل اطباق الغداء وقد أغلق ذلك الرجل ابواب الورشة وشرع في الأكل مع ابنائه وأنس حياته بعد وفاة زوجته منذ عامين غابرين.

ولكن تعلقت الملعقة قبل ان تصل إلى فمه في الهواء وهو يستمع الى ذلك الخبر في نشرة أخبار الظهيرة وقد تجمعت الدموع في عينيه وهو يستمع الى صوت المذيع المُجيد للغه العربيه ينقل ذلك الخبر "أعلن الجنرال فرانكو حاكم إسبانيا حرية الأديان عام 1967، وأعلنت أكثر من 600 عائلة إسبانية عودتها للإسلام عقب تنصيرها بالقوة بعد سقوط الأندلس."

تنبهت حواس ابنائه عاشقى تُراب الاندلس وابتسموا بسعادة وفرح عكسه وقد خلع نظارته الطبيه يمسح دموعه قائلاً بصوت متقطع ومتحشرج: يا الله! لا... تعرفون... كيف دفع جدى الأكبر يحيى وجدتى حكمت... ارواحهم ثمنًا لرؤية ذلك اليوم؟!

نظر له ابنه باهتمام وترك قطعة الخبز من يده قائلاً: كيف يا ابتى؟

استند على ركبتيه وهو يقف ثم اتجه إلى ذلك الرف وامسك بالصندوق من جانب الراديو ثم عاد إلى الطاولة الصغيرة واخرج مفتاح قفل الصندوق واخرج منه دفتر قديم قائلاً: ساحكى لكم قصة جدكم وجدتكم يحيى وحكمت لتعرفوا كم عانيا للفوز ببعضهم وحاربوا الدولة والقوانين حتى ينعموا بالحب والسكينة ثم فتح الكتاب وبدا يقرا أول سطر في المقدمة التى خطتها حكمت بيديها.

فى عام 1820 وفي أوروبا التى كانت فى حالة من اضطراب العنيف والشديد جراء الحملات البريطانية والفرنسية الاستعمارية التي أخذت تطوف العالم شرقًا وغرباً شمالاً وجنوبًا فى صدد تحقيق هدفها الازلى وهو هدف جميع ملوك الأرض منذ خلق الجن وادم الى نهاية الزمان وقيام الساعة يوم الوقت المعلوم الا وهو امتلاك الأرض ومن عليها وقد نسي جميع ملوك الارض السابقين ان الله يرث الأرض وما عليها وجميعنا سواسيه أمام الله العزيز الحميد والعلى الكبير وفى يومًا لا ينفع فيه ملا ولا حكمًا ولا ولدًا سيندم كل من فرط فى لحظة كانت اولى منه بالعبادة والتقرب الى الله زُلفى وانا لا أعد نفسى عليكم واصيةً لكن كاخنًا لكم فقط ناصه وأشد مما تعرفه فى حياتها هو مرارة الندم ، فصدقًا ولله الصدق ان الفرصه واحدة و لا تتكرر و الفرحه لحظه والندم عمر .

وعلى كلاً فليس هذا سياق قصتنا الحزينه اليوم بل هناك قصة أخرى و اقولها قبل البدء فى تلك المغامرة الصغيرة بين ثنايا الحروف القليلة ان كنت من عشاق الترف والفرح فاذهب ولا تجعل قصه صغيره تنكد عليك هناء عيشتك الطيبة فتلك المرة أنا لن احكى قصة البطل والبطلة الذائبين فى بحورًا من العشق ولا البطل الكاره للبطله وفى نهاية المطاف ستأسره ببراءتها بل قصتي اليوم جريئه ومختلفه اكسر بها ركاكة وملل الجو المحيط بين بطل وبطلة اختلافهما وتباعدهما ابعد ما يكون بين السماء السابعة والأرض السُفلى و دعونى لا اطول الحديث الذى لا طائل منه عليكم قصتنا اليوم فى بلاد القوط الغربيين سابقًا و المسلمين سابقًا والكاثوليك المسيحيين حاليًا قصتنا فى شبه الجزيرة الإيبيرية و بلاد الوندال قصتنا فى بلد ذات اسمين ، فشرقًا تُسمى الأندلس الجنة المفقودة وغربًا تسمى اسبانيا ولنعود للتاريخ المذكور أعلاه في اسبانيا التى سقطت فى يد نابليون بونابرت عبر حملاته الاستعمارية والذى اتخذ قرار غير مجرى تاريخ اسبانيا حيث امر بإلغاء محاكم التفتيش التى كانت تعاقب كل من تشك فى مذهبه الكاثوليكي سواء كان يهوديًا او مسيحيًا بروتستانتي او أرثوذوكس او أريوسي او مسلمً ! و تسومهم سوء العذاب و لم يجد هؤلاء المساكين حلاً من تلك المصيبه سوى اعتناق المذهب المسيحى الكثوليكى علنيًا و اى مذهب اخر سريًا فلُقبوا بالمورسكين ، او يفرون عبر البحر تجاه الدوله العثمانيه او شمال افريقيا من المغرب و الجزائر و مصر فى مراكب الدوله لعثمانيه او قراصنة البحر الشُجعان امثال الاخوان بربروسا و يوسف سبارو و غيرهم من الابطال.

و الان اظن من ثبت الى الان على اتم الاستعداد فى ان يقفز الى سفينتى التى تطوف العالم فى بحور الشبكه العنكبوتيه و يشحذ سيفه و يسن رمحه للدخول فى غمار تلك المغامره . هيا بنا!

كانت تلك المقدمه لقصة فتاه ذات حظًا عسر . اوقعها نُبلها و شجعاتها فى اسوء كوبيسها الذى حاربت فى معركة قويه لاجتنابه و لكن الامر نافذ لا محاله و هى جوليانا او " حكمت" كما سماها ابويها فحكمت من المروسكين المسلمين فى عائله من اربع افراد و قد رحل والدهم الحداد عن الارض الى قبره منذ خمس سنوات مُخلفًا خلفه حكمت ذات الثانية و العشرون عامًا من عمرها و" اخيلا "او "طارق" صاحب الثالثة عشر سنه و زوجته "اليزبيث "او" خديجه "فى الخامسه والخمسين من عمرها . و كانت تلك العائله البائسه تسكن فى احد احياء مدريد متوسطة الحال تذهب الى الكنيسه كجوليانا و اليزبيث و اخيلا و فى البيت خديجه و حكمت فقط لا طارق هنا قبل ان يتم الرابعة عشر و يعلم بحقيقة دينة و عائلته و يتمكنون من المهاجرة الى شمال افريقيا و يمارسون شعائرهم الدينيه بكل حرية .

فهذا هو القانون الذى سنته الملك ايزبلا الاولى ملكة قشطاله انه لا يهاجر اى طفل من الاندلس او اسبانيا ما دون الرابعة عشر من الذكور و الاثنى عشر من الإناث و من يقدم على ذلك تتبنى الكنيسه هذا الطفل و فى المقابل تُصادر الدوله جميع ممتلكات تلك العائله ان استطاعت المهاجره و لم تقع فريسه تعيسه فى يد محاكم التفتيش .

و الان لقد تطاولت فى الكلام و نسيت ان اخبركم بشكل حكمت . حسنًا هى طويله و تميل للبدانه قليلاً جدًا و عينيها بنيه فاتحه تتناغم مع ضوء الشمس و تعطيكم لون عسلى مميز و بشرتها برونزيه بسمار عربى اصيل او امازيغى المهم انه يصرخ بوراثتها من اجدادها الاصلين و شعرها داكن كقطعه من سماء الليل و غير مسترسل و لا مجعد ، اما طارق فهو طويل بعض الشئ بعينين زرقاء و شعر ممزوج بعض الشيء و يميل للبشره الفاتحه و قد كان نسخه من خديجه لا يختلفان فى اى شئ سوى ان خديجه قصيره بعض الشيء .

و كان العمل فى الحياكة هو سر الشهره فى احياء مدريد المتوسطة فاليزبيث _خديجه _ افضل من يجيد الحياكه فى مدريد و عن تجربة من نُبلاء المدينه بالاضافه الى رعى بعض الاغنام القلائل التى تدر عليهم بعض الحليب و الاصواف و حكمت ايضًا قابله و قد ورثت مهنتها عن جدها لابيها .و لكن مهلاً مهلاً ما هذه الضجه القادمه من المطبخ ؟! اوه! ليس ثانيةً يا اخيلا! الوغد الصغير يسرق الحلوى التى اعدتها للتو حكمت .

و ها هى الان ترقد خلفه الى حجرة المعيشة صارخه بضيق قائله : اخيلا ايها السارق تعال الى هنا !

وقف اخيلا خلف احد كراسى الطاوله الصغيره و حكمت خلف اخرى و قد تكلم باستعطاف : جوليانا ارجوكى قطعه صغيره لن تنهى الطبق .

ضربت على احد قمم الكراسي قائله : و لكننا اتفقنا سنأكلها فى المساء عندما تعود من الكنيسة ... و لتعلم هذا من نصيبك ليست زائده عن الحاجة اتفقنا .

ضيق عينيه و نظر اليها فى ضيق و غيظ قائلاً : لا اعلم كيف اشكر كرم اخلاقك هذا ... بحق الرب من سيتزوج منكى ايتها البخيلة.

احمرت وجنتيها غضبًا و هم بالجرى خلفه قائله فى غضب : ايها الوغد الصغير ساقتلك .

هرب طارق _ اخيلا _ من امامها و هى من ورائه حتى اختبئ خلف خديجه _ اليزابيث _ التى خرجت من توها من سرداب البيت بيدها بعض ثمرات البطاطس و وقفت امام حكمت _ جوليانا _ و رضعتها عن موقفها قائله فى هدوء : اخيكى الصغير لم يقصد ذلك.

ثم التفتت الى طارق قائله : هيا يا اخيلا اعتذر من اختك الكبيره .

و تخبره ان يعتذر! و اكثر ما يكره ان يعتذر و هو ذو الشان و الكبرياء لا يعتذر . و ما ان وقف امام حكمت مطاطا الراس احمر العينين من الغضب و قد ابتسمت حكمت فى نصر و سرور و ها هو الان على شفا حفرة من الاعتذار لكن انقلب النصر الى هزيمه و السرور الى ضيق عندما جاء اصدقاء اخيلا يطرقون الباب و ينادون على اسمه و يهتفون بانه قد تاخر على الكنيسه و ستبدا الدروس من غيرهم .

نظر طارق الى حكمت فى شماته ثم فر الى غرفته يبدل ملابسه و يحضر قراطيسه و اقلامه و صليبه ومن خلفه خديجه التى اسود وجهها و هبطت بعض الدموع من عينيها من دون ارادتها مثل كل مره يذهب فيها الى الكنيسه من دون المسجد و قد حذرتها حكمت من هذا الامر من دون فائده حتى لا يشك الصغير فى امرهم و لكن لا حياة لمن تُنادى و بالفعل هذا ما يحدث كل مره و ياتى طارق و يسالها " لماذا تبكى امى دائمًا و انا ذاهب الى الكنيسه؟ " و يكون الجواب الاحمق و الحجه غير المقنعه "هى فقط تشتاق اليك" فى البدايه كان يقتنع و لكن عندما كبر بعض الشيء باتت تلك الحجج غير مقنعه و دائمًا ما يساوره الشك فى هذا البكاء غير المبرر.

امالت حكمت راسها و نظرت الى خديجه بنظره ذات مغزى معناها اسكتى امى ثم التقطت ايشارب صغير لفتها حول شعرها و كانت تلك من عادات النساء الاوروبيات فى القرون الوسطى قبل ثورة سجمن فرويد الجنسية بعد مئة عام .

فتحت الباب و قد وجدت لفيفًا من اصدقاء اخيلا و قد صاحوا فى نفس واحد ما ان راو حكمت قائلين : مرحبًا انسه جوليانا كيف حالك ؟ ثم صاح فتى صغير يُدعى هكتور قائلاً بلهفه : اشتم رائحة الحلوى انسه جوليانا هل لى بقطعه .

ابتسمت حكمت و رحبت بهم و ادخلتهم الى البيت قائله فى ود : بالطبع سيد هكتور و الجميع سياكل منها .

صفق الاطفال بحماس و القوا التحيه على خديجه التى بدورها ابتسمت و بادلتهم التحيه و قد خرج طارق حتى صاح فيه احد اصدقائه و يُدعى مارك قائلاً : يا رجل هيا سنتاخر .

ارتدى اخيلا حقيبته و اخذ قطعه من طبق الحلوى الذى فرقت منه حكمت عليهم ثم رحل معهم خارج البيت و هى تتابعه بالتلويح و الادعيه بالعوده سالمًا ثم اغلقت الباب.

و ما ان اغلقت الباب حتى انفجرت خديجه فى بكاء مرير و اجهشت بقوة و هى تخفى وجهها بين كفيها و قد رق قلب حكمت و تمزقت نياطه و هى تشعر بمثل تلك النار و الحُرقه التى تنهش فى قلبها و هم مكبلون الايدى مكممون الافواه مغمضون الاعين مسلوبة حريتهم محرومه حقيقتهم من الظهور و العلانيه محرومون من العيش مثل اى شخص فى العالم يمارس شعائره الدينيه بكل حريه و يعيش حر من دون قيود حتى و لو كانت من ذهب .

جلست حكمت على رُكبتيها امامها و امسكت كفيها و ابعدتهم عن وجهها و نظرت الى عينيها قائله فى هدوء و عقلانيه : امى بحق الله ... لا تبكى انا اشعر باضعاف ما تشعرين به لكن البكاء لن يفيد لن يغير من الامر الواقع شيءً .

مسحت خديجه عينيها الحمراوتين قائله بقهر : و كيف لا ابكى ابنى و ليس ملكى حتى يتم العاشره و حتى و ان تم هل سيقبل بما سيسمعه من حقيقه ... انظرى لحالنا ... نخفى المصحف فى جُدران البيت ... نصلى فى سرداب المنزل و فى الخفاء ... لا يمكننا الوضوء الا مره واحده حتى لا نسرف فى استعمال الماء ... لا نصوم رمضان بحريه و انما خلسه ... لا نحتفل بالعيد ... لا نرتدى حجاب كامل ... لا نقف تجاه القبله ... و انتى لا يمكنك اخبار احد بآنكي تُجيدين الكتابه و القرائه الا و اتُهمتى بالهرطقة و فى جميع الاحوال نحن ميتون ... اخبرينى كيف لا ابكى .

لثمت حكمت يديها قائله و قد تحجرت الدموع فى عينيها : حسبك يا امى ... و الله ان الله محدث فرجًا ... ان الله لن يضيعًا لست انا من ساخبرك بذلك !!... ... لا تبكى ارجوكى ... و لا نفعل الشيء الوحدي المسموح به ... نذهب لشراء الخيط و للعمل .

و فى احد الكنائس بالعاصمه مدريد دخل الدوق حنا و اخيه الاكبر بلايو الى الكنيسة للحاق بالصلاة قبل ان تبدا و كان الامر طبيعي بالنسبة ل "بلايو" اما حنا فليست من عاداته التردد على الكنيسة فيكفيه انه جندي من جنود الكنيسة و من رؤساء الشرطي و احد اهم اعمدة حفظ السلام فى مدريد و قد على شانه بالأخص بعد جهوده فى صد الجنود الفرنسيين و تخفيف سطوتهم عن مدريد. و لكن هذا ليس مهم الان المهم الان هو ان جوليانا قادمه اليوم الى الكنيسة و لا احد يعلم كيف يخفق قلبه عندما فقط يشم انفع عطرها غير الفواح و لكن فى انفه رادار يلتقطه و لو على بعد الف الف فرسخ ، و ما بلكم ان التقطت عينيه صورة فتوغرافية لوجهها الفريد من نوعه وجهها الخمري المشرب بحمرة الخجل الدائمة و عينيها الواسعة تلك و بالرغم من بساطة ملابسه التى تنتمى لطبقه الفلاحين الا انها اجمل فلاحة فى عينيه .

و قد تعرف عليها منذ قرابة العام عندما كانت فى قصره و كانت والدته تشترى منها بعض الثياب و المفروشات للأرضية و منذ تلك اللحظه لم و لن تخرج من راسه ابدًا _بالمناسبه هذه ليست المره الاولى التى تعرف فيها على حكمت خمنو انتم لان الحقيقة الى الآن غير كامله _و كلما سنحت له الفرصه راقبها من دون ان تراه او ذهب الى الكنيسة بحجة الصلاه و هو بالاصل يذهب لاختلاس بعد النظرات اليها

و ها هو الان دخل الكنيسة و عليه ردائه الاحمر من الفرو الفاخر و سيفه المزين غمده بالجواهر و الذهب و رائحه عطره الفواح و من خلفه بلايو الذى فاق حنا فى زيه و مشيته و خيلاء اخيه، و كيف لا و بلايو لا يرقى لان يلبس شئ اقل من من هم حوله حتى لو كان اخيه هو وحده يجب ان يكون اعلى من الجميع.

و اول ما نظر اليه حنا هو جوليانا التى ما ان التقت اعينهم حتى اخفضت راسها فى خجل و قد ارتفع شاربه و لحيته ليدل على انه ابتسم من دون اراده و لم تغادر زرقاوتيه جلستها حتى بعد ان بداءة الصلوات لا يزال يراها و لحظه العسر امحته خديجه التى نظرت له بنظره ناريه و بدلت جلستها بعيداً مع حكمت حتى تُخفيها عن عينيه و ها هى الان تحرمه من متعته فى الدنيا و تقف حائل بينهم و لكن لا يعلم هذا الحنا ان هناك حائل اكبر و اعظم من مجرد خديجه !

و يا ليت اعين خديجه فقط من كانت تراقبهم بل هناك زوجين من الاعين الغائرة بين عظام و ثنايا جلد الوجه لأمره تُدعى كاترينا تعمل بالخياطه و الحياكة هى الاخرى و لكن اقل شهره و مهاره من خديجه و قد كانت تكن لها العداء و الغيره هى و ابنائها و تنتظر اللحظه المناسبه التى ستنهى فيها مملكتها الصغيرها و تكسر انفها الشامخ و تنزع محبتها من بين قلوب العامه سواها !!

انتهت الصلوات و انتهت معها نظرات المُختلس حنا و قد ذهبت حكمت و خديجه الى احد دكاكين بيع الخيوط و مستلزمات الحياكة و التطريز و من خلفهم اخيلا و بعض اصدقائه الذين يسكنون بجانبه و قرروا اللعب معه فى الطريق حتى الوصول الى منزلهم و من خلف كل هؤلاء حنا و قد تخلف عنه بلايو و جلس فى الكنيسه قليلاً .

وقفت خديجه تنتقى الوان الخيوط و تفاصل فى اسعارها مع البائع و من خلفها حكمت قد وقفت على عتبة الباب و وضعت يديها فقى جيب فستانها الاسبانى الابيض ذو الكشكشه من عند الصدر و واسع من الاسفل و خلط ما بين اللون الاحمر و الزرق و اخذت فى العبث بحصى الارض بطرف حذائها و من خلفها اخيلا و زملائه و الان انضم اليها حنا الذى وقف امامها و من دون اراده نظرت له بعينيها التى لمعت مع ضوء الشمس الذى و بللت شفتيها قائله فى توتور بعض الشئ : خير دوق حنا ؟

اه من حنا تلك التى تعتبر اطرب و اشجى ما سمعه و كان اسمه صار عسلاً صافيًا يأكله بأذنه وقلبه .
حك حنا لحينه الكثيفة تلك بيده اليمنى قائلاً : اسف على ازعاجك لكن امى قد اخذت منكم قبل عام سجاده و كنزه شتويه و انتى ترين الجو متقلب و قد اقبل الشتاء فتحتاج الى بعض الملابس و أخبرتني ان اخبركم بها ... و عرس ايفا على الأبواب فتحتاج إلى تفصيل الفستان و بعض الأغراض.

حاولت ان لا تظهر الشك فى أفعاله و قد كانت تلك اسخف حجه سمعتها حتى يراها إلى الآن و انه بقدرة و منزلته و عظمته يعطها ورقه كان من الممكن ان تخبرها بها اى خادمه من القصر لكن هزت راسها بنعم قائله فى هدوء : انا تحت امر السنيورة مارلين ماذا تحتاج؟

اشار لها بأصبعه بمعنى لحظة ثم عبث فى جيب ردائه ثم اخرج ورقه صغيره قائلاً و هو يمد يده بها : قد كتبت ما تحتاك هنا دعى اخيلا يقراها و اذا سمحتى ستمر عليكم العربه بعد اسبوع و تقلكم الى منزلنا .

التقطت الورقه من بين اصابعه قائله و قد احمرت حتى اذنيها : لا داعى لهذا يمكننا المجيئ من دون عربه .

امسك يدها متعمدًا قائلاً فى اصرار : ارجوكى انا مصر و كما تعلمين البيت فى اقاصى المدينه.

ثم سحبت يدها بسرعه و قد ازداد خجلها بشده و هزت راسها بنعم و لم تلقى حتى التحية عليه بل فرت الى داخل الدكان هاربه من نظراته الى امها التى اخذت فى محاسبة التاجر و ما ان رائت ابنتها و نظرت الى حنا حتى فهمت انه وراء حالة الخجل تلك . و

بمنتهى التبجح حياها ثم اتجه الى عربته التى تجرها الخيول . و من داخل خديجه كانت تتوعد الى هذا حنا بالوف تهديد و وعيد لانه تجرا و اقترب من صغيرتها و لكن ما تعلمه المسكينه ان لا يوجد ايًا من تهديداتها تلك ستتحقق على ارض الواقع .

حول مائده صغيره فى المساء جلست الأسرة الصغيرة حول المائدة و قد شرعت فى تناول الطعام بعد يوم حافل ملئ بالأعمال الكثيرة و قد جمعت حكمت كم ليس بالقليل من الاعمال التى ستسلمها خلال الاسبوع المقبل و كان اشد ما يُقلقها هو الذهاب الى عرين الاسد و جحر الافعى و هو بيت الدوق حنا ابن احد اكبر رؤساء محاكم التفتيش سابقًا و هى التى تخفى ما يودى بحياتها و حياة من تحب ستذهب اليهم خلال الاسبوع المقبل و عقلها يصور افكار بشعه للغاية . مذا ان انكشف امرهم ؟! ماذا ان اعترفت امها ؟! ماذا سيحل بطارق و بهم ؟ ماذا سيكون الحكم عليهم ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ و لكن بمقص من فولاذ قطع اخيلا افكارها و سكب عليها دلو من ماء بارد عندما تسال بخبث قائلاً و عينيه تلمع بالمكر : جوليانا هل ستتزوجين من الدوق حنا ؟

شهقت بفزع و اخذت فى السُعال بشده و قد انحشر الطعام فى حلقها واضف على هذا شعورها بالخجل و الغضب يلم بها من كل جانب و قد اشفقت عليها خديجه و اخذت فى اعطائها الماء و الضرب بخفه على ظهرها و التفتت الى طارق قائله فى غضب و قد احمر وجهها لاذنها : اخيلا تادب هل جُننت مالنا و مال حنا هذا ... اقسم ان تحدثت فى هذا الامر سأضربك و ستكون تلك اول مره اضربك فيها .

ضرب طارق على الطاولة فى ضيق و وقف قائلاً :و ماذا قُلت انه .... !!!!!

لم يكن اخيلا فقط من صرخ بل الجميع صرخ من صوت اطلاق النار من البنادق العسكرية و قد كانت البنادق ان ذاك من احدث الأسلحة في هذا الزمان و الاوان .

و قد هبت كلاً من خديجه و حكمت فى اطفاء الشموع و شد الستائر على النوافذ و دخلات خديجه و دخل طارق معها الى السرداب اما جوليانا اخذت فى استراق النظر من خلف الستار و قد كان كما توقعت اشتباك بين الجنود الفرنسيين و الاسبانيين اودى بسقوط قتليين من الطرفين و حدوث كر و فر فى الشارع من قبل المدنين .

زفرت حكمت فى ضيق و جلست على الطاوله مره اخرى ثم تسللت يدها الى ورقه السقتها بقوه فى الطاوله من اسفل و سحبتها فى هدوء و قد كانتنتيجعه لحساب ايام السنه و ما تبقى حتى ينفذوا من هذا الجحيم سوى ثلاثمة و عشره ايام و يذهب هذا الكبوس و لكن يا حكمت هل حقاً ستهربين و تنجين من هذا الجحيم المستعر ؟!!!

ثم اخفت الورقه سريعًا فى داخل ملابسها عندما دُق باب البيت من قبل مجهول من ما جعل من وجهها شاحب بشده و قد بردت اطرافها و ارتعشت و تفصد جبينها عرقًا و خرج من السرداب كلاً من خديجه و طارق على اثر تلك الطرقات و حالهم لا يقل رعبًا عنها. فضلت الصمت حتى يمل الطارق و لكن لا فائدة.

وقفت و اقتربت من الباب بخطوات مضربه و دنت باذنها من الباب حتى تسمع صوت الطارق و اخيراً زفرة انفاسه براحه و هدات بعض الشيء عندما افصح الطارق عن هويته قائلاً: سيده اليزبيث هذا انا العم جورج و معى زوجتى الينور و جورجيوس .

همست باسمه من بين شفتيها المرتعشه بامل كالذى تمسك بدرع من حديد و فولاذ يحميه من ضربات السيوف و وابل الالم. و لما لا تامل الخير و جورج هو شيخهم محمد و زوجته فاطمه و ابنه اسلم ذى الخمسة عشر عامًا هم اولياء امورهم و من يشرف على عباداتهم و هروبهم و تنظيم شؤونهم فى هذه البلاد الموحشه .

دارت شعرها بالوشاح الاسود ثم فتحت الباب و ادخلتهم سريعًا قائله بقلق: عم جورج خاله الينور هل انتم بخير؟

هز جورج راسه الاشيب بنعم و خلع نعليه و من خلفه زوجته التى تحدثت بهدوء قائله: بخير ابنتى الحمد لله نحن كنا عائدون الى البيت لكن استوقفنا هذا الطلق النارى ... فاوجسنا خيفة عليكم . هل انتم بخير ؟!

هزت راسها بنعم وادخلتهم غرفة المعيشه و من خلفها اخيلا و اليزبيث التى جلست على الكرسى المقابل للاريكه و قد رحبت بهم ثم اشارت الى حكمت و اخيلا و من بعدهم " جورجيوس" او اسلم ابن العم جورج قائله : اذهبا مع جوليانا و احضروا بعض الكعك و الشاى هيا انطلقوا .

فهمت حكمت ان خديجه تريد التحدث مع جورج على انفراد و مع زوجته ثم اتجهت الى المطبخ مع اسلم و طارق و قد شرع طارق فى اللعب مع الم بالسيوف الخشبيه و قد ارتدوا قبعات من الورق و اخذوا فى التصارع و من خلفهم حكمت التى كانت تنظر الى براد الشاى الذى بدا فى الغليان بشرود تام و لم يلتفى جفنيها لثوانى و هى تعود بذاكرتها الى الوراء لعام مضى و تتذكر تلك الليله التى احدثت ضجه فى حياتها هى بغنى عنها و قد كان السبب.....

بالطبع لن اروى فضولكم و شغفكم بمعرفة ماذا حدث منذ عام ليس الان ان كنتم تريدون المعرفه فانتظروا قليلًا يا فضولين فى الفصل القادم ...دمتم فى امان الله.

الفصل الثاني

قبل ستة اشهر من الان فى العام 1820 و فى صباح احد ايام الشتاء القارص فى الفردوس المفقودة عادت الاسرة الصغيرة من احد اسواق مدريد المزدحمة بالإسبان و لفيف من الجنود الفرنسين بعد ان اشترى كلاً منهم ما يحتاجه و يحتاج البيت و قد كانت حكمت تلاعب طارق آن ذاك و هو يحمل بعض الحقائب و حكمت بيدها سله من القش متوسطة الحجم وضعت بها بعض الاعشاب و العطارة الخاصة بالوصفات الطبية التى تصنعها و تقتات على ما تدر عليها و على اسرتها من اموال . و الى جانبهم خديجه التى ضيقت جفونها فى تشكيك بصحة بصرها حول هوية الواقفان امام باب بيتها ، و لكن لا بصرها سليم بعد ان صاح طارق و هو يشير الى باب البيت قائلاً بحماس : امى هذا اثانيوس .

هزت راسها بنعم و قد دُهشت بشدة و اخذت فى تبادل الانظار مع حكمت فى دهشه و حيرة من الامر و تلك اول مره ياتى فيها ابن اخيها اثانيوس -" عثمان" -الى بيتها من اقصى الجنوب غرناطة الى قلب اسبانيه مدريد مع العلم ان اثانيوس ليس بالغلام او الصبى بل شاب فى الثلاثون من عمره و لديه ثلاثة اطفال لكن الطريق بعيدة و وعره فى ظروف الحرب تلك . و قد فضلت خديجه الاخذ به الى داخل البيت افضل و هى تشعر ان الجميع يحملق فى هذا الغريب عليهم و قد دخلوا جميعًا و افرغوا ما بيدهم و هى نظره و احده فى عيونهم الدهشة و الريبة !

و لكن اثانيوس ليس على ما يرام قد يكون اجهاد السفر و لكن وجهه مسود و تظهر عليه اثار العصبية نتيجة ضيق ما فى صدره . و على العكس تمامًا من شخصيته المرحة المعتادة فقد اقبل على عمته و صافحها بهدوء و كذلك حكمت و طارق . و ما ان فرغ حتى نظرت له اليزبيث فى شك قائله : ما الامر هل الجميع بخير هل ابوك بخير لا تثر ريبتي.

طأطأ اثانيوس راسه و هزها بنفى قائلاً باسى : لا عمتى ... ابى بخير ... لكن جدى فى السماء .

لطمت خديجه _اليزبيث _ صدرها بعنف و صرخت بقوة قائله فى نواح عالٍ مقهور : ابى ...ابى مات ... منذ متى ... و كيف .

ثم جلست على اقرب كرسي و اخذت فى البكاء بقهر و حرقه و هى على كلمة و احده : ابى ... لقد كنت اريد رايته ... لما لم ينتظر ... لما رحل و تركني ... ابى؟!

و قد نظر اثانيوس لها بشفقه و لحكمت _جوليانا _ و طارق _ اخيلا_ فى خجل من هذا الجو السلبى الذى نشرة فى البيت و لكن الموت حقًا مكروة و لا بد منه حتى و لو طال الزمن سيأتي سيأتي لا محال .

جلست حكمت على ركبتيها و اخذت راس خديجه الى صدرها و اخذت فى ترويح عنها و كفكفت دموعها و ربطت على ظهرها فى مواساه هادئه حتى لا تمرض من الانفعال و الحزن و قد اقبل عثمان و بيده كوب من عصير الليمون و به عشبة العُصفر ليزيل عنها التوتر و الهلع و من خلفهم طارق الذى اغلق النوافذ و شد الستائر بأمر من حكمت حتى لا ياتى احد الجيران اليهم و هى فى تلك الحالة لبائسه . و بشق الانفس و صعوبة بالغه قبلت ان ترتشف العصير و على مدار اكثر من ساعة و هى تشعر بان كل رشفه كالعلقم المرير فى حلقها و ما ان انتهت حتى تحدثت حكمت بهدوء قائله و هى تمسك بكفيها و ما تزال على ركبتيها امامها و على شفتيها ابتسامه مشجعه : امى امر من الرب و نفذ ليس بيدنا شئ الان أهدأي و اسمعى ما يريد اثانيوس قوله .

ثم اتجهت الى كرسى بجوارها و قد هزت خديجه راسها التى يعصف بها الدوار بصعوبه و رفعت عينيها ذات الجفان المتثاقله و نظرت الى اثانيوس الذى تحدث بهدوء قائلاً : ليلة امس غادر جدى الى السماء و لم يدفن بعد... برغبه منه ان يدفن فى وجودك و وجود ابى و عمى الفريد ... و ما ان تنتهى مراسم الجنازه ... جدى وكل لابى امر تقسيم اراضيه و ميراثه بعد وفاته بأسبوع فوجودك مهم فى غرناطه الامر لن ياخذ سوى اسبوعين على الاقل ... و ستاتين معى و قد اجرت لكى ركوبًا تنتظر فى اى وقت .

قلبت الامر فى راسها و لكنها لا تأمن على ترك طارق الصغير وحده مع حكمت اسبوعين و فى نفس الوقت اعملها تحتاج الى ان تُسلم فى معادها و ظروف الحرب تلك تجعلها لا تأمن على سفر حكمت فى هذه الاجواء و لكن ماذا تفعل الان و كل الامور تتعقد و تتشابك ؟ مسحت علة جبهتها براحة يدها قائله فى تعب : انا امن ابيك و الفريد الا يمكننى قضاء العزاء و العودة لمدريد لا يمكنني ترك اخيلا هنا وحده و لا يمكنني استحطاب حكمت و الجنود تملا حدود المدن . و هناك بعد الاعمال التى ستُسلم غدًا... اتفهمنى ؟

هز اثانيوس راسه بنعم و استطرد قائلاً : الحق كله معكى لكن هذه وصية جدى و لن تنفذ من دونك الامر متوقف كله عليكى .

زفرت خديجه فى ضيق و اغمضت عينيها بإرهاق و اخذت حكمت تلاعب اصابعها فى توتر و هى تحاول ايجاد حل و لكن عجزت عن التفكير فى حل مرضى لجميع الاطراف و قد اثقلت وجنتها اليمنى عللا راحت يدها اليمنى فى ياس من ايجاد حل . و لكن خرج شعاع نور و امل من اصغرهم عندما تحدث طارق بحماس قائلاً : اذهب مع امى و اثانيوس و جوليانا تظل فى المنزل و تعمل .

ابتسم اثانيوس و صفق بحماس قائلاً : لما لم نفكر فى ذلك ... نذهب الى غرناطه و حكمت تظل هنا تسلم الاعمال عنكى و تبقى فى مأمن هنا و ان احتاجت شئ بيت عمها لا يبعد كثيرًا عنها و الجيران هنا كلهم يعرفونكم و لن تكون ازمه ما رايكم .

امالت حكمت راسها و نظرت الى خديجه قائله : ليس لدى اى مشكله فى هذا ... ما رايك يا امي.

الان امك ليس لديها حل اخر و لا مجال للرفض ستوافق بالتأكيد و هى ترى تلك النظره المتأملة و الراجية من الجميع تحثها على الموافقه مرغمه و هزت راسها على مضد قائله : فقط اسبوعين لا اكثر .

زفر الجميع براحه و هدوء و امسك عثمان براس طارق تحت ابطه و بدا باللعب فى شعره قائلاً بمرح : انقذتنا يا عبقري .

عند شروق الشمس الذهبيه على سماء شبه الجزيرة الايبيريا استيقظت ذات الشخصيه المزدوجه فى وقتها كالعادة و اخذت فى حك شعرها الكثيف بنعاس غالب و هى تنظر حولها الى الغرفه و النافذة بنعاس و ما كادت تنظر حتى هرب النعاس و افاقت و توسعت حدقتيها و هى تتذكر كم الاعمال التى يجب ان تقوم بها اليوم نيابة عن امها و قد هبت من سريرها على عجله من امرها و قد خرجت ترتب الاعمال كما اخبرتها امها و فهمتها و بدات فى اعداد البيت لاستقبال الضيوف و المشترين و خذت فى تغير ماء الغنم و وضع الطعام و من ثم العمل على تلك الوصفات الطبيه المطلوبه منها و من ثم اذ فجاةًا بدا الوافدون بالقدوم و لم ينفك احد يستلم اغراضه حتى يسال عن خديجه تحكى نفس القصه لقرابة عشرة نساء و تجاوب على اسئلتهم المتشابهه و تقبل العزاء و الدعاء للمتوفى بالراحه و المغفرة و الرحمه و لها بالزوج الصالح و تضايف الجميع و من تريد تعديل على ملابسها تحفظ تلك التعديلات و منهم من لم تحضر و عليها استقبالهن فى اليوم التالى فى نهايه اليوم عند غروب الشمس تذكرت انها لم تعد لنفسها طعام و قد تهاوت على الكرسى تنظر الى هذا الفراغ من حولها و كادت ان تبكى لا تعلم هل بسبب لتعب ام انها اشتاقت الى امها و اخيها ام لانها قدرت مدى تعب امها و اثرها على حياتها ام لان هذا اليوم المُتعب سيتكرر غدًا بحق لا تعلم و كل ما قالته بعد ان استردت وعيها من تلك الدوامه " اريد امى ".

آهاً على مدريد و مجدها الفاني و قد كانت "مجريط " كما سماها مسلمو الاندلس و العرب و هى مجرى الماء او مجرى الجليد اذا نظرت اليها ترى مجد امة ذهب و تناثر كتناثر الرماد فى ريحًا يوم لم تقم فيه صلاة الفجر فى بلاد الاندلس ... يومًا يتباكى عليه الشعراء و الفنانون و المسلمون فى كل يوم و من كل حدبًا و صوبًا فهاهوا احمد شوقي ينعى الفردوس المفقود قائلاً: يا ارض اندلس الخضراء حينا اضعناكى فى زمن شقاوتنا .

و لسان الدين ابن الخطيب العلامة و الفقيه ينعى فقدانه لاندلسه و يناجى ربه السميع بكل المًا و حرقه قائلاً : فاعيدوا عهد انسًا قد مضى تعتقوا عبدكم من كربه .

و كيف لا و هناك اعينًا تسير فى الليل ترقب كل شئ فى المدين على فرسًا تتفتل فى احياء الجميله مدريد و ها هى مرت من جانب كاتدرائية المُدينه و قد كان مسجد المُدينه ، و حديقة الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط بانى مجريط و لو انهم أخذوني على فرسًا معهم لكحلت عيني بنظرة الى جمال بلاد ايبيريا !

و قد كسر على تلك اللحظة من الشجن التى اصابتنى و اصابت جدران المدينه الفاقدة لمجدها الغابر صوت همس فى هدوء " الزى العسكري لائق بك يا حنا ... اصبحت دوق بحق يا حافظ الامن ... لا ينقصك سوى العروس كما تقول امى " تفوه بتلك الكلمات بلايو اخو حنا الاكبر و قد كانا فى نزهه على خيولهم يتجولون فى احياء مدريد المتطرفه و البعيده عن الاعين بعض الشئ و من خلفهم حارس واحد للحمايه فقد كان هذا ترحيب صغير بحنا الذى عاد من الشمال بعد ان قضى على العصيان و استتب الامن على يديه هناك و نال مرتبه عاليه من الملك و الدوله و الكنيسه ايضًا و لله الحق قد استحق هذا بجداره لما يقدمه من اعمال باسله . لكن هذا الباسل مرهق بحق و يقلقه توغل الفرنس فى مدريد و فرد سطوتهم عليها .

ابتسم حنا فى هدوء قائلاً : شكرًا ... كم اتمنى ان اراك فى صفوف الجنود معنا ... و مع عروسك قبلى .

امال بلايو راسه و رفع يده باستسلام قائلاً : انا رجل سياسه لا حرب يكفينى هذا لا طاقة لى بالحرب ... الحرب خدعة سيئة للغايه ... و يكفينى ما اناله من الزواج و همه ما احمل و اطيق .

ضحك حنا فى سخريه و وكزه بخيله قائلاً : لو سمعك احد الجنود او بابا الكنيسه سنرى راسك يحلق غدًا فى سماء مدريد .

نظر له بلايو شرزًا قائلاً فى مرح خشن : راسك قبل راسى يا وغد ... هيا ارينى قوة خيلك .

ثم فر من امام حنا هاربًا بخيله و منخلفه حنا الذى يلاحقه بسرعه و تارة يسبقه بلايو و تاره هو و ضحكاتهم تتعالى بمرح و صخب و سعادة حتى وصلا الى نقطة ما و قد كان الفائز بلايو و قد ضاق منه حنا الذى صاح فى حنق : انت تغش ... لقد كنت اسبقك بكثير .

ابتسم بلايو فى غلظة و كبر و شماته ثم نظر اليه بفخر قائلاً : انها السياسة ... تركت لك وقتًا حتى يتعب فرسك و يُنهك و ما ان تعرق و تعب حتى صب فرسى كل قوته يا رجل الحرب .

وضع حنا يده على صدرة قائلاً بفخر : اذًا قصر الجواد لا الفارس .

فى مساء احد الايام فى مريد و قد اشتد الليل و ثقلت الجفان بالنعاس و بات الجميع فى هدوء و امتلأت السرائر باهلها بمن شق عليهم عمل النهار و جد الظهيره و برد الليل الا جفنى حكمت فقد كانا على وسعهم و لم يغمرهم النوم للحظه و هى فى سرداب البيت تؤدى صلوات اليوم مجمعه خشيه من ان يراها احد و تلقى حدفها . و ما ان انتهت حتى نظرت الى اعلى و كانها فى عالم اخر فسيح و ترفع يديها الى السماء تناجى الله بالخلاص و الحريه التى تتمناها و تحلم فقط بها و بان يعجل الله بفرجه عليها و على اسرتها و ان ياتى اليوم الذين سيهربون فيه من بين فكى محاكم التفتيش و اغلال الخوف و اصفاد المكر المحيط بهم من كل مكان .

مسحت دموعها ما ان فرغت من دعائها و عدلت حجابه بحيث يشابه غطاء الشعر المشابه لنساء اسبانيا و خرجت من السرداب وهى متوجهه الى مضجعها حتى استوقفها طرق على الباب الخلفى المواجه للحظيره الصغيرة و قد كان طرق بشع لا يُصف من شدته و بالتاكيد لا نحتاج لاستنتاج قد دب الرعب فى اوصالها و مازاد الطين بله ان الطارق اخذ فى استعطافها قائلاً بهلع : ارجوكم معى مصاب سيموت افتحوا الباب .

لطمت حكمت على وجنتيها و اخذت تدور حول نفسها فى توتر و الطرق يشتد و كان الذى يطرق مُتيقن من ان احدًا ما فى البيت و ما جعلها تحسم امرها الصراخ الذى بدا فى التعالى عندما صاح الطارق بهلع قائلاً : ارجوكم اخى سيموت ارجوكم انقذوه و لكم ما تريدون فقط انقذوه .

زفرت بهدوء و قوة ثم حزمت امرها و فتحت الباب و ياليتها لم تفتحه ، اذا برجلين احدهم فى العقد الثالث من عمره و هو المصاب و الاخر فى العقد الرابع من عمره و قد بدا الشيب يخط راسه و كانا يحملان فوق رؤسهما شعر كثيف بنى اللون و لحيه مثلها و المصاب يبدوا اصغر سنًا من حامله و قد كان الاول يرتدى زي عسكرى و من رتبه عاليه و الاخر يرتدى ملابس فخمه من ملابس النبلاء و لكن ملوثه بالدماء و كذلك وجوههم مخبضه بالدماء و الكدمات البنفسجية و بالتاكيد كانا فى حرب و ما تراه الان اقل الخسائر و فى خصر الحامل سيف فى غمدة مرصع باحجار كريمه .

افسحت الطريق و قد ساعدته على حمل المصاب الى اقرب غرفه و هى غرفة اخيلا و مددوه على السرير و هرولت تحضر شموع تملا بها الغرفه المظلمه حتى ترى الجرح و قد بدات فى تحسس الجرح الواقع فى بطنه و لم يكن عميقًا لكنه فقد الكثير من الدماء و كان غائبًا عن الوعى .

التفتت الى هذا الواقف قائله فى هلع : من انتم و ماذا حدث ؟ انا لا اريد اى مشاكل .

امسك بيدها باستعطاف قائلاً برجاء : ارجوكى انقذيه و ساخبرك بكل شئ فقط انقذى اخى .

سحبت يدها من يده و هرولت الى المطبخ تسخن قدر من الماء و عقمت سكين فى الماء الساخن واخذت القهوه الجافه المطحونه و ذهبت الى غرفتها تحضر قطن نظيف ثم عادت الى الغرفه و اذاحت من طريقه هذا الرجل الذى يجلس على ركبته امام المصاب قائله فى نفاذ صبر : ابتعد هيا ... و احضر الماء الساخن و وابور النار والسكين بسرعه هيا .

امتثل الى امرها بالفعل و هرول يحضر ما امرت به و قد كانت توقف النزيف بالبن الجاف و تمسح الدماء حتى يتبين حجم الجرح و هو يقف بتوتر فى الزاويه يكاد يبكى مثل الاطفال خوفًا على اخيه و هو يتابعها و الوقت ينقضى حتى قامت بكى الجرح بالنار حتى التحم جرحه اخيرًا و اخذت فى لفلفة الجرح وتضميده و ما ان انتهت حتى زفرت بهدوء ثم باشرت العمل على ندبات و جروح وجهه حتى داوتها ثم همت بالخروج من الغرفه الصغيره بارجل مرتعشه متثاقله و قد تلوثت ثيابها بالدماء و جلست على اقرب كرسى بتثاقل و ارهاق وهى لاول مره توضع فى مثل تلك التجربه التى اثبتت فيها انها ذات جسارة هى لم تتخيلها ، و لكن الوقت ليس للفخر او الجساره بل وقت الاستفسار و الفهم .

رفعت راسها و نظرت الى هذا الرجل الذى جلس على اقرب كرسى هو الاخر و قد سالته فى حزم و سائم : من انتم ؟

مسح الرجل وجهه بكفه فى محاوله باسة للصمود و الهدوء قائلاً : نحن من... من جنود الكنيسه !

الفصل الثالث

[١٠/٧ ١١:٠٧ ص] salma shazly: رمشت حكمت باهدابها الكثيفه عدت مرات و قد شعرت ببروده تسرى فى قدميها و قد هربت الدماء من عروقها و لوهله شعرت انها اصيبت بداء السكرى بسبب هذا الجفاف فى حلقها و كانها لم تشرب الماء منذ عام و حالة الدوار التى عصفت براسها بشده و لا اريد ان اخبركم كم هى شخصيه متوتره اذا سقطت فى اى ماذق انتهى الامر بالنسبه لها و كأنها نهاية العالم . لكن الان لا يجب ان تثير الشكوك او تلفت نظر هذا الجندى حولها يجب ان تتصرف بهدوء و ثبات كما اخبرتها امها منذ ان كانت فى العاشرة الحذر الحذر و الثبات الثبات .

بللت شفتيها البيضاء تلك قائله فى صوت جاهدت حتى يخرج منها : اكمل من فضلك .

مسح هذا الرجل جبهته ابرهاق قائلاً : انا بلايو احد مستشارين الدوله و اخى حنا صاحب الشرطه فى مدريد ... و ابى كان احد كبار جنود الكنيسه ... منذ قليل كنا نسير فى اطراف المدينه بالقرب من هنا و اشتبكنا مع بعد الفرنسين و طرقنا على باب امراه طاعنه فى السن هى من دلتنا عليكى انكى القابله جوليانا و من ستساعديننا .

ثم تابع بنبرة استعطاف و رجاء قائلا: ارجوكى اهتمى به و لكى ما تريدين و اى مبلغ ... فقط دعيه يتعافى كرامة للعذراء .

هزت راسها نافيه قائله : لا اريد مال ... و لا تقلق عليه سيكون بخير قد يفيق غدًا، و لكن ماذا عن الفرنسين؟ بالتأكيد يبحثون عنكم .

" بالنسبه للفرنسين لا مشكله فكل يوم تحدث مناوشات بيننا و بينهم ...اهم شئ ان لا يعرف احد انه فى بيتك ... و اجعليه بعيدًا عن الانظار " ثم وقف و ارتدى سيفه الذى كان ملقى على الارض قائلاً و قد حزم امرة على المغادرة : انا سأغادر و غدًا سآتي للاطمئنان عليه.

هرولت حكمت ناحيته و اغلقت الباب المطل على الحظيره بسرعه و قفت امامه من ما ادهشه ذلك حتى باشرت بالحديث قائله فى ضيق : انتظر هنا ... لا يمكنك المجيئ الى البيت متى شئت ... نحن فى حى شعبى ماذا سيقول الناس عذباء يتردد الرجال على بيتها؟! و كما ترى اهلى ليسوا هنا .

ضيق عينيه و رفع حاجبه قائلاً و هو يحاول ان يفسر ما ترمى اليه : و ما العمل ؟ اتركه دون الاطمئنان عليه ؟

هزت راسها بالنفى قائله : لم اقصد ذلك ... ابعث بزوجته اختكم امكم اى امراه تامنها على المجيئ الى هنا .

هز راسه بارهاق قائلاً : سانظر فى ذلك ... و داعًا .

و لكنها عاودت الكره و اغلقت الباب مره اخرى و هو يهم بفتحه حتى صاح فى نفاذ صبر و تعب الم بجسده و عقله و اضاق باخلاقه قائلاً و حدقتيه تكاد ان تخرج من عينه : ماذا الان ؟

صاحت هى الاخرى بعناد قائله : كل شيئًا و اغسل و جههك ثم ارحل كما تشاء ... انا لن ارعاك انت الاخر سيدى . ثم اشارت الى اخر الرواق قائله بنفس العناد و غيظ طفيف : المرحاض فى نهاية الرواق .

ثم اتجهت الى المطبخ قائله و هى تبتعد عنه حتى توارت خلف جدران المطبخ: خمس دقائق و ارحل .

و قد دفعته مرغمًا على الابتسام فى هدوء و هو يرى امامه كتله من المشاعر المتناقضة و المتخبطة على ارض الواق صوب عينيه .

خلع سيفه و اتجه الى المرحاض غسل و جهه من اثر العرق و الدماء و الاتربه حتى ظهرت لحيته خاليه من الدماء و لكن ظهرت معها الكدمات الزرقاء و البنفسجيه.

و لكن ما يثير الريبه و يلفت النظر هو وجود صابون و اهتمام غير مسبوق بوجود الماء و نظافة المكان التى لا يعهدها احد الا فى بيوت المسلمين و النبلاء لا بيوت العامه مثل هذا البيت ، و لكن الصلبان و تماثيل مريم المجداليه و السيد المسيح و الشموع تنفى تلك الشكوك تمامًا و قد اتجه الى المحراب الصغير و اشعل شمعه و وضعها اما الصليب و من فوقه صوره لمريم المقدسة تحمل يسوع عليهما السلام و اخذ يرتل الادعيه و ينذر النذور بالتقرب للرب اكثر و فعل الخير حتى يعود له اخيه سليمًا معافه.

ثم عاد بعض الخطوات الى الرواق مره اخره و قد سار الى غرفة اخيه المضاءة بالشموع و قد نسى تمامًا حالة الشك التى ناوشته و اقترب من السرير و جلس القرفصاء على ركبته امامه و قد ترقرقت الدموع فى عينيه و تحجرت و هى ابيه مترفعه عن النزول من عينيه البنيه ثم امسك بكف اخيه و قبله و تامل وجهه النائم الملوث بالكدمات و الجروح و قد تمنى لو كان هو لا اخيه و تمنى لو لم يسبقه بالخيل فنافسه مرة اخرى و يضطر للاشتباك مع الفرنسيون . همس فى الم قائلاً : سامحنى يا اخى ... انا المخطأ ... يا ليتنا سرنا من طريق اخر ... يا ليتنى لم اتسابق معك و لم يرانا احد او يشعر بنا احد ... اسف يا عزيزى ... فقط افق و اقتص منى كما تريد ... فقط افق !

انهى كلامه و هو يزفر بياس و يطبق جفنيه على بعضهم البعض بالم للا مثيل له ليس بسبب ندباته و جروحه بل بسبب ألم ضميره الذى يحمله مسئوليه ما يؤل اليه الامر الان و على الرغم من ان "جوليانا "_حكمت_ قد بدت له ودوده و لطيفه و لا قلق او خوف منها لكن طبيعة الاحياء الشعبيه و اختلاط الجيران ببعضهم البعض قد يعرض اخيه للخطر بالاخص من اعين الجواسيس للفرنسين _ الذين يمقطون جنود الكنيسه بشده بالاخص بعد اصدار نابليون المستولى على البلاد باغلاق تلك المحاكم و معاقبة الجنود و من يخالف هذا الاصدار و الفرمان و لكن اضطراب البلاد و جميع بلدان العالم سواء الديون التى تفاقمت على ال عثمان فى اسطنبول و خروج مصر عن سيطرتها تحت تصرف الاسره العلويه او البلاد الجديده " الولايات المتحده الامريكيه " التى تاندى بالحريه من

الاحتلال الانجليزى و سطوة الفرنسيون و الاسبان او تدهور الاوضاع فى شبه الجزيره الهنديه من ما دفع الجميع للإهمال او لعل موت نابليون هو ما ادى لاهمال هذا الامر لا ندرى _ .

فتح بلايو جفنيه بتثاقل و وضع يد أخاه بجانبه على السرير بحذر و لطف ثم التفتت ينظر الى حكمت التى حاولت تهدئته بلطف و هى ترى مشاعر الحب التى يكنها لاخيه و التى دقعتها لتقديس تلك المشاعر و احترامها فتحدث بهدوء قائله و على ثغرها ابتسامه صغيره : سيد بلايو ... لا تاسوا على نفسك فتيأس ... سيكون بخير بمشيئة الرب ... و انا سأبذل قصارة جهدي فى ان يتعافى و يقف على قدميه لا تقلق .

بلل شفتيه و وقف من جليته و ابتسم فى جهد كبير قائلاً بامل و لطف : شكرًا لكى ... و ليباركك الرب ... انتى لا تعلمين ماذا يعنى حنا بالنسبة لى؟ هو ابنى ليس اخى فقط .

امسكت بمصباح الجاز الذى كانت وضعته على صندوق الملابس و حملته و اشارت الى خارج الغرفه قائله : لا تقلق ... تفضل الطعام جاهز .

سار معها فى خطوات هادئه الى ان وصل الى طاوله صغيره حولها اربعة كراسى مطليه باللون البنى و قد وضعت صينية به بعض ارغفة الخبز و بيض مسلوق و جبن و كوب حليب و قد شرع بلايو فى الاكل بشراهه و نهم و سرعه و قد نظرت له حكمت و ابتسمت فى هدوء و فضلت الجلوس فى مكان اخر حتى لا تُشعره بالاحراج و اخذت فى العبث بطرف ثوبها النظيف الذى بدلته و نقعت الاخر فى ماء مغلى حتى يتنزع منه الدماء بسهوله و قد شردت قليلاً و ابتسمت لا ارادِيًا بسخريه و هى التى حاولت و جاهدت ان لا تختلط باى احد و ان تتجنب ان تثير الشكوك لتجد مستشار و جندى فى بيتها و فى موقف لا تحسد عليه و لكن لعل الله اراد بها خيرًا و هى فى جهالةً عن ذلك !

-

فى صباح اليوم فى الغرفة الصغيرة تململ حنا بضيق و ألم كبير يعصف بخاصرته و راسه لا حد له ايقظه من نومه و شعور قوى بالعطش و قد شعر ان حلقه تشقق من شدة الظما و كانه يسير فى رمضاء الصيف فى صحراء الربع الخالى لا فى نهاية شهر يناير ذو الطقس القارس بالبرودة و فى أوروبا و فى منتصف اسبانيا!

و قد فتح عينيه الزرقاء تلك بصعوبه بالغه و تالم بشدة من ضوء شمس النهار المنبعث من النافذة الزجاجية العارية من الستائر المرفوعه على الماسورة الخاصه بها .

رفع كف يدارى به مقلتيه و لكن استوقفته ذاكرته التى بدأت فى التدفق و الانفجار و هو يتذكر انه بعد ان خسر السباق مع بلايو قرر ان يتسابق مره اخرى و لسوء حظهم استوقفهم كمين من الفرنسيين الذين اعتقدوا من ركدهم هذا انهم ينون على قتال و باشروهم بالقتال حتى اصيب بطعنه فى بطنه و ما لبث ان فقد وعيه و هذا دفعه لكى يدقق نظره فى معالم الغرفه الغريبه تلك المطليه باللون الازرق الزهري و صغيرة الحجم قليلة الاثاث و قد التفت براسه اذ بصندوق ملابس و فتاه حنطية البشرة فى العقد الثانى من عمرها متكومه على كرسى من الخشب ترتدى زى نوم باللون الابيض و تتلحف بغطاء من الصوف الاسود و تربط شعرها بمنديل ابيض .

اوجس خيفه بان يكون بلايو قد اصابه مكروه و ان احدهم انقذه دونه و حاول الاعتدال فى جلسته و الوقوف لكن حال الالم الذى اشتد عليه دون ذلك و تاوه بقوة و ارجع راسه على الوسادة بالم شديد من ما دفع حكمت الى الاستيقاظ من النوم فى قلق و هلع و قد قفظت من على كرسيها تقترب من حنا و تساعده على العودة لوضعه الطبيعى قائله و هى تزفر براحة : الشكر للرب على عودتك سالمًا ... ماذا تريد؟

اشار بالم الى شفتيه و هو يضمها على هيئة كوب قائلاً بنبرة صوت مبحوحة : ماء ارجوكى .

هزت راسها بالايجاب و اسرعت الى المطبخ و عادت بعد دقيقه تحمل كوب من الفخار و دورق من الفخار ايضًا و قد سكبت به الماء ة رفعت راسه بيدها و باليد الاخرى شرعت فى سقيه الماء حتى انتهى من الكوب لكنه اشار باصبعه بمعنى مره اخرى حتى شرب مرة ثانيه و ثالثه حتى ارتوى و ما ان انتهى حتى وضعت عدة وسائد اسفل راسه حتى يتثنى له ان يرفع راسه بحذر و هو

يتحدث معها و قد احدرت الكرسى الذى كانت تنام عليه و جلست بجانب السرير و قد باشرت بسؤاله قائله : هل انت بخير ؟ بماذا تشعر ؟

تحسنت نبرة صوته بعض الشئ قائلاً : الم شديد... اين بلايو ؟ و ماذا حدث ؟ و من انتى ؟

طمئنته قائله بهدوء : السيد بلايو بخير و هو من جاء بك الى هنا كنت فاقدًا للوعى و فقد دماء كثيره لكن الشكر للرب انت الان افضل ... اما انا فانا القابله والعشابة جوليانا ... السيد بلايو اودعك تحت رعايتى حتى تتعافى من مرضك ... و اخبرنى انه سيرسل من يطمئن عليك اليوم .

بلل شفتيه و نظر لها قائلاً بامتنان : شكرًا لكى ... لكن الالم شديد ساعدينى ارجوكى .

هدئته قائله : لا عليك ساعد افطار و كوب من ورق الصفصاف و سيزول الالم .

هز راسه بامتنان و همت بالمغادره لكنى قبل ان ترحل اوقفها قائلاً بارهاق : اين سيفى و ساعتى و ملابسى ؟

اتجهت الى صندوق الملابس و اخرجت منه السيف و الساعه و ملابسه المخبضه بالدماء قائله : ها هم لكن سارسل ملابسك مع من سياتى للاطمئنان عليك ... لا يمكن ابقائها هنا رائحتها نفاذة و لو غُسلت و نُشرت سيعلم الجميع بانك فى بيتى سيدى .

اراح راسه على الوساده بعد ان شكرها و انصرفت و قد حمد ربه و شكره بان كتب له عمر جديد و قد نفذ من الموت بصعوبه و لو به صحه لقبل يد حكمت ليشكرها على هذا المعروف الذى لن ينساه مهما حيا ، و لكن ما يثير قلقه هو والدته ان كان بلايو بخير فبالتاكيد اخبرها و بالتالى قد تصيبها نوبة ربو او اغماء من ما يعرض صحتها لضرر كبير هى فى غنى عنه و لكن كل الامور ستتضح فقط عند وصول هذا الغريب الذى سياتى للاطمئنان عليه .

و من دون ان يشعر سقطت عينيه فى محيط عميق من النوم بسبب الانهاك و لم يشعر بنفسه الا عندما ايقظته حكمت بهدوء و هى تهز كتفه حتى يستيقظ و لم ياخذ فى يدها الكثير من الوقت حتى فتح عينه بسرعه.

و قد اعتذرت منه فى خجل متعلله بان عليه ان ياكل لانه فقد الكثير من الدماء ، ثم وضعت وساده عند سور السرير و احتضنته و هى ترفعه من اسفل ذراعه ليجلس نصف جلسه تمكنه من تناول طعامه ، اما حنا فيال نعمتى و النعيم و بالرغم من المه المشتد الا ان رائحة الياسمين المنبعثه من حكمت قد داعبت انفه و لاعبت عقله من ما جعله ينظر اليها باعين شبه مغلقه يتفرس معالم وجهها و التى لا يعلم لماذا شعر انه راى هذا الوجه المستدير الحنطى المشرب بحمره طفيفه غزت وجنتيها بلا رحمه و تلك العينين البنيه و الانف المستقيم و الثغر الصغير الوردى و لجأوا له بكل مقدس سيقسم انه راى هذا الوجه من قبل من دون تردد لكن اين و متى و كيف لا يتذكر ... هل كان عالم الاحلام ؟ و لكن لا يمكن ان يكون حلم يدفعه الى الشك و التدقيق بتلك الطريقه .

و لكنه اثر ان يبعد انظاره المتفحصه التى لم ترحمها و قد لاحظ ارتباكه من تلك الانظار و قد جاول التركيز فى تناول الطعام و شرب كوب من ورق الصفصاف المغلى و لكنه لم ياكل الكثير بسبب شعورة بالارهاق و عدم القدرة على المواصله و ما ان ترك طعامه حتى نظرت له فى قلق قائله : هل انت بخير لم تاكل كثيرًا.

هز راسه نافيًا و هو يحاول ابعاد صينية الطعام عن فخذه قائلاً : انا بخير لكنى شبعت .

اقتربت منه بكرسيها و امسكت لقمة خبز مغمسه بالجبن و قربتها الى فمه قائله فى ود : ان كنت متعبًا قل و لا تقلق ... تفضل.

التقت اللقمه من بين اصابعها و قد تبعتها اخرى و اخرى و عينيه لا تنفك تتفحص وجهها و لعنت نفسها الف مره على اقترابها منه بتلك الطريقه و قد اخذت نظرة خاطفه الى وجهه الابيض المحمر و لحيته و البنية و شعره البنى و قد كان يشبه بلايو بشدة لكن الفرق ان القسوة و الصلابه تغزو وجه حنا بشدة على عكس ملامح بلايو اللطيفه المريحه و لعل الحرب تكسب صاحبه الصلابة و القسوة !

ابتلع حنا ما فى فمها ثم سالها فى هدوء قائلاً : كم عمرك ؟

تكلمت بهدوء و عينيه اسيرة صينية الطعام و تلك اللقمة التى بين اصابعها قائله : اثنين و عشرون ... ثم مدت يدها الى فمه باخر لقمه قائله :و انت ؟

ابتلع ما فى يدها قائلاً : خمسه و ثلاثون .

همهمت بهدوء و همت بالرحيل و هى تحمل الصينيه بين يديها لكن استوقفها دق قوى و اشدة قوة عن الامس على الباب و قد شعرت بالتوتر الشديد و الهلع و الفزع من الذى سيخلع الباب بطرقه القوى و اخذت فى تبادل الانظار مع حنا الذى توجس خيفة هو الاخر و بالأخص ان الوقت لا يزال مبكرًا و قد يستيقظ الجيران و تحدث ضجه و جلبه . و لكنه شجع حكمت قائلاً و هو ينظر لها بتشجيع : لا تقلقى قد يكون بلايو انا معك هيا .

وضعت الصينيه على صندوق الملابس و اغلقت باب الغرفه و اتجهت الى الباب المطل على الحديقة الصغيره و قد تفاجاة بمراة انيقة الزى حسنة المظهر تدفعها بقوة و تقتحم المنزل قائله فى ضيق و قلق : اين حنا ؟!!!

فى مكان اخر بعيد عن هنا و فى اخر معاقل ابوعبد الرحمن الصغير و عائشة الحرة فى غرناطه و ما ادراك ما غرناطه تل الغرباء و عروس الاندلس فهناك اذا رميت ببصرك سترى قصر الحمراء و ذكريات خلدها التاريخ و بكى عليها العشاق بدلًا من الدموع دما و حى البائزين "البائسين " الذى ليس بالقريب و لا بالبعيد عن البائسين خديجه و اخويها الفريد " صفوان " _الذى يصغرها بثلاث سنوات _و اندراوس " احمد "_ الذى يكبرها بست سنوات _ و هو والد اثانيوس . و لم يكن لقب البائسين من فراغ اذ ان مشاعر الحزن التى المت بهم و نهشت فى قلوبهم مثل الاسود المفترسه الجائعه التى لا يخيفها التعذيب او التهديد . لقد شيعوا اباهم منذ ايامًا قلائل انقدت الى مثواه الاخير و قد كان كل ما يامل به ان يموت فى المغرب و يدفن هناك فى تلك البلد التى لا طالما عشقها و عشق اهلها و تاريخها و مُدنها و هوائها و ترابها و رباطها و طنجه و سبته و طارق بن زياد و يوسف بن تشفين و المرابطون و الموحدون و عقبة بن نافع و طريف بن مالك كل ما يروى قلبه الظمأ ويدفن بين مقابر المسلمين من من فروا من اجداده من الاندلس و لكن الله اختار ما هو غير ذلك و كانت مشيئته هى التى احبطت عدة محاولاته فى شبابه بالهروب بالفشل و لن اتطرق اليها الان حتى لا نمل فالحي ابقى من الميت !

و كما كنت اقول الحي ابقى من الميت قد اجتمعت خديجه و صفوان و زوجته و ابنته الكبرى و عثمان _اثانيوس_ فى غرفة صغيرة ينتظرون قدوم احمد و قد تركوا الصغار فى حديقة المنزل الخلفيه و من بينهم طارق و قد صعدت زوجة احمد لتوقظه حتى يتحدث مع اخوته فى شان الميراث حتى اذا جاء موعد التقسيم الذى حدده اباهم لن يكون هناك خلاف و تعود خديجه الى مدريد و قد كانت فى تلك اللحظات تشعر بغريزتها و فطنتها بان ابنتها ليست على ما يرام و اخذ عقلها يصور بعد الافلام و القصص البشعه التى لا حد لشرها و بربريتها و لو بيدها لهرولت و لو على الاقدام حتى تطمئن على وحيدتها و لكن الصبر الصبر و ستنحل العقد بالصبر . و لكن صبر الجالسين لم يستمر طويلاً حتى صعدت زوجة احمد تحثه على العجله و ذهبت الى غرفتهما و اذ بها تصرخ بأعلى صوتها طلبًا للنجدة !!!

الفصل الرابع

قبل ان نبدأ فى سرد و تفصيل ما حدث مع اعزتنا خديجه و ابنتها سنذهب الى مكان اخر جديد بعض الشئ عنا بغيض جدًا علينا الا و هو بيت العجوز الشمطاء كترينا التى بحق لا اعلم كيف هى على قيد الحياة و قد جاوز عمرها الخامسة و السبعين و بها صحه ليست بى و انا ابنة العشرين من عمرى المزدهر _اقصد الغريب_ . انظروا كيف ترتدى تلك العبائه السوداء و تحمل بكلتا يديها حقائب من الخضراوات المتنوعه و قد فاقت العشرة كيلو جرامات و فوق كل هذا تحمل فوق راسها قدر عملاق من الماء قد اشترته من السقا المار فى الطريق اثناء عودتها من السوق و انا يا عباد عظامي تفرقع و تقرقع اثناء الصلاة ، بحق إن الله إذا اعطى اعطى من دون حساب !

و الاهم الان ليس ما تحمله او ما تمتاز به من صحة عشر شباب من جيلنا البائس الان بل الاهم هو ما تفعله ! و الويل لها تلك الشمطاء و قد مرت من احد الشوارع الخاليه و التى نادرًا ما يمر منها احد بسبب ان سكان تلك المناطق قد اتخذوا منها حدائق لبيوتهم او حظائر صغيره او كليهما معًا .

و قد مرت من جانب بيت عدوتها اليزبيث و لفت نظرها و عينيها الغائرتين فى عظام وجهها عربة بفرسين و قد زُينت العربة بفخامة و روعه و فوق ذلك لجام الفرسين المزين بالذهب و سقفها المصنوع من قماش بنفسجى اللون و هذا اللون و هذا السائق الذى يبدوا للمكفوف انه ليس مجرد سائق عربة خيل عادى من الذين يتجولون فى شوارع مدريد كل صباح و قد شكت لوهله ان ابنة اليزبيث جائها خاطب من اعيان المدينه دونًا عن ابنتها التى تفوق جوليانا سنًا و قد تزوجت لكن من نجار و ليس كما تمنت ان توقع لها احد اعيان البلاد و قد تملكه الغيظ فقط من مجرد ان طرقت تلك الفكرة ابواب عقلها الصدئة من عدم فتحها منذ ان ولدت.

اقتربت من سائس العربة المرتدى لزى باللون الاسود ثم وقفت امامة قائلة فى فضول جم : معذرةًا يا بنى لكن عندى سؤال من الذى يزور بيت اليزبيث هل هو من الاعيان ام انها ارتكبت خطيئة .

نظر لها السائس بامتعاض ثم عاود النظر امامه و لم يتخلى عن هذا الامتعاض و تحدث ببرود قائلاً : ليس من شانك يا جدة عودى الى منزلك .

رمقته بضيق و قد رفعت طرف شفتها العليا كدليل على حنقها من هذا الذى تعالى عليها و قد جرت حقائبها معها و من خلفهم كرامتها و فضولها الذين تبعثرا الى اشلاء امامها و اتجهت الى منزلها الذى لا يبعد الكثير عن بيت اليزابيث و قد فتح لها ابنها الاصغر فيكتور_ و قد كان عائدًا من الكنيسة حيث انه يشغل منصب شماس بالاضافة الى عملة كبائع البان و مشتقاتها _ و اخذ منها حقائبها .

و ما ان دخلت و ارتاحت عظامها حتى اشارت الى فكتور بالاقتراب و الجلوس جانبها و قد امتثل الى امرها حتى مالت عليه قائله فى مكر : لم ترى ما رايت ... عربه فخمه للغاية تقف امام منزل اليزبيث تنتظر احدًا ما و عندما سالت السائس رفض اخبارى .

هز فيكتور كتفيه بلا مبالاه قائلاً : و ما شانى من هذا و ذاك .

امسكت بيده قائله فى استمالة لعطفه : بنى ... باركك الرب ما رايك ان تسال السائس و تريح قلبى كرامةً للعذراء .

قبل يدها الممسكة بيده قائلاً فى هدوء : كرامةً انتى للعذراء دعى القوم و شانهم ... ثم وقف و اتجة الى غرفته قائلا ً : ايقظينى رجاءًا يا امى عند الظهيره .

و ما ان اختفى و توارى خلف الجدران حتى نفخت اوداجها بغيظ قائله : ويلى لا احد يستمع لى اليوم و يعيرنى اهتمامه ... حسنًا انا ساعرف بنفسى و عندها سيقبل الجميع يدى ليعرف ما حدث .

و لله الحق انتى لا تُطاقى يا جده !

ارتدت حكمت عدت خطوات الى الوراء جراء اندفاع تلك الفتاة الأرستقراطية الى الداخل بعشوائية عكس هيئتها مطلقًا _ قد كانت ترتدى فستان من القطيفه الاسود و على احد كتفه فرع من اوراق الشجر من الفضه الخالصه و ترتدى قبعه سوداء و انسدل منها قماش دانتيل شبة شفاف ليحجب عن عينيها اشعة الشمس و قد كانت فى العشرون من عمرها _.

و كادت ان تشتبك معها لولا دخول بلايو السريع الذى اوقف اندفاع تلك الفتاة و تهورها قائلاً بتحذير و حزم : ايفا على مهلك يا ابنتى قليل من الادب .

نكست راسها فى شعور بالخجل عارم الم باطرافها و عقلها و هى لا تعلم كيف تصرفت بهذه الحماقة لكن دائمًا ما يخونها اندفاعها و تنسى اداب و تعاليم القصور التى حجرت اهلها لتعلمها فى قصر الملك و ها هى تعاود النسيان مره اخرى و لكن انتم لا تعرفون

ماذا يعنى حنا بالنسبة لابنة اخيه ايفا ليست علاقة عم و ابنة اخ بل صداقه و اخوه و السبب فى ذلك بالطبع تقارب عمرهما بعض الشئ الذى ازال فجوة المقام و الحجاب .

ثم التفت الى حكمت _التى انحسرت عند باب البيت و اقفلته بعد مرور امراه عجوز لا تقل عن بلايو و ايفا تلك ارستقراطية و اناقه _ قائلاً و حرج : اسف انسة جوليانا ... ايفا ابنتى تحب المزاح بعض الشئ . هزت راسها بتفهم ثم اشار بلايو الى تلك العجوز الانيقة قائلاً : هذه امى الدوقة مارلين .

نظرت الى تلك مرلين و قد كانت خائرة العزم ضعيفة القوى و عينيها الزرقاء متورمة و متوهجه بالاحمرار بشدة من كثرة البكاء و قد اطفى الحزن شحوب بارز على وجهها الملئ بخطوط الزمن . و باشرتها بالم و شوق قائله برجاء : هل حنا بخير اين هو ارجوكى؟!

اشفقت عليها و هدات من روعها و صحبتها الى الغرفه قائله : لا تقلقى سيدتى هو بخير و افاق منذ قليل و تناول افطار ... لكن رجاءًا لا تُطيلوا عليه بالحديث حتى لا يتعب اكثر .

التفت حنا ينظر الى باب الغرفة الذى يُفتح بارهاق و فضول حتى تصورت له والدته و اخيه و ايفا و من خلفهم حكمت التى انسحبت من الغرفه بهدوء لتعد القهوه و تترك لهم مساحة للحديث على راحتهم .

فتح حنا ذراعيه على وسعهما يستقبل والدته الباكية بالاحضان و الاشواق و اللهفات و الدعاء و شكرت الرب على وجوده سليم معافى و على ظهر الارض و يتنفس من نفس الهواء.
دمعت عينيها بتلقائيه و اخذت تقبل رأسه قائله في قلق و لهفه: حفظك الرب و رعاك يا بنى لقد خلعت قلبى عليك... اياك و تكرار ما فعلت؟!

ابتسم بارهاق و امسك كفها و لثم انامل يدها التى تمسكت بكفه بقوة قائلاً: لا تقلقى لن اتركك و اذهب لاى مكان.

ربطت على ظهره بحنان و جلست على الكرسى المجاور مباشرةً لسريره و لم تفلت يده للحظه و بتلك الوسيله تحقق مرامها في كونه بخير و الى جانبها _و اهٍ! لو تعلمون مدى معزة و حب مارلين لحنا بالاخص، و قد كان الابن الاصغر بعد بلايو و ثلاث فتيات في المنتصف قد قدى نحبهن في سن صغير للغاية بسبب وباء الطاعون الذى كان يناوش أوروبا كل فتره بسبب سوء النظافه و الاهتمام الطبى آن ذاك، و لهذا فإن حنا بالنسبة الي امه ككوب الماء بالبارد بعد نهار شديد القيظ._

اقتربت ايفا من حنا بمرح و قفزت فوقه و احتضنته بقوة قائله في مزاح ثقيل لا يفهمه احد سواهما الاثنان فقط: حنا لما لم تمت بعد... متى سارث غرفتك و خيلك يا هذا.

تاوه حنا بالم من تلك المتعجرفة الصغيرة التى ورثت العنف و القوة ابًا عن جد و لما لا و منذ ان نشأت و لم يتركها حنا للحظه و قد كانوا اكثر من عم و ابنت اخ بل اصدقاء و العامل الرئيسي في هذا هو تقاربهم في السن الذى ساعد على إزالة الكلفة بينهم.

قرص اذنها قائلاً بمرح: نجوم السماء أقرب لكى لن تمسى غرفتي و لو بعد موتى.

ابتعدت عنه و قد احمرت اذنها و أمسكت بها بيدها و بالاخرى وضعتها على خصرها قائله في زهو و ثقة عاليه: سترى انى ساخذ الغرفة رغم انفك.

داعب حاجبيه باستفزاز و برود اثار حنق ايفا و فى نفس الوقت ضحكت رغمًا عنها ثم اتخذت مقعدًا على طرف السرير الى جانب قد حنا ثم اقترب بلايو الذى احتضنه و صافحه ثم جلس على كرسي اخر قائلاً في هدوء: كيف تشعر الان؟

"انا بخير لكن كيف جانا هنا؟"

" عندما أُصبت لم اعلم ماذا افعل وضعتك على ظهر الخيل و ركبت و سرت بك حتى وجدت بيتًا لعجوز طلبت منها النجدة و دلتنى على بيت جوليانا و اسعفت و الحق الحق اقول كانت ماهره. "

بلل حنا شفتيه و اخفض صوته ثم أشار الى بلايو بالاقتراب قائلاً في خفوت لا يسمعه سوى هم الاربعه: هل تظن انها موضع امانه... اى لن تخبر احدًا على وجودى هنا.

هز بلايو رأسه نافيًا قائلاً: لا تقلق من هذا ان كانت خائفة فمنا و لن تجرأ على أخبار احد... اطمأنّ.

قاطع حبل حديثهم مقص طرق حكمت على الباب بهدوء تستاذن بالدخول و بين يديها صينية عليها فناجين من القهوة و المخبوزات الخفيفة وضعتها على طاوله صغيرة في زاوية الغرفة ثم حملتها اليهم و وضعتها بينهم و قد امسك بلايو بكوب القهوة و من بعده ايفا و مارلين التى ارتشفت منه القليل ثم نظرت الى جوليانا قائله في ود: شكرًا لكي يا جوليانا على ما فعلتيه لأجل ابنى فليحفظك الرب و ليطيل من عمري حتى ارد لكى الجميل.

ابتسمت حكمت بهدوء قائله: لا شكر على واجب سيدتي و ليبارك الرب بعمرك بعد اذنكم... ثم همت بالانصراف لتتركهم وحدهم و لكن استوقفها بلايو قائلاً و هو بقف و يهم بالخروج من الغرفة معها: انتظرى جوليانا اريد ان اتحدث معك.

خطيا عدة خطوات خارج الغرفة و قد نظرت له حكمت في قلق و خوف دب في جميع انحاء جسدها الصغير المقابل لبلايو الضخم هذا.

وقف بلايو مقابلها و قد رسم ابتسامه صغيرة على شفتيه قائلاً في هدوء: اولاً شكرا على معروفك معنا و لاهتمامك بحنا ثانيًا أريد منكى ان تحضرى ملابس حنا حتى اخذها معى و ان تخفى سيفه باى طريقة و فى اى مكان... ثالثًا ثم أشار الى عدة حقائب على الطاوله قائلاً: هذا ثياب حنا و اغراضه تكفية مدة المكوث هنا و اخر شئ... اخرج من بين الحقائب سره من العملات المعدنية المتداوله آن ذاك العصر قائلاً: ان احتاج حنا اى شئ اشتريه له اتفقنا؟

هزت راسها بالموافقة و هى تُمسك النقود قائلة في اذعان: تحت امرك سيد بلايو.

في المساء و فى تل الغرباء غرناطه و تحديدًا فى غرفة خديجه و طارق. قد حل النوم على اغلب من في البيت و قد استقر طارق في احضان خديجه بهدوء و النعاس ميلاد عينيه عكس خديجه التى فر خير النوم من لجام عينيها و اخذت انظر الى اللا شئ اما عقلها مليئ بالأشياء و بالاخص بهذا اليوم الحافل بعد ان مرض احمد اخاها و اصيب بنوبة قلبية اجبرته على عدم مغادرة الفراش و بالتالى لا ميراث سيوزع و لا الى مدريد سترجع و لا حكمت سترى.

لعل الله اراد بهما خيراً و هى ترى الشر في تاخيرهم هذا و لكن لم يكن وقته أبدًا و بالاخص ان عقلها كله مع حكمت و تخشى عليها من الخطر المحيط بها و من حولها سواء من كاترينا الواشية الى جنود الكنيسه او من اللصوص او من الفرنسين و لا بيدها شئ سوى ان تستودعها الله الذى لا تضع ودائعه.

قبلت راس طارق الذى اندس في عناقها اكثر و هى استقبلته بهدوء و حنان و اخذت في مداعبت شعره حتى غط كلاهما في نوم عميق و قد نام القمر!

رائحة الياسمين هل هى تفوح فى كل مكان ؟ ام ان عقله يصور له ذلك ؟ ام ان تلك الرائحة اقسمت ان لا تترك انفه و لا تغادر عقله ؟ و كيف له ان يشتم تلك الرائحه العطره و الخلابه و صاحبة العطر ليست هنا و قد تركته و حيدًا هائمًا بين اربعة جدران يعيد حساباته و يفكر و يقرر؟!

يفكر فى الفرنسيين و وضع حد لتوغلهم و تمددهم الذى زاد عن الحد و وصل اقصاه و قد بلغ السيل الزُبىَ! فجراتهم عليه و على بلايو و بالاخص انهما يرتديان الزى الرسمى و لم يكن ذلك رادعًا و لا مانعًا لهم فبالتاكيد هيبة الدوله و الكنيسه تنحسر و تتلاشى ببطء نهايته الموت و لكن في قرار نفسه الموت لهم لا لدولته و لا لمكانته.

زفر انفاسه بقوة و ضيق و اخذ يحرك قدميه بسام الممدودة امامه على المضجع و مغطاه بالبطانيه الثقيله و قد سام مكوثه في الغرفة طوال اليوم لا يخرج الا لدار الخلاء ثم يعود لسرير و جوليانا لا تتركه و شانه بل تقف على رأسه حتى يرتاح و حتى ياكل و حتى ينام و يشرب و اقصى عقاب له انها منعت عنه الخمر و منذ ان كان في مقتبل عمره اتخذ من الخمر رفيقًا و مسليًا له في كل اوقاته لكن الان لا خمر، و هو لم يمتثل لامرها تمامًا الا بعد ان ادرك ان الخمر سيقلل من فرصة تعافية بسرعه من ما اجبره على الموافقة بعد حربًا ضروس بينهما انتهت بانتصار ساحق لجوليانا.

التفت الى الباب عندما طرقت عليه حكمت و أذن لها بالدخول و وقفت قائله في هدوء و عينيها البنيه تلك تاسر أرضية الغرفة: سيد حنا ما رأيك في تناول الغداء في حجرة الطعام؟

اعتدال في جلسته و حاول الوقوف قائلاً في راحه: نعم ارجوكى.

اقتربت منه حكمت و أمسكت يده اليمنى و قد استعرت برودة جسده القوية جراد برودة الغرفة .

ساعدته على الوقوف و المشى و قد امسك جرحه بيده اليسرى بالم و لكن لا يهم أى الم الان المهم انه سيهرب من زنزانته الأبدية تلك. و لكن هناك شئ اخر يُنسيه الألم انتم تعرفونه خمنوه بمفردكم!

ابعدت الكرسى و ساعدته على الجلوس على الطاوله و اتجهت هى الى الكرسى المقابل له و قد شرع كلاهما في تناول طعامه، لكن لأول مره يلفت هذا البيت و نظامه نظره و قد كان اقرب الى بيوت النبلاء لا العامه من حيث التنظيم و الاثاث المتوسط و المحراب الصغير و المدفئة و الطاوله الصغيره المحاطه باربعة كراسى و يتناول عليها غدائهم الان و الملاعق الخشبية و الرائحة العطرة و طريقة اكل جوليانا المنمقة و الهادئه و ملابسها بالرغم من ان نوع الاقمشة متوسط الجوده إلا ان طريقة التفصيل البسبطه البعيده عن التكلف اعطتها طابع العلو في المكانه و الشأن، و السؤال الذي يصفع عقله و لا يريح باله هو من أين لها هذا و أين عائلتها؟! بالرغم من مكوثه لعدة أيام هنا إلا و انه كان يُجاهد في عدم السؤال لكن الان يكفى قد بلغ السيل الزُبىَ و لينفض عقله و اسئلته.

تناول قطعة من الدجاج ثم نظر لها قائلاً في ريبه و نبرة رجل محقق و مكر رجل حرب: اتسمحين لى، و لكن اين عائلتك؟

تركت الملعقة الخشبية و ابتلعت ما فى فمها من طعام و نظرت له بهذا البندق في عينيها قائله في هدوء: امى و اخى الصغير فى غرناطه... قد رحل جدى منذ اسبوع و هم هناك لاخذ العزاء.

ضيق عينيه قائلاً في ريبه: و والدك؟

" ابى متوفى منذ أربع سنوات و قد كان حدادًا ماهرًا يصنع الاسلحه للساده و النبلاء و قد اختلط بحياة القصور و النبلاء لذلك تجد طبع البيت و طباعنا مختلفه عن اهل الحى قليلاً.

همهم بهدوء ثم بدأ في شرب الماء على مهل و قد اقتنع ببعض كلامها و للاسف هذا طبعه لا يعطى ثقته و لبه لاحدًا بسهوله.

ثم تابع جلسة التحقيق المبطنه تلك في صورة سمر برئ و تابع بتسأل: منذ متى و انتى تعملين في هذا المجال؟

بدأت تشعر بالضيق بعض الشئ من كم الاسئله هذا و لكن مجبرًا اخاك لا بطل.

" من جدى لابى... كان عشابًا و كنت منذ صغرى اتعلم منه فوائد كل عُشبه و الوصفات الطبيه حتى وصلت للخامسة عشر و بدأت في العمل معه و هكذا حتى وفاته و حتى الان."

"اعذرينى لكن لدى سؤالين، هل عندكى اصدقاء و ماذا كنتي تفعلين ليلة الامس في الحجره تلك في نهاية الرواق؟"

ابتسمت حكمت بتكلف و ابتلعت طعامها مصعوبه محاوله ان تدارى خوفها و توترها و قلقها من ان يكون قد رأها ليلة امس و هى تُصلى في المخزن، لكن استعاذت بالله من الشيطان الرجيم و توكلت على الله قائله بهدوء و عينيه في اتجاه اليمين حتى تشعره بصدق كلامها: بلا لى صديقه واحده هى فلورينذا لكنها تزوجت منذ عام و تعيش مع زوجها في جيان و لم اراها الا في عيد الميلاد عندما كانت تزور والديها، اما الامس كنت جائعه و اردت سلق البطاطه لكنها نفذت و كنت ابعث عن جوال اخر.

هز رأسه و تابع ما تبقى من طعامه في صمت حتى انتهى و لملمت حكمت الاطباق و ساعدته على غسل يده بصطل الماء و الابريق العملاق و قد أعجب كثيراً برائحة الصابون العطره تلك و هم بسؤالها عن مصدرة لكن استوقف كلاهما طرق قوى على الباب الرئيسي للبيت و صوت طفل يصرخ بقوه " خاله جوليانا افتحي بسرعه انا هكتور ".

قفز كليهما من مكانه و قد ادخلت حنا الى الغرفه سريعًا و اغلقت الباب بالمفتاح و وضعته في جيبها ثم سحبت نفسًا عميقًا حتى تهدء ثم اتجهت للباب و فتحت و اذ بهكتور و ممسك بيد اخته الصغيرة ماريا و قد كان يبدو عليها الإعياء الشديد و عدم القدرة على الوقوف.

ادخلتهم قائله في قلق: ما الامر انتم بخير؟

صاح هكتور في خوف قائلاً: لا ماريا متعبه و تسعل منذ الامس و امى اخبرتنى ان ناتى اليكي.

ابتسمت حكمت بهدوء و مرح حتى لا تقلقهم ثم رفعت ماريا ذات الأربع سنوات على طاوله قائله: مه! اهدء يا بطل مجرد سعال يهز أركان الرجال... ثم التفتت الى ماريا قائله: افتحي فمك يا ملكه ماريا.

اخذت حكمت في فحص الفتاه و مداعبتها من ان لاخر متناسيه تماماً وجود حنا الذى اخذ في استراق السمع لما يحدث في الخارج و كان يبتسم على ضحكها و مزاحها مع الصغار بتلقائيه غير ملاحظًا لذلك تمام .

انتهت من فحصها السريع ثم نظرت الى هكتور قائله و هى تثبت الكلام براسه: اسمع جيدًا مجرد برد الشتاء فقط تشرب أوراق جوافه مغليه من دون سكر و ينسون و تضع قدميها في ماء بارد و خل قصب حتى تنخفض الحرارة اتفقنا؟

هز هيكتور رأسه بنعم ثم امسك بيد ماريا بعد ان انزلتها جوليانا من علي الطاوله ثم نظر لها قائلاً في فضول: أين اخيلا لم ياتى للعب الأمس؟

اعطت هيكتور بعض الحلوى و لماريا ثم نظرت له قائله: اخيلا و امى في غرناطه سيعودون الاسبوع القادم.

ثم فتحت الباب لهم قائله و هى تودعهم: كن حذرًا و امسك بيد اختك جيدًا.

لوح لها بيده و هو يسير خارج البيت و قد وقفت تراقبه حتى دخل الى منزله الذى يبعد عنها بقليل ثم همت باغلاق الباب بعد ان دخلت البيت لكن استوقفتها قدم العجوز كاترينا التى منعتها من إغلاق الباب!

الفصل الخامس

نظرت الى قدمها المغطاه بخف اسود اللون و عليه رقعه بنيه قديمه و جورب أسود ثم عاودت النظر اليها و قد فتحت الباب قليلاً من دون ان تدخلها و قد ازاحت الأخرى قدمها العظميه شديدة النحافة تلك و وقفت قُبيل حكمت و الباب و لكن عينيها لم تنظر لحكمت او للباب حتى بل الى ما ظهر من البيت من خلف جسد حكمت و الباب و اخذت تتفحص و تتمحص البيت و ما تراه لعلها تجد اى شئ يسد باب الفضول و يشبع جوع وحش الاثارة عندها.

و لكن حكمت كانت لها بالمرصاد حيث خرجت لها خارج البيت و غلقت الباب ثم وقفت قُبيلها قائله في هدوء: أجل خاله كاترينا ما الأمر؟

نظرت له متصنعه الحزن و العتاب قائله و هى تمط شفتيها البنيه : ما الأمر ألن تدعينى ادخل يا سمراء؟

قلبت حكمت عينيها في محاوله للتمسك باخلاقها و هدوئها قائله: اخبرتك الف مره انا لست سمراء انا حنطيه هناك فرق ... و عذرًا منكي لكن البيت غير مرتب... تفضلي اسمعك.

رفعت كتفيها قائله بابتسامة سمجه أبرزت ذلك الكسر فى احد انياب فكها العلوى: أبداً جأت كى اسأل عن اليزبيث لم اراها منذ زمن... قد تكون غاضبه منى.

ابتسمت حكمت باصفرار و لم تصل الابتسامة الى اذنيها قائله: و لما ستغضبك منكى... جدى قد توفى و اضطرت للسفر مع اخيلا الى غرناطه لإقامة العزاء و مراسم الدفن... و سيعودون قريبًا.

هزت كاترينا رأسها ثم تصنعت الحزن قائله و هى تربت على كتف حكمت: لم اكن اعلم يا سمراء... تعازيا الحارة لكى... ان احتجتى اى شئ بيتى في وجه بيتك لا تخجلى منى.

هزت حكمت رأسها و على شفتيها نفس ذات الابتسامة الصفراء قائله : بالطبع خالتى لا خجل بيننا ثم انا لست سمراء اخبرتك اكثر من مره.

ثم اولتها ظهرها لتنهى هذا الحوار قائله: عن اذنك لدى عمل كثير.

"بالطبع فليرعاكى الرب" ثم همت كاترينا بالخروج من سور البيت الصغير الخشبى و قد دخلت حكمت البيت لكنها استدارت بهلع و قد أصفر وجهها لدرجه ان طعنتها بسيف لن تنزف بسبب هروب الدم من جسدها عندما صاحت كاترينا قائله بغرض استفزازها: العربه التى كانت ام البيت رائعه يا سمراء.

التفتت ببطئ تنظر الى كاترينا و لكن قد رحلت من امام البيت و اتجهت الى بيتها. فكرت في ان تنادى عليها و ان تشرح لها الامر او ان تخترع اى حجه او كذبه تبعد اى شئ تفكر فيه عنها و ان تبعدها عن دائرة الشُبهات، لكن ذرة عقل بها اوقفتها من الاقدام على تلك الحماقه التى و ان كانت هناك اى شكوك حولها ستثبتها بحديثها و قد أثرت ان تتصنع عدم السماع و تغلق عليها باب بيتها افضل من إثارة الضجه و الشوشره.

دخلت الى البيت و اغلقت الباب و قد استندت على الباب بظهرها و اخذت تقلب عينيها يمينًا و يسارًا و قد اتسعت حدقتيها بقوة تزامنًا مع ارتفاع و انخفاض صدرها بقوة مع وتيرة انفاسها العاليه جراء هذا الضغط الذى تعرضت له منذ قليل.

زفرت الهواء بقوه لمره اخيره ثم تذكّرت وجود حنا في الغرفه الذى بالتأكيد قلق هو الاخر.

اتجهت الى غرفته و فتحتها بالمفتاح ثم طرقت حتى سمح لها بالدخول.

كان جالسًا على السرير ينتظر قدومها بفارغ الصبر و ما ان دخلت حتى وقف على قدمه قائلاً في لهفه و قلق: ماذا حدث معك ما الأمر ؟

طمئنته بهدوء و هى ما تزال واقفه عند باب الغرفه قائله و عينيها لم تترك ارضيه الغرفه: لا تقلق لم يحدث شئ الاول كانت ابنة جارتى مريضه داويتها و انتهى الأمر لكن... لكن جارتى كاترينا تلك اثارت قلقى.

قطب جبينه و التحم حاجبيه البرتقاليين قائلاً: ماذا حدث؟ تكلمى يا جوليانا

حركت يديها في الهواء تزامنًا مع كتفيها الذين رفعتهما بهدوء قائله: قالت لى العربه التى كانت تقف امام المنزل رائعه.

نظر لها في قلق قائلاً و قد ضيق عينيه : و ماذا فعلتى؟

" لم اناقشها... رحلت الى بيتها و فضلت ان اتجاهل ما تتفوه به حتى لا اكد الامر او اثير الشك "

زفر حنا انفاسه بهدوء قائلاً براحه و قد انبسطت معالم وجهه : الشكر للرب خيراً ما فعلتى.

هزت رأسها بهدوء ثم بللت شفتيها قائله و قد رفعت كفها امام وجهه و ضمت اصبع المُشيره على الابهام : هل انتظرتنى لحظه؟

هز رأسه بالايجاب و اشار لها بيده قائلاً: تفضلى.

ذهبت من امامه ناحية غرفتها ثم جلس هو على السرير و هو ممسك بجرحه بالم طفيف زال فور جلوسه و قد عادت مره اخرى و بين يديها بطانيه من الصوف الابيض و قد مدت يدها تعطيها الى حنا الذى رفع احد حاجبيه بدهشة كانت اجابتها عندما قالت و وجنتيها تشتعلان خجلاً: اه.. الجو بارد في هذه الغرفه... و قد فكرت لعل هذه البطانيه تدفئك قليلاً قد صنعتها بنفسى... هذا صوف ماعز خالص من غزل امى.

ابتسم بود حتى بانت نواجذه قائلاً بمرح و هو يمسك به : شكرا لكي يا سمراء.

من دون اراده منها فلتت منها ضحكه صغيره أبرزت غمازتيها و بياض اسنانها و هو ينعتها بلقب تلك الشمطاء لكن بمرح اعطاها حس فكاهى اخرجها من دوامه قلقها و خجلها لكنه ما لبث ان زاد من خجلها عن السابق عندما تامل تلك الضحكه الرنانه الشجيه و سمعها كلحن القيثار العذب حتى تحدث بهدوء و نظرات ناعسه قائلاً : لديكى ابتسامه رائعه يا سمراء لا تخفيها ابدًا.

هنا ستصمت قليلاً و تختار ان تهز رأسها بتوتر و تفر هاربه الى منجم الأسرار غرفتها الصغيره غافله عن هذا العاشق الجديد في مدرسة الحب و قد بدأ يختبر او دروسها منذ ان دخل هذا البيت الصغير.

رفع البطانيه الى شفتيه و قد قبلها بهدوء ثم استنشق منها الهواء و زفره ببطء و هدوء قائلاً بهمس لا يسمعه أحد: عن قريب ستصبحين الدوقه السمراء يا سمراء.

يالك من مسكين يا حنا و يالك من تعيسه يا حكمت!!

فى الليل المظلم على ارض مدريد و الاعين نائمه فى سبات عميق كانت هناك عينين نائمه فى راحه و أمان تنعم بالدفئ و الاهتمام لكن لم تدم تلك الراحه و لم يدم هذا الدفئ فقد استيقظت تلك العينين الزرقاء المزينه بالاهداب البنيه التابعه لحنا الذى استيقظ من نومه بسبب طرق مستمر على باب غرفته الصغيره في بيت الدفئ هذا.

اعتدال في جلسته على السرير و هو يمسح عينيه يزيل منها اثر النعاس و النوم ثم سمح للطارق بالدخول و لم يكن سوى حكمت التى كانت ترتدى فستان للنوم بسيط باللون الأبيض و قد كان باكمام كامله و بغطاء للشعر مثيل للون الفستان.

تلاعبت باصباعها ثم نظرت له قائله في تردد و خجل : اريد ان اتحدث معك هل ممكن؟

أفسح لها مكان على الفراش الصغير حتى تجلس جانبه ثم ربط على المكان قائلاً: تفضلي بالطبع.

فاجاته بقبولها الجلوس الى جواره و قد اعتاد على جلوسها في غرفتها منذ ان وصل الى بيتها و لا تقترب منه حتى اثناء الطعام بات ياكل وحده و الدواء ياخذه وحده و كان وجودها اصبح مهمشًا في بيتها.

جلست الى جواره ثم نظرت الى عينيه ليصتدم بتلك العينين البنيه الفاتحة الساحره و صفى الاهداب الكثيفه هذان الذان فجرا في داخله شلالًا عنيفًا للغايه من الاحاسيس و كانها اختصرت انوثه و جمال نساء الارض في عينيها فقط... و كان الرب أبدع في خلق عينيها لتسأره دون عن جمال السماء و الارض بتلك العينين فقط!!

همست بنبرة صوت مكسوره و حزينه: انا خائفه... احمينى ارجوك... لا ملجأ ولا عائذ من دون الرب سواك.

امسك كفيها الصغيرين بين كفيه الضخمين_ الذين امتازا بالقساوة و القوة_ قائلاً في قلق: ما الأمر ما الذى يخيفك اخبرينى و لا تقلقل؟

لمعت عينيها بدموع متحجره ابت النزول و الرضوخ الا أن عينها اليمنى دون اليسرى قد خانت العهد و نزلت دموعها الساخنه بقوه من دون سابق إنذار لتمتد انامله الخشنه تمسح دمعتها من فوق وجنتها الحنطيه المشربه بالحمره و قد اراحت وجنتها على دفئ باطن كف يده من ما استحثه على الكلام قائلاً في رجاء: لا تخيفينى عليكي اخبرينى ماذا يحدث معك؟

فاجاته برمى نفسها في احضانه بقوة و قد بدأت في الاجهاش بالبكاء بقوه و هى تتمسك بقميصه بقوة أكبر تستمد منه الامان و الدفئ الذى هرب منها منذ ان كانت في العاشره من عمرها و انقلبت حياتها من حياه بسيطه الى حياه يغزوها الرعب و الخوف من ان يكتشف احد دينها الاصلى و تتعرض للتعنيف او الموت و هو ابسط حقيقه في ان تختار من تعبد و اى دين تتبعه لكن لما تلوم نفسها و لا تلوم ملوك الطوائف الذين اضاعوا الاندلس في زمن شقوتهم و تشتتهم؟!

تكلمت من بين شهقاتها و قد دفنت رأسها في صدره العريض قائله: انا... انا خائفه... خائفه من كل شيء... كل شيء حولى ضدى... انا احتاج للامان... و.... و لا اجده.

ثم رفعت وجهها الباكى الغارق في العبر الساخنه و نظرت الى عينيه قائله بكل معانى الألم و الضيق: هل يمكن ان تكون امانى... هل يمكن ان تحمينى من خوفى... تمسح عن قلبى حزنى و المى... هل يمكن ان تكون حنونًا على و على قلبى... هل يمكن؟!!

و مع اخر كلمه قالتها كانت قد اثارت فيه مشاعر القلق و الأمل.. الحب و الخوف... الابوه و الحنان... لا يصدق ان جوليانا تطلب منه هو فقط دونًا عن رجال الارض جميعًا تضع به الثقه و الأمل... و كانه يملك الارض و من فيها و ما عليها الان و لا سلطان مثله الان!

جذب رأسها الى صدره بقوه و زاد من حدة عناقه و كان هذا العناق أول درجات الأمن و الحنان و الأمل و امضاء صك الحمايه الابدى الذى فرضه على نفسه و يال نعمته و النعم بان يكون مسؤولًا عنها و عن حياتها التى منذ الآن باتت جزء كبير من حياته.

أراح رأسه على رأسها و اخذ يمسد بيده على ظهرها بحنان و هدوء قائلاً: أقسم بكل ما هو مقدس ان أكون لكى كل ما تريدين و اكثر و ما دمت حيًا و بى الروح لن اتخلى عنكى أبداً.

رفعت وجهها و نظرت له قليلاً بهدوء و غموض لم يستطع تفسيره و قد ظلت متعلقه به بنفس الحده و القوة من دون كلل او ملل حتى دبت به الرعب من صمتها هذا الذى انتهى بنظرها الى نافذة الغرفه الصغيره قائله في غموض: لكن هؤلاء لن يتركونا و شاننا.

قطب جبينه بشده و ازدادت قسوة ملامحه و هو ينظر الى النافذه و اذ به يرى اشباح سوداء تقف على النافذة تمسك بطبول عاليه و تقرعها بقوه عاليه و ترقص بطريقه مخيفه و انظارها ناحية الغرفه. التفت الى جوليانا في هلع لكن احضانه كانت فارغه من ما دفعه للقفز بسرعه من سريره غير عابئ بجرحه و اخذ يطوف حول نفسه يبحث عنها حتى ارتفعى صوت الاشباح و صارت تضحك بقوة و هستيريه مرعبه و رنانه و القرع يزيد و ما ان نظر لهم حتى وجد جوليانا بينهم مكبله الايدى تنظر له بصمت و استسلام مخزى و لا تتحرك و ما ان ركد ناحية النافذة حتى اختفت جوليانا و الاشباح و تكسروا الى شظايا زجاج و طاروا و تناثروا في الهواء تزامنًا مع تلك الرياح العاليه التى هبت بقوة و اخذت في نثرهم في الاجواء و اخر ما فعله ان صرخ باسمها عاليًا من دون جدوه لينتفض من نومه على صوت طرق عالى على باب غرفته و اصوات اطلاق اعيره ناريه و صراخ و عويل في ارجاء الحى من حوله.

فتح الباب اذ بحكمت تقف امامه و بيدها مصباح جاز و قد امسكت يده بسرعه و هى تسير ناحية رواق اخره باب قائله في خفوت و هلع : جنود الكنيسه يبحثون عن فرنسى قتل جندى اسباني و يختبا في احد البيوت هيا ادخل الى المخزن ستجد بابين اسفل السجاده افتح الذى على اليسار و اغلقه من الداخل و اختبأ بين اجوله البطاطس و البصل هيا بسرعه و لا تصدر صوتًا و انا ساغلق الباب من الخارج... ثم دفعته و هى تعطيه المفتاح و المصباح و لكنه ابى ان يذهب قائلاً بهمس و عصبيه : انا لن اتركك و أذهب لاى مكان.

دفعته بقوه الى داخل المخزن قائله بعصبيه اكبر و قلق: اسمع الكلام ان وجدك احد ستكون فضيحه و لن تستطيع اثبات انك اسبانى هيا انا ساتولى امرى.

ددفعته بقوه و غلقت الباب من خلفه بالمفتاح ثم القت به في سلة القمامه و اغلقت الحقيبة السوداء التى بها القمامه و هنا قد حان دور منزلها من التفتيش و البحث و العبث عندما علت الطرقات القوية على باب البيت.

امسكت بمصباح جاز اخر و هرولت الى الباب ثم اخذت نفس عالى ثم اطلقته بقوه حتى تهدء ثم فتحت الباب و كان الباب سداً منيع تكسر و انفجر الماء و انهمر من خلفه. و فى لمح البصر قد تعبئ البيت بالجنود و بدأ للعبث ثم وقفت امام كبيرهم قائله: ماذا يحدث... لا احد معى بالمنزل... كيف تجرا على اقتاحم بيتى في هذا الوقت المتاخر من الليل.

دفعه كبيرهم و قد تخطاها و وقف في منتصف المنزل ينظر حوله الى ابواب و مداخل و مخارج البيت و الغرف و الجنود المنتشرون في كل زاوية و دهليز في البيت لا ينفكون عن قلب المنزل راسًا على عقب.

كانت جوليانا تقف خلف هذا الجندى تمسك بمصباح الجاز متجهمة الملامح مسودة الوجه تراقب كل هذا بصمت غاضب و خائف في نفس الوقت، غضبًا على حرمة منزلها المنتهكه و خوفًا على حنا و من الفضيحة و العار الذى سيلازمانها طوال عمرها اذا لم يجبرها السكان على مغادرة الحى إذا انكشف امرها و الامر و الدهى لو اكتشفوا مكان المصحف الشريف او كتب الحديث النبوى او التاريخ الاندلسى او تلك الاوراق التى خطتها بيديها باللغه العربية الفصحى و ما سيجر عليها ما هو ابشع من الفضيحة و مغادرة السكن . لكن ليس هذا و لا ذاك ما يجول بذهنها بل ما يحدث الان ان تلك الدماء المسلمه الحره الابيه اندفعت و تدفقت بقوه في شراينها و اورداتها و ابت ما يحدث الان. اذ كان الجنود يفتشون غرفتها و قد تقدم احدهم من خزانة ملابسها و اقترب من ملابسها الخاصه هنا وضعت مصباح الجاز على الطاوله بعشوائيه و قد كان يتبعها كبيرهم بعينيه و خطوات بطيئة حتى وصل الى باب الغرفه عندما دخلت غرفتها و اقتربت من الجندى بسرعة الطلق النارى و قد وقفت امامه قائله و هى تحاول التخلى عن تلك الحده: اذا سمحت هذا الدرج به ملابسى الخاصه لا يمكنك تفتيشه.

امسكها من ذراعها هذا للجندى و ازاحها من مكانها امامه و قد هم بالتفتيش قائلاً بقسوة: اوامر البابا و الكنيسه لا تناقش.

امسكت جوليانا يده التى تمسك مقبض الدرج قائله في عناد: لكن حرمات الرب اهم من اوامر البابا و الكنيسه و انت تتعدى على حرمات الرب... اخبرت سيداتكم هذه ملابسى الخاصه.

لم تتلقى جواب سوى صفعه قويه هبطت على وجنتهى اليمنى بقوة كبيره اصمت اذن الواقفين و أسقطت حكمت ارضًا تزامنًا مع تلك الدماء التى تدفقت و انبصقت بقوه من شفتيها لتلطخ فستان النوم الأبيض و الارض من خولها و على عكس ما هو متوقع ان تبكى او تظل ارضًا او تشعر بالرعب بل وقفت على قدميها و الدماء تسيل من جانب فمها غير مهتمه لما حدث منذ لحظه وجيزه و اخذت تنظر لهذا الجندى و الشرر الحر يتطاير من عينيها و كان نيران العالم تجمعت في عينيها فقط لتعطى هذا الجندى نظره ناريه و قد قطبت جبينها و اتسعت حدقتيها المكحله لتتناغم مع سواد عينيها و الضوء الاحمر الخافت في الغرفه و كم ارعبته تلك النظره و لو ان الكاميرا كانت في هذا الزمن لصورها و علقها كاكثر صوره مرعبه لهذا العام لكن تلك البطله الجزائريه الحره التى جائت بعد حكمت بقرن استحقت هذا اللقب عن جداره بشهادة العسكرى الفرنسى الذى صورها و الاخر الذى اعدمها .

و قد تركت حدت نظراتها عندما جذبها جندى اخر من ذراعها بقوه الى باب المخزن و قد اشار اليها قائلاً بامر حازم: افتحي الباب.

رفعت رأسها بشموخ قائله بتحدى: اكسره المفتاح ضائع منذ سنوات.

رجع هذا الجندى عدة خطوات للخلف ثم اشهر سلاحه النارى الى القفل ثم اطلق رصاصتين حتى انحل قبل الباب و فتحه و دخله و هنا رغم الشموخ و التحدي الا ان الدماء قد هربت من وجهها و شحب و شعرت بجفاف حلقها بشده عندما وقف كبيرهم فوق السجادة التى من تحتها بابين السرداب و من تحت احدهم حنا الذى الان بين يدى الله يستمع الى دبيب تلك الخطوات فوقه و الرجل و الايدى التى تعبث ببعض الاغراض من فوقه و لو ازاح احدهم السجادة لوجده و انه لمن المدركين.

اخذت حكمت تردد في سرها قائله " و جعلنا من بين ايديهم سداً و من خلفهم سداً فاخشيناهم فهم لا يبصرون"... ان الله معنا... ان الله معنا... ان الله معنا.
و قد اخذ الجنود بالعبث في اجوله البطاطس و البصل و بعض الخيوط القديمه و الحطب و سيوف قديمه متكسره قد اكلها الصدا و ارحوحه خشبيه على شكل حصان للاطفال و بعض المفروشات القديمه التى اكلتها الفاران و حشرة القماش.

و قد انتهى العبث اخيرا و تنفست حكمت بحريه عندما صاح احد الجنود قائلاً بعد ان وقف امام كبيرهم يلقى عليه التحيه العسكريه: لم نجد شئ سيدي.

" انسحبوا و الى البيت التالى و افتحوا عيونكم جيدًا "

القى الجندى التحيه العسكريه و قد بداوا بالمغادره في نظام عسكري محدد ككتائب صغيره و مقسمه الا كبيرهم ظل يتبادل نظرات صامته مع حكمت لا معنى لها سوى ان تلك الفتاه لن تجر على نفسها سوى الخراب.

هم هذا الرجل بالمغادره لكن شعر بان تحت قدمه شئ يميل و يهبط كلما داس عليه.

نظر الى قدمه و اليها قائلاً بهدوء ماكر و خبيث: ما الذى تحت قدمى؟!!

الفصل السادس

هم هذا الرجل بالمغادره لكن شعر بان تحت قدمه شئ يميل و يهبط كلما داس عليه.

نظر الى قدمه و اليها قائلاً بهدوء ماكر و خبيث: ما الذى تحت قدمى؟!!

رفعت كتفيها قائله بكل هدوء و برود_و هى تشبك كفيها ببعض حتى لا ينفضح ارتعاش يديها_: مجرد بلاط مكسور.

نظر لها بشك و كان اضطراب جسدها واضح لكن ظلمه الغرفه القاتمه اعمت بصره عن ادراكها بوضوح و لكن حدثه الامنى يخبره انه اكبر من مجرد بلاط مكسور!

انثنى بجسده للاسفل و اتكا على ركبته يسرى و انزل اليمنى على الارض و أخذ في تحسس السجاده و ما تحتها من بروز لم يكن غريبًا اذ ان جميع الارضيه فى هذه الغرفة غير ممهده و منها ما ليس له ساتر من رمال الارض من بلاط او رخام او خشب و لكنه اراد بطريقه ماكره من رحم الخبث ان يبث بها الرعب لعلها تقع بلسانها و ينفرط عقد رباط جاشها و تنطق باى شئ يدلهم على هذا الفرنسى. لكن حكمت ليست كغالبيه نساء اسبانيا، بل فتاه منذ ان كانت في العاشره من عمرها و هى تتعلم فنون الحذر و التخفى و تحسس الامن، و متى تتكلم و متى تسكت، و متى تقلق و متى ترتاح، و مع من تتحدث و من ستصادق و تُحدث اخبارها، فقط كل هذا حتى لا يشك احد في اسلامها بمقدار حبه من خردل او يشعر باى شك تجاهها و ياتى هذا بكل بساطه يختبر قوة هدوئها و برودت اعصابها، كانت كاترينا فعلتها و هى تحوم حولها مثل كلب الحراسه اعزكم الله!!

استند كبيرهم على ركبته اليسرى و الأرض ثم وقف بقامته المتوسطه و عدل من وضع طقيته العسكريه و هم بالخروج و من خلفه حكمت حتى وقف قبل باب البيت بقليل و التفت ينظر لها قائلاً بهدوء: ان علمتى اى شئ لا تتكاسلى و اخبرينا حتى نتمكن من القبض على الخائن و نعيد شرف الكنيسه و هيبة الجنود... ام انكى تكرهين الكنيسه؟

تسائلت باستنكار لسؤاله قائله: و هل يكره احد بيت الرب؟!... و لا تقلق سيدى انا تحت امرك... لينصركم الرب و لتحل عليكم رحماته و لتكن ام النور نوركم.

خرج هذا الرجل و اغلقت الباب من خلفه ثم استندت على الباب بيديها التى تمسك بالمقبض و الاخرى تنبسط على الباب و قد احنت راسها للاسفل و اخذت أخيرا في التنفس بقوه و راحه و قد سعلت عدت مرات بقوه حتى هدات ثم رفعت رأسها و من دون سابق انظار بسقت على الارض_ اعزكم الله _ و قد تمنت لو ان الوضع يسمح لها و بسقت على وجه هذا الجندى الذى ضربها. و لكنها اكثر العارفين ان فعلتها الحمقاء تلك لن تجعله يضربها بل سيرسلها الى الفردوس الأعلى هى و احبتها ان شاء الله كم انكى حمقاء و انا اكره الحماقه!

تنفست حكمت لاخر مره ثم ابتعدت عن الباب و امسكت بمصباح الجاز من علي الطاوله الصغيره و اتجهت الى منتصف حجرة المعيشه المطله على جميع غرف البيت و المطبخ و قد كان الوضع أقل ما يُقل عنه كارثى و كل شئ في غير موضعه و كل شئ تم

العبث به حتى محراب الصلاه الشموع فيه قد تكسرت و مال تمثال مريم المقدسة على الحائط بزاويه حاده و وقع الصليب على الارض.

سحبت نفس عميق و شمرت عن ساعديها و استعانت بالله و بدات في تنظيف البيت و مع كل قطعه كانت تضعها مكانها تقول "حسبنا الله و نعم الوكيل" و ما اثار حنقها و ضيقها ان الملابس قد انكبت ارضًا بحق الله من سيختبأ في الخزانه الضيقه الصغيره تلك ؟!

و الان انتم تسالون عن حنا و انا اقول لا تقلقوا لكن حكمت قد فضلت و اثرت ان تترك حنا في الاسفل و هى تيتشعر الخطر المحيط بها و صراخ جيرانها يصم الاذان و من الافضل ان يظل في الاسفل ما دام الخطر حولهم لكن لا مشكله في طمئنته بهدوء حتى لا بجزع.

اتجهت الى المخزن الذى باسفله السرداب و جلست على ركبتيها و اخذت في الطرق مرتين ثم مرتين ثم مره كما أتفقوا ثم تحدثت بنبره منخفضة يسمعها هو فقط قائله: لا تصدر صوتًا ان كنت تسمعنى... لقد رحلوا من البيت لكن الحى معبأ بهم ابقى هنا حتى يرحلوا من الحى و ساخرجك... هناك ما في الجره الفخاريه و ان جعت هناك خضار مجفف فقط ضعه في الماء دقائق و كل.

في مكان اخر بعيد ينعم ببعض الأمان و الهدوء بالاخص في غرناطه لن انكر ان الوضع في غرناطه اقل قلقًا و توترًا من مدريد بكثير من حيث الفرنسين فاعدادهم قليله نوعًا ما و من حيث الكنيسه فهى افضل من مدريد من حيث القوة و الرعب. من حيث الجو أدفأ و من حيث الحياه فافضل و بالأخص ان طارق و خديجه ينعمون الان بقسط من الهدوء و الامن لا مثيل لها و قد تعرف طارق على ابناء اثانيوس و ابناء خاله الصغار و كون صداقه و تعود على العمل في النجاره و قد اصبح اثانيوس ياخذه الى ورشة النجاره معه كل صباح ليمضى وقته و يتعلم أشياء جديده و قد تمنى لو بقى خاله الكبير مريضًا حتى يمكث وقت اطول في غرناطه.

اما خديجه فبالرغم من مقومات الحياه الرائعه حولها من حيث اخوتها و سعادة طارق و زوجات اخوتها يتناقشون معها و الأطفال الصغار يتعلمون منها الحياكه و تصلى في جماعه بين اخوتها و زوجاتهم و تقرا القرآن في امان و هناك من يلبى طلباتها دون الحاجه لتعب لكن قلبها في مدريد هناك مع جوليانا و لم يهدء قلبها أبداً بل يصرخ بقلق كل يوم و باتت تختنق بالخوف كلما فكرت فيها و تصورت تلك السنريوهات البشعه و ما قد يحدث لها ان وقعت في قبضه المحاكم و هل ستراها مره اخرى ام لا؟!
لتنهى صراخ قلبها و قلقها و هى تنظر الى السماء تناجى ربنا قائله في قلق: حفظك الله و نجاكى منهم يا قلب امك.

و الان سنذهب لاول مره الى اسفل الارض سويًا حيث حنا الذى حاله الان أقرب الى حال جرذ هارب من قط شوارع ينتظر منه خطأ ليصبح وجبت العشاء اليوم _ و انا اعنى ما اقوله ليس لان حنا وسيم سارفع من شانه في التشبيه... فكم سامت من التشبيهات الوسيمه!_.

كان كل شيء فوقه يسمعه و يصم أذنه حتى تلك الصفعه كانت أكثر ما سمعه و صدى لها صوت فى اذنه و قلبه و عقله بقوة و قبل كل شيء من تلقت الصفعه الان جوليانا ليست اى امرأة أخرى.

كان يتمنى لو بيده ان خرج لهم و صفع وسخ الكوز هذا و لقنه درسًا لكن غريزة البقاء كبلته و استسلم لها استسلامًا مغزى و بشده و تعلل بانه سيعوضها بزياده أجرها الذى ستحصل عليه منه فور تعافيه و لكن هذا الماء العكر الذى تعلل به لم و لن يطفأ تلك النار التى اشتعلت بين ثنايا ضميره الذى استيقظ البعض منه للتو. ياله حقًا من استسلام مخزى.

و لكنه حاول ان يُرح ضميره باستماعه لصوتها و طمئنته بانها بخير و على ما يُرام لكنه يعلم انها ليست على ما يُرام!

اشتد فكه للامام و استند برأسه على الحائط خلفه و اغمض عينيه بضيق و سأم من كونه قد يمكث للصباح هنا وحده و ان أبغض شئ على قلب حنا الوحده، فهى من اسوء المشاعر التى تراوضه ان يبقى وحيدًا بلا انيس او صديق او رفيق ينسيه المه و يشاركه ليله و سمره!

التفت ينظر الى هذا السرداب و قد وقف يتفحصه و بيده مصباح الجاز و لم يكن سرداب و حسب بل عالم اخر تحت الأرض!

بدايةً من الحوائط المدهونه بلون ابيض و قد بدي الدهان قديم و متشقق لكن هناك اشياء نظيفه و جديده و تلك المقاعد الاربعه المنزويه و سرير صغير و جرار فخاريه مليئه بالماء و دلوى جاز كبار و الكثير من الكبريت و وابور جاز و هناك في هذا الچوال الذى فتحه بضع البنادق و الذخيره و السيوف و فى اچوله أخرى خضراوات مجففه و بعض الأعشاب و چوال فيه بعض الملابس البيضاء القطنيه الرجاليه و النسائيه و بعض الخيوط و الابر و فى ناحية أخرى على طاوله فى زاوية السرداب بعض الاوانة الفخاريه و النحاسيه و مصابيح الجاز و فى سطل اسفل الطاوله يوجد صابون و بعض ادوات التنظيف، و كانه الان في بيت اخر اسفل البيت و ليس هذا المهم فالاحتياط واجب لكن ليس بتلك الطريقه!!

و الأهم من هذا لو كان هذا فقط في السرداب الأيسر ماذا يوجد في الأيمن و ما حاجة فتاه و عائلة صغيره لكل تلك المؤن و هذا المنزل الاخر اسفل منزلها؟!!

حك فروة رأسه في دهشه و تفكير و كانه عاد الى العصور القديمه و الى ايام الحرب ليجد كل هذا لكن شئ واحد مفقود في هذا البيت الصغير، تماثيل مريم العذراء و الصُلبان و صورة يسوع و العذراء. أين العباده من كل هذا؟ و لما اللون الابيض في الملابس؟!

الان لا يشعر فقط بالدهشه و الحيرة بل بالغباء ايضًا لعجزة عن ايجاد تفسير منطقيّ لما راه اليوم و كل يوم تزيد تلك الفتاه من دهشته و حيرته!

افاق من تفكيره على صوت طرقات حكمت الخمس المتباعده و قد همست له بان يفتح الباب من عنده و قد امتثل لامرها و مدت له يدها يتمسك بها اثناء صعوده و قد وضع المصباح على ارض المخزن في الاعلى ثم بدأ هو في الصعود لكن جز على اسنانه بالم و قد جرحت ذراعه جراء قطعه حديد حاده بارزه من الباب لم يلاحظها كلاهما.

ساعدته على الصعود و أخيرا أصبح يتنفس هواء طبيعى من دون رائحه الاتربه في الاسفل و قد اعتذرت منه حكمت قائله: انا اسفه حقاً لم ألحظ الحديد... اعذرنى... هل تؤلمك؟

وضع يده عليها و امسكها و هو ينكس رأسه و يهزه قائلاً من بين أسنانه:بشده.

امسكت يده و هى تساعده على الوقوف متجهه به الى حجرة المعيشه و اجلسته على أحد الكراسى ثم رقدت ناحية غرفتها تحضر منها خيوط طبيه و قطن نظيف و زجاجةعطر ثم رقدت الى المطبخ تحضر طبق غويط و براد الشاى به ما ساخن ثم جلست جانبه قائله: أرنى ذراعك.

خلع ثوبه بحرص ليكشف عن صدره العريض و بعض الندبات و الكدمات البنفسجيه و خصره الملفوف بالشاش الابيض مغطيًا جرحه السابق.

و على اضواء مصباح الجاز اخذت ذات الوجنات الوردية المشتعله تتفحص ذراعه و قد كان جرحًا غائرًا بعض الشئ جراء اختراق قطعه الحديد ذراعه بعمق و خروجها مره أخرى.

أمسكت بالعطر و وضعت منه على القطن و بدأت بتطهير جرحه قائله: ستؤلمك قليلاً فقط أرخى ذراعك.

استجاب لها و أخذ في الجز على أسنانه بالم كلما لمست جرحه و قد حاولت ان تخفف من قوتها بقدر المستطاع حتى انتهت من تضميده جيدًا ثم نظفت المكان حولها وأحضرت له ثوب اخر و ساعدته على ارتدائه و قد همت بالرحيل لولا انه امسك بيدها اليمنى قبل ان ترحل_ قد كان طوال الوقت يحاول ان يفتح باب الحديث معها لكن دموعها المتحجّرة في عينيها تلك كانت تمنه من اى محاوله او اقدام و قد كانت بين اللحظه و الاخرى تتشنهج متعلله بان الجو بارد و انفها يتحسس البروده و لكنه أثر الصمت حتى لا يحرجها لكن تلك الدمعه التى سقطت على ظهر يده اوقفت بروده و انفته عند حدها و قد نهر نفسه بعض الشئ و لما الكبر معها و قد فعلت اليوم ما فعلت و لولا تلك الفتاه لكان رأسه معلقًا الان على ابواب مدريد_.

" لما الدموع؟! ما فعلتيه اليوم يجعلنى فخورًا بكى و مدينًا لكى طوال عمري... لولا شجاعتك لكان راسى الآن متدحرج عند قدميكى." ثم تجرات يده و زحفت ناحية وجنتها تحاول محو دموعها المنهمره بقوة نهراً عند منبعه.

و لكن قبل ان تصل يده الى مرامه و مبتغاه قد هربت من امامه بقوة ناحية غرفتها و اغلقت الباب بقوة و جلست خلفه على الارض متكوره على نفسها تخفى راسها بين ركبتيها و مرفقيها و قد بدأ يعلو نحيبها و بكائها مثل الطفل الذى كُسرت لعبته او مُنع من اللعب مع أصدقائه لكن الوضع مختلف الان تلك الدموع ليست عاديه او حتي من الالم او الحزن فقط بل دموع حرقه، حرقه على كرامتها التى أُمتهنت و عزتها و كم الخزى الذى الم بها اليوم من كل جانب، و كانت شهقاتها تعلو بقوه و كانها دعاء ايوب في مرضه " ربى انى مسنى الضر " و لكن اللسان عاجز الان عن ابسط الحقوق الدعاء!

تبكى كرامتها... تبكى اسلامها... تبكى المها... تبكى عجزها... تبكى ضعفها... تبكى شوقًا لوالدتها التى لو كانت هنا الان لمسحت عنها دمعتها و خففت عنها و رحمت فؤاد العصفور هذا من كل هذا الألم و الضعف. أكان عليها ان تُلد في وطنًا مسروق و ان يكتب عليها الهروب و التخفى من العالم دائماً... على ماذا تبكى و قلبها يصرخ بدلاً من لسانها يا لله انقذنا من ما نحن فيه... ابعث لى السلام ابعث لى السكينه... ابعث لى الامن... يا سلام يا رحمن يا رحيم يا لطيف الطفى بى و ارحمنى من ما انا فيه... و اندلساه!

و على الناحية الاخرى كان حنا يضع رأسه بين كفيه يصم أذنه بيديه عن صوت بكائها لكن لا رادع و لا مانع لصوت بكائها الذى أيقظ بقايه متناثره و متهشمه من ضميره الذى لأول مره منذ ان كان في صباه يرق لباكى و باس مثل جوليانا و قد كان قبل لحظات يُسكن ضميره الميت متعللاً بان الأمر سهل و ستنسى لكنه أدرك الان ان الأمر ليس سهلاً أبدا و لو كان محلها لما رضى بالاهانه و لو بعد حين.

وقف من مكانه متثاقلًا يكسوه الهم و يغمره حتى عنقه ثم اتجه الى باب غرفتها و جلس ارضًا هو الاخر و استند برأسه و ظهره على الباب مقابلها ثم تحدث بهدوء قائلاً: قد اكون متكبر لا تعنينى امور غيرى و فظ الطباع و القلب و احب نفسى و لا استطيع التحدث مع الفتيات و النساء و لا تظنى ان ابنة بلايو فتاه بل غوغائيه كصبيان الازقه و الحارات لكن أريد ان اتحدث معكى.

قضم شفته العليا و نظر الى السقف الأبيض الذى به شق خفيف بطوله و قد شعر انها بدات تهدا و تستجيب له ثم استطرد القول قائلاً: انا لم أرى في حياتي امرأة مثلك... كل حياتي بين الجيش و المحاكم و النبلاء و الساده و ما ادراكى من هم نساء الساده... مجموعه من الحمقاوات يرفضن العمل في بيوتهن خشية تلوث اظافرهن او تشقق ايديهم... يرتدين افخم الثياب و المجوهرات و يصففن شعرهن على احدث صيحه و لكن عقل نادرًا ان وجد... عمل لا عمل طوال الوقت نفسها فقط... عباده لا يعرفن الكنيسه الا كل احد و فى الاكليل و القداس... أطفال لا يعرفن عن تربيتهم شئ ... نظره لا يملكن نظره في اى شئ بالنسبه لهم العمال و الفلاحين و التجار عبيد حتى و لو كانوا احرارًا او موالي لهم و لا انكر انني لا انظر للناس مثلهم بل اراهم سبب في الوباء و البلاء و اكثر من كونهم اغبياء بل نعم الرب كثيرة عليهم... لكن انتِ غيرتى وجهة نظرى تلك... افعالك... اقوالك... عملك من دون سأم او تعب... رعايتك لى... عفتك... تدينك... ذكائك... كل هذا غير وجهة نظرى عن العالم و الناس بات عقلى ينفتح قليلاً ليدرك ما حوله... جوليانا انتى فريده من نوعك... هذا الغبى الذى تجرا عليكي لا يعرف قدرك... انتِ تستحقين ان تكونى سيده من النبلاء أفضل من مئات الحمقاوات... انتِ انقذتى حياتى مرتين... لا يمكن ان يكن هناك من يشبهك... ازهى بنفسك و تفاخرى... دموعك تلك لا تهبط الا على عزيز... انتِ هبه و هديه للجميع... انا لا اتخيل هذا العالم من دونك او من دون اعشابك او ادويتك او العطور التى تصنعيها... او من دون خجلك... او من دون ابتسامتك الرائعه... او عينى المها... او بشرتك الحنطيه... لا بد ان تزهى بنفسك و تزهو بكى امك و يزهو بكى اخكى و حيك... قد لا نرى بعض مره اخرى... لكن أريد منكى ان تبتهجى... اهدئى فلعمر امامك طويل و ستقابلين الكثير من نوعية ذلك المنحط هل ستبكين و تظهرين ضعفك بسهوله ام ستكونين قويه... قلبك كقلب العصفور لا يصلح لزمننا هذا... اتفقنا لن تبكي مره اخرى؟... بالمناسبه انتِ لستى سمراء لا تقلقى.

و من خلفه كانت حكمت تستمع لكلماته في سعاده غامره و كبيره فاضت و غطت حزنها و تمسطه و بكل سهوله بكلمات رقيقه و طيبة مسحت دمعتها و ربطت على قلبها في نعومه و حنان و قد ابتسمت و مسحت دموعها و تذكرت والدها الراحل الذى طالما مدحها و منحها الثقه في نفسها طوال عهدها به حتى و هى ما تزال صغيره كانت تتلقى منه كلمات العزم و التشجيع و القوة التى انقطعت عنها منذ ان كان رحل والدها و رحل معه الأمان و التشجيع و الأمل، و الان حنا يذكرها بكل ذلك ببساطه و هدوء، يعطيها الأمل و الحنان و يغسل قلبها من الحزن بكلمات سلسه لكن مفعولها اقوى على قلبها من سحر بابل العظيم.

تلاعبت في هذا الخيط المتدلى من فستان نومها قائله في خجل و قوتها مبحوح من اثر البكاء: شكرا سيدي... ارحت قلبى... باركك الرب.

على الناحية الاخرى ابتسم حنا بهدوء و كانه يرى ابتسامتها الصغيره و وجنتيها المتورده خجلاً امامه الان و نظر الى الباب ثم عاود النظر الى السقف قائلاً بهدوء: العفو... ثم تابع قائلاً ببعض المرح حتى يكسر هذا الحزن قائلاً: ساخبرك بشئ لم اخبر به احدًا

من قبل... انا اخاف من الغربان... ليس خوف بالمعنى الحرفى بل هى نذير شؤم بالنسبة لى... تخيلى ريشه اسود و عينيه سوداء و منقاره اسود و قدمه و اظافره ايضًا... عندما أراه في الصباح يصبح يومى سئ و عصيب للغايه لدرجه اننى وضعت فزاعه في غرفتى و لكن عندما علمت امى رمتها و اعطتنى درس في القدر و الحظ و لكنى لم اقتنع... و انتِ ماذا يخيفك؟

بللت شفتها و ابتسمت قائله في هدوء: أخاف من الظلام... رغم عمري هذا الا أنني اخاف الظلام و لا انم الا و الشموع المضائه جانبي لذلك يهرب اخيلا اخى من النوم في غرفتي هو و امى في الصيف لان هوائها بارد عن باقى المنزل... لكن ستقول شئ اخر انا احب اللون البنفسجى و الابيض بالرغم من اني لم أرا اللون البنفسجى في حياتي الا مره واحده و لا املك حتى منديل باللون البنفسجي لكنى احبه بشده... و انت ما لونك المفضل؟

" اخبرتك قلبك قلب عصفور صغير...اما لونى المفضل هو البنى و الاخضر." ثم تابع قائلاً بهدوء و مرح: ساحكى لى موقف حدث منذ زمن... كنت في السابعة عشر من عمرى كنت في الحديقه الخاصة بالمنزل اتدرب على الخيل و وقعت من فوقه لان السرج مفتوح و أخذ اعنف السائس على ما فعل و ضربته بشده لالتفت ورای أرى فتاه بعمر اربع سنوات تبكي بشده و هى تشاهد ما يحدث و تنتحب بقوة حتى اقبلت احدى الخادمات تحملها و تحاول اسكاتها و من دون جدوه حتى اقتربت منهم و زاد بكائها و اخذت تخفى وجهها في صدر الخادمه و قد شاهدتنى و خافت منى و لا اريد ان اخبرك ماذا فعل بى ابى عندما دخلت الخادمه بالفتاه الى القصر و قد كان ابيها حداد و صنع لابى عدة بنادق و احضر ابنته يومها و حكت ما راته... زفر انفاسه و هو يضحك بسخريه قائلاً: أبى ضربنى و حبسنى في غرفتي و منعنى من الخيل و السيف لشهر لاتعلم الادب و قاطعنى أخى بلايو و زوجته ايضًا و امى اعطتنى درس في الاخلاق لن انساه ... و السبب طفله صغيره... و الان بالتأكيد اصبحت كبير او ام علي الاقل.

تجاهلت حكمت تلك القصه و كانها لم تسمعه ثم تسائلت في خبث من خلف قائله: و هل رايتها بعد ذلك؟

" عدت مرات كانت تاتى مع ابيها الى القصر و لكن اصبحنا رفاق بعدها لم اقتلها. "

تابعت بلؤم قائله: منذ متى لم تراها؟

امال حنا رأسه و اخذ يفكر بهدوء ثم اجاب بتفكير: أربعة عشر عامًا منذ ان كان عمرها ثمانى سنوات ثم هاجرت كنا نعيش في غرناطه و نحن انتقلنا لمدريد منذ أربع سنوات فقط... لما السؤال؟

قامت حكمت من على الارض و وقفت قائله و هى تفتح الباب بحزم: قف لو سمحت سافتح الباب.

امتثل لامرها و وقف و قد قطب جبينه بشده و دهشه حتى وقفت امامه و نظرت الى عينيه لاول مره منذ مجيئه قائله بهدوء: كانت تلك الفتاه ترتدى فستان ازرق و عقدت شعرها على هيئة اذنى قطه... و والدها يدعى اندرو اغسطس... و لديها شامه حمراء اسفل اذنها

هز رأسه بنعم و لا يزال في حاله من الغباء و عدم الفهم و الغباء مره اخرى حتى صاحت قائله في حنق من غبائه: انها انا جوليانا ابنة اندرو اغسطس الحداد ثم أخرج من ثوب نومها صليب من الفضه عليه جسد المسيح عليه السلام قائله: هذا الصليب كان هديتك عندما رايتك اخر مره... اتذكر عندما اعطيتك دميتى الخشبيه هديه مقابل الصليب... كيف لم تعرفنى و منذ الدقيقه الاولى قد عرفتك...

الفصل السابع

"بسم الله الرحمن الرحيم و بسم رب العرش العظيم و صاحب الاسم الأعظم و التسعة و التسعين و رب الملكوت و السماوات و الاراضين السمع نبدأ بشرع الله و القرآن و سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين اجمعين"

فى غرفه صغيرة حول طاوله اصغر و على ثلاث مقاعد متقاربه نطق بتلك الكلمات العامره بذكر الحق القدوس السيد أحمد الاخ الأكبر لاليزابيث و قد تماثل بفضل الله للشفاء و انتهت نكبته على خير و لكن جرح فقدانه لابيه ما يزال قائمً_سبحان الله مهما كبر الإنسان يظل طفلاً يحتاج الى والديه و لو بلغ المئه و تلك هى فطرة الله في الارض فنحن مهما كانت خبرتنا و علاقتنا نظل صغار بجانب ابوينا _.

نظر السيد أحمد الى اخوته ثم أمسك بلفافة الورق تلك التى كانت على الطاوله ثم أبعد الخيط البنى الذى يربطها ثم اخذ بتفحص الأوراق حتى يعطى لكلاً منهم حقه و يتفرق الخلق.

ثم نظر لهم قائلاً بهدوء: ابى قبل وفاته قسم الارث بشرع الله و بالعدل بيننا و قد كتب بهذا و سجله في دواوين الدوله و لكلاً منا الحق في تصرفه.

ثم امسك بورقه و قلم ريشه و بدأ يخط بعض الكلمات الاسبانيه قائلاً و عينيه معلقه في الورقه: انا سامنح اختى خديجه بارادتى الكامله عشره قراريط من ارثى... و بعد الغد سنذهب الى الكاتب ليوثق ما دونته.

ليستفذ ذلك صفوان و يخط هو الاخر ورقه يتنازل هو الاخر عن عشره قراريط من قطعة الأرض التى ورثها عن ابيه التى هى فدانين للذكرين و فدان لخديجه ثم وضع كلاهما الاوراق امامها لترفع حاجبيها فى عجب و دهشه و تبعد الاوراق قائله بهدر: هل جننتم هذا حقكم مالى و مال كل تلك المساحه من الارض انا كنت سابيعها و اعود لمدريد... هذا حقكم كما شرعه الله اتريدون ان تجعلوه اغلالًا في عنقى يوم القيامه.

امسك احمد بيد خديجه قائلاً و على شفته ابتسامة حب اخويه: و من قال اننا نحملك اثم... نحن نريد مكوثك معنا في غرناطه لا داعى لتلك الغربه... تعالى انتى و الاولاد الى هنا و استقروا هنا و اعملوا هنا.

ابتسمت بدورها قائله: سلمت يا اخى لكن صدقنى اتمنى العيش معكم و ان اشعر بهذا الدفئ و الامان الذى اشعر به هنا طوال عمرى لكن لا يمكن... انا لن اعيش خمسه و اربعين عامًا اخرى لن اكون اسم و سمعه في عملى مره اخرى كما الحال في مدريد... و ذكرياتى و قبر زوجى في مدريد كيف اترك زوجى و اعيش بعيدًا عنه اخبرنى... انا كل ما اريده ان ابيع قطعة الأرض و اعود الى ابنتى لا أكثر و لا اقل و لعل الله يحدث امرًا نصبح فى لحظه احرارًا لا نخشى على ديننا و اموالنا و ابنائنا شيئًا كما نحن الان.

اقترب حنا منها ثم امسك بالصليب المنسدل على صدرها و أخذ يتحسس النقش بهدوء و انفاس جوليانا الثائره تندفع في وجهه المنحنى ناحية الصليب و قد اهتز شعره المتساقط على جبينه من حدة انفاسها ثم رفع عينيه ينظر اليها و هو على حالته تلك لم يتحرك و ارتفعت زاوية شفتيه بابتسامة ساخره ثم دنى بوجهه منها اكثر و همس بسخريه قائلاً: و من قال انى لم اعرفك؟ عندما افقت كنتى ترتدين ذلك الصليب و غير هذا عمرك و اسمك، هل تعتقدين اننى غبى مثلا؟! انا فقط كنت اختبر صبرك.

قطبت جبينها بشده و التحم حاجبيها بقوة و أحمر وجهها من الغيظ و زمت شفتيها بغضب و ها هى الان تُظهر مدى سذاجتها و برائتها امامه اذ ظنت انها تستطيع ان تتلون و تتخفى على حنا بجلاله و خبرته الكبيرة في الحياة. و لكن ان كان علم من هى فلا ننسى انها تخفى ما هو أكبر و أعظم من كونها جوليانا!!

همت بالرجوع الى غرفتها و تهرب من امامه و تنفلت من عينيه الساخره و علامات الغيظ و الاحراج تكسو وجهها و لكنه امسكها من صليبها المتدلى من عنقها قبل هروبها قائلاً بسخريه: مهما كبرتى ما يزال عقلك صغير و برئ يصور لكى ما لا تفميه... ثم دنى من وجهها اكثر و اقترب منها اكثر و قد تراجعت الى الوراء حتى اصطدم ظهرها بالجدار و قبضت على ثوبها بشده تستمد منه القوة و هى الان بين حائط و حائط بشرى يفوق حجمها و طولها و عرضها و من نظر اليه من خلفه لظن انه يتكلم مع نفسه و فوق هذا الخجل الشديد الذى عصف بها و منع الكلام من الخروج من حلقها و لا ننسي هذا النوع من الرعب قد تسلل الى عينيها بقوة من هذا المأذق الغبى الذى وضعت نفسها فيه و لا اريد ان اخبركم ان انف حنا الان تشتم هذا الرعب بسهوله و مهاره.

و لكن الرعب ازداد عندما شعرت بانفاسه الساخنه تضرب وجهها مثل ألسنة الهب قائلاً بسخريه مغلفه بالتحذير و الوعيد انا لا احد يعبث معى أبداً
اتفهمين ذلك يا سُكره؟

اخفضت عينيها ارضًا و هزت رأسها بنعم قائله بهدوء لا يدرى كيف اظهرته بتلك البراعه: نعم سيد حنا لن اعبث مع حضرتك أبداً... عن اذنك اريد النوم.

افلت القلادة و ابتعد عدة خطوات الى الوراء و عينيه لا تنفك تنظر الى وجهها الغاضب الحنطى الصغير هذا بغموض و لكن ما ان دخلت غرفتها و اغلقت الباب حتى فتحت الباب مره اخرى و قد سمعت طرقًا قويًا على الباب الخلفى و قد شعرت انه قد يكون بلايو او احد افراد عائلة حنا و بالطبع قد زُف الخبر على ضرب الدفوف بما حدث في حيها منذ زمن ليس ببعيد.

اشارت له في صمت ان يدخل الى غرفته و ما ان دخل و اغلق الباب حتى ذهبت الى الباب و فتحته و بالفعل صدق ظنها و قد كان بلايو وحده.

دخل البيت بسرعة البرق و قد اغلقت خلفه حكمت الباب و جرت خلفه لتواكب سرعته لكنه سبقها مقتحمًا غرفة حنا و هى من خلفه بلا ادنى ذوق او أدب لترفع كتفيها باستسلام و لا مبالاه و تذهب للمطبخ مجبره على إعداد الضيافه لذلك البلايو _و لكن بينى و بينكم و لا تخبروا احدًا بما ساقول، بلايو لا يحب حكمت و لا يرتح لها و كما يقال لولا الحاجه و العوز ما لجا اليها او طلب منها شيئًا و هو يؤمن كل الإيمان انه مهما فعلت فهى ليست اقل من مجرد امرأه من العمال و فقط حظها انا ولدت من طبقة الاحرار لا العبيد _.

هرول بلايو الى حنا مسرعًا و بالدور قد وقف حنا يستقبل أخيه بالاحضان و الاشواق الحارة ثم ابتعد عنه قائلاً في قلق و هو يتفحصه: هل صحيح ما سمعت؟ هل انت بخير؟

ربت حنا على ذراع بلايو بهدوء و اجلسه على السرير قائلاً: اهدء انا بخير... صحيح ما سمعت لكن لا تقلق.

سائله في توجس قائلاً: اخبرنى تفاصيل اكثر... كيف لم يمسك بك أحد؟!

"جوليانا خبئتنى في سرداب بيتها و لهذا لم يعثر على احد... اتعلم لم اكن اعتقد انها ستتحلى بتلك الشجاعة و تساعدنى"

رفع بلايو كتفيه بعدم اهتمام و ابتسم بسخريه واضحة قائلاً: و هل كنت تعتقد غير ذلك... اى احد في مكانها كان سيفعل ذلك ليرفع سعر أجره.

نظر له حنا نظره بارده خاليه من اى تعابير او مشاعر و قد فهم بلايو ان اخه الآن اما يفكر او يستنكر ما قد قيل الان و لو كان يفكر فهذا شئ جيد جداً اما لو كان يستنكر فهو يقحم نفسه في أكبر خطأ قد يحصل في تاريخ عائلته ان يقع في حب راعية غنم و يتلوث نسل العائلة و تختلط دمائهم بدماء الرعاه و الفلاحين!

اخرجهم من دوامة التفكير التى اصابة كليهما صوت ازيز الباب ليُعن عن دخول حكمت تحمل بين يديها صينية كبيره به افطار لهما و قد وضعتها على أحد الكراسي بالغرفه و قربتها امامهم ثم قالت بهدوء و هى تهم بالخروج: بالهناء و الشفاء عن اذنكما.

و ما ان اقتربت من الباب حتى ناداها بلايو الذى كان يتكا على ركبته بيده و قد نظر لها نظره شمول و تفحص مشوبه بالاستحقار و الازدراء قد تابعها حنا بشك و اهتمام و حكمت بتوجس و قلق. ليُنهى بلايو جلسة الظنون تلك عندما تحدث بمنتهى الغرور و التكبر قائلاً: لما لا تنحنين عندما تقفين امامنا؟ حتى عندما جائت السنيورة مارلين و السنيورة ايفا لم تنحنى، ليست اول مره تفعلينها.

ارتبكت بعض الشئ و صدرت منها حراره تدل على مدى الاحراج و الضيق الذى تتعرض له الان و لكن هذا الاحراج ليس عادى بل احراج مشوب بالازدراء و التقليل لتتجمع الدموع في عينيها و تاسر الارض بعينها غير ملاحظه لحنا الذى نظر الى أخيه مُتفاجأً بما فعل الان ثم نظر الى جوليانا التى يراها الان في حاله من التشتت و الاحراج و اراد ان يتدخل و يوقف تلك المهزله لكن سبقته جوليانا التى نظفت حلقها و اخرجت صوتًا جاهدت في جعله طبيعيًا قائله و عينيها اسيرة الارض: اسفه سيد بلايو خطأ لن يتكرر.

ثم انحنت بركبتيها و اعتدلت قائله: عن اذنكما.

ثم خرجت من الغرفه او لنقول هربت او فرت من الغرفه الى الحمام تغسل وجهها من بين شهقاتها المكتومه حتى تدارى تلك الدموع الحمقاء التى لا تزورها الا فى مواقف لا تحتاج اليها مُطلقًا بل تحتاج الى ذكائها و حكمتها التى تكن معها طوال الوقت و تفر منها في موقف مثل هذا الموقف السخيف من شخص سخيف مثل بلايو.

و على الناحية الأخرى كان حنا ينظر الى أخيه بضيق و سأم من افعاله تلك و كيف احرج الفتاه امامه و لم يشفع لها عند بلايو ما تفعله من اجله و كان هذا واجب عليها و ليس فضلاً منها عليهم.

سأله في ضيق تخلل بين نبرة صوته قائلاً: لقد احرجتها.

أمسك بلايو بشريحه جزر كانت في احد الاطباق و تناولها قائلاً بلا مبالاه: هل الحق سيئ لتلك الدرجه؟

ثم التفت اليه قائلاً باهتمام: المهم انا كنت اريد ان اخبرك بشئ... البابا يريد التحدث معك حاولت اثنائه عن ذلك لكن هدد بانه سيقصيك عن منصبك فأُجبرت على ان اخبره بانك خارج البلاد وستعود فور انتهاء اجازتك.

قطب جبينه بقلق قائلاً: أ لم يخبرك بما يريد؟

هز بلايو رأسه بالنفى قائلاً: حاولت معرفة الأمر لكنه رفض الإفصاح. ثم تابع بتكهن قائلاً: لعله يريدك في نقل او ترقيه هذا ما يجول في بالى الآن.

نظر له حنا بامل قائلاً: اتمنى ان تكون ترقيه... سامت الشرطه و تدريباتها ومسؤوليتها.
نظر له بلايو بتلاعب قائلاً: لا تأمل فالبابا لم يكن سعيدًا و هو يطلبك لعله يريدك بسبب حادث الأمس

نظر له حنا في ريبه و قد ضيق عينيه قائلاً بتسائل: متى قُتل الجندى و كيف ؟

نطق بلايو بتفكير و هو يتذكر التفاصيل قائلاً: في الصباح امام محكمة مدريد كان يركب عربه تجرها الخيول اطلق الرصاص على الحرس قتل واحد و اصاب اثنين.
ثم وقف بلايو قائلاً و هو يهم بالخروج: اتمنى ان يستجيب لى الرب و تخرج من تلك المصيبه سالمًا. ثم ربت على كتفه قائلاً: ساذهب... اتمم شفائك سريعًا.

ربت حنا على كفه قائلاً بامل: بمشيئة الرب... اعتنى بنفسك و بأمى و ابلغها سلامى.

"ليكن ذلك... وداعًا"

و على الناحية الأخرى كانت جوليانا قد خرجت للتو من دار الخلاء و قطرات الماء تهبط من وجهها و يديها و قد فضلت ترك الماء على وجهها حتى لا تظهر تلك الدموع التى ما تزال منهمره. فمهما كان هى لن تظهر ان كلمات بلايو هذا قد أثرت فيها او ازعجتها على العكس تمامًا هو مجرد ذرة غبار حكت انفها عطست و ارتاحت منها.

و تزامنًا مع خروجها قد خرج بلايو من غرفة حنا و ما ان راته حتى انحنت بركبتيها احترامًا له ثم اتجهت الى الباب و انحنت مره اخرى حتى خرج و ما ان خرج حتى اغلقت الباب و استندت عليه بظهرها و نظرت الى السقف العالى و قد هبطت تلك الدموع المترقرقه في عينيها و شعرت ان هذا البيت الكبير الواسع اصبح اضيق من القبر و اكثر ظلمه من ليلة خسوف بأسه. شعرت انها تريد ان تهرب من هذا البيت و من تلك الدنيا الى دنيا هادئه اخرى تمسح عنه الحزن و الالم و ما تلقته من اهانه اليوم يكفى للغايه.

هرولت الى غرفتها و اخرجت ملابسها من خزانتها الصغيره و بدأت تبدّل ملابسها عازمه على الخروج من البيت حتى تهدا قليلاً غير مهتمه لما قد يحدث في غيابها او من قد ياتى او حتي بأمر حنا الماكث في غرفته و سحقًا لاى أحد الان الاهم هى نفسها الضائقة ذرعًا.

فى الجوار كان حنا مضجعًا على سريره يضع رأسه على يده المنثنيه أسفل رقبته و يده على صدره الصلب و عينيه معلقه بالسقف و كل ما يجول في عقله الان هو مستقبله المهدد بالفناء و الاندثار بسبب بعض الاغبيه و الحمقه من الطرفين بسببهم قد يذهب منصبه و يطير في الهواء مثل الرماد و كان شيئًا لم يكن و يجلس الى جوار والدته في البيت يندب حظه العثر الذى جعل بعض الحمقا الذين عينهم بنفسه يُطيحون به كالقمامه.

زفر انفاسه بضيق و تسللت يده الى الصليب الذهبى الذى في عنقه ثم رفعه يقبله ثم نظر اليه قائلاً في رجاء: اشملنى برحماتك و انجنى من ما انا فيه يا رب... اغفر لى و انهى الامر و ساصلى لك و اذكرك ما حيت لكن احمنى بحقك و بحق الغذراء... امين.

ثم تركه و اخذ يرسم الصليب على جسده قائلاً: بسم الاب و الابن و الروح القدس.

و لكن ما كاد ينهى صلواته حتى شعر بباب البيت يُغلق و بضجه في الخارج جعلته يقف منتصبًا و اتجه الى الشرفه اذ به يرى حكمت تقف مع شابًا ما و حولها القليل من الغنم و قد رحلوا سويًا الى حيث لا يعلم!

في مكان جديد سنذهب لاول مره اليه سويًا و لن تكون اخر مره ان شاء الله. في قصر بلايو و عائلته و قد كان قصرًا اندلسيًا تحول كما تحولت سائر الحضاره الاسلاميه الاندلسيه بالقوة و الرعب الى شيئًا كثوليكى تابع للكنيسه و الاسبان و بالرغم من الدهانات و الصلبان و محاريب الصلاة المسيحيه و تغير الطراز الواضح و التعديل في الشكل و البناء الا ان الدهان قد تمرد وجهه و تشقق ليكشف عن ايات القرآن الكريم و الزخرفه الاسلاميه و النوافذ قد صرخ تصميمها قائله: انا اندلسيه مسلمه!

و لكن انا لست هنا الان لابكى الاطلال او انحو الزمن الخالى فعن قريب سنبكى كلنا لا تقلقوا! انا هنا لان بلايو هنا. ففى غرفة مكتبه كان يجلس على كرسيه الخشبى الذى نُقش الصليب في فراغه في ظهره و مسنده و مقعده من القطيفه الحمراء القانيه و من خلفه النوافذ المفتوحه الباعثه لنور الشمس القوى و امامه الطاوله التى عليها صليب معدنى وجهه بعض لفائف الاوراق و محبره و قلم و كتاب ما و بين يديه سهم صليبى و عينيه تنظر الى الفراغ في شرود مخيف و هدوء مريك و قد افرط اليوم في التفكير و التفكير حتى ظن انه سينفحر عقله بقوة من كثرة التفكير. مرر يده على السهم بهدوء و أراح رأسه على ظهر الكرسى و بدأ يجمع الخيوط مع بعضها.

جوليانا تلك افعالها مريبه. ترتدى الأبيض في الغالب، تسرف في استخدام الماء، تهتم بالنظافه بشده، تستخدم الصابون، تغطّى شعرها دائما و ليست بالراهبه، قلة عدد الصلبان في بيتها، أ ليست كل تلك ادله ضدّها و على الأقل تثير الشك و الريبه في ما هيتها و اكثر ما يخشاه ان تكون من المسلمين و أخيه الان بيد مسلمه حمقاء قد تتلاعب بعقله و تجعله يتخلى عن درب المسيح.

او تكون من اليهود و لكن اليهود ابخل من الاسراف و الترف الذى فيه جوليانا و لا يفضلون الأبيض مثلها.

لا يجول في عقله سوى بعض الشكوك و الظنون التى يحتاج الى تاكيدها ليلقى بها في النار حتى يتخلص من الخونه امثالها لكن اكثر ما يقلقه ان يتعلق بها حنا او يحبها او يتجرا و يطلب ان يتزوجها و النساء بارعات في اكتساب قلوب الرجال بسهوله.

انتفض من مكانه فى ضيق و غضب من كثرة التفكير و صعوبة الأمر ثم هدر بقوة و صرخ و هو يكسر هذا السهم بغضب قائلاً: اكاد افقد عقلى!!

و على اثر صراخه هذا دخلت ابنته ايفا الى مكتبه و قد كسى القلق وجهها و اندفعت اليه تساله في قلق عندما اقتربت منه تقف الى جانبه قائله: هل انت بخير يا أبى؟!

رسم ابتسامه مصطنعه و خبيثه على شفتيه بعد ان خطرة له فكره ماكره للغايه مثله و التفت اليها بعد ان كان يوليها ظهره و احاط كتفيها قائلاً: انا بخير يا قلب ابيكى لكن هل تسدين لى خدمه؟

نظرت له باهتمام قائله في فضول: بالطبع يا أبى ما الأمر؟

داعب وجنتها قائلاً بمكر: فقط زيارة صغيرة الى عمك!!

الفصل الثامن
كانت تريد الفرار و الهرب من البيت و لم تجد مكان افضل

من النهر و ان تاخذ اغنامها القليلة و ترعى في الخضرة و ترح عقلها و عينيها من غم ما حدث و لا شيء مريح بعد كلام الله سوى الطبيعه التى تفنن البديع في صُنعها و قد احسن كل شيئًا صنعًا.

و لكن في طريقها تفاجأت بمرور جارها الشماس فيكتور من جانبها و قد كانت من عادته ان يستيقظ باكرًا حتى يخلو مع نفسه لكى يدرس الانجيل جيد حتى يستطع التاهب و الاستعداد لما هو مقدم علي من تحقيق حلمه في ان يصبح قسًا في الكنيسه و اى منصب ارفع من ذلك سوى ان يتنازل عن الدنيا و ما فيها من متع و حياة ليحظى بمكانة الراهب و يحظى بأفضل مكانه عند الرب و الدوله.

و لكن فيكتور لم يكن سعيدًا بل في وجهه علامات الحزن و الضيق و الغيظ و هذا امرًا طبيعيى اذا كانت والدتك كاترينا الشمطاء فلن تستطيع النوم او أراحة اذنك من كثرة الوشايه و الكلام و لا عقلك من كثرة المشاحنات التى تفاعلها و القيل و القال و لا جسدك و وقتك من كثرة الالحاح على الزواج.

و كانت تلك المره المشاحنه على الزواج لما لا يتزوج و ترى احفاد ابنها الصغير؟ لما لا يتزوج من اختارتها له و انتقتها عينيها المجهريه_ التى ترى الفضيحه من علي مسافة الف فرسخ_؟ لما لا يكف عن امر الكنيسه و يلتفت الى عمله و يكفيه عزله و اغتراب عنها؟ و لكن من كان له حلمًا عليه السعى ورائه و لو اضطر الى نحت الجبل قبل الصخر و بالاخص لو كان ذى عزيمه مثل هيكتور.

نظر فيكتور الى جوليانا التى كانت تسير ناظره الى اللا شئ على عكس عادتها في الخروج كانت تهتم بمظهرها اكثر من ذلك و تخرج متاخر عن وقت الشروق بمده و ليست من عاداتها ان تخرج حزينه بتلك الطريقه و القليل من الغضب يكسو وجهها.

وقد أمسكت عصاها وهى تعش عن الغنم لكى لا يحيدوا عن القطيع _وبالاخص الحملين الصغيرين الذين لاول مره يخرجوا للرعي وكأنها فسحه بالنسبه لهم_ وأقبل عليها فيكتور الذى كان يحمل اسفل ابطه بعض القراطيس و الاقلام وكتاب ما وقد استوقفها قائلاً وعلى شفتيه ابتسامه ودوده: صباح الخير... اليس الرعى باكرًا اليوم؟!

نظرت له بهدوء وفتور لترد قائله وصوتها يملئه الحزن و الضيق: صباح الخير... لم استطع النوم منذ ما حدث الأمس فقلت في قرارة نفسى ان اخرج من البيت لعل الهواء النقى يرحنى قليلاً.

سار الى جانبها وهز رأسه بالموافقه قائلاً وهو ينظر اليها: معكي حق لقد كانت ليله عصيبه لكن الشكر للرب مرت على خير... و كما تعلمين امى لم تترك الامر يمر بسلام اخذت في الشجار معهم عندما كسروا باب المخزن و بعض الاوانى.

لم تنظر اليه وأهتمت باغنامها قائله في هدوء أقرب ما يكون للبرود_ وقد استشعر الحرج من قولها هذا _: لقد تحطّم اليوم ليس البيت وحده.

تسائل في حرجٍ قائلاً: هل مسيرى معك يزعجك؟

هزت رأسها نافيه قائله و قد جاهدت في ان ترسم ابتسامه مصطنعه على شفتيها: لا بالطبع لا تقل هذا يا اخى... انا فقط قد ضاق صدرى لهذا لا تجدنى متحمسه للحديث كعادتى... سامحنى على وقاحتى.

قطب جبينه قائلاً باهتمام: لما هذا الضيق؟

ابتسمت بسخريه قائله: فقط ضُربت ليلة امس عندما عارضت تفتيش ملابسي الخاصه... ثم تابعت بحزن و قد تحشرج صوتها بالبكاء الذى تحلول كبحه قائله بألم: لو ان ابى حى لما تجرا احدًا على فعل هذا... لم يضربنى أبى طوال حياته و لا حتى امى و يمر بى العمر و ياتى هذا و يضربنى... تلك الصفعه لم تؤلم وجهي كما ألمت قلبى... لقد جعلتنى ادرك كم انا ضئيلة و لا قيمة لى فى الحياة... لو كنت ابنت احد التجار او النبلاء او الساده لما حدث هذا... و لو القليل من الحظ و لدت حره ليست بأمه او موالة لاحد.

كان فيكتور يستمع اليها بهدوء و قد اخرجت ما في صدرها و استشعر الألم و اليأس الفج الواضح من حديثها المهموم و قد تفهم كلماتها تلك و شعر بها فما حدث معها حدث معهم لكن فاق الحد معها و هو يدرك ان قلبه المرأه ارق و اكثر استشعارًا للالم و

للاحراج عن الرجل الذي يتحمل و ينسى و اضف الى ذلك ان القلب الذى بجانبه قلب عصفور ليس لامراه عاديه بل لجوليانا الحساسه رقيقة القلب و المشاعر.

رمى ببصره و نظر للامام قبل ان يجيبها ثم عدل موضع قراطيسه و اقلامه و نقلها الى يده الاخرى و قد اقبلوا على حافة النهر و من حولهم بعض الخضره و المزروعات التى تصلح للتنزه و الرعى، ثم أشار اليها قائلاً بهدوء: تعالي نتكلم عن حافه النهر هناك هيا.

انصاعت لأمره بهدوء و شرعت في نقل الغنم و سياقتهم الى موضع معين بعصاها قريب من مكان جلوسهم ثم جلسوا عن منطقة خضراء و قد وضعت عصلها بينهم لتخلق مسافه فاصله ثم نظرت له عندما بدأ بالكلام قائلاً بهدوء و بشاشه: انظرى... انتِ لستى كما تقولين على العكس... انتِ ملكه بيننا من يمرض او يقع في مشكله انتِ اول من يحلها... من صفعك هذا ينفذ أوامر الكنيسه ليس بيده شئ... قلبك رقيق و لم يتحمل الأمر أعلم و أعلم ان العم اندرو كان يحترمك و يقدرك كثيرًا أعلم لكن أصابع يدك ليست كبعضها البعض... لو فكر كل من تاذى بتلك الطريقه و احتقر نفسه لما عاش احدًا و ما عمل احدًا و لا خرج احدًا من بيته... و العذراء مثلاً كانت ستقول انا يتيمه و احمل طفل معجزه و لن يصدقنى احدًا و ساقتل و و و... كانت ستياس و تنتحر او تهرب لكنها استعانت بالرب... و الحواريون اكثرهم كانوا من البسطاء كانوا لو فكروا مثلك لما وقفوا الى جانب المسيح... خلاصة قولى... هذه الصفعه لو نظرتى اليها من منظور اخر لاكتشفتى كم انكى قويه و قد ازعجتى هذا الرجل ليتجرا عليكى لو انكى نكره كما تقوليت لما التفت لكى و تركك تتفوهين باى كلمات و انهى عمله لكنكى صنعتى تشوش في عقله... اياكي و اليأس يا جوليانا صدقينى املئى قلبك بالإيمان خيراً لكى من اليأس و الاحتقار الذى يظلم القلب و يفسده... و تذكرى ان الرب يكتب كل اعملنا و فى النهايه جزائنا الملكوت ان اخرجنا اليأس من قلوبنا.

كانت تنظر اليه باهتمام و تحاول ان توازن بين حزنها و كلامه، بين غضبها و هدوء كلماته، بين حكمة العقل و ضيق القلب و بالرغم من ان كلامه صحيح الا ان المواقف السيئة تترك في الانسان اثرًا لا يزول و لا يذهب الا بتحقيق العدل و دوران عجلة الزمن و كره الحياه ليعود الحق للمجروح و يتلقئ الجارح عقابه و حكمت هذا مبدئها في الحياة لا يرتح لها بال الا اذا رجع لها حقها تلك الشعارات و الكلمات لا تجدى معها شيئًا.

امالت رأسها و نظرت اليه قائله و هى تتلاعب بطرف ثوبها: كلامك صحيح يا اخى لكن الحياة ليست عادله و الرب عادل و انا لن ارتاح الا إذا عاد حقى... انا سيئة للغايه لا انسي أبداً الصغيره قبل الكبيره و هذا الموقف لن أنساه أبداً حتى يرجع لى حقى.

نكس فيكتور رأسه و هزها بياس و ابتسم ثم نظر لها قائلاً: راسك صعب للغايه... انتِ لستى سيئة لكن صعبه كالجمال لا تنسى من قهرك.

نظرت الى الامام و قد لمعت عينيها مع لمعان ضوء الشمس لتعطى لون ذهبى قائله و على شفتيها ابتسامه حنين الى الماضى: ابى كان يقول لى هذا عندما كنت اتشاجر مع احد ابناء الحى و ارفضّ الصلح.

"و لما كنتِ ترفضين الصلح يا تُرى؟" كان هذا السؤال من طرف ثالث كاترينا الشمطاء _التى كانت تنظر الى ولدها من خلف النافذة تتابعه حتى وجدته يقف مع ابنت اليزابيث "خديجه" و أخذ في السير معها و قد شعرت بنوع من النصر ان جوليانا التى قد رفضت ابنها عندما طلبت يدها للزواج الان قد يكون هذا الحديث ملين لقلبها و عقلها لعلها تراجع افعالها و تقبل بابنها الذى ليس بالبخس ابدًا حتى ترفضه كما فعلت منذ بضعة سنوات قلائل؛ لكن طموحاتها تلك باتت تتلاشى رويدًا رويدًا عندما اخذت في قرارة نفسها ان تتعقبهم و تعلم ما يدور معهم و لان بالطبع ابنها سيرفض او على الاقل سيتجنب الحديث عن يومه و من قابل و ماذا فعل كعادته و اضف الى البؤس ان حديثهما كان بعيد عن كلام المشاعر و الاستماله و الود بل حديث كله بؤس و هم لكن فكرت فى انه على الأقل باب الحديث مفتوح و قد يتحول من مرور الوقت الى باب مشاعر _.

و لكن فيكتور الان كان كان يندب حظه العثر لان من دون الناس كانت كاترينا والدته و قد تجرأت على مراقبته و تتبعه و قد ترجم باقى الأحداث و فهم رأس امه النتن و ما تفكر فيه، قبض فيكتور على لحيته البنيه ثم تركها و وقف مع جوليانا التى وقفت هى الاخرى ثم نظر الى امه قائلاً بهدوء جاهد جهاد النفس للتمسك به: الانسه جوليانا خرجت للرعى و خرجت معها لان طريقنا واحد كنت ذاهب لضفة النهر و هى ايضاً.

أمسكت جوليانا عصاها و همت بالانصراف من امامها قبل ان تتكلم معاها في شئ و بالاخص انه لا طاقة لها في الجدال او تبرير شئ لم تفعله او تفكر فيه لاحدًا ما و قد فهمت هى ايضاً مغزى نظراتها من عينيها الغائرتين ثم مرت من جانبها بعد ان القت تحية

الصباح و لم تهتم في ان ترد عليها ثم بدأت في سياقة الاغنام امامها و ما ان توارت عن الأنظار حتى تسائلت كاترينا قائله في خبث : ماذا حدث معكم هل تحدثتم في شئ؟ هل تشعر بان رأسها بدأ يلين؟ اقصد ما رأيك في ان تفاتحها المره القادمه في الارتباط بها.

لفلف فيكتور الاوراق و القراطيس في قبضته بغضب و نظر الى السماء و قلب عينيه في تعب و ضيق و قد حاول قدر المستطاع ان يهدئ من روعه ثم نظر اليها قائلاً في ضيق قوى اقرب للغضب: ماذا تريدين الم نتحدث قبل قليل في هذا الامر؟ ثم لماذا التتبع انا لست طفل و لا شاب طائش؟ و اضيفى على هذا جوليانا اختى اختى لا ارها سوى اختى... انا تزوجت الكنيسه و الكتاب المقدس هو ابنى.. و لاخر مره يا امي تتجسسى على... انا سئمت من هذا الأسلوب و تلك الطريقه متى ستتوقفى كرامة للعذراء... بحق الرب الا يكفى هذا... هل تلك حياة... انا لا استطع التنفس... لقد سئمت!

قطبت كاترينا جبينها و قد اتخذت اسرع وسيله لاكتساب العطف و استجداء الرحمه قائله و قد باشرت في البكاء: انت لست ابنى الذى تعبت في تربيته... انت لا تراعى سنى... لقد قاربت على الموت و اريد الاطمئنان على مستقبلك و رؤية ابنائك هل هذا جزائى؟!

زفر فيكتور بقوة ثم اقترب من امه و قبل رأسها ثم أمسك يدها قائلاً و قد استطاعت ان تستميله لها مره اخرى: بارك الرب في عمرك يا امى انا فقط احتاج في تلك الفترة ان اركز في شئ واحد فقط ان أصبح قسًا و بعدها ساتزوج و سترين احفادك قريبًا لكن ارجوكى لا تضغطى على... اتفقنا امى؟

مسحت كاترينا انفها بطف الشال الاسود حول كتفها و هزت رأسها باستسلام قائله: اتفقنا يا بنى... ارجعنى للبيت.

عادت حكمت الى البيت و ادخلت الغنم الى الحظيره و ذهبت الى غرفتها تبدل ملابسها بعد ان احكمت غلق الباب ثم جلست على السرير بارهاق و تشعر بنعاس شديد يداهمها لانها لم تنم منذ الأمس و القت جسدها على السرير لتتسطح بتعب ثم اخذت تعبث في شعرها المموج بهدوء و شرود و قد ارتاحت قليلاً من حديث فيكتور لكن والدته الشمطاء تلك فقط يكفى ان تراها من دون ان تتحدث لينقلب يومها راسًا على عقب و يلحق بها سوء الحظ و البؤس طوال اليوم، اه كم هي امرأة غليظه و بغيضه تشعر انها ستفرقع من غيظها منها و لكن صنعت لها معروفًا و انستهى أمر ذلك الجيفه الذى صفعها و الجيفه الاخر بلايو الذى كلما نظرت اليه ترى في عينيه نظرة احتقار واضحه و اليوم فقط
اظهر سواد قلبه و نيته في حديثه معها اليوم و قد تاكدت من شكوكها و ظهر اخيرًا هذا الوجه المختبئ اسفل قناع اللطف.

اعتدلت في جلستها و استقامت و هى تُملس على معدتها بجوع و قد بدأت تُصدر اصوات قرقره عاليه تستغيث طلبًا للطعام.

زفرت بضيق و وقفت بتعب و اخذت توارى شعرها أمام المرآة ثم خرجت من الغرفه متجهه للمطبخ لكن استوقفتها صينيه الطعام التى لم يمسسها حنا و وضعها على الطاوله كما هى اقتربت منها و نظرت لها بتفكير و شرود و قد خشيت ان يكون قد اصابه مكروه ما او اشتد عليه التعب و لكن جانب اخر اخذ يطمئنها انه بخير و لعله نائم او شبع لكن قلبها غير مرتاح و بدأت تستشعر الخطر.

طرقت باب غرفته عدت مرات و لم تجد رد لتحزم امرها و تدخل و ما توقعته قد كان، اذ كانت حرارته مرتفعه و جبينه يتفصد عرقًا و قد التهب جرح ذراعه.

فرت حكمت و احضرت ادواتها الطبيه و وضعتها على صندوق الملابس ثم ربطت على كتفه و هى توقظه من نومه حتى فتح عينيه بألم و قد أمسكت بيده تجلسه على السرير نصف جلسه و قد تحسست وجهه قائله بتوتر: اسمعنى جيدًا... ساعدنى... انت متعب للغايه و ان استسلمت هكذا انت من سيتحمل العواقب هيا تماسك. ثم وضعت في فمه قطعت قماش حتى يعض عليها عند المه و نزعت عنه قميصه و وضعت قماشه مُبلله بماء بارد و خل قصب السكر على جبينه لتمتص الحراره.

و بالرغم من حالة الوعى و اللاوعى التى بها الا انه كأن يحاول عدم النوم و الاستسلام للتعب و قد كان يزئر بكل قوته كلما اقتربت من جرح ذراعه و يقبض على الفراش حتى ابيضت مفاصل يده و اخذ ينتفض بقوه و هى بالرغم من توترها الا انها اظهرت التماسك و اخذت في تهدئته و بث القوة و الهدوء من كلماتها القليله حتى انتهت و انتهى هو اخيرًا من هذا العذاب ثم نظفت المكان من حوله و غسلت يديها و عادت اليه و هو على حالته تلك يستند على ظهر السرير و يميل برأسه للوراء و قد احمر وجهه بشده من الألم و الارهاق و عينيه معلقه في الفراغ و قد اشفقت على حاله كثيراً و رق قلبها له و شعرت كان المه فيها و اليس فيه ثم

اقتربت منه و جلست على السرير و اخذت تمرر له الملعقه المحمله بالعسل الابيض و قد نظر لها بارهاق و لم يتكلم و استقبل ما تعطيه بهدوء و البسته ملابس نظيفه و عقدت شعره في رابطة شعر و رفعته فوق عنقه حتى يرتاح في نومه و ساعدته على الاستلقاء و النوم مره اخرى و قد همت بالخروج لكن استوقفها عندما امسك بيدها بوهن قائلاً: شكرا لكي ... صلى و ادعى لى انتِ طاهره و انا مليئ بالخطايا و الذنوب. .. الرب لا يحبنى.

جلست الى جانبه مره اخرى و يدها اسيرة يده قائله بهدوء: لما لا يحبك و هو من خلقك... الرب يحب من يخطئ و يتوب... ليعفوا عنك و يشفيك... ستكون كل الامور بخير فقط لا تقلق... كلما ضاقت الأمور فاعلم ان نهاية الازمه قد اقتربت.

حرر يدها و وضع يده على عينه بالم قائلاً: اتمنى ذلك.

دثرته جيدًا وأتجهت إلى باب الغرفة لكن أستدارت بدهشة رافعة حاجبيها عندما نظر لها بعينيه الناعسة تلك قائلاً بإجهاد: من ذلك الشاب الذى ذهبتى معه؟ إنى رأيتكما سويًا من النافذة.

فلتت منها ضحكة بلها وهي غير مستوعبة لما يتفوه به ذلك الحنا وقد كان يراقبها ويراقب من معها.

أتكأت على مقبض الباب بذراعها قائله بدهشة: لا أدرى ماذا ستستفيد ان عرفت لكن على العموم هذا جارى حضرة الشماس فيكتور قد ألتقينا بالصدفة، لا يذهب رأسك لبعيد.

أغمض عينيه قائلاً بنبره بارده: انا فقط أطمئن عليكى يا سُكره.

في اليوم التالى استيقظ حنا من نومه و قد تقلب في سريره بألم يكاد يفتك بذراعه بقوة و صداع قوى و كان طبول الحرب و نواقيص الخطر أصبح لها افواه تصرخ في رأسه بقوة و حلقه الجاف و أذنه التى تؤلمه و كأن بها ابر تنغص عليه عيشته تزامنًا مع حلقه الجاف.

مسح وجهه بارهاق و خلل أصابعه داخل شعره لكن توقف و توقفت أصابعه بدهشه و بدأ يفق من نومه ببطء و دهشه و هو يتحسس رباط شعره و هو طوال عمره لم يربط شعره بشئ و قد كان يتركه متحررًا حول وجهه.

اعتدل في جلسته و انزل قدميه من علي السرير لينظر الى قميصه المتغير و طبق الكمادات علي صندوق الملابس وكيس القطن و المطهر والشاش الأبيض ليدرك ان هذا التغير بسبب جوليانا و قد بدأ يتذكر ما فعلته معه ليلة امس، وحماقته في الحديث معها لكن شعر بأن شئ ما سينفجر بداخله إن لم يسألها.

وقف على قدميه و حاول المشى الى الخارج لكن الدوار داهمه ليقف في منتصف الغرفه ممسكًا برأسه بألم و قد دخلت حكمت الغرفه بعد ان طرقت الباب و لكن هرولت اليه بقلق وأمسكت يديه و حاولت ان تجبره على الاستلقاء قائله: ماذا دهاك؟ انت ما تزال متعب ارتح قليلاً... هيا عد للنوم.

اوقفها و قد امسك ذراعها و نظر اليها وعلى شفتيه ابتسامه متعبه قائلاً بهدوء: اهدئي انا بخير فقط اريد الخروج من الغرفه سامت منها. ثم تابع بتكهن قائلاً: اشم رائحة فطيرة تفاح.

هزت رأسها بنعم وتابعت قائله بتوتر وتردد من فعلتها الغبيه تلك: لا... اقصد نعم... اعنى... انت تحبها و خمنت اذ أكلت منها سترتاح قليلاً...

تابط بذراعها واخذوا في السير ببطء الى طاولة الطعام قائلاً وهناك ابتسامه صغيره علي شفتيه: اذًا انتِ تتذكرين ما كان؟

ابتسمت هى الاخرى بدورها وسحبت كرسى له وساعدته على الجلوس بهدوء دون ان يتاذى ذراعه و سكبت له الطعام في طبقه قائله: اتذكر... لم اكن احب التفاح اطلاقًا الا عندما تذوقتها في القصر عندكم و قد اخبرتنى السنيورة مارلين انك من يصنعها بنفسك.

ثم جلست على الكرسى المقابل له و بدأت في سكب الطعام لنفسها قائله بمرح: انهى طبقك و لتتذوق فطيرتى و لنرى ايهم أفضل اتفقنا؟

وضع الملعقه جانبًا و نظر لها نظره غامضه قائلاً بهدوء: وتتذكرين انى احب سمك السلمون ايضًا؟

تعلقت ملعقتها لثوانى في الهواء ثم ارجعتها الى الطبق و تخلت عن تلك الابتسامة قائله في هدوء: احيانًا هناك ذكريات و أشخاص لا نستطيع نسيانها و نسيانهم لا تدرى لماذا لكن تأتي الاجابة في موعدها وها هو موعدها.

اقترب قليلاً من الطاوله و نظر الى صلب عينيها قائلاً بنبره غريبه لاول مره تسمعها منه: اتقصدين انكى لم تنسينى طوال الاربعة عشر عاماً الماضيه؟

توترت بعض الشئ وانزلت يديها اسفل الطاوله وهى تتلاعب باصابعها في توتر قائله وعينيها تنظر الى زاويه الغرفه: لقد كنت جزءًا كبيرًا من طفولتى و كونت لدى ذكريات كثيره لا يمكن نسيانها لهذا انا اتذكر بعض الاحداث لكن هناك فرق عن الماضي انا الان لم اعد جوليانا الطفله التى كانت تتعلق برقبتك انا قد اختلفت عن السابق سواء كان شكلى وعقلى وتفكيرى ونظرتى للحياه والناس وخوفى من المستقبل وطباعى ومن انا، انا العامله جوليانا لا اكثر ولا اقل، و انت ايضًا لم تعد السيد حنا الصغير الذى يضيع وقته ويلهو مع طفله لقد ازدادت قيمتك وعلى شأنك ومكانتك وطباعك كلانا اختلف عن الماضي ولم يبقى سوى القليل من الذكريات وتلك الذكريات هى الشئ الجميل في الحاضر. ثم عاودت الابتسام مره اخرى قائله في حرج و قد نظرت له مره اخرى و قد ازدادت نظراته غموضًا: لقد اطلت الكلام هيا تفضل الطعام قبل ان يبرد.

ثم عاودت تناول الطعام حتى تهرب من عينيه المصوبه عليها طوال الوقت و قد اتلقت بضع اللقيمات القليله و كانها جبل لا يتحرك من حلقه بسبب تلك الكلمات التى يتمنى ان يبوح بها الان و ينزل هذا الحمل من علي صدرة ويشعر لاول مره بهذا الشعور ولاول مره تكون الكلمات عبء ثقيل على كاهله لتلك الدرجه ام ان المشاعر الصادقة دائماً ثقيله هكذا؟

ابتلع ما في جوفه قائلاً و عينيه مع صحنه و قد لفت انظارها اليه: عندما انتقلنا الى مدريد كنت في الثالثه والعشرون لم نستقر وكنت ما زلت اتدرب في صفوف الجيش كمجرد جندى احضرت لى امي عروس كانت في السادسة عشر قبل ان ارفض كان ابى رافض لهذا الأمر ثم تابع بسخريه قائلاً و هو ينظر الى عينيها: تخيلى طفله في زمرة الاطفال و بعدها أحضرت لى ابنة صديقتها و قد تمت الخطبه بالفعل و لكن تركنا بعضنا لان كلانا لم يكن يتوافق مع الاخر.

ثم تابع حتى يصل الى مبتغاه من الحديث و بعدها كنت في السابعه و العشرون تعرفت على فتاه من إنجلترا جائت مع والديها للدراسه هنا و الاستقرار كان هناك ممشاعر بيننا لنقل اننا احببنا بعض و اتفقنا على الزواج و رضيت العائلتين لكن قبل الزفاف تركنا بعضنا لاصرارها على العيش في إنجلترا و ترك اسبانيا و كنت في بدايه حياتى المهنيه و ابى كان رافض و امي و كذلك اخى بلايو و قد فكرت مليًا في الامر و جدت اننى لم احبها يومًا بل كان مجرد اعجاب هى أرستقراطية جميله متعلمه لما لا اتزوجها لكن كلما كبرت و تقدم بى العمر أدركت ان هناك دائماً فرق بين ما تراه العين و ما يراه القلب.

ابتسمت بهدوء و تركت طبقها على جنب بعد ان انتهت من طعامها قائله و قد فتح لها الطريق للحديث الطويل: تذكرنى بنفسى كنت في الخامسة عشر و كنت في غرناطه ازورّ خالى لنجد زوجة خالى احضرت لى شاب في الثامنة و العشرون عندها رفضت امى قبل ابى بسبب صغر سنى و الفارق العمرى و عندما كنت في التاسعة عشر تقدمت لى جارتنا كاترينا لطلب يدى لابنها فيكتور لكن كلانا رفض هو يريد ان يصبح قسًا في الكنيسه و مهتم بدراسته و انا كنت اهتم بالبيت و العمل بالاخص بعد وفات ابى لن يكن هناك شئ امامى سوى اخى و امى فقط كل شيء.

رفع حاجبيه قائلاً بدهشة: و هل فقد اهل مدريد عقلهم ليتركوا هذا الجمال وحده؟ ثم تابع بجديه قائلاً و كانه يناقش امر نهاية العالم مع احدًا ما قائلاً: صدقيني يا جوليانا الحياه من دونك كشئ لم يكتمل بعد... و لو عرفتك قبل عامين من الان لكان الوضع اختلف... انتى غير الاخريات... و حتى لو في عينى فقط انا لا ارى الان امرأه غيرك و كانك سحرتى عينى... انتى جميله و لا يمكننى ان لا يعجب بكى احدًا.

لن اقول ان الدماء قد اجتاحت وجهها بل ساقول فرت من وجهها و قد أبيضت شفتيها و اتسعت حدقتيها و لم تتلاقى جفونها لثوانى من هول ما تسمعه من غزل صريح لا حياء فيه و لا تستُر و لا تدرى كيف ابتلعت ما في جوفها لتنظر له ببهوت قائله و هى على نفس الوضع: انتى تهزى!

قطب جبينه و رفع كتفيه قائلاً بعمليه و واقعيّة: على العكس تمامًا انا اقول الحقيقه... هل هناك من هى اجمل منكى؟

لم تُرد ان تُكثر من حديث لا فائدة و لا جدوى منه لتقف و هى تهرب بالمعنى الحرفى للكلمه الى غرفتها لتنهى تلك التُراهات الان لكنه كان أسرع منه ليمسك ذراعها و يقف منتصبًا و كان ليس به الم لتتخذ رد فعل صادم عندما لكمته بحده خفيفه في جرح بطنه ليقفز من مكانه ممسكًا بموضع جرحه بألم و ترك يديها اما هي فقد قفزت دماء الغضب و الخجل الى وجهها دُفعةً واحده و جزت على أسنانها قائله بقوة و شموخ: من انت و ماذا تحسب نفسك فاعلًا؟! لقد تجرأت أكثر من اللازم و تخطيت حدك ان كنت السيد حنا صاحب الجيش و السلام في مدريد فانا جوليانا... أ تفهم انا جوليانا بنت اندرو اغسطس القابله و انت الآن لست سوى مريض في نظرى و انا طبيبتك و انت هنا تتعافى و من ثم تذهب الى بيتك... و اياك و لمسى باى صفه او مسمى ايًا كان... و الا اقسم ان انتزع كبدك باسنانى و لا اكترث بعاقبة الامر...ثم هدرت و بصوت عالي هز ارجاء البيت _و هى تنظر الى وجهه الذى يشع غضبًا حاول كتمه قبل ان يقتلع عينيها _قائله: اتفهم؟!

.....

—----------

الفصل التاسع

فى تل الغرباء وفى المساء كانت خديجه في غرفتها هى وطارق الذى كان يجلس على كرسيه في زاويه الغرفه ممسكًا بمركب خشبيه قد صنعها له اثانيوس خصيصًا من أجله بعد ان علم بسفرهم الذى بات على الأبواب و ما هى الا ايامًا قلائل و يعود الطير مع امه الى عشهم الصغير في مدريد للعوده الى عصفور في ورطه ينتظر امه لتنقذ جناحه المكسور.

لكن طارق لا يريد ان يعود ابدًا يريد ان يبقى فى غرناطه مع أبناء خلانه و رفاقه الجدد هنا و قد ألف المكان و الناس و أحب تلك الروح الطيبه التى تغمر الجميع في البيت و كان الكل يلعب في فريق واحد قد تجد بعض المشاحنات و الغيره لكن ان مس احدهم الضُر يتكاتف الجميع و ينسون تلك المشاحنات و يصبحون على قلب رجلاً واحد من اجل أجتياز تلك المحنه و اضف الى ذلك انه لم يشعر بهذا الدفئ الا بين اسرته و هنا لا مكان لتلك المشاعر في مدريد بين اصدقائه الذين كلما تقدم بهم العمر باتت تظهر بينهم نزعه من الانانية و الغيرة و الفتور الذى لم يشعر به بين أقربائه هنا، و بالطبع لم يترك وسيلة اقناع الا و استعان بها و فعاها توسل اليها، ساق خلانه على امه امتنع عن اللعب في الشارع، اطاع اوامرها، رتب الغرفه، و لكن للاسف كالعاده بأت محاولات بالفشل الذريع و قد استعان باخر حل هو الامتناع عن الطعام و قد عزم على حبس نفسه في الغرفه لكن هذا ايضا لم يُجدى نفعًا و لم تقتنع خديجه بشيء و هى اكثر منه عنادًا و تمسكًا برايها بالرغم من محاولات الجميع الا انها استعانت بالله و عزمت على اكمال حياتها في مدريد الى جانب ابنها و ابنتها.

و بين حل الفينة و الأخرى كانت تختلس الانظار تجاهه بينما تحيك بعض الجوارب ببكرة صوف و ابرة تطريز عملاقه و قد رق قلبها له و شعرت بالاسه تجاهه بسبب الحزن الحقيقي الذى ملئ وجهه و هو يشرد في تلك اللعبه بين يدية حتى تركت ما بين يديها و امرته بالمجيئ و قد ازعن في تلبية الامر و جلس على السرير جوارها مطأطأً رأسه حتى احتضنته و ضمته الى صدرها قائله بهدوء و مسايسه: انا اعلم انك حزين لانك لن ترى اصدقائق هنا الا بعد مده طويله او قصيرة الرب وحده يعلمها لكن حياتنا كلها في مدريد قبر ابيك و اختك و عملى و عمل اختك و دراستك في الكنيسه كل هذا في مدريد لا غرناطه.

رفع راسه من علي صدرها و نظر لها بعينى القطه و تموجت جبهته قائلاً باعتراض: لما لا تاتى جوليانا الى هنا و اذهب الى كنيسه هنا و ينتهى الأمر.

هزت رأسها نافيه قائله بهدوء و حزم: اخيلا في تلك الدنيا ليس كل ما نريده و نتمناه ندركه، يجب علينا التضحيه لاجل الاهم، ألا تريد ان تصبح نجار و تهوى الصيد؟

هز المعترض رأسه لتستانف هى قائله: مدريد مليئه بالانهار عكس غرناطه تستطيع الصيد كيفما شئت و هناك ستعمل في النجارة لكن لا حياة لنا في غرناطه يا صغيرى. اتفقنا يا اخيلا؟

هز رأسه منكسًا اياها و وافق على مضد مضطرًا و هو يرى كل الطرق و السُبل قد سُدت في وجهه و لا امل في حديثًا لا طائل منه سوى الرفض.

ابتسمت خديجه بهدوء و لثمت رأسه و ضمته الى صدرها مره اخرى قائله: هذا هو ولدى العاقل... و انا اعدك انه كلما سمحت الفرصه سناتى الى هنا مره اخرى.

ثم بدات في تسطيحه على السرير و تغطيته و اطفاء الشموع من حولهم و تندس الى جانبه في الفراش حتى غط كلاهما في نومًا عميق.

في مكان جديد اخر سنذهب اليه في منتصف الليل قارس البروده سويًا فاستعدوا وارتدوا المعاطف وامسكوا بالشموع وهيا بنا الى اسفل الارض و ليس سرداب جوليانا بل سرداب محكمة التفتيش الخاصه بمدريد.

وقد كانت كاترينا العجوز تسير الى هناك صوب مكتب الضابط المسؤل _ وهو اعلى رتبه من بعد البابا فى المحكمه _الى جانب جندى قد استقبلها من علي الباب و لم تكن المره الاولى ولن تكون الاخيرة على العموم، وقد اعتادت بالتردد على المحكمة كلما وجدت شئ ذو اهميه لتوشى به الى المحكمة و تاخد مكافأة من بعض العملات الذهبيه اذا كانت المعلومه ذات اهمية و ان لم تكن فقد تُعلق على العجله الدواره مثل ذلك الذى قد عُلق راسًا على عقب و ارتفعت قدميه لفوق و قد أحمر وجهه من شدة الاختناق و سالت الدماء من سائر انحاء وجهه و صدره العارى و فمه مكمم بقطعة قماش لتقلل من صدى اناته المتالمه و فى زاويه الغرفه كان اخر معلق من يديه التى تشققت مفاصلها من التعلق الطويل لتنزف هى الاخرى و قد فقد وعيه من شدة الاعياء و الألم و ناهيك عن عتمة الغرفة و الظلام الاشد سوادًا من العمى و لا منفـء للضوء سوى بعض الشموع على مكتب الضابط المسؤول هى التى ازالت عما كترينا _ وللعلم فقط قد كانا هذان الاثنان هم الفرنسيون الذين لفقو الكمين قبل بضعة ايام و تم القبض عليهم و استجوابهم حتى اعترفا بالجريمه و لا يزالون يبحثون عن المخطط للكمين و لكن هذا ليس مهمًا الان _.

وقفت كترينا التى لم تبالى بالانات المتالمه حولها و ألات التعذيب حولها و كان قلبها قد انتزع ولا يمكنني ان اقول حجر لان الحجر قد يخرج منه سر الحياة و هو الماء اما قلبها لن يخرج منه سوى سحر اسود سفلى بشع لا يمت للرحمه و المشاعر الطبيعية بصله!

رفع ذلك الضابط رأسه قائلاً و قد علم سبب مجيئها من قبل ان تتكلم: ان كان شئ تافه كالاسبوع الماضى ستُشرفين الزنزانه بجانبك.

توترت بعض الشئ و هزت رأسها نافيه قائله بسرعه: لا يا سيدى اقسم انه امر مهم ، في الحى الذى بعد كنيسه المُدينه بشارعين هناك عائله من رجل و فتاه و صبيين من المسلمين يعمل الأب في النجاره و الفتاة في عمر السابعة عشر و الصبيان توؤم في عمر الخامسة عشر يعملون في النجارة هم ايضًا و امهم ماتت من عامين.

امسك ذلك الضابط سره من العملات الذهبيه قد اخرجها من درج المكتب و مد يده في انفى و غرور لا يوصف و كانه ملك الكون و لا حاجه للوصايه فقد سال لعاب كاترينا على الفور و لمعت عينيها بجشع و طمع كانها كلبًا مسعورًا وجد عظمه سيتسلى بها و بالفعل هى كذلك، مدت يدها تاخد السره لكن ذلك الضابط ابعد يده و نظر لها في غرور و تهديد و نوع من الزل قائلاً: اقسم بالرب ان كانت معلومات كالمرة السابقة لن اتهاون ابدًا قد انذرتك.

ثم مد يده بالسره مره اخرى حتى امسكتها اخيرًا و اخذت في رفعها في الهواء عدت مرات و الامساك بها قائله: لا تقلق سيدى الامر صحيح مئه بالمئه.

في صباح اليوم التالى فى عش النمور لن انكر ان كلا النمرين قد ناما لكن نومهما لم يكن كافى، فكلا النمرين قد اصابهما الارق وداء التفكير الذى ليس له دواء ومرض المشاعر الجديده التى بدأت تُداهم قلوبهم وكلاً منهما بطريقة مُنافية للاخرى واحساس غريب واخر.

فسأبدا بجوليانا التى كانت في حالة من المصارحة وجلد الذات التى لا بد منها وبالاخص و هى تشعر ببعض الانجذاب والود تُجاه حنا وهذا الامر غير مقبول تمامًا باى شكل من الاشكال.

ولنقُل سويًا انه اعجاب مجرد اعجاب لا اكثر لكن هل هذا الاعجاب صحيح؟!

استندت بجبهتها على النافذه و اخذت تنظر الى الشارع الجانبى من النافذه المُطله عليه و قد اخذت ترتب افكارها و تبحث عن الصواب في كومه من المشاعر المحرمه و الاحاسيس التى لا مكان لها سوى سلة المُهملات، اولاً وقبل اى شئ وكل شيء اختلاف دينهم والذى هو محرم في الإسلام زواج المسلمه من غير المسلم واضف على ذلك انها ليست مسلمة عاديه بل مورسكية اندلسية وهو مسيحى اسبانى ومن كبار رجال الدوله والشرطه وان علم باسلامها شئ ستلقى الاحبى في الفردوس الأعلى باذن الله ولا نقاش في الامر.

ثانيًا اخوه الجلف المتكبر ملك الغرور والتبجح بلايو الذى لا لوم علي حنا فيه و لا ذنب لان اخاه مجرد جلف متبجح بارد عديم الذوق وقد تذكرت عندما كان حنا يموت كم توسل لها بلايو وتذلل حتى تنقذه وما ان انقضى طلبه بدأ يعاملها كسائر سادت مدريد الذين لا يعرفون احدًا اعلى منهم و لا اهم منهم غيرهم وهذا هو الطبيعى والحقيقى على ارض الواقع.

ثالثًا امها، امها هى الاخرى لن تقبل بهذا الامر والوضع مثلها تماماً وقد تمزقها اربًا صغيره وتضعها في حقائب وتطعمها للكلاب.

رابعًا والأهم هل حنا يبادلها نفس الوضع المُسمى بالاعجاب؟

هل يشعر بشيء حقًا تُجاهها؟

هل ينظر لها نظرة مختلفه عن من هم من طبقتها ام يراها تلك الفتاة الصغيرة؟

وقد كذبت كل حديثه وغزله ليلة امس متعلله بانه مجرد اختبار منه ليرى هل ستستجيب له ام لا وهل ستميل بالحديث المعسول وتقع في شباكه كالذبابة في شباك العنكبوت والنهاية لا تحتاج لشرح بالتأكيد_و الان جمهور حنا سيقول لا حنا لم يُفكر أبداً هكذا بل هذا حب صادق والبعض سيقول ان حكمت فقط قد صنعت من حبة الرمل قبه زجاجيّة الان لكن انا اقول ان غاية حنا من حديثه كما فكرت حكمت و لكن مشوب بالاعجاب هو الاخر _.

زفرت حكمت بهدوء و تمسكت بهذا الشال الثقيل بلون الزبيب المُلتف حول كتفيها و ارجعت خصله متمرده من سواد الليل الكامن في شعرها خلف اذنها لكن تعلقت يديها في الهواء لثوانى و قد اتسعت حدقتيها و هى ترى بلايو و مرلين و ايفا ينزلون من العربه امام بيتها و قد طحنت اسنانها المسكينه بضيق من فور رؤية وجه بلايو الذى كانت تفكر به منذ ثواني وقد فكرت لما لم تفكر بالهرب لكانت خارج اسبانيا الان وهذا افضل لها!

قبل قليل في غرفة حنا كان مضجع على جانبه الايسر عاقدًا شعره برباط شعر كما فعلت حكمت_ وقد اعجبته تلك الفكرة وقد شعر بان معالم وجهه قد ظهرت من خلف شعره الكثيف والطويل _ وينظر الى ساعته الذهبيه وقد كان يفتح و يغلق غطائها بشرود وتفكير واخر شئ يشعر به الان هو تلك الساعة التى بين يديها و قد انصب تفكيره في صاحبة رائحة الياسمين و الورد المتفتح في وجنتيها و الغموض في عينيها و منذ ما حدث بالامس و لم يتحدث معها و قد اقتصر الصمت بعد ان حصل على اجابته المنتظره و كما توقع قلبه جوليانا فتاة نقية لا تستسلم لهوى النفس و حديث الشباب الذى يوقع فى الشباك و نهايتة خراب.

وعلى قدر سعادته بكونها طاهرة الا ان تلك المشاعر التى يُسميها حنا حب نعم كما قراتم حب و اكررها للمرة الثالثه حب قد ارقت مضجعه و سلبت لُبه في دوامه من التفكير و هو هل ما يشعر به طبيعى تجاه فتاه مثل جوليانا في سنها بالاخص و قد كان يُلاعبها و هى صغيره لكن الان لفتت نظره و صارت شابة تخطف العقول و تاسر القلوب؟

وهل عائلته سترضى بهذا الحب وستبارك اسرته التى يحلم بتكوينها معها؟ و بالاخص ان جوليانا من العامه وخارج العائله فمنذ ان وطئت عائلته اسبانيا منذ سقوط الاندلس وقد اقسموا على الزواج من داخل العائلة فقط!

وهل ستقبل جوليانا بهذا الحب وستقبل ان تشاركه تلك المشاعر والحياة القادمه؟

زفر بقوة ورمى ساعته على صندوق الملابس واعتدل في جلسته ونكس راسه في حيرة وتفكير وقد اقبل على امر واقتحم عالم سيفتح عليه ابواب من النار والحروب ولن يكون طريقه سهل كسائر قصص الاطفال التى تروى في الازقه والطرقات من قبل الراوى الذى يقتات على سرد قصه الأميرة المسكينه والأمير الشجاع الذى تحدى الشر و غلبه ليظفر بعروسه، لا فجوليانا بالنسبة له بئر عميق من الغموض عليه ان ينزل الى قاعه و يكتشف اسرارة و يخرج تلك الجوهره من الروح المرحه المدفونه اسفل طين الغموض و حجر الصمت و رمال الخوف التى دائماً ما يراها في عينيها البنية تلك التى تكفى ان تنظر اليه فقط لتجعله كالخاتم في اصبعها. لكن الخاتم تكسر هدوئه و تفكيره الان و هو يستمع الى تلك الضجه في الخارج و قد كانت امه و اخيه و ابنت اخيه و بالتأكيد قد اخبرهم بلايو بالرغم من توصيته بعدم اخبارها.

خرج من غرفته ليجد جوليانا تلتقت المعاطف الخاصه بهم و تنحنى ثم تذهب لتُعلقها و تنعطف الى المطبخ و لكن تركيزه قد سُرق و هو يعانق والدته التى انهمرت دموعها بفرحه غامره و قد راته يقف مره اخرى على قدميه و استرد صحته المسلوبه مره اخرى و اى شئ اجمل و اعظم عند الام من ان ترى ابنائها في احسن حال و خير صحةً و عافيةً.

امسك حنا كفيها و لثم كلاهما بهدوء و من ثم راسها و مسح دموعها باصابعه قائلاً بهدوء ليبث لها الاطمئنان و السكينة: اهدئى يا امى... انا بخير الان صدقينى و عن قريب سارجع للبيت مره اخرى فقط اهدئى. ثم تابع بعتاب قائلاً: لما ارهقتى نفسك انا عائد بعد يومين للبيت.

نهرته بهدوء قائله: ليس من شانك انا أتى في اى وقتًا يا ولد... ثم تريدنى ان اعلم ما حدث في الحى و اتركك أصمت و احمد الرب انك مريض و الا كنت ادبتك.

فلتت من حنا ضحكه هادئة و اعاد و الدته التى تصل الي اسفل صدره الى احضانه مره اخرى و نظر الى بلايو قائلاً في تسائل و نوع من اليقين: انت من اخبرتهم؟

بمنتهى الهدوء و البساطه هز بلايو رأسه بالموافقه ليقلب حنا عينيه بملل ثم عانق ايفا التى قفزت بمرح و ابتعدت عن احضانه لتقول بسرعه و هى ترفع يدها اليمنى المُزين بنصرها بخاتم الخطوبه قائله بسعاده: عمى ابى وافق على خطبتى من تيتوس و الفرح خلال العام انا سعيده للغايه._و انتم لا تعرفون قصة حب تيتوس و ايفا التى مر عليها عام كامل من رفض بلايو لذلك الفتى الذى كان في منتصف عقده الثانى بحجج واهيه سواء عمله او دخله او مظهره و غيره بالرغم من انه من عائلة احد النبلاء ايضا و لكنه اضطر مرغمًا على الرضوخ و تسليم فلذة كبده الى تيتوس هذا _.

ضيق عينيه قائلاً بعتاب: من دونى؟

هزت رأسها نافيه بسرعه قائله و هى تستدرج حماقتها: لا الأمر ليس هكذا لم نحتفل من دونك فقط مجرد اتفاق ثم ارتفعت الى مستوى اذنه و قد مال هو الاخر الى مستوى شفتيها لتهمس بصوت منخفض قائله و كانها تُسرب اخبار الحرب: ابى لا يزال غير موافق و امى اقنعته بصعوبه لذلك هو عابس.

غمز لها بعينه اليمنى و هز راسه بتفهم ليصافح بلايو الذى استوقفه و ابتعد عن عناقه قائلاً في دهشه و ضيق و قد صوب نظره تُجاه شعره: منذ متى وأنت تعقد شعرك برباط شعر؟!

رفع كتفيه بلا مبالاه و هدوء و قد عدُل عن مصافحته قائلاً بهدوء اقرب للبرود المسبب للجلطه الدمويه: تغير. ما رأيك؟

امال بلايو رأسه قائلاً ببرود هو الاخر و قد رمى بكلامه شئ وحده حنا قد فهمه: اتمنى ان يكون تغير فقط.

تجاهل حنا نبرته التى تحمل بين طياتها حديث لا يتمنى ان ينفتح الان و فى هذا المكان و هو غير مستعد الان ان يبرر لبلايو تغيره هذا الذي علم بان جوليانا هى السبب الرئيسي به.

جلسوا جميعهم في الصالون و قد اقبلت حكمت و بين يديها صينية الضيافه قد فرقت على الجميع ما فيها من شاى و بعض الحلوى و هى تستقبل الشكر من الجميع و تتحاشى عينى حنا و هو الاخر كذلك و لكن شعرت برجفه سرت في جسدها جعلها تُريق بعض الشاى في صحن و قد شعرت بان بروده قويه عصفت بجسدها عندما تحدث بلايو الى حنا قائلاً بمكر: صحيح لقد تم القبض على اثنين من المتورطين في كمين محكمة مدريد و اعترفوا بما حدث و عن زملائهم و تم القبض على البقيه اليوم ثم تابع و هو ينظر

الى جوليانا بنظره ذات مغزى لم تغفل عن حنا عندما اكمل بلايو و عينيه في عينى جوليانا بتحدى : و القوا القبض على عائله مسلمه تدعى النصرانيه في ضواحى المدينه.

ثم امسك بفنجان الشاى و قد اهتزت مُقلتيها بهلع فقط من مجرد التفكير و السماع و نظرات الشك و التحدى التى يغمرها بها بلايو من راسها لاغمس قدمها لينظر الى ارتجاف يديها ثم الى وجهها مره اخرى قائلاً بمكر: هل انتي بخير يا جوليانا؟

رمشت اخيرًا بعد طول انتظار و تلاقت اهدابها التى افترقت لمده بتوتر و كانها غابت عن العالم للحظه و عادت مجددًا لتهز رأسها بنعم قائله ببهوت: فقط داهمنى الدوار.

ارتشف قليلاً من الشاى قائلاً و قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيره لا يراها غيرها: سلامتك، ما الامر؟

انقذ حنا جوليانا من هذا المأزق و بالرغم من انه لا يفهم ماذا بها الا انه شعر بان بلايو يتفنن الان في مضايقتها و اللعب على اعصاب المسكينه ثم تحدث بهدوء قائلاً: فقط ليلة امس ارتفعت حرارتى و جوليانا ظلت جانبى تداوينى لذا لم تنم جيدًا.

رفع بلايو حاجبيه و قوس شفتيه و هز راسه بتفهم قائلاً: لم اكن اعلم.

لتكمل مارلين الحديث قائله بود: شكرا لكي يا جوليانا لولا ان وضعك الرب في طريق ابنى لكان في خطر الان صدقينى لا اعلم كيف ارد جميلك هذا ليحفظك الرب.

ابتسمت جوليانا ببهوت قائله و قد تبدل صوتها الى اخر بارد و مرهق خالى من الحياه: العفو منك سيدتى لقد قمت بواجبى ليحفظك الرب. ثم انحنت و استاذنت لتذهب الى غرفتها لكن قاطعت طريقها ايفا التى قفزت بحماس و اجتازت حنا و مرت من فوق قدمه قائله: انتظرى ساتى معك.

رفع حنا احد حاجبيه و نظر الى بلايو الذى لم يبدى اى ردت فعل و جلس ببرود تام و هو يتابع فنجان الشاى بين يديه و ياكل تلك الكعكه الصغيره و لم تكن تلك عادت بلايو ان يترك ابنته الوحيدة تصول و تجول و تمرح مع ايًا كان فمابالكم بجوليانا التى لا تسنح له الفرصه حتى يُجج غضبها و يُشعل غيظها و بما ان الامر كذلك فبالتاكيد تلك تعليمات بلايو و له يدًا عليا و سفلى في ذلك و لكن لينتظر و يعرف ما نهاية تلك الزياره التى بدأت تبدو له غير بريئه كما تظهر بالمره و لها اهداف اخرى عاجلاً ام اجلاً سيعرفها.

و قد رحلت ايفا مع حكمت و دخلو الى الغرفه حتى غابوا عن الانظار و ظلت مارلين تتجاذب اطراف الحديث بين حنا و بلايو لمده ما حتى وقف بلايو بحرج قائلاً و هو يرفع ستار الرواق الطويل: غذرًا احتاج الى الدخول لدار الخلاء و لكن لم يشك احدًا في غير هذا حتي حنا سلم عقله له تلك المره و لكن بلايو اقتصد غرفة جوليانا و وقف خلفها يتصنت على حديثهم!

قبل قليل اتجهت جوليانا مع ايفا الى غرفتها في نهاية الرواق الطويل_ و قد انبهرت ايفا بحجم البيت للكبير و سعته مقارنة ببيوت العامه في هذا الحى _و قد ادخلتها اولاً ثم هى من بعدها و قد جلست على سرير جوليانا المتوسط المغطى بشراشف ورديه و لحاف من الصوف الابيض و بطانيه بيضاء ايضا و قد جلست جوليانا على كرسى في زاويه الغرفه لكن ايفا اشارت لها بالاقتراب قائله بود حقيقى _و قد نسيت ما قاله و الدها عندما امرها بان توقع جوليانا في الكلام و تحصل على اى معلومه حتى لو كانت صغيرة و تضرب بكلامه عرض الحائط لتظهر شخصيه لطيفه بعض الشئ في زى مخملى مثلها كمثل حبة السكر الحلوة البيضاء في كوب القهوة المره الداكنه-: تعالى لما تجلسين بعيدًا لم اتى للجلوس مع نفسي.

هزت جوليانا راسها و اقتربت منها بكرسيها لتشير ايفا الى السرير قائله بمرح: يا امرأه انظرى للفراغ الذى تمرح فيه الاشباح هيا اجلسى الى جانبى.

امتثلت حكمت للامر و جلست بهدوء و قد بدات تهدء قليلاً بسبب مرح ايفا و حديثها الذى يجذبها رويدًا رويدًا من تفكيرها و رعبها قبل قليل و قد ايقنت حجم خطر وجود حنا ليس في البيت فقط بل في حياتها كلها و تلميح بلايو اما نبع من مصدرين الاول انه فقط مجرد تلميح و شك ليضغط عليها حتى ينهار ثباتها امامه و الاخر و الذى تدعوا الله ان لا يكون حقيقين هو انه علم شيئًا عن حقيقه دينها و ان كان صحيح فلنودع كلنا حكمت الان، لكن الاخير تقوم به ايفا الان التى تذكرت انها جات حتى توقع حكمت في الحديث و تحصل على اى معلومه تفيد بلايو ليطمئن قلبه اولاً و ليتاكد ان حنا لن يفكر بها مُطلقًا!

خرجت حكمت من دوامة التفكير و القلق تلك على تلويح ايفا امام وجهها بيدها قائله و كانها توقظها من نومها: يا فتاه هل نمتى انظرى لى انا أُحدثك!

هزت حكمت راسها و كانها تستيقظ من النوم و اعتدلت اكثر في جلستها و اعتذرت قائله بحرج: اعذرينى سنيورة فقط شردت قليلاً.

هزت ايفا راسها قائله بتفهم: لا عليكي. ثم تابعت و هى تنظر الى غرفتها قائله بنوع من الانبهار و الدهشه: بيتك كبير حقًا ليبارك الرب فيه.

طقطقت حكمت أصابع يديها قائله بهدوء: هذا بيت جدي ورثه ابى عنه و قد كان وحيدًا لذلك اخذ البيت و فى الاصل جدى كان يعمل عشابًا و فى العلاج بالاعشاب و كانت تدر عليه دخل جيد و قد بنى هذا البيت بنفسه.

هزت ايفا راسها ببطء و قد بدات تفهم ما تقول قائله: لهذا السبب البيت كبير و انتى اصبحتى قابله... و ماذا عن ابيك و امك اقصد لم ارى احدًا معك هنا من قبل.

اجابت بهدوء قائله_رغم ان قلبها يُنذرها بان تلك الاسئله ليست بتلك البرائه التى تظهر بها بل اكيد تختبى اسفلها بثوب دنس مليئ بالمكائدو المكر _: امى من غرناطه و ابى من مدريد تزوجوا في غرناطه و انجبونى هناك ثم عدنا لمدريد للعيش مع جدى حتى توفى و منه بعده ابى بثلاثة اعوام و عندى اخ اصغر منى بكثير و الان هم في غرناطه لان جدى لامى قد اعطاكى عمره و رحل و هم هناك يستقبلون مراسم العزاء."

قطبت ايفا جبينها و قد ضاقت عينيها البنية تلك قائله بتسأل: و لما لستى هناك؟!

ابتسمت حكمت بتكلف قائله: نصيبى هكذا سيدتى حتى اقابلك و اقابل السيد حنا و السنيوره مارلين و السيد بلايو.

ابتسمت ايفا هى الاخرى قائله بمرح: لا بد ان حظك رائع لتقابلى احدًا مثلى. ثم التفتت تنظر الى التسريحة الصغيره و المراه و قد وقفت و اتجهت اليها تنظر الى ما عليها من زجاجات عطور و كحل و احمر شفاه و زيوت خاصه بالشعر و امسكت باحدا زجاجات العطر و وضعت منها علي ظهر يدها بحذر و استنشقت علي مهل و قد صُدمت تمامًا من جمال رائحة العطر القوية و التفتت تنظر اليها و قد توسعت حدقتيها و رفعت حاجبيها ولوهله ظنت انهما التحموا مع شعرها قائله بدهشة: من اين جاتى بهذا العطر رائحته رائعه و قوية.

وقفت حكمت و اقتربت منها قائله بابتسامة صافيه : هذا من ذوقك فقط انا من اصنعه تفضليه ان اردتى.

اغلقت الزجاجه و وضعتها في مكانها و اشارت الى زيوت الشعر قائله بشك:انتى غير معقوله، لا تقولى انكى تصنعيها ايضا؟

هزت رأسها بنعم و لا تزال تلك الابتسامة الصافيه و الفخوره تعتلى شفتيها و قد شعرت بعلو قيمتها و قدرها و كانها ملكة الارض فقط بسبب اندهاش ايفا _و كذلك هو حال قلوب العصافير في تلك الدنيا تتفاعل مشاعرها بكل صدق و شفافية مع المواقف ففى اتفه المواقف بالنسبة لبعض البشر تجد قلوب العصافير تبكى او تضحك او تساعد او تهتم بالغير و لا يفهم احد مشاعرهم اطلاقًا الا القله القليلة من البشر فقلوب العصافير يراها الناس غريبه الاطوار فقط تبكى لموت عصفوره و تنجرح لمجرد كلمه و تبتسم بكلمه ثناء او شكرا صغيره و هى تترك محتاجًا الا و ساعدته و لا عائدًا لجاء اليها الا و انقذته و البعض يُطلق عليهم الحساسون او الطيبون و بعض الحمقى بطلقون عليهم البكائون او الحمقى و البعض السيئ يتفنن في استنذاف تلك الروح النادرة و ذبحها بالبطيئ_.

اخذت ايفا تفتح زجاجات العطور و تختبر روائحها الذكيه و قد اعجبت بالبعض و احبت البعض و عطست بسبب حساسيه من البعض و امسكت بزيت الشعر تجربه و قد احبت هذا المظهر الذى اكتسبهه شعرها من لمعان قوى و كانت تتصرف بحرية غريبه و كانها فى بيتها و لو رائها احد لاعتقد انها احدا جاراتها و صديقاتها من الحوارى و الازقه لا سيده من كبار طبقات المجتمع و كان تصرفها ينم عن شيئين اما وقاحه للعبث باغراض غيرها و اما عفوية تنم عن تجرد القلب و الروح من زينة التكلف.

انتهت من العبث بالزجاجات ثم التفتت اليها ايفا قائله بتسائل:هل يمكنك ان تصنعى لى عطراً من الورد و العود و سارسل لكى من ياخذه؟

و هزت حكمت راسها بتلقائية و ترحيب قائله: بالطبع سيدتى تحت امرك في اى وقتًا كان.

ابتسمت ايفا بحالميه و وضعت يدها في خصرها قائله باعجاب: يا ليتنى كنت مكان عمى و حظيت بمثل ذلك النعيم.

كادت جوليانا ان تهم بالكلام لكن افزعها و افزع ايفا دخول بلايو الغرفه مقتحمًا اياها من دون خجل او استاذان قائلاً بمكر و عينية تنصب على حكمت دون ابنته _و قد مل من حماقة و تفاهة اسئلة ابنته التى اثبتت له بانها افشل جاسوسه على وجه الارض و لو بيده و كان الامر جدى لاصدر امر باعدامها رميًا بالاحذيه لفشلها الذريع في مهمة النساء الاولى تحسس الاخبار_ : و ما ذلك النعيم الذى يعيش فيه حنا.

الفصل العاشر

التفتت حكمت و ايفا في وقتًا واحد للنظر الى بلايو الذى اقتحم الغرفه بدون انذار او استاذان او خجل و كان يقف بهيبته و طول قامته و شعره الاشيب واضعًا يده في جيبه و كلتاهما تنظر و لكن اذا قلنا ان الاتفات كان واحدًا فالانظار لم تكن واحده أبدًا و قد اختلفت باختلاف المشاعر و التفكير.

فاذا نظرنا الى ايفا سنجد انها نظرت قلق و خوف مشوب بالرعب من دخول بلايو المفاجأ و من توتر المكان و الهواء حولها و نضيف ايضًا قلق من تلك النظره الناريه التى احرقتها لانها اغبى من ما تصور و لم تستطع سحب اى كلام مهم و اهتمت بهذا العطر و هذا الزيت و احمر الشفاه بمنتهى الحماقه و البلاده و لو ارسل طفلاً بحفاض لاوقع جوليانا في الكلام و لن اقول ان جوليانا ذكيه في هذا الموقف بل ايفا مجوفة الراس و غبيه.

و اما عن جوليانا فكانت انظارها حاده و قوية تُجاه بلايو الذى لا تقل نظراته حده عنها و نضف ايضًا الخبث و المكر و الدهاء النابع من مقلتيه التى تحتاج للتمزق، و دائماً منذ ان كانت طفله تأتي الى بيته مع ابيها تسأل نفسها لما في عينيه نظرة الازدراء و الاحتقار ليس لها او لوالدها فقط بل لاى شخص اقل منه و لو بدرجةً واحده و كان البشر جميعًا خُلقوا من طينه و هو من لؤلؤ او ذهب و كان ما يثير حيرتها عندما تسأل نفسها لما والد بلايو لا يعاملها بنفس الطريقه و كذلك حنا و لم تجد اجابه تروى عطش فضولها و تُشبع جشعه حيرتها و ان سالت والدها كان يكتفى بانه لا يعرف و ليس مهمًا ان يعرف و لكن الان فقط ستعرف و لن تدعه يخرج من تلك الغرفة الا و ستحصل على أجابه محدده.

كسرت هذا الصمت و تلك الشحنات العشوائية المتضاربه صوت بلايو قائلاً و هو يعيد سؤاله و عينيه تنظر الى حكمت بعبث: لم تُجيبى ما هذا النعيم الذى يعيش فيه حنا؟ لعلى اتى و اعيش هنا ايضًا.

قاطعته ايفا قائله باندفاع به القليل من التوتر: انا كنت اجرب بعض العطور و....

قاطعها بدون اهتمام و اشار براسه للباب قائلاً بأمر قاطع: ايفا للخارج لو سمحتى هيا.

امتثلت لامره و نكست راسها و مرت من جانب جوليانا و القت نظره اخيره عليها و كانها اعتذار او وداع لا تدرى لتخرج و تترك النار و القار بحوار بعضهما البعض.

و ما ان خرجت حتى تسأل بلايو الذى نظر لها مُتفحصًا و متمحصًا قائلاً بهدوء يلاعب الاعصاب: اراكى تُكثرين من اللون الابيض في لباسك، الا تعلمين ان الملك سن قانون يجرم ارتداء اللباس الابيض بكثره؟

امات براسها و عينيها بها صلابه و قوة لم تحيد عنه و عن تفكيره قائله بهدوء: بلا أعلم لكن هذا مجرد وشاح و غير هذا احب اللون الابيض و لم يُسن قانونًا يجرم حب ارتداء الابيض.

زم شفتيه و هز راسه مدعيًا الاقتناع ثم تابع قائلاً و قد قطب جبينه قليلاً: و الصابون؟

عقدت يديها التى بدات ترتجف قليلاً خلف ظهرها حتى لا تفضح قلقها قائله بهدوء: ابى كان يعمل في بيوت النبلاء و اختلط بهم و منهم اخذنا عادة استخدام الصابون. ثم تابعت عاقده حاجبيه و نظرت له من اسفل جفنيها المُسدلين جُزئيًا قائله: مع احترامى لك لكنى لا اظنك جات لتسالنى عن لون ثوبى و الصابون فبالتاكيد شخص في منزلة و قيمة السيد بلايو لم ياتى لاسئله كتلك!

ارتفعت زاوية شفتيه بابتسامة جانبيه ساخره و مُتكلفه و أخذ يدور حولها ببطء قائلاً: انتى فتاة ذكية يا جوليانا و ساتكلم معكي بصراحه... اخى اصبح متغير عن ذى قبل منذ مجيئه الى هنا و هذا التغير لا يعجبنى و لا احد معه سواكى فقلت لعل جوليانا تعرف سبب التغير.

كان يقف امامها بعد ان توقف عن الدوران حولها لتهز جوليانا كتفيها و تمط شفتيها قائله بلا مبالاه: و انا ما شئنى انى مجرد معالجه لا اكثر و لا اقل اسأل اخاك.

استدار حولها مجددًا حتى وقف خلفها و اقترب من ظهرها و اذنها و قطب جبينه قائلاً بعتاب متكلف و كان كلماته كفحيح الضبع القذر: جوليانا جوليانا... لقد كنت اقول انكى ذكيه لما تتخذين من جلد الحرباء لونًا في التخفى... انتى امرأة جميله و لا انكر هذا و لا يمكن لاحد ان لا يعجب بكى و اخى شاب في عز عنفوانه فقلت لعلكى تعرفين سبب التغير ثم اخفض صوته اكثر قائلاً بشيئٍ ما اقرب للهمس: او تكونين انتى سبب التغير من يدرى.

هنا و يكفى لم يعد لديها ذرة صبر و احده و ليحدث ما يحدث و ان قطع رأسها اهون عليها من ذل و قذارة ما تسمعه و قد التفتت تنظر اليه قائله بغضب متناسيه من هو و اى شئ: انت مختل و مجنون بالتأكيد و لا تفسير للتفاهه و الحماقه التى تخرج من فِيك غير ذلك... كيف تفكر بشيء كهذا السيد حنا عمره ضعف عمرى و انا امرأه حره... الحرة لا تزنى... الحره تدعس على اعرافها و شرفها... ان كنت تشك باخيك هذا شيء ثانى لكن لا تلوث شرفي بوحل قذرتك.

زم بلايو شفتيه بغضب من نعته بالمجنون و المختل و اضف ايضًا ارتفاع صوتها و قد تخلى عن شخصية السياسى المحنك الصبور و أظهر شخصية غاضبه و شرسة لا تظهر الا نادرًا و مع القلائل الذين يستنفزون صبره و اصف لذلك لا يرتاح لهم كجوليانا.

قبض على تلابيب ملابسها و جذبها بقوة ناحيته و نظر بعينين اسودت و زادت قتامه و بشاعه لم ترى في مثل شرها و غضبها بالوجود ثم صاح في وجهها بقوة قائلاً: اقسم بالرب يا حره انكِ ستدفعين ثم اهانتك و اللاعيبك تلك غالى... و ان اصبح ما يدور براسى صحيحًا صدقينى قتلك سيكون اخر شئ افعله بك... فلا تحاولين التخفى كثيرًا فسرك بات مكشوفًا لى و اقسم ان كان الامر صحيح ساجعلك عبره لامثالك الذين لا يستحقون ان يتنفسوا الهواء الذي نتنفسه.

كانت تنظر له برعب و غضب و لكن كفة الرعب غلبت الغضب بسبب تلميحاته و ايحائاته بكشف سرها الاعظم باتت واضحه و يتلفظ بها من دون تكتم او تخابث بل بكل صراحه مخيفه تدفعها للجنون لكن هناك ذرة عقل بقية لها انذرتها بان تُكذب تهديده و تخيلاته و تبرء منها و تذكرت فقط ان الشيطان يُخوف اوليائه اما اولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

لذا ابتسمت بسخريه من وراء خوفها و همست بمنتهى الهدوء و نظرات الاستحقار جليه في مقلتيها قائله: لم اكذب عندما قلت انك مختل و مجنون و كل ما تفكر به دربًا من خيالك الضيق و لتذهب انت و تهديدك للجحيم.

تقلصت عضله صغيره بجانب فك بلايو لتدل على انه يطحن اسنانه و قد شعرت بتصلب و ارتعاش بوجنته كدليل على انا يحاول قمع غضبه و يمنع ظهور غضبه و اثبات ان كلمات تلك الفتاه قد اثرت عليه او اثارت غضبه و استفزته و هو له مذهب ان الرجل سريع الاستفزاز لا يستحق لقب رجل بل هو صبى يجارى الكبار لكن جوليانا الان تخطت حدود العقل و الصبر فما كان منه سوى ان يخرج عن ثباته و يصفعها بقوة شعرت بان اذنها قد صُمت و اسنانها قد سقطت من موضعها و لن انسى الدماء التى انسابت بقوه من فمها على الارض و هى كذلك و قد نزل الى مستواها و هم بضربها مره اخرى لكن حنا_ الذى قبل قليل وجد ايفا تحث جدتها على ركوب العربه بتوتر و ارتباك متعلله بانها اوامر ابيها و قد ركبت حتى دون ان تودعه و قد شعر ببعض الريبه من الامر و بالاخص تاخر بلايو و ظنه انه في دار الخلاء ليقترب من المرحاض لكن توقف في منتصف الرواق و هو يستمع الى تلك المشاده الكلاميه بينه و بين جوليانا التى وصل في نهايتها عند نعت جوليانا لبلايو بالمجنون و انه مجرد خيال و قد صُعق و صُمت اذنه عند سماعه لصراخ حكمت و تلك الصفعه _قد اقتحم الغرفه و تدخل بينهم و هو يدفع بلايو في صدره بقوه يبعده عنها قائلاً بحده: بلايو يكفى... ابتعد عنها... هل جننت

ثم هبط الى مستوى حكمت و امسكها من يدها و بيده الاخرى أحاط ظهرها حتى يستطيع مساعدتها على الوقوف قائلاً باسف و قلق: انا اسف، حقًا انتِ بخير؟

وقفت معه و مسحت دمعه خانت عهد الكرامه و القوة و الثبات و هبطت منهمره بقوة و قد تلتها اخرى و اخرى و كان بعينيها فيضًا من شلالًا منهمر، و هزت رأسها بنعم صامته و قد اكتفت من الحديث الان ليلتفت حنا ناظرًا الى بلايو و حكمت ما تزال بين يديه قائلاً و هو يتمسك بكل سُبل الهدوء و التادب في معالة اخاه الاكبر: بلايو أذهب ارجوك الان و انا غدًا ساعود الى المنزل لا عمل لى هنا بعد اليوم، يكفى ما حدث اليوم.

هنا لن اقول ان بلايو صُدم او دُهش و انه لا يصدق ما يُبصر لكن ساقول ان بلايو قد تاكد من شكوكه و بات كل شيئًا مكشوفًا الان و اوضح من قرص الشمس في نهار ايام اغسطس، حنا يُحب جوليانا حقًا و الدليل قلقه عليها و سكينته بين ذراعيه و هدوئها و كانها وجدت ملاذًا امنًا و حصنًا قويًا. و قد اكتفى بما رأى و استوفى من هذا العرض المخزى و المُشين_ و قد لعن نفسه على اجرائه هذا السباق و لعن حظه الذى اوقعهم في طريق فتاه مثل جوليانا و لعن كمين الفرنسيون فردًا فردًا و لعن غباء حنا و قلبه الاخرق الذى اوقعه في حب فتاه مثل جوليانا لا تليق بمستواه و لا بمكانته و لا بعائلته و اضف على ذلك الشك القوي في حقيقة مسيحيتها التى يحاول ان يصدقها لكن حدسه يكذبها _ ليمر من كانبهما و يرحل خارج البيت و يذهب الى العربه امام البيت و يركب الى جوار ابنته و امه متجاهلاً اى سؤال او طلب تفسير او توضيح لسبب تلك الدماء على كفه و حالة التجهم و التشدد في خطوط وجهه التعبيريه.

و لنعود الى الداخل مره اخرى حيث حنا و حكمت و قد خرجت حكمت من دار الخلاء بعد ان غسلت وجهها و بالخارج حنا الذى ينتظرها مستندًا على الجدار و كل ما يشعر به الان هو الضيق و الغضب لم قام به بلايو اليوم و قد كان بين نارين نار الغضب و لو غضب ستحرق النار اخاه الاكبر و نار الحب التى اشتعلت في سائر قلبه و قد لعن هذا الموقف الغبى الذى وضع فيه بين اغلى اثنين على قلبه و بالرغم من انه تصرف بحكمه الا ان جوليانا تستحق اكثر من هذا.

اعتدال حنا في وقفته و نظر الى جوليانا عندما خرجت من المرحاض مخفضه راسها تحاول ان تدارى تلك الدموع و اقترب منها قائلاً في هدوء: افضل الان؟

هزت رأسها نافيه بشده و نظرت الى عينيه بضيق و ألم و نار تكوى قلبها بقوة قائله تزامنًا مع دموعها: لا لست افضل اطلاقًا و لن اكون أبداً الا عندما تحين ساعتى و اجلى.

ثم تحركت من امامه صوب غرفتها و قد حاولت اغلاق الباب ليمنعها و يدخل خلفها قائلاً و هو يمسك يده قبل ان تجلس على السرير و تهم بالنوم: جوليانا اخبرينى ما حدث صدقينى انا لم اكن اعلم ان كل هذا سيحدث.

التفتت تنظر اليه بشراسه و غضب و دموعها لا تكُف عن الهبوط و قد انتزعت يدها بغضب و قوه قائله: ساخبرك... اخاك المحترم يتهمنى بان هناك علاقه قذره بيننا... انا جوليانا التى تحفظ اوامر الرب و تعاليمه يتهمنى اخاك في شرفى ثم ازداد نحيبها قائله من بين شهقاتها: انا قد اخبرتك... من قبل.... لا قيمة لى بينكم... انا لا شئ... و لا احد بينكم... لقد ضربنى لانى... لانى دافعت عن نفسى... هل... هل هذا جزائى... لقد راعيتك و اهتممت بك.... هل هذا جزائى... لما تنظرون الينا دائماً بدونه... ما ذنبى انى ولدت فقيرة... لما ظهرت بحياتى لما... ارحل ارجوك.. ارحل ثم وضعت يدها على قلبها و جلست ارضًا مستنده الى الحائط و هى لا تكف عن البكاء تحت انظاره المتالمه لالمها قائله بنواح أكبر: ارحل ارجوك... منذ ان رايتك و انا لا اجنى سوى الألم... انا لا شئ... لا شئ... لم يتجرا ابى على و يضربنى... ليضربنى كل من هب و دب... ارحل يا حنا وجودك يؤلم قلبى... أرحل.

لتُنهى كلامًا قد خرج من صميم قلبها و اعماق روحها المتمزقه بنوبة بكاء مريره انخرطت بها و قد اظهرت جانبها الضعيف و المكسور لاول مره لحدًا غير عائلتها و قد تكورت على نفسها تخفى وجهها بين ساقيها و ذراعيها كل هذا و حنا يُشاهد و لا يقدر على الحديث و كل ما يشعر به الان هو شئ مؤلم للغاية يعتصر قلبه و غضب عارم يسحق عقله و عينيه تلك قد تلألأت بالدموع لبكائها و تالم لبكائها و غضب لبكائها، لم يتخيل ابدًا ان الحبيب يشطر و يشارك كل ما يشعر به الحبيب الاخر لم يتخيل ان الم عامله من طبقه فقيره و فتاه تصغره بثلاثة عشرة عام كانت تلهو معه و تتعلق برقبته سيؤثر فيه و سيقع قلبه في حبها.

مسح عينيه بهدوء ثم جلس امامها على ركبته و تجرات يده و رفع وجهها مجبرًا ايها لتظر الى عينيه و ينظر هو لوجهه لتزيد معاناته من حالتها الماسويه سواء كان وجهها المكتنز بالاحمرار و الاختناق من كثرة البكاء او من تلك الدموع التى لا يجب ان تزور عينيها ابدًا.

تسلل كفه ماسحًا دموعها باصابعه ثم أحاط وجنتها اليسرى بكفه الايمن و كل دمه تهبط من عينيها تتلقفها اصابعه و تمسحها على الفور و يده الاخرى تمسك كفها الايمن و قد زاد على كل هذا حرارة وجنتيها جراء خجلها و عينيها التى انخفضت بتلقائية و شهقاتها التى بدات تقل تدريجيًا عندما تحدث بهدوء قائلاً: ان لم تكونى ملكه لاحد فيكفى ان تكوني ملكه في عيني... و يكفى انى اراكى اعف نساء الأرض... دموعك تلك تمزق حنا من الداخل و تكوى قلبه ببطء... انتي شئ جميل لا يفهمه احد... انتى مراهقتى و صبايا و شبابى... عليكى ان تكونى قوية و صلبه الحياة مليئه بالف بلايو و الف جندى مثل ليلة التفتيش... سارحل لكن لن اعدك انى لن اعود.... ساعود و لكن حنا اخر لاجد جوليانا اخرى... حياتى كلها ترتبط بحياتك و ان وقف في وجهى الف بلايو.

بللت شفتيها و نظرت له قائله برجاء: ارجوك لا تصعب الامور علي حياتنا ليست واحده بيننا الف حائط و الف سد لن تصمد.

رفع كفها الايمن و لثمه و قد اطال الوقت و هو يسرق انفاسه التى يشعر بانها هواء الجنه يسرقه للحظات ثم نظر لها مره اخرى قبل ان يقف و يذهب قائلاً و عينيه تشع عزم و اصرار : ساعود و ساهد السدود و احطم الجدران لاجل عينيكى فانتِ لا تعرفين من انتى بالنسبه لى

في الصباح الباكر استيقظ حنا او لنقل بمعنى اصح قام من سريره و لم يطرق النوم باب عينيه المزينه بالاهداب البرتقالى و لو للحظه قبيل بضعة ساعات و كل ما يشغل تفكيره هو غبائه القوى و ضعفه و عدم قدرته على استرجاع حق كرامتها التى شعر باهانتها و صمته و دموع الامس كانت كماء النار يكوى قلبة ببطئ و هنا فقط تاكد من حبه لجوليانا الذى بالعشرة حدث و تاكد ان لا حياة الا مع جوليانا و كل ما حدث و سيحدث سيصلحه و سيقاتل فى مواطن كثيره ليظفر بالحلوه التى وضعها الرب في طريقه مره أخرى و قد فتح له الباب ليبدا طريقه و مشواره مره اخرى و من جديد و يخطه كما خطط لسنوات و ايام و ليالى.

و لكن جوليانا الان ليست تلك الطفله الصغيره التى لطالما دللها و حملها و لعب معها بل أنثى ناضجه جميله تصرخ بالانوثه و قد كبرت و اختلفت عن تلك الطفله الصغيره المفعمه بالحياه التى كانت توزع الابتسامات على الكل من دون حساب و كم كانت مرحه و لطيفه الان باتت صامته قوية الهمه رابطة الجأش أنثى في ثوب رجل لكن ما تزال تحتفز من طفولتها بخجلها و برائة وجهها و طيبة قلبها و اكبر دليل تلك الدموع التى انهمرت فور حدوث مشكله الامس تدل على ان قلب العصفور يختبى من الصقر الجارح في صورة ذئب قوى.

وضع حنا يديه في خصره و فرد ظهره و زفر انفاسه بقوه و ارجع راسه للوراء و هو ينظر الى السقف للحظه قبيل ان يهم بالخروج من الغرفه و بالاخص ان هذا الألم في ذراعه أقوى و أشدّ فتكًا من الذى بخاصرته لكن يريد الخروج يُريد ان يراها الآن و باى طريقة و ثمن!

خرج ممسكًا بذراعه بألم و لكن البيت علي عكس عهده منذ مجيئه خالى منها و من نشاطها الصباحى المعتاد لسيت في حجرة المعيشه و لا الطعام و لا في الحظيره و لا يصدر منها صوت من المطبخ.

زفر انفاسه بسأم و ضيق ثم اتجه الى المطبخ حتى يشرب و اخذ في الشرب من هذا الكوب الفخار و بينما الكوب معلق على فمه تعلقت عينيه بمنظر اخر صدمه و بشده!!

تعلق الكوب في الهواء و العينين في الغرفه! ما هذا الذي يراه الآن؟ هل حقًا تلك جوليانا الصغيره التى كانت تعقد شعرها على هيئة اذنى قطه و تحمل بين يديها عرائس صغيره؟ هل حقًا تلك جوليانا الصغيره التى كانت تتسلق قدميه و ظهره حتى تقف على كتفه و ترى البحر من فوق؟ ام تلك جوليانا الصغيره التى كانت تتعلق بيده فور رؤيتها له حتى يلعب معها و يؤرجحها في الهواء؟

لكن الاجابه لا! بالطبع لا و من يقل غير ذلك فهو أعمى. و كيف تكون صغيره و ما تراه عينيه يكذب ذاكراته. و قد ظهرت له من خلف الباب المتوارى تنام بهدوء و سلام ناثره خصلات شعرها الاسود على الوساده حولها و ترتدى منامه ورديه طويله بأكمام طويله لكن المنامه من دون ذلك الوشاح الذى ترتديه دائماً تظهر جوليانا الانثى الجديده امام عينيه.

ابتلع الماء و وضع الكوب باهمال على الطاوله ثم اخذ يقترب من الباب غير محكم الإغلاق ببطء حتى وقف قبل الباب و رفع يده حتى يفتح الغرفه و لكن تعلقت يده في الهواء و هو بين صراع اما ان يستمع لهوى نفسه و شيطانه و يدخل ليختلس نظره صغيره عن قرب او يغلق الباب و يحفظ حرمة الرب و يتبع تعاليمه و ينتصر على نفسه و ظل معلقًا في هذا الصراع حتى زفر انفاسه بقوه و امسك المقبض و قد دخل الى الغرفه لتنتصر نفسه الاماره بالسوء و يقترب اكثر من سريرها.

وقف امام سريرها و قد ألقى نظره عن قرب لها كم كانت تغط في نومًا عميق و كانها تهرب من هذا العالم بالنوم و بالرغم من عمق نومه كان وجهها مجهد و مُتعب و قد كانت تان ببعض الألم.

تجرات يده و ابعدت شعرها عن وجنتها اليسرى و انسابت اصابعه على وجهها و كانها تتذوق نعومه بشرتها لكن النعومه كانت بارد حتى نزل الى رقبتها و كانت بارده هى الأخرى ثم التفت الى النافذه اذ بها مفتوحه على مصرعيها و الستائر تتطاير بسبب الريح البارده العاليه و قد فسر له هذا برودت جسدها، اغلق النافذه و رفع الغطاء من علي الارض ثم دثرها جيدًا و قد صاح عقله بقوة " يكفى الآن لقد اخذت نظره ارجع! " لكن نفسه ابت العوده و قد جلس الى جانبها و كانه مسلوب الاراده خائر القوه خرع العزم امام ما تراه عينيه الان.

داعب خصلات شعرها بهدوء و خلل أصابعه بينهم ثم حررها و أخذ يعيد الكره و كانه يمشطها و كانت رائحة الياسمين المنبعثه من شعرها اسرت قلبه و سرقت بقايا عقله.

ترك اسر شعرها و زحفت يده الى وجنتها يداعبها بهدوء و نعومه و قد ابتسم بهدوء و هو يتذكر عندما كانت في السادسه من عمرها عندما قرصتها نحله في وجنتها اليسرى و كانت تبكي بقوة و تشكو له بانها صارت قبيحه و من فى عمرها يرفضون اللعب معها و صارت محط سخريه و عندها اخذها في جوله على حصانه و أخذ يريها اماكن جديد حتى توقفت عن البكاء و خفف عنها ببعض كلمات الثقه و التحفيز.

همس بصوت منخفض و هو يميل عليها يستنشق عطرها الخفى قائلاً: اصبحتى امرأة تاسر القلوب يا جوليانا... لا توقعينى في شباكك ارجوكى... فلا يمكنني ان لا أعجب بكى.

ثم مال على وجنتها يلثمها بخفه و هو لا يعرف كيف ساقته نفسه من مجرد نظره الى قبله! ثم ابتعد عنها ما ان ادرك غباء و حماقة ما يفعله.

الفصل الحادى عشر

استيقظت جوليانا من نومها و اعتدلت في جلستها و هى تحك شعرها و تمسح وجهها لعلها تفيق من نومها و قد كانت تشعر بالارهاق و التثاق في جفنيها المتورمين من شده البكاء ليلة امس و قد انبت نفسها على ما تفوهت به من حماقه من وراء قلبها لحنا الذى لا لوم عليه و لا ذنب لان اخاه مجرد جلف متبجح بارد عديم الذوق و حظها التعيس دونًا عن رجال العالم احبته هو... نعم احبته كانت تكذب على نفسها و قلبها متعلله بانه مجرد اعجاب لا اكثر لكن هل الاعجاب يصنع كل هذا الالم؟ و هل الاعجاب يصنع كل هذا الحزن و هذا الصدق في المشاعر بالتأكيد لا! و بالعقل و القلب هل ما قاله حنا ليلة الامس اليس حب فقط ينقصه كلمة الحب ، اليست تلك الوعود و هذا القسم دليل الحب لكن لسانه انعقد و لم ينطق بكلمة الحب . آهً منك يا حنا ! لما جائت فى هذا الوقت و لما هى دونًا عن كل النساء وقعت بحبك و وقعت انت بحبها و لكن على الاقل حكمت تعلم ان نهاية هذا الحب الظلام و الفراق لا وجود له لكن حنا المسكين لا يدرى ان هذا الحب لن يدر الصدمات و الام و العذاب الا عليه هو !

لكن لو اننا بحثنا و فكرنا لن نجد مخطئ سوى حكمت و قد القت اللوم علي نفسها فقط لانها ادخلته منزلها و سمحت لنفسها بان تحبه و ان تجعله جزء من حياتها المعقده المليئة بالتفاصيل و العقد التى لا حل لها و لا نهاية الا فرجًا من الله و بطل صابر و صادق مع الله كصلاح الدين ينهى ماسات المسلمين فى اسبانيا و البرتغال و لكن لو ان هناك صلاح الدين فعلاً لما كانت ستسقط الاندلس و لما ستندثر الحضارة العظيمه من بلاد الاندلس ؟! انها فقط امانى و دربًا من دروب الخيال تتعلق بها فى واقع مرير لا حل له و لا فرج الا بيد الله .

اتجهت حكمت الى المرحاض حتى تغسل وجهها تستعد ليوم اخر لا تدرى مثل سابقيه ام مليء بالمفاجئات التى سئمت منها و من اقترابها الدائم من حياتها و تلويحها فوق الافق لتخرج متجهه الى غرفة حنا تطرق الباب بهدوء لكن لا أجابه اعادة الطرق لكن لا أجابه ايضًا، نظفة حلقها و زفرت انفاسها بهدوء متحليه بالهدوء و القوة و فتحت الباب لكنه غير موجود و لا اثر له في البيت اتجهت الى صندوق الملابس و فتحته لكن لا شيء به، جلست على السرير و نظرة الى الفراغ و اغمضت عينيها ببطئ تزامنًا مع انفاسها التى خرجت ببطء و راحه و هدوء و قد زال الكابوس و رحل الهم و حل الامن، الان فقط سترتاح و ستنام في اطمئنان و سلام من دون خوف او قلق لن ترى بلايو مره اخرى و ستنسى تلك الفترة و كانها لم تكن و ستأد ذلك الحب حيًا من دون رحمه و لا شفقه لترحم نفسها و عائلتها من حرب و عذاب لن يتحمله أحد و لا ذنب لاحدًا فيه.

اثناء منتصف اليوم كان حنا ممددًا جسده عارى الصدر الا من رباط الشاش على ذراعه و بطنه فاردًا ذراعيه و ساقيه مثل الطفل الرضيع الذى ينعم بنومه هادئه بعد جلسة طعام مُشبعه، و كان على سريره الكبير المغطى بشراشف بنفسجيه من الحرير و باعمده بنيه طويله تحمل مظله بنفسجيّة و قد كان ينظر الى ذلك السقف بهدوء و شرود و تفكير و حمد ربه انه لم يلاقى احد سوى امه التى كعادتها استقبلته بالافراح و الدعاء و النذور بعودته سالمًا و لكنه غير سعيد يشعر منذ ان ترك بيتها و عاد الى بيته بشئ من النقصان و الفراغ الموحش و السئ في قلبه و عقله و كأن حياته كانت ناقصه و بها فراغ لم يعرفه الا عندما ملئت هى ذلك الفراغ بكل شيء جميل و بديع في هذا العالم كان يريد ان يودعها يصنع اثر لا مثيل له لكن لما الوداع و قد عزم و دعى و قرر انه سيرى هذا الوجه الذى أنار حياته مره اخرى و يخلق الف لقاء و لقاء حتى تستقر في عشه الكبير، و لم يحمل معه من اثرها سوى ذكريات لا تعوض و منديل أبيض مُطرز من الزوايه بورود حمراء صغيره و قد وجد هذا المنديل على الطاوله و اتخذه من دون اذنًا خليلاً له لعله يجذب الحبيب مرة اخرى.

لم تكن له طاقه حتى بالنزول لاسفل و تناول الطعام بل ترك كل شئ لوقته كما ترك قلبه و لقائه الثانى بها الى وقته و بمعنى اصح و ادق لم تكن له طاقه بلقاء بلايو و جداله و هو لا يُطيق النظر في وجهه بعد ما صدر منه و عجزه المخزى عن التدخل.

افاق من شروده و اعتدل في جلسته و جلس على السرير عندما سمح للطارق على باب غرفته بالدخول ليجد بلايو يدخل الغرفه و ما ان راه حتى امتعضت ملامحه و اسود وجهه بضيق و كمد و تناول رباط شعره يجمه مقتصدًا إثارة غضبه و وجومه و قد انزل عينيه ينظر الى اى شئ الا هو حتى جلس بلايو امامه على طرف السرير و قد تغاضى عن ما فهمه من ربط شعره و تغاضى عن تجاهله له و ربط على فخذه بيده قائلاً بود: انرت منزلك يا اخى.

هز حنا رأسه و نظر الى النافذه و قد اشتد فكه و ضيق عينيه قائلاً بضيق: اشكرك.

حك بلايو لحيته بهدوء قائلاً و على شفتيه ابتسامة صغيره متكلفه: لما لا تنظر في وجهي، هل صدر منى ما يغضبك؟

التفت له رافعًا احد حاجبيه و قد نظر له بزرقاوتيه من اسفل جفنيه و لم يُجبه ثم التفت الى الخزانه الصغيرة بجانب سريره و اخرج من احد الادراج كيس نقود جلدى و فتحه يسكب ما فيه على السرير امام عينى بلايو الذى لا يفهم ماذا يحدث الان حتى أفرغ الكيس و القاه باهمال على السرير و من ثم أمسك بالعملات ثم القاهم بهدوء من يده على السرير مره اخرى مصدرين صوت خشخشه قائلاً و عينيه في عينى بلايو بتحدى و سخريه: نقود أجرة جوليانا الطماعه، ردتها لنا في حقيبة ثيابى يا اخى يا سياسي يا مُحنك.

اتكأ بلايو على السرير بذراعه اليمنى و رفع فخذه الايمن على السرير حتى أصبح في مواجهة حنا قائلاً عاقدًا حاجبيه: ماذا تقصد؟

اشتد ضيق حنا و تحدث قائلاً بنفاذ صبر و كانه ينزل حمل من الحجارة من على كتفيه ببضع الكلمات القليله: قصدي تعرفه يا بلايو، انا احب جوليانا و لم و لن اتردد في ان اصرح بكلامى هذا سواء امامك او حتى امام العالم و فخور بحبى لامراه مثل جوليانا فلا تحاول ان تتدخّل في حياتي و دعنى اعيش كما احب.

اتسعت عينى بلايو بشده و قد اصابته صاعقة الدهشة و هول الصدمه من ما يسمعه من اخيه و كانه مراهق او احدًا اخر غير حنا الذى يعرفه مثل ما يعرف كف يده جيدًا، ليتحدث قائلاً و كانه يحاول ايقاظه من اوهامه و لو بيده لصفعه الان حتى يفق من اوهامه تلك: حنا هل تعى ما تقوله و تسمع اذنك ما يخرج من فِيك، تلك الفتاة الفارق بينك و بينها كالسماء و الأرض، انظر للطبقه اباها كان يعمل عند ابينا و لا تخبرنى من اين عرفت لان لى طُرقى ، انظر الى فارق السن بينكم، انظر التربيه و الطباع، انظر الى الدين انا أحيانا اشك في مسيحية تلك الفتاة.

هنا و يكفى العبث بالحديث و اللعب بالكلمات و قد صبر طوال تلك الثوانى ليتحدث حنا بنفاذ قائلاً: ان صدقتك في ما سبق فمستحيل ان اصدقك في الاخيره انا عشت معها و رايتها و عينتها جيدًا و تركت السمع عنها، انها لا تفارق محراب الصلاة و الصليب لا يفارقها و لا تتفوه الا بتعاليم و كلمات الياسوع، صدقنى ان كرهك لها يعميك عن الحقيقة

هز بلايو رأسه على مضد قائلاً بضيق قبل ان يهم بالوقوف: بل ان حبك لها يعميك عن الحقيقه، و لكن ان اخبرتنى بميزة وحيده في تلك الفتاة ساتركك و شانك الان.

نفخ حنا صدره قائلاً بثقه و حب و عقله كله إيمان بما ينطق لسانه: في بيت جوليانا عرفت اهمية الجار، في بيت جوليانا عرفت اهمية الوقت، عرفت الرحمه و التراحم، عرفت الصبر، عرفت الجمال، عرفت الحب، عرفت الحنان، عرفت قيمة العمل،عرفت قيمة الحياه،عرفت سحر الدعاء، يكفى انى عرفت قيمة جوليانا.

وقف بلايو و اتجه الى باب الغرفه حتى يخرج تاركًا حنا خلفه لم يعقب على كلمه و تعابير وجهه الحزينه و المزهوله تكفى كاكبر و أوضح أجابه لحنا و قد استقبلها حنا بالرضا و السعاده بانه سيكف عن مجادلته و القى بجسده على السرير حتى ينام واضعًا وساده صغيره علي وجهه حتى يحجب ضوء الشمس عن عينه.

اما عن بلايو فقد اكتفى بما سمعى الان و ادرك ان أخاه وصل الى حاله ميؤس منها، و لكن الذى لا يفهمه كيف وقف في حب و هوى تلك الفتاة في تلك المده القصيره، و ان كان صادقًا في حبه حقًا هل اخبر جوليانا بمشاعره تلك و ان اخبرها هل تبادله نفس الشعور؟ و ان كان لا فقد حُل الامر من تلقاء نفسه.

و ان كان نعم فهو أمام مشكله حلها معروف ان يبعد قدر المستطاع بينهما و يفرقهما و يوسع المسافه بينهما لعلها تُبعد القلوب و تنسيها ما كان.

و اما ان لم تكن قد اعطته الجواب فهو أمام مشكله لا يعرف حلها و ابعادها و الامر كذلك بالفعل!

مرت ثلاثة ايامًا معلنه عن انقضاء أسبوعين و لكن لن نذهب الى خديجه الان بل نحن عند حنا و لكن في مكانٍ جديدٍ في مقر عمله و بالتحديد في مكتبه حيث كان يجلس على كرسيه المطعم خشبه بالذهب و جسده من القطيفه الحمراء و من خلفه على الحائط صورة بعرض الحائط للملك ألفونسو بزى الحرب و الملكه ازابيلا الأولى و عند اقدامهم خوذة الحرب الاسلاميه التابعه ل"أبو عبدالله الصغير او الزغبى "التى أُمتهنت منه بعد ان سقطت الاندلس و وقع في الاسر قبل تسليم الاندلس_ و لا تزال تلك الصورة و ما نُحت مشابهاً لها معلم من معالم اسبانيا الذى يتفاخر به الصليبيون و يعلقونه الى الان في المكاتب و القصور و المتاحف و اضف الى ذلك الحفل الذى يُقام كل عام في يوم الثاني من يناير احتفالاً بسقوط الاندلس و تجرى فيه مشاهد الذلة و الخزى من تسليم مفاتيح غرناطه و رأيه المسلمين و الاسى كل الاسى على ما ضاع و فات من اندلسنا _ و على مكتبه الكبير قبعته العسكريه و صليب صغير من الذهب و بعض الملفات في بعضها و قد كان منكبًا على احد تلك الملفات يُحاول التركيز فيه رغم انه لا تمُر عليه لحظه الا و يراوده شبه جوليانا و يلوح في مخيلته سواء كانت ابتسامتها او بكائها او تحديها او صمتها او خجلها كل شيئ محفوظ و محفور في راسه و مصقول كالفولاذ الذى لا يصدا و لا ينكسر و غير ذلك هذا المنديل الذى لم يفارق يده منذ ان عاد الى بيته حتى الان و بالرغم من انه في مقر عمله إلا أنه لا يزال ملفوفًا حول يده يستنشق عبيرها و عطرها و ذكرياته معها منه و يقوى وصال حبه به و لو راى احدًا صاحب الشرطه في تلك الحاله لما صدق و كذب ما تراه عينه و هذا هو العشق يا اخى يجعل الحليم حيران و الملك غفير.

و لكن قطع و شتت تركيز حنا و ما كان يفعله دخول صديقيه ديغو و ادواردو و لكن ادواردو دخل بصخبه و مرحه المعتاد على عكس ديغو الذى يمتاز بالهدوء و الرزانه و البساطه ليخالف صديقيه في طباعهما.

اقترب ادواردو_ حليق اللحيه أسود الشعر القصير و صاحب عينين بنيه قاتمه و اقنى الانف عريض الكتفين متوسط الطول و ذو رتبه اقل من حنا و في عمر الثلاثين _ من حنا و فتح ذراعيه قائلاً بمرح و صخب: ها قد عاد السيد حنا من انجلترا و ترك فتايات انجلترا من ورائه يبكين لفراقه.

ضحك حنا و احتضن صديقه و شد على عناقه حتى يؤلمه قائلاً بمرح قاسى: افضل من طائش مُتسكعًا مثلك... اشتقت لك ايها الثور.

ضرب ادواردو على ظهر حنا بقوة قائلاً بمرح: و انا كذلك سيدى... عودًا حميد.

ثم ابتعد عنه و جلس على احد الكراسى بجوار كرسى حنا الذى يتراس الطاوله ليلتفت حنا الى ديغو_ طويل القامه و متناسق الجسد اشقر الشعر ذو شارب مُهذب و عينين بنيه فاتحه للغايه اقرب للون العسلى و فى الثالثه و الثلاثين من عمره و فى نفس رتبه ادواردو _حتى يُصافحه و قد احتضنه بود حقيقى قائلاً: اشتقت اليك كثيرا يا سيدى.

ربت حنا على ظهره بهدوء ثم ابتعد ممسكن بكتفيه و على شفتيه ابتسامة ودوده قائلاً: و انا كثيراً يا اخى... ثم ربت على كتفه قائلاً و هو يشير برأسه للكرسى: اجلس لدينا اعمال كثيره هذا الأسبوع.

جلس ديغو على الكرسى المقابل لوجه ادواردو قائلاً و هى مزح: على رسلك يا اخى فلم انم الليل بسبب بكاء ابنة اخيك.

ليقاطعه ادواردو قائلاً بصدر منفوخ و ضيق: و انا ايضا لم انم طوال الليل الامس.

التفت حنا ينظر اليه رافعًا احد حاجبيه قائلاً بمكر: و ما سبب سهرك؟

وضع ادواردو ساق فوق الأخرى و اتكأ على الطاوله بذراعه قائلاً بضيق: ابن اخت زوجتى المتبجح اكل السمكه التى كنت ساكلها على العشاء و اضطررت لشراء سمك اخر للاكل و لم اجد سوق السمك مفتوح مساء الامس فغضبت و تركت البيت و نمت عند ابى في بيته... تلك هى نهاية الزواج يا اخى تنام عند ابيك.

ضحك الرجلين بصخب و ربت حنا على كتف ادواردو قائلاً و الابتسامة الصادقه الصافيه لا تفارق وجهه و قد عادت ايام الفرح و الصبا : اشتقت لك يا ثور.

ثم تابع بتسائل و فضول قائلاً: و لكن من اخبركم أنى كنت في إنجلترا؟

نظف ديغو حلقه قائلاً بهدوء: من السيد بلايو عندما طلبك البابا بسبب كمين محكمة مدريد فاخبرنا انك خارج البلاد، لكن اخبرنى ماذا فعلت مع البابا.

مسح حنا أذنه باصابعه ثم اخذ يشرح الأمر و هو يلوح باصابعه ف الهواء بيده اليمنى المزينه بالمنديل قائلاً: لا تقلق عندما تم القبض على المتسببين في الحادث هدأت ثورته... المهم الان نحن نحتاج وجوه جديده في العمل... ثم اشار الى ادواردو قائلاً بعمليه: ادواردو أريد منك عمل قائمه تحصر جميع شوارع و أحياء مدريد و كل شارع كم يحتاج من الجنود لمراقبته و حمايته، ثم التفت حنا الى ديغو قائلاً: و انت كذلك يا ديغو اريد منك ان تقوم بعمل حركه تنقلات بين جنود و ستشرف على التدريب الخاص بهم، اتفقنا؟

وقف كلاهما قائلين بعمليه و قد هم كلاهما بتنفيذ تلك المهم الشاقه التى تقع على عاتقهما : اتفقنا.

في صباح احد الايام و على طاولة الطعام و قد شاء الله ان يمر من الوقت و العمر ما شاء ان ينقدى و قد انقضى من العمر شهر جاف و بارد و قاسى على بعض القلوب هنا من دون ودًا و لا وصال و ياليت القمر يرسل كل ليلة سلام الاحبه و شوق العشاق.

كان شمل الاسره الصغيره قد التأم و عادت الحياة و الامور لطبيعتها او لنقول ذلك مجازًا مجاراتًا للواقع الحى الان فمنذ ان جأت خديجه و حكمت في حاله من الصمت و السكون ليست كعادتها تتحدث و تتناقش معها و تتشاجر مع طارق و تتناوش معه لكن الان حكمت اخرى على حتى عندما كانت تحزن او تتخذ من الصمت أنيسًا و العزلة رفيقًا و الدعاء جليسًا لكن صمتها طال كثيراً و حتى الطفل طارق قد لاحظ ان اخته ليست في افضل حالتها بل حزينه للغاية و لكن الام كدار المخابرات لا تاخذ بالظاهر بل تتفحص و تبحث في اصل الأمور لتحل القضيه و ما بالنا بابنتها الوحيده و الكبرى و ما ترى في عينيها من حزن عميق و خيبة امل و الكمد الكبير و كل شكوكها تذهب الى تلك المده التى قضتها بعيدًا عنها و هى على اتم اليقين بان هناك سر قوى و عظيم تخفيه عنها، و كيف لا يكون هناك سر و هى تتذكر عند وصولهم الى البيت انها استقبلتهم بالحلوى و الطعام الشهى لكن بصمت و عندما دخل طارق غرفته للنوم قد اندست داخل احضان خديجه و انفجرت في بكاء مريره تقص عليها ليلة التفتيش فقط و لا شئ سواها فقط تلك

الليله فلا وجود لحنا و لا لغيره كما عزمت و عكفت على اخراجه من حياتها و قلبها و عقلها و لكن لن تستطيع اخراجه من ثنايا روحها و هى اعلم الناس بذلك؟

أنهى الجميع طعامه و تشاركوا في تنظيف المائده من حولهم و دخل طارق غرفته لتبديل ملابسه و احضار حصانه الخشبى و سيفه الخشبى للعب مع اصدقائه و قد جلست حكمت و خديجه كلتاهما في حجرت الجلوس و بين يدي خديجه كرة الصوف و أبر التطريز و شرعت في الحياكه و النسج لتنهى بعض الأعمال التى وصلتها و الى جوارها حكمت التى جلست و رفعت ساقيها من علي الارض محتضنه اياهم و اراحت راسها علي ظهر الكرسى تاركه شعرها حر ناظره الى اللا شيئ و تفكر في كل شئ و لن اتطاول و اطيل في السرد و البيان فالجميع الان يعرف ما تفكر به حكمت.

اخرجها من شرودها صوت طارق الذى وقف قائلاً بتادب: امي ساذهب للعب و لن اتاخر.

هزت خديجه راسها قائله و عينيها و يديها لم تفارق عملها: حسنًا لكن أمام المنزل و لا تتاخر ساعه واحده فقط.

هز طارق رأسه و قبل وجنت خديجه لتبتسم حكمت ببهوت و بلا حياه لكن قبل ان يخرج طارق و تعود حكمت للا مبالاه مره اخرى كان هناك طرقًا قويًا على الباب ارتدت لاجلهن غطاء الشعر و شرع طارق في فتح الباب و من خلفه خديجه و حكمت التان شعرن بقلق و بالاخص عندما كان الطارق يرتدى زى عسكرى لكن من رتبه صغيره لكن صُعقت حكمت و دُهشت خديجه عندما تحدث ذلك الرجل قائلاً: من منكم السيده جوليانا.

نظرت حكمت الى خديجه التى نظرت لها بتسائل و رفعت كتفها و زمت شفتيها للامام بمعنى لا اعلم ثم اشارت على نفسها قائله: انا جوليانا.

عدل ذلك الشاب حزام سلاحه النارى على كتفه الايمن قائلاً بأمر و حزم: السيده مرلين من قصر السيد بلايو مريضه و قد أُرسلت بامرًا من السيد بلايو و السيد حنا في طلبك لكى تُداويها.

الفصل الثاني عشر

شرع طارق في فتح الباب و من خلفه خديجه و حكمت التان شعرن بقلق و بالاخص عندما كان الطارق يرتدى زى عسكرى لكن من رتبه صغيره لكن صُعقت حكمت و دُهشت خديجه عندما تحدث ذلك الرجل قائلاً: من منكم السيده جوليانا.

نظرت حكمت الى خديجه التى نظرت لها بتسائل و رفعت كتفها و زمت شفتيها للامام بمعنى لا اعلم ثم اشارت على نفسها قائله: انا جوليانا.

عدل ذلك الشاب حزام سلاحه النارى على كتفه الايمن قائلاً بأمر و حزم: السيده مرلين من قصر السيد بلايو مريضه و قد أُرسلت بامرًا من السيد بلايو و السيد حنا في طلبك لكى تُداويها.

نظرت حكمت الى خديجه بتوتر جلى و واضح و قد وارت نظراتها عن خديجه التى تحرقها بنظرات الفضول الان متجهه الى ذلك العسكري الصغير الذى بالفراسه لم يبلغ الخامسه و العشرون قائله بتسائل: ألا يمكنها المجيئ الى هنا و سارعها و اهتم بامرها؟ انا لا أذهب الى المنازل للعلاج.

أمال حليق اللحيه الواقف امامها رأسه و رفع كتفيه بأستسلام قائلاً: انها مُصابه بالدمامل في قدمها و لا يمكنها المشى.

عضت حكمت على شفتها العلويه باسنانها و هى تُقلب الأمر في رأسها بتفكير و اخذت تنظر الى طارق الذى كتفيه بين يديها و ظهره مقابلها و ينظر لها بفضول و من ناحية اخرى خديجه التى تنظر لها بنظرات الامومه الفتاكه و الشامله المتفحصه حتى تختبر ابنتها و ردت فعلها و قد رجحت ان حكمت ستقبل بالذهاب و تكسر ما تعاهدت منذ زمن سمحت لها بالعمل و هو عدم الذهاب لاى بيتًا كان حتى و لو بيت خلانها بغرض العلاج مخافة الطمع بها باى شكلًا كان او ان يعترضها اى فردًا كان سواء من جنود الكنيسه

او الفرنسيون او بعض اللصوص او ان يُكشف سرهم الأعظم و الوشاه لا يتوصون بشيء في مدريد فقط ان شمشمت انوفهم رائحة المسلمين فغدًا سنجدهم في حفلة حرق جماعى بقيادة و حضور الملك!

و بالفعل فكرت و قررت و عزمت امرها لتسأل ذلك الشاب قائله بتوجس: هل البيت بعيد عن هنا؟

"لا مسيرة نصف ساعه بالعربه و العربه في انتظارك بالخارج"

هزت حكمت رأسها بالقبول و الموافقة قائله على مضد: انتظرنى سابدل ملابسى.

ثم اغلقت الباب و اتجهت الى غرفتها حتى تبدل ملابسها و من خلفها خديجه لكن حكمت كانت أسرع و اغلقت الباب بالمفتاح لتقف خديجه تحاورها و تناقشها قائله بحده و هى تطرق على الباب بضيق : انتِ يا حمقاء، من تلك مارلين و من حنا و من بلايو هذا؟

نزعت حكمت فستانها و القته على السرير متجهه الى خزانتها الصغيره تبحث عن فستان اخر للخروج و قد وجدت واحد باللون البنى و قميصه ابيض و عليه مشد جلدى بنى اللون ثم بدأت ترتدى ملابسها قائله بصوت عالي نسبيًا حتى تسمعها خديجه و هى تقف امام المرأة: عندما كنتم في مدريد كانت حفيدة السيده مارلين مريضه و دلها عليِ أحد الناس و قد مكثت يومين في البيت حتى برأت و عادت لبيتها.

وضعت خديجه يديها في خصرها قائله بضيق و شك في مصداقية تلك القصة و قد اخبرتها غريزة الامومة و إنذار الكذب بأن تلك القصة مُفبركه و مُخلقه الان و كيف لناس من شكل الحارس و العربه ينتمون للثراء الفاحش بان ياتوا لاحد أحياء مدريد المتوسطة لطلب العلاج من ابنتها و ترك المستشفى الخاصه بالنُبلاء، و لكن فضلك ان تُجاريها حتى تصل إلى نهاية الطريق: و لماذا لم تخبرينى؟

صاحت حكمت من خلف الباب و هى تعقد شعرها أمام المرأه و تضع غطاء الشعر قائله: نسيت يا أمى، ليلة التفتيش انستنى الأمر.

ثم فتحت باب الغرفه أخيرًا و هى تمسك حقيبتها التى بها ادواتها الطبية و أمسكت يد خديجه تُقبلها قائله بمرح: ابتسمى يا اليزابيث و ساحضر لكى حلوى التفاح و انا عائده.

صاحت خديجه بحده و ضيق قائله و عينيها تُطلق شرارة غضب: جوليانا! سنتكلم عند عودتك لن يمر الأمر بسهوله،ثم تابعت قائله بحزم و هى تقف مقابلها و هى عاقده ذراعيها: اخبرينى الان كم ستمكثين هناك؟

اتجهت حكمت الى المطبخ الكبير و من خلفها خديجه التى اتكات بكتفها على باب المطبخ و هى تراقب ابنتها التى بدأت تعبث في الجزء المخصص بالاعشاب حتى وجدت اوراق البلوط و بعض الأعشاب الأخرى و العسل الأبيض الجبلى و عسل الحنطة و الزعتر قائله و هى ترتب تلك العلب في حقيبتها: على حسب يا أمى، هل الدمامل كثيره؟ و هل فُتحت وحدها ام لا؟ و هل نوع الدمامل حميد ام خبيث؟و هل حالتها الصحيه جيده ام لا؟ كل هذا سياخذ وقت طويل يا امى.

ثم حملت حقيبتها الجلدية الكبيره و وقفت أمام خديجه قائله برجاء و هى تُمازحها: أمى الجميله ادعى لى ان يمر الأمر على خير، لأنه لو صار شئ للمرأة راسى سيعلق غدًا على مداخل مدريد.

على الرغم من ضيقها و حزنها و حالة الوجوم التى تلبستها من مدارات ابنتها لأمر كهذا بغاية الاهميه إلا انها عندما ذكرت الشر الذى قد تتعرض له حتى رقت الامومه و ربتت على كتف ابنتها قائله بضيق: حماكى الله لا تقولى هذا، خذي اخيلا معك لا تذهبى وحدك.

ابتسمت حكمت بود و قبلت رأس خديجه ثم مدت يدها الى طارق الذى قفز مثل النمر بسرعه و فرح و قد هرول الى العربه التى تنتظهر بسعاده و هو ينظر اليها بدهشه و كانت تلك اول مره يركب بها عربه فخمه كتلك و تظهر عليها علامات الثراء و اول علامه هى ألجمة و زينه الخيل من الذهب و المقاعد الناعمة من القطيفه الحمراء المُطرزه بخيوط من الفضه و اتساعها الكبير من الداخل و تلك الابواب الخشبيه التى أُغلقت عليهم و اخذ طارق ينظر إلى الطريق من خلف تلك النوافذ الخشبيه المتشابكة و المتداخله خطوطها الخشبيه الصغيرة مكونه ما يشبه السلك العازل في عصرنا الحالى _لكن خشبى لطيف يخفف من حرارة الصيف و يرفع الحراره في الشتاء _ إلى الطرق الخضراء و المزارعه و الشباب الاقوياء و الفتيات اليافعات الذين يركبون الخيل و البعض يتدرب

الفروسية بجميع انواعها و قد كان يُشير اخيلا الى كل هذه الأشكال الجديده و العالم الاخر المختلف عن رتم الحياة التقليديه التى يعيشون في كنفها منذ ولادتهم.

و اكثر ما ادهشه هو ذلك الشاب الذى كان يُحارب بالفاس ببراعه و قد صاح قائلاً لحكمت و عينيه لم تحيد عن الطريق: انظرى جوليانا لقد قام بحركةً رائعة. ثم التفت اليها قائلاً: هل ساستطيع ان امسك بالفاس مثله يومًا ما؟

احتضنت حكمت كتفيه بذراعها اليمنى و خذت تشرح له الأمر و تحدثه و هى تشير في الهواء بيدها اليسرى قائله: بالطبع يا بطل فانت ابنًا لاجداد عظام احدثوا ضجه و ارعبوا العالم و غيروا التاريخ بفرسانٍ شجعان و ستكون بمشيئه الرب فارس قوى تحمينى و تحمى أمك و بلادنا من الأعداء.

ابتسم طارق بسعاده صادقة و عارمة لو شاء الله و تحوات إلى ماء لاغرقت اسبانيا على بكرة ابيها و قد تخيل نفسه الان في معركة ما و يقود الجيش و يركب فرسه و يبارز الاعداء و يتفادى الضربات و الطعنات كسائر شجعان و فرسان اسبانيا لكن المسكين الصغير لم يكن يعى ان اخته تقصد فرسان من نوع اخر،_ فرسان تركوا النوم و الراحه و حملوا امنة و رسالة ربهم من بعد نبيهم حتى تصل إلى أقصى شمال الأرض و جنوبها و أبعد غرب الارض و شروقها و قد كانوا رجالاً معتصمين بحبل الله و لم يحيدوا عن أمر ربهم و طاعت نبيهم كالبنيان الواحد فها هو ابو بكر الصديق من صحراء العرب القاحله و البيداء القاتله و الرمال العربيه الذهبيه قضى على الرده و جميع شمل المسلمين تحت لولا لا إله إلا الله بقيادة أبو سليمان سيف الله المسلول و من بعده عمر الفاروق دكت خيوله معاقل قوم كسرى و قيصره لياتى رسول الحامية الروميه مستامنًا و قال: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر و قد اقبل على يده اهل مصر طالبين الأمان الأمان من بطش الروم، و من بعده عثمان ذو النورين و قد بلغت جيوشه السند و دخلت السودان و ليبيا و البلدان المجاوره الإسلام و السلام بسماحة رجالاً كانوا خير صورةً للاسلام في التجاره و حسن الخلق و الامانه، و من بعده قالع باب خيبر على بن أبى طالب الذى حارب الفتنه و مُشعليها و فتح شرق الهند حتى استشهد و هو يصلى لرب العالمين و من بعده أول ملكًا في الإسلام خال المؤمنين معاويه بن ابى سفيان صخر بن حرب رضي الله عنهما و ارضاهما و قد قبضت الدوله الاموبه في مجدها على بلاد الترك و شمال افريقيا و دخل الامازيغ في دين الله و الترك و الصين و الهند و خرسان و اسيا الوسطى و بقيادة موسى بن النصير و البطل طارق بن زياد فُتحت الاندلس " الله اكبر "فكانت نصرًا و هبةً من عند الله و مر الزمان و نهض السلاجقه و العباسيون و جاء ابو الايوبيون البطل صلاح الدين و انقذ القدس العريق و قد أقسم ان لا يبتسم حتى يرجع مسجد و مسرى رسول الله و من بعده قطز قاهر اسطورة المغول و هناك قبلهم ذلك القائد محمد الب ارسلان في بلاد الترك و الاوجوز و قضى الله ان يحطم جيشًا من مئة الف صليبى بجيش قوامه ثلاثين الف مسلم، و هناك ارطغرل بن سليمان شاه بانى اول حجرًا في دوله حكمت العالم لالف سنه و من بعده المؤسس عثمان و الغازى اورهان و جاء الفتح العظيم على يد الفاتح محمد و حقق نبؤة رسولنا الكريم" لتُفتحن القسطنطينيه و لنعم الأمير أيمرها و لنعم الجيش جيشها " و هناك في الاندلس عبدالرحمن الأوسط الذى قطع نسل الفايكنج و استرد ما سلبوه من اموال الاندلس و خيراتها، و بالاسفل يوسف بن تشفين الذى اجل سقوط الاندلس لاكثر من أربع مائة عام و من بعده الموحدين و المرابطين، و هناك في روسيا اشعل ابن بطوطه شرارة الاسلام فى قلب الروس برحلاته و استكشفاته، و فى الهند قامت الدوله المغوليه المسلمه التى ازدهرت فى عهدها التجارة و المعمار و الطب و الفن لاكثر من خمس مئة عام، و عد للاعلى و ستجد سلطان السلاطين و فاتح مصر و مكه و المدينه المنوره ناسخ القرآن الكريم سليمان القانونى، و اذهب لانجلترا ستجد اوفا ركس و ابحث و تاكد بنفسك من ذلك الملك المسلم الذى حكم انجلترى و أسس بريطانيا التى نراها الان، و الان اليس من حق حكمت ان تتمنى و تتوعد بان يكون اخيها بطلاً كسائر اجداده الشجعان_.

بعد مده وقفت العربه امام بيت حنا و قد نزلت منها ممسكه بيد طارق و املت عليه بعض الاوامر قائله و هم يعبرون البوابه الرئيسية للقصر مجتازين الحديقه الواسعه و الاشجار و الخضره الكثيفه: التزم بالصمت و كن مهذبًا و لا تتحرك من جانبى الا اذا امرتك و لا تاكل او تشرب شئ الا اذا سمحت لك و تاخذ القليل فقط، اتفقنا؟

هز طارق راسه قائلاً بطاعه : اتفقنا.

مرت حكمت من خلال بهو القصر الى الصالون حيث استقبلتهم الخادمه بثوبها الأسود الواسع الطويل و مريولها و طقيتها البيضاء و شعرها الانيق و قد اخذت منهم المعاطف قائله بتهذب: لحظه واحده و ساخبر السيد بلايو بوصولكم.

هزت حكمت رأسها قائله بهدوء: خذي وقتك.

و ظلت اوقفه على حالتها و لم تجلس و كم شعرت بالضيق و الكتمه فور وصولها للبيت و كما تقول والدتها على مثل تلك الأماكن التى تشعر الإنسان بالاختناق "ريح المكان ثقيله على القلب" و اخر مره شعرت فيها بالثقل في اى مكان كانت في بيت كاترينا عندما

مرضت و كانت تداويها و اضف على ذلك هى لا تعرف كيف ستكون ردة فعلها عندما تقابل الشقيقان حقا مجرد التفكير في الامر يزيد من انقباض قلبها ، و لكن طارق لم يكن مثلها بل على العكس ينظر إلى القصر بانبهار سواء من الاثاث الراقى و اتساع المكان او محراب الصلاه الواسع المليئ بالشموع العطره و الصلبان الذهبيه و ذلك السلم الذى يربط الصالون بالغرف العلويه من تراز و تصميم ليوناردوا دافنشى و قد كان ملتفًا على نفسه ذو عمود من الرخام و به تفاصيل و اعوجاج كما في تلك الماصه الطويله المكونه من لونين ملتفين كسلك الكهرباء حول بعض و ذلك المطبخ الذى لمحه من خلف ابوابه و قد كان مليئ بالخدم و كان حجم المطبخ اكبر من بيته، لكن افاق من شروده و تامله المنبهر لارجاء المنزل على يد حكمت التى جذبته من ذراعه لاسفل حتى ينحنى مثلها عندما هبط حنا من علي السلم متجهًا إلى مكانهما و قد شعر بانه يتنفس هواء جديد و منعش له رائحه اخرى مثل رائحه الحريه و لكن هوائه برائحة الياسمين التى لم تفارق انفه بسبب ذلك المنديل الذى ما يزال يعصبه على راحة يده هو لا يستطيع ان يصف شعوره الان لكنه سعيد يشعر بان روحه التى فارقته منذ شعر قد عادت الان و بالرغم من حزنه على والدته إلا انه يريد شكرها على تلك الهديه التى جلبتها له اليوم.

اعتدلت في وقفتها مخفضه عينيها لاسفل و بالمثل طارق الذى كان يمسك يدها و يقلد حركاتها كما امرته.

ابتسم حنا بتلقائيه اول ما رأى وجهها عندما نظرت إليه ثم تسائل و تلك الابتسامة على شفتيه قائلاً: كيف حالك؟

ابتسمت بخفوت و عينيها اسيرة الارضيه قائله: بخير سيدى... كيف حال السيدة مارلين.

كسئ الحزن و الضيق وجه حنا و هز رأسه بنفى قائلاً: ليست بخير أبداً، منذ عشره ايام اصابتها الدمامل و اخذناها إلى الطبيب لكن لا فائدة من العلاج فلم اجد أحد الجا اليه غيرك و لا اعرف أحد يستطيع شفاء امي غيرك.

هزت حكمت رأسها بالقبول و أثرت الصمت حتى تركها و قد شعر بأنها لا تحسن الحديث الان و اتجه الى طارق و تسائل حتى نظر اليه طارق بفضول و فخر عندما قال حنا بمرح: من ذلك البطل الصغير؟

ابتسمت حكمت قائله بهدوء: اخى الصغير اخيلا.
ثم امرت طارق قائله: حيى السيد حنا.

انحنى طارق ثم اعتدل قائلاً بثقه: مرحبا سيد حنا سررت برؤيتك، هل تعلم ان اسم حنا اسم عربى و عبرى معناه ان الرب تحنن على العبد و يلفظ بالعبريه حْنان و قد اطلقه المسيحين العرب على بعض كاختصار لاسم يوحنا المعمدان.

داعب حنا شعر اخيلا بمرح و ود قائلاً باعجاب: اوهو! لدينا عالم أسماء صغير هنا، من أين لك هذا يا بطل؟

ابتسم اخيلا بفخر قائلاً برزانه شاب في الثلاثين من عمره: من ابى له كتب عن معانى الاسماء.

مد حنا يده الى اخيلا قائلاً و هو يعقد إتفاق: ما رأيك عندما تبلغ الخامسة عشر ساجعلك مستشارى الخاص يا ايها العالم.

صافحه اخيلا بثقه و سعاده قائلاً: قد قبلت العرض و ساتمرن على القراه و اتعلم أكثر، ولكن اين تعمل؟

ضحك حنا بود قائلاً وكانه يحاور شاب كبير في السن: انا صاحب الشرطه في مدريد و أعمل في مركز الشرطه الرئيسى فى حى***.

ارتفع حاجبى طارق بدهشه قائلاً: بسم الصليب! انه بعيد جدا عن بيتنا، لكن لا تقلق ساجتهد واعمل معك.

ابتسمت حكمت بفخر و هدوء و هى ترى اخاه الصغير قد سرق اعجاب حنا و رفع راسها عاليًا إلى عنان السماء و شرفها امام الحبيب الاول و الاخر لكن قطبت جبينها بشده و اسود وجهها و امتعض عندما رأت بلايو الذى أقبل عليهم فانحنت هى و اخيلا بهدوء عندما اقبل عليهم قائلاً في خيلائه _و هو يرتدى ثيابه الفاخره على عكس حنا الذى كان يرتدى ثيابه منمقه لكن ليست شديدة الثراء و الغنى في البيت لكننا نعلم ان بلايو قد بدأ حرب نفسيه قذرة على حكمت و هذا اول سهمًا يخرج من الكنانه و هو اشعارها الدائم بالضئاله و النقصان بجانبه حتى لا يُخيل اليها انها بامكانها ان تجارى الاكابر يومًا ما _: اتمنى ان تجدى حلاً في مشكله أمى،

انها في تلك الغرفه. ثم أشار إلى غرفه ما في الدور العلوى و قد امتثلت لأمره و صعدت على السلم خلفه و الى جانبها طارق و من خلفها حنا حتى وصلت الى الغرفه و دخلت اليها و القت السلام عليها قائله بهدوء و ود بعد ان انحنت: كيف حالك سيدتى اليوم؟

هزت مارلين راسها نافيه و قد كانت تستند بظهرها على سور السرير و تغطّى قدميها بالبطانيه الثقيله و شفتيها بيضاء من الاعياء و المرض و جبينها يتفصد عرقًا قائله بألم و بالكاد يخرج صوتها: لست بخير أشعر بان هناك خناجر قويه في ساقى تؤلمنى بشده.

ابتسمت حكمت بهدوء قائله بتشجيع حتى تبث لها الأمان: لا تقلقى سيزول هذا الالم قريبًا بمشيئه الرب.

ثم اخرجت من حقيبتها التى يمسكها طارق قفاز جلدى و كشفت عن ساقها و قد امتعضت ملامح وجهها بألم من هول حجم الدمامل و قد علمت انها لو تاخرت أكثر من هذا لكان صديد الدمامل اختلط بالدماء.

اخرجت من حقيبتها برطمان صغير به فطر اسود و اعطته الى اخيلا قائله بعمليه و على عجله: اعطى هذا لاحدًا في المطبخ و امرهم ان يُعدوا حساء الفطر و لا يضعوا عليه اى شئ فقط يُسلق الفطر و يُهرس هيا بسرعه.

امتثل طارق لأمره و قد خرج معه حنا من الغرفه و نادى على احدا الخادمات التى هرولت اليه تلتزم بالامر ثم عاد ليجد بلايو يجلس على احد الكراسى الجلديه في الغرفه يراقب ما تفعله جوليانا عن كثب ثم جلس حنا الى جواره و وقف اخيلا الى جانب جوليانا يناولها ما تطلب و قد توتر الرجلين كثيرًا و اخذ حنا يغمض عينيه بتوتر و بلايو يهز قدميه في قلق و يضع كفيه عند أسنانه يعض عليها عندما بدأت والدتهم بالصراخ و العض على تلك القماشه التى وضعتها حكمت في فمها عندما فتحت حكمت الدمامل و بدأت تنظفها و تخرج ما فيها من قيح و صديد حتى اخرجت تلك الدماء الفاسده و ما ان انتهت حتى اخذت تنظف مكان القيح بالكحول المطهر جيدًا و بدات تضع عليه تركيبه من العسل الجبلي و عسل الحنطة و عسل الزعتر و غذاء الملكات ثم اخذت تلف جرحها بورق البلوط لمنع تجمع الصديد مره اخرى و لفتها جيدًا بشاش نظيف و ما ان انتهت حتى وصل حساء الفطر و ما ان وصل حتى وقفت جوليانا قائله للخادمه: سلمت يداكى... ركزى معى قليلاً اعطها الحساء الان و فى الصباح قبل الافطار ايضا اعطها منه و اذا ارتفعت حرارتها اصنعى كمادات خل القصب و الماء البارد و انا غدًا ساتى لتغير الشاش. فهمتى؟

هزت تلك الخادمه رأسها و وضعت الصانيه على "الكمودينو " قائله: تحت امرك سيدتى. ثم همت بمغادرة الغرفه و إيصال جوليانا الى الخارج لكن حنا استوقفا بسرعه تحت انظار بلايو الثكله السائمه قائلاً بأمر: لا تتحركى من جانب السيده مارلين و افعلى ما طُلب منكى انا ساوصلها.

امتثلت الخادمه لأمره و انحنت حتى مر حنا و من خلفه جوليانا و اخيلا و قد هبطوا السلم و لكن قبل الرحيل استوقف حنا اخيلا قائلاً: أذهب يا بطل الى العربه سوف اقول شيء للانسه و تتبع خطاك من بعدها.

نظرة جوليانا الى اخيلا و هزت رأسها بالموافقه و اعطته الحقيبه قائله: أذهب اخى و انا ساتى خلفك.

و قد امتثل لامرها و ظلت انظارها معه حتى تاكدت انه ركب العربه حتى عاودت النظر اليه قائله بهدوء: كيف حال جرحك الان؟

ابتسم بهدوء قائلاً: بخير الشكر للرب. ثم تابع قائلاً بعمليه: كم ستاخذين أجرة عملك؟

" ليس الان عندما تطيب و تُشفى تمامًا "

"لماذا لم تاخذين أجرة علاجى، لماذا ردتيها في حقيبتى؟"

تلاعبت في أصابع يدها و نظرت إليه قائله بهدوء و ثقه: لانى لم اعتبرك عمل، بل أنت غير الجميع بالنسبة الي و يكفى ما فعلته الى فى طفولتى و الهدايه و السعادة و المرح، فتلك أقل طريقه ارد بها جميلك على.

برز فكه للامام بشده و زفر بقوة و أغمض عينيه قائلاً بارهاق من طوفان مشاعره و غلاظة تلك الفتاه: لا تعطينى الهواء و تمنعيه عنى مره اخرى يا حمقاء.

ثم امسك كف يدها اليمنى بين يديه و مال عاليه يقبله بعمق و هدوء و قد سرق بعض لحظات الدفئ و الامل من الزمان القاسى و البارد ثم احتضن كفها بين يديه قائلاً و عينيه لا تترك أسر بحر القهوه في عينيها: اشتقت اليكى يا جولياناا، الوقت هنا من دونك يمر بغرابه، الطعام لم يعد شهى مثل الذى تصنعيه، الجو بات باردًا من دونك يا سُكره.

لم تستطع إخفاء ابتسامتها الخجوله و الهجوم المفاجأ من القوات العامه للخجل و اخفضت عينيها لاسفل هامسه بصوت منخفض: اشكرك. لكن استوقفها ذلك المنديل الذى يلفه حول كف يده و قد تولت هى امساك كف يده و قلبته تتفحص المنديل و نظرت إليه بدهشه و اذ هو يبتسم بهدوء حتى تحدثت بدهشه قائله: هذا منديلى الضائع، لماذا هو معك؟

وثب باطراف أصابعه و تحرك للامام و الوراء و عقد يديه خلف ظهره قائلاً بثقه و اقتناع تام بما يتفوه و قد زاد من شعور المسكينه بالذنب اتجاهه و هى تخفى عليه أمر اهم من أى شيء و لو بيدها لصارحته لكن ما باليد حيله: هذا المنديل لن يفارق يدى حتى موتى و إن مت في ارض المعركه و اختلطت بهدوء دمائى سسدفن معى و ان مت على فراشى سيدفن معى، لأنه يخصك و يحمل رائحتك و روحك التى لا تفارقنى.

تجمعت الدموع المتحجّرة في عينيها حتى باتت الرؤيه ضبابيه لكن مسحتها بسرعه قائله متجاهله ما قد قيل و هى تهم بالمغادره: انا سأتى في التاسعه صباحً غدًا و اخبر السيده ايفا ان العطر الذى طلبته جاهز.

و لكن قبل ان ترحّل قبض على يدها قائلاً بهدوء : ايفا فى
"جيان "مع السنيورة ريموندا والدتها تشترى اغراض لخطوبتها و ستعود قريبًا.

ثم ضيق عينيه و تسائل بهدوء قائلاً و عينيه تلمع بالحب و الامل: هل لى بزجاجة عطر الياسمين؟

هزت رأسها بالموافقه و عينيها تبحث ان اى شيء اخر تنظر له غير عينيها قائله: تحت امرك... و الان اعذرنى لقد تاخرت على أمى.

و لكن فى الحى مرة اخرى و قد مضى بعض الوقت و خديجه اتجهت الى المطبخ تعد الغداء حتى تنسى ما تشعر بالقلق و الشك فى أفعال ابنتها و اقوالها و لكن ليس شك من ذلك النوع البغيض في السلوك و الشرف النابع من شيئين اما مرض في قلب الأهل بسبب تجارب سابقه قد حدثت امامهم او فشل ذريع و حتمى و حقيقى في تربية الأبناء ادى الى تلك الحاله اللعينه من الشك لكن شك خديجه اخر هو شك خوف من ان يكون قد حدث لابنتها الوحيدة مكروهًا ما في سفرها الذى لعنت حظها العثر الذى اوقعها في تلك الظروف و هذا البلاد التى كانت كالجنه و بتفكك مسلميها و اتحاد صليبيها تحولت الى جهنم مصغره في الدنيا.

استغفرت ربها و استعاذت بالله من الشيطان الرجيم عندما سقط كوب فخار متهشمًا على الأرض الى شظايا و قد اوقعته جراء توترها و انفعالها في العمل
، انحنت تلملم تلك الشظايا و القتها في سلة القمامة ثم جلست على أحد الكراسى امام الطاوله و مسحت على جبهتها بارهاق و توتر ثم زفرت انفاسها
بقوة و نوع من الارهاق و التعب و اخذت تستغفر الله و تدعوا لأولادها بصلاح الحال و راحة البال و زوال شبح الموت المحلق فوق رؤسهم و تعجيل الله بفرجه و سفرهم خارج البلاد في أسرع وقت.

لكن قطع وصلت عائها و حبل افكارها طرقات هادئة على الباب ظنت انها حكمت و بصحبة طارق و اتجهت الى الباب لتفتح مبتسمه لكن تلاشت ابتسامتها عندما وجدت فيكتور و كاترينا عند الباب و قد ابتسم هكتور قائلاً بتوتر و خجل: صباح الخير خاله اليزابيث كنت اريد ان اسأل هل جمعتم اللبن حتى ابيعه ام لا؟

هزت اليزابيث راسه مؤكده قائله: بلا تفضل يا بنى انتظر ساحضر لك السطل.

و كان من المتوقع ان يدخل فيكتور اولاً لكن اجتازته كاترينا و دخلت بانف الكلاب البوليسيه و عينى كاميرات المراقبه و حدس المخبرين تبحث ان اى شئ غريب في البيت و انتم تعلمون ان تلك الزيارة ليست بغرض تجميع الحليب الذى يقوم به فيكتور كل صباح بل لانها رأت عربة شبيهة بتلك العربة التى كانت أمام بيت منذ شهر و تريد ان تعلم سبب وقوفها و ركوب جولياناا بها!

عادت خديجه من المطبخ تحمل سطل معدنى طويل مليئ بحليب الماعز و وضعته في منتصف حجرة المعيشه أمام فيكتور قائله و هى تفرد ظهرها بالم ممسكه به: اعذرنى يا بُنى لا استطيع حمله أكثر من هذا، وزنه اليوم ثمانيه كيلو و ربع.

هز فيكتور رأسه نافيًا و ابتسم بود قائلاً و هو يحمل السطل: لا عليكي خالتى في المساء ساحضر ثمن الحليب.

ربتت على كتفه و هو يخرج من البيت متجهًا إلى عربته عارية السقف و الزينه يجرها حماران شابان و قد وضع السطل و جلس على العربه و اخذ بضرب الحماران بالعصا حتى تحركا من امام البيت و انتظرت كاترينا التى جلست الى جوارها خديجه بعد ان وضعت لها الشاى قائله بهدوء و نوع من عدم الترحيب جاهدت نفسها لاخفائه: مرحبًا بكى يا كاترينا كيف حالك؟

ارتشفت ذات العيون الغائره و الناب المكسور القليل من الشاى ثم وضعت الفنجان جانبًا قائله: بخير عزيزتي، فقط جات للاطمئنان عليكى و قد قلقت عندما رايت تلك العربه و قد كانت تقف منذ شهر أمام البيت، قلت في قرارة نفسي لعله خير.

ابتسمت خديجه بتكلف قائله و هى تعتدل فى جلستها: خير عزيزتى، فقط عمل لا اكثر احدهم مريض و جوليانا ذهبت لمداويته.

هزت كاترينا رأسها بالقبول قائله بمكر و خبث: لا تخبرينى فجوليانا افضالها علينا كلنا و يكفى ليلة التفتيش عندما وقفت أمام الجنود لقد قال الجميع انها بطله.

ضحكت خديجه بسخريه و اخذت تسخر من كلامها بغرض حماية ابنتها من ان يسقط لسانها باى كلام و تذل امام تلك الواشيه و تقع في مشكله كبيره فيكفى ما يدور خلف ظهر تلك المسكينه من مشاعر محرمه ستصيبها بنوبه قلبيه حتميه: جوليانا بطله؟! انها مجرد فتاه طائشه لو كانت كما تقولين هكذا لتزوجت و ما بقيت الى جوارى حتى الان، هى فقط تحب التباهى و المناظر الخداعه لكن عقله مجوف اكثر من تجويف الحذاء.

ضحكت كاترينا على تشبيهاتها المضحكه على حالة ابنتها العقليه و استندت على ركبتيها بارهاق و وقفت قائله و هى تتجه الى باب البيت: كان الرب في عونك، عن اذنك لم أبدأ في طهى الغداء بعد.

بعدمرور عدة ايام كان ينعم فيها كل صباح برؤية وجه محبوبته كان حنا فى عمله مساء احد الايام في مكتبه الخاصه بعد ارهاق من طول اليوم في دراسة الأوراق و حالة الجنود و الأحياء و تعين البعض و التدريبات كان قد فقد طاقته اليوم و استنزفت فاختار الاستلقاء على تلك الاريكه الجلدية الكبيره و قد حل ازار قميصه كاشفًا عن صدره الذى تخلص من اربطه الشاش أخيرًا و غطّى وجهه بقبعته العسكريه و رفه ساق فوق الأخرى يحاول ان ينعم بالراحه و النوم في يوم مرهق لم يرتح فيه الا عند رؤيته لسارقة قلبه و مالكة عقله و صاحبة الجمال جوليانا للحظات تمنى لو كانت العمر كله، و قد ابتسم بتلقائيه و هو يتذكر تفاصيل يومه معها و اثبات شجاعتها و قدرتها العلاجيه و مهارتها و كيف تفصل في حياتها بين من ظلمها و من لا ذنب له.

و لكن قاطع لحظاته الجميله مع نفسه الثكلى هو دخول ادواردو الذى القى التحيه العسكريه و بدوره حنا رفع القبعه عينيه ينظر له تحت وطئة اضواء الشموع قائلاً بتثاقل: لعله امرًا هام يا ادواردو؟

هز ادواردو رأسه قائلاً بثقه و على شفتيه ابتسامه بلهاء: بلا هو كذلك سيدى، قد امسكنا جندي فرنسى مدسوس بين الجنود و الاخر الذى ادخله و ديغو يحقق معهم في غرفة التحقيق و ننتظر اوامرك سيدى... ثم اخذ يلُف كفيه حول بعضهم بحركة دائريه قائلاً برجاء و امل: لكن لو كانوا اكثر لكنا تسلينا الليله أفضل من العودة لزوجتى.

وقف حنا و بدأ يرتب قميصه و ملابسه و هو يضحك على كلمات ادواردو الذى يفضل العمل على العوده الى زوجته و ابنائه و كانه قد تزوج الشرطى و انجب المجرمين، ارتدى حنا قبعته و ربت على كتف ادواردو قائلاً بسخريه: هيا يا ايها الثور دعنا ننهى هذا اليوم غيرك لم ينم منذ الأمس.

الفصل الثالث عشر

وقف حنا و بدأ يرتب قميصه و ملابسه و هو يضحك على كلمات ادواردو الذى يفضل العمل على العوده الى زوجته و ابنائه و كانه قد تزوج الشرطى و انجب المجرمين، ارتدى حنا قبعته و ربت على كتف ادواردو قائلاً بسخريه: هيا يا ايها الثور دعنا ننهى هذا اليوم غيرك لم ينم منذ الأمس.

أمال ادواردو رأسه قائلاً بضيق: يا رجل انت في أحلى أيام حياتك لما لم تنم، غدًا تتزوج و تستيقظ في منتصف الليل على بكاء الأطفال و تعود من العمل لتجد الصغار يتضاربون، و فوق هذا متطلبات الحياه اخبرني يا اخي كيف اعيش في تلك الحياه موحشه.

ابتسامه حنا بهدوء وربت على كتفه قائلاً و هما يهبطان على السلالم المؤديه الى اسفل الارض : يا اخي احمد الرب، و هناك من يتمنى تلك الحياه اولاد وعائله و اسره عندما تعود من العمل تجد من يعد لك طعامك و من يتعلّق بقدميك عند عودتك، فلتحمد الرب على ما اتاك من نعم.

ثم تابع و هما ينعطفان تُجاه غرفة ما فى نهاية الممر قائلاً و قد ظهر على صوته الحزن و فى عينيه نظره ندم لاول مره يراها ادواردو بالرغم من معرفته الطويله بحنا: انظر اليه لو عاد لي العمر مره اخرى للوراء لكنت تزوجت و كونت اسرة أفضل من تلك الحياة الفارغه صدقنى لا شئ مميز في العزوبيه.

رفع ادواردو احد حاجبيه و ابتسم ببلاهه و وقف في منتصف الطريق و قد نظر الى حنا بتقيم و تفكير ثم انقلبت الابتسامه الى ابتسامه خبيثه و قد بدأ يجمع خيوط و ربط بين حالته فى الايام السابقه منذ عودته لاكثر من شهر سواء شرود فى اللاشئ او ذلك المنديل الذى يلفه حول كف يده متعللاً بالم فى يده و لكن هل يدوم الألم لكل هذا الوقت؟!

التفت حنا الذى كان يسير عاقدًا ذراعيه خلف ظهره الى الوراء ما ان شعر بهذا الفراغ بجانبه و قد نظر الى ادواردو بدهشه و التحم حاجبيه في حيرة من وقوفه المفاجأ و من نظراته الخبيثة تلك.

هز حنا رأسه قائلاً بتساؤل: ما الامر لمَ وقفت هنا؟

اقترب منه ادواردو ببطء قائلاً و هو يمط شفتيه مثل ابنته الكبرى ذات الاربع سنوات عندما تكتشف سرًا ما و تحاول التأكد منه او ان تذل احدهم به: لا شيء لكنك وقعت منذ قليل و اردت الاطمئنان عليك يا اخى العزيز.

زادت دهشة حنا و حيرته و ضيق عينيه قائلاً بتساؤل و تفكير: ما الأمر هل انت محموم؟ انا واقفًا امامك لم اقع.

كور ادواردو قبضت يده و وكز حنا فى ذراعه اعلى مرفقه قائلاً بخشونه و مرح: يا رجل انا اعنى الحب... العشق، لقد وقعت بالفعل و منذ زمن و الان اكتشفت الأمر... هنيئًا لك عقلك الضائع و سهر الليل القادم. ثم اخذ في الضحك عاليًا و القهقه حتى انحنى ممسكًا ركبتيه قائلاً و هو لا يستطيع ان يتوقف عن الضحك و يلتقط انفاسه بصعوبه من بين قهقته: السيد حنا وقع في الحب،لا أصدق حنا يحب مثل باقية الرجل...و غدا يتزوج و نجده يرقد خلف محبوبته...

لم يعد حنا يتحمل تلك السخرية اللاذعه من صديقه الجلف صلب المشاعر تجاه مشاعره الصادقة و الحساسة ناحية جوليانا و قد كان يتوقع هذه السخرية و ردت الفعل تلك منذ زمن لذلك كان يكتم الأمر في صدره بعيدًا عن ادواردو الذى ان اردت ان تجرح مشاعره احرمه من الطعام و ارجعه لزوجته و اطفاله، و بحق سؤلاً لكم لِمَ قد يسخر الإنسان من مشاعر و مشاكل اخيه الإنسان؟ و لِمَ يتم التقليل من أفكاره و معتقداته لأنه مختلفه مع الجميع حتى و لو كانت صحيحه؟ و لِمَ دائماً الإنسان صادق المشاعر شديد الحساسيه حتى لو لم يكن قبل ذلك؟!

صاح حنا بحزم و شدة قائد شرطه حقيقة قائلاً بصراخ هز ارجاء المكان و الجدران: ادواردو!! كلمه اخرى و تُسلم رتبتك و شارتك و لا أرى وجهك مره اخرى في صفوف الشرطه او الجيش، مفهوم!

نكس ادواردو رأسه و رفع عينيه ناظرًا إليه في خجل و حياء من ما تعرض إليه الان من إهانة استحقها و ما عرض إليه حنا من خجل و ضيق و قد استدرك الآن فقط حماقة فعلته، و هز راسه المنكسه قائلاً بصوت خفيض: تحت امرك سيدى، اعتذر منك سامحني.

لم يرد حنا عليه و أكمل طريقه و هذا الانقباض في جبينه بين حاجبيه لم ينفك بعد و تبعه ادواردو عندما دخلوا حجرة التحقيق و قد هم من بالداخل بالتوقف عن العمل و الوقوف له احترامًا لكنه أشار لهم بيده بان يستكملوا عملهم، و بالفعل امتثل الجميع للامر و جلس حنا على أحد المقاعد في نهاية الغرفه و الى جانبها ادواردو الذى لم يفتح فمه بالحديث مُطلقًا منذ ان هدده حنا و على الناحية الاخرى في بداية الغرفه كان ديغو يجلس على احد الكراسى أمام طاوله يستجوب الرجلين و بجانبه الكاتب و امامهم الرجُلين معلقين من ذراعيهما و لا تلامس اقدامهما الأرض عاريين الصدر و امام كلاهما رجلين اخرين في حجم الباب و كلاهما يمسكان بعصيان غليظه القوام و طويله و قد انهال الرجلين عليهما بالضرب بقوة و كانا لا يتوقفان حتى يُشير لهم ديغو الذى كان يسال سؤال يتبع اجابته عدت ضربات و قد كان ادواردو يشرب القليل من الماء و هو يتابع مشهد التسالى هذا و العدل يتحقق أمام عينيه و الى جانبه حنا الذى لم يستطيع ان يرفع رأسه و ينظر إلى ما يحدث و لم تكن تلك عادته اطلاقًا و تلك أول مره يرق فيها قلبه على شخص يتألم امامه و يستغيث طلبًا للرحمه و كان مع كل صرخه يغمض عينيه اكثر و يعتصر جفنيه بقوة و ينتفص جيده في خلسه غير ملحوظه و قد طأطأ رأسه لاسفل و طحن اسنانه و حاول ان يتنفس بهدوء و انتظام لكن لا فائدة، و قد لحظه شعر ان الصراخ قد ازداد هب واقفًا بقوة فاتحًا الباب مندفعًا مثل الطلق النارى و قد ارتطم الباب الحديد بقوة بالحائط مصدرًا صوتًا عاليًا على اثرة نظر ديغو و ادواردو الى بعضهم بدهشة و عدم فهم ثم خرج ادواردو يتبع حنا و من بعده الذى اعطى الأوامر الى الكاتب بمتابعة التحقيق ثم اخذ في الرقد ورائها و قد سبقه حنا الى اسطبل الخيل و انطلق من خلفه ادواردو و تابعهم ديغو في محاولة الإمساك به و بالرغم من ان لا احد يعلم الى اين سيذهب و إضافة على ذلك هى سرعة فرس حنا الكبيره الا ان ديغو قد استطاع ان يختصر الطريق و يدخل من بين الأشجار و يخرج امام حنا كاسرًا عليه الطريق حتى اطلق فرس حنا البنى صهيل عالى و ارتفعت قوائمه الاماميه حتى توقف تمامًا و من خلفهم ادواردو.

هبط حنا من علي فرسه و اتجه الى أحد الأشجار و قد جلس اسفله واضعًا وجهه بين كفيه و استند بمرفقيه على ركبتيه و قد اقترب كلا الرجلين بعد ربطوا الخيل و جلسا على يمنه و يساره و قد ربت ديغو على كتف حنا قائلاً بود و هدوء: ماذا بك يا اخى؟

ابتسم ادواردو ببلاهه و حاول تلطيف الجو المتوتر قائلاً و الابتسامة لا تفارق شفتيه: انه الحب الحب يا اخى صدقنى.... ان...

توقف ادواردو عن الكلام و اخفض نظرة الى الارض بخجل عندما رمقه حنا بنظره ناريه ابلعته لسانه لكن ديغو أمال رأسه و أغمض عينيه غامزًا ادواردو بمعنى اهداء ثم ربت على كتف حنا مره اخرى قائلاً: ما يقوله ادواردو صحيح يا حنا؟

كمم حنا فمه و انفه بهدوء بيده الملفوفه بالمنديل و اخذ يشم ذلك العطر _الذى بالرغم من مرور الوقت عليه خارج حدود حكمت إلا أنه يشعر بان ذلك العطر يرفض مغادرة عقله قبل انفه _ ثم هز راسه مؤكدًا و هو يزفر الهواء بقوة و أبعد يده عن فمه و انفه قائلاً: نعم، صحيح.

ثم أراح رأسه على الشجرة خلفه و اخذ يخطف الأنظار الى السماء السوداء المزينه بالنجوم قائلاً و لأول مره في حياته يكن متحدثًا باسراره مع احد: لا أدرى ماذا يحدث يا اخوتى؟ لكن الأمر غريب، عندما اعتذر بلايو من البابا متعللاً أنى في إنجلترا لم اكن هناك بل كنت مصابًا في كمين فرنسى و كنت اتلقى العلاج في بيت الملاك جوليانا، أعرف جوليانا منذ ان كانت طفله و مر العمر و لم اراها بعد أربعة عشر عامًا إلا من قرابة الشهرين، في بيت جوليانا تغير كل شيء، كل شيء يا اخوتى، لم اتخيل أنى ساقع في الحب يومًا بتلك الطريقه و هذا الجنون، لم أعلم ان في الحوارى و البيوت المتوسطه و الفقيره هناك عالم اخر، عالم في بيت جوليانا، تعلمت معنى كل شئ في الحياة اللين، الحب، العفة، الحزن،البكاء، الابتسام، كيف تساعد دون مقابل،التدين، لقد كان بداخلي فراغ و هدوء منذ ان عرفتها امتلأ ذلك الفراغ و أصبح هناك صخب، الحب جميل لكن قاسى، و كل شيء ضدّى... تصغرنى بثلاثة عشر عامًا، عامله، بلايو يكرهها و لا ادري السبب... و كأن الحياة معى صارت مثل قط ياس يقتنص قوت يومه من فكى اسدًا ضاريًا.... ثم اخذ يلتفت ينظر الى صديقيه في حيره قائلاً: اخبرونى ما الحل؟

حك ادواردو مؤخره رأسه بتفكير و نظر الى الأرض لثوانى يجمع أفكاره ثم نظر الى حنا قائلاً بحيرة: اسمع، أنا لا اجيد الكلام المعسول لكن هل اخبرتها او تعرف حتى هل تبادلك نفس المشاعر ام لا؟

هز حنا رأسه بنفى قائلاً: لا استطيع، أخاف ان اخسرها ان عرفت، و مشاعرها لا ادرى احيانًا أرى في عينيها تلك اللمعه و أحيانا أرى في عينيها الخوف و الهروب من ماذا لا أدرى و هذا شئ يقتلنى، تخاف و لا استطيع ان احميها.

ابتسم ادواردو بود و حرج ثم أشار إلى ديغو قائلاً: اسمع يا اخى امور الحب ديغو يفهمها أكثر منى انا رجل حرب لا افهم سوى بالقتال.

ربت ديغو على كتف حنا جاذبًا انظاره إليه قائلاً بعقلانيه: اسمع يا اخى، الحب شيء جميل جداً و لكن غير مفهوم ان لم يتوج بعلاقه رسميه، انت تشعر بأنها تميل إليك و لكنها قلقه و هذا شئ طبيعي خوفًا من المجتمع و بالاخص الاحياء الشعبيه تعرف بعضها جيدًا و اى شئ قد يخدش عفة الفتاة و حتى لو تزوجت منها سيظل لقب الخطئه يلحق بها في كل مكان و ابنائكم لن يسلموا من الأمر ايضا... افضل حل ان تتقدم لطلب يدها و تعترف لها و عندها يزول كل هذا القلق، ثم نظر الى ادواردو قائلاً بتساؤل: كلامي صحيح؟

هز ادواردو رأسه بالقبول و قد اتسعت ابتسامته بشده قائلاً: بلا اخى معك حق، افضل حل العلاقه الرسميه تحت إشراف الأهل.

فى صباح اليوم التالي و قد كان الربيع على اعتاب مدريد ينتظر أذن الدخول من ذو الجلال والإكرام رب السموات و الأرض و ما بينهما فيامر ميكائيل عليه السلام الموكل بالرياح و الأمطار فيبدأ بنشرها باذنًا من رب العالمين و يأمر ربنا الشمس فتعدل و ينقلب الشتاء ربيعًا و يأمر ربنا الشجر الميت بان يحيا من جديد و تعود اليه اوراقه الخضراء و الحمراء و الصفراء و البنفسجية و يأمر الورد بيخرج من نومه و الحيوانات الصيفيه تخرج من جحورها الى العالم و الحياة من جديد.

و هناك في هذا البيت فتاة قد عادت اليها الروح و الحياة من جديد و الابتسامة اشرقت وجهها و تلك الروح المرحه عادت و ها هى تجلس على الطاوله تتسابق مع اخيها على من سيُنهى طبق الإفطار أسرع من الآخر و الخاسر مدين للاخر باى طلبًا يطلبه مهما كانت صعوبته و قد اخذ السباق يشتد و يحتد حتى أنهى اخيلا طبقه و سفق بحماس رافعًا يديه للاعلى بفخر و قد صاح بقوة قائلاً: لقد فزت... لا تحاولين... لقد فزت.

زفرت حكمت بملل و اراحت ظهرها على الكرسي و عقدت يديها امام صدرها و نفخت خصلة الشعر تلك التي نزلت علي عينيها قائله مدعيه اللا مبالاه على هزمتها: قل يا فتى ماذا تريد و خلصنى.

استند اخيلا بمرفقيه على الطاوله و وضع اصبعه على شفتيه و اخذ يفكر ثم ابتسم بعد لحظات و نظر لها بمكر قائلاً: بما ان عيد مولدى على الأبواب فانا أريد ادوات صيد و صنارة.

مطت حكمت شفتيها و رفعت كفيها و كتفيها قائله في شك و هى تنظر الى والدتها: ليس عندي مشكله لكن اسأل أمى اولاً.

التفت اخيلا و قوس شفتيه و اتخذ وضعية عينى القطه قائلاً في رجاء و استعطاف: أمى ارجوكى... اعدك انى ساهتم بدروسى جيدًا و لن اتعبك أبداً و ساغسل اسنانى كل صباح و لن العب في الشارع لوقت متاخر فقط قولى موافقه.

قلبت خديجه عينيها الزرقاء تلك و اخذت تفكر ثم نظرت إلى حكمت التى غمزت لها حتى زفرت بهدوء و نظرت الى طارق الذى يتصبب عرقًا من فرط التوتر ثم تحدثت بكل هدوء قائله: موافقه لكن تتحقق كل الشروط السابقه.

قفز طارق من علي كرسيه و سفق بحماس ثم قفز في احضان خديجه ثم لثم رأسها و امسك يديها و اخذ يقفز بمرح قائلاً: شكرا شكرا شكرا يا أمى اعدك انى سانفذ تلك الشروط.

ربتت حكمت على ظهره قائله بهدوء و على شفتيها ابتسامه صادقه: هيا يا بطل بدل ملابسك قبل ان تأتي العربه اليوم اخر يوم للسيده مارلين لا نريد ان نتاخر العربه على وصول.

رقد طارق إلى غرفته بسرعه ممتثلاً لأمر حكمت و قد تركها مع خديجه التى امسكت بيد حكمت قائله بسعادة: انتِ لا تصدقين مدى سعادتى بعودت ابتسمتك و مرحك، لقد ارجعتى البهجه إلى البيت، لا تقلقينى عليكي و تظلين صامته هاكذه و ان كان معك مشكله لا قدر الله اخبرينى يا حكمت و ان شاء الله سنحلها معًا.

ابتسمت حكمت بود و جلست على ساقى خديجه و احتضنت كلتاهما الاخرى و قد قبلت حكمت رأس والدتها و استندت عليها بوجنتها قائله بشرود و لكلامها اكثر من وجه: ادعي لى يا أمى فقط الله وحده من سيصلح شاننا و حالنا، فقط ادعيلي بصلاح الحال و راحة البال.

بعد مرور قرابة الساعه او اكثر وقفت العربه امام بيت حنا و نزلت حكمت و طارق و مثل كل يوم كانت تستقبلهم الخادمه و ينتظروا لدقائق حتى ياتى بلايو او حنا و يصعد معهم لكن تلك المره كانت ايفا و والدتها ريموندا قد وصلتا ليلة الامس مدريد و كانتا ممسكتين ببعض الصور المرسومه لتصاميم فساتين الخاصه بالسهرات و الاعراس الخاصة بالنبلاء و قد كانت تنظر اليهم بسأم حتى وجدت ضالتها في فستان باللون الاحمر ياكمام نهايتها شيفون و قماش الفستان من الحرير و منسدل لاسفل من دون ذلك الانتفاخ الذى يعيق الحركه و على الصدر بعد التطريز بالخيوك الذهبيه و الخرز الذهبى.

لكن الشئ المهم انهم الان يبحثون عن خياط ملابس جيد و لا تفسد على يده الاقمشة و قد كانت تلك من المرات القلائل التى يشترين فيها اقمشه للتفصيل و قد اعتادوا على شراء الملابس الجاهزه من خارج البلاد او من مصانع مخصصة فقط للنبلاء، و بحق امر وجود خياط جيد و امين حتى في عصرنا الحالى بات نادراً.

انحنت حكمت و طارق عندما وصلوا الى صالون القصر مُلقين التحيه و السلام على الجميع، و قد ابتسمت ايفا بحماس و ود و اقتربت من حكمت قائله بود: جوليانا كيف حالك يا فتاه؟ لم أصدق عندما اخبرنى ابى و عمى انكى تعالجين جدتى، لم اراكى منذ زمن.

ابتسمت حكمت بهدوء و رأسها منخفض لاسفل قائله بهدوء: شكرا سنيورة ايفا هذا من لطفك، ثم اشارت إلى طارق قائله: هذا اخى الصغير اخيلا. انحنا اخيلا احترامًا مثل حكمت و قد امالت ايفا رأسها بهدوء.

ثم مدت يدها بحقيبه صغيرة من القماش البيضاء قائله: هذا العطر الذى طلبتيه منى سنيورة قد جهزته منذ ان طلبتيه.

ابتسمت ايفا بحماس و خرجت منها ضحكة فرح من دون اراده قائله: حقًا انتى رائعة.

ثم اخرجت صندوق خشبى صغير على شكل قلب و عليه قفل كان سيف عندما يُسحب لاعلى من غمده يفتح الصندوق و بداخله الزجاجتين و قد شمت رائحتيهما باعجاب ثم اغلقت العلبه مره اخرى قائله بود: سلمت يداكى، لقد نسيت أمره تماماً بسبب فستان الخطوبه... ثم تابعت مستدرجه و هى تشير الى والدتها و جوليانا قائله و هى تعرفهم على بعض: امي هذه جوليانا أفضل من يصنع العطور في مدريد، و جوليانا هذه أمى السنيورة ريموندا.

انحنت جوليانا بهدوء و قد امالت ريموندا رأسها تبادلها التحيه، ثم تابعت ايفا قائله و هى تخبط على رأسها بسبب النسيان: اعذرينى كم سعر العطر.

اخبرتها حكمت السعر لتجحز مقلتى ايفا و ترفع ريموندا حاجبيها بعدم تصديق و تتدخل قائله لاول مره: و ما ربحك ان كان السعر منخفض هكذا، لن يتعدى بعد البيزيتات.

نظرت اليها حكمت قائله و هى تفسر الامر: الزيوت التى تُصنع منها العطور انا من ينتجها من الاعشاب و الاوراق الاصلية فلا ادفع الكثير في الخامات و بعض الخامات ازرعها في ساحة البيت فاحيانًا كل التكلفه تكون على المصنعيه و ثمن البذور و الاعشاب.

رفعت ريموندا إحدا حاجبيها و ارجعت رأسها للوراء بتفكير ثم هزت رأسها بعد ان فهمت الامر و قد عادت ايفا بالنقود و اخذتها حكمت. ثم تسائلت ايفا قائله: جوليانا ألا تعرفين احدًا يحيك الملابس لكن يفهم في الاقمشة و تصاميم فساتين السهرة، خطبتى على الأبواب و اريد تفصيل فستان و لا اعرف خياط جيد.

كادت حكمت ان تجيب و قد اخذت لحظات من التفكير لتجد الرد المناسب لكن طارق قد انفلت لسانه و نطق ببراءة و سرعه قائلاً بفخر: امي افضل حائكة للملابس في مدريد كلها و قد صنعت فساتين كثيرة.

اغمضت حكمت عينيها بقوة و فتحتها و هى تبتسم بحرج الى ريموندا التى تسائلت قائله: و هل لديها معرفة في انواع القماش؟ نحن لم نشترى كل شيء بعد.

هزت حكمت رأسها بالموافقه قائله: بلا سنيورة، امي تعمل في هذا المجال منذ سنوات و لديها درايه كافيه به.

اخذت ايفا و ريموندا تتبادلان الانظار بتفكير حتى تحدثت ريموندا بهدوء و تفكير قائله: حسنًا هل يمكن ان تاتى الى القصر الاسبوع القادم؟

هزت حكمت رأسها بالموافقه قائله: بالطبع سيدتى تحت امرك، ثم تابعت قائله باستحياء: انا فقط اريد الصعود الى السيده مارلين.

هزت ريموندا رأسها بالموافقه قائله لايفا: اصعدي معها يا ايفا.

و بالفعل قد صعدت معها ايفا و اتجهت الى الغرفه و لكن كانت هناك عينين غاضبة و معترضة بشدة تُتابع ما يحدث بضيق و قد كان صاحب تلك العينين بلايو الذى كان يستند بذراعيه على سور السلم من ناحيه الرواق أمام غرفته و قد زفر انفاسه بقوة و حنق و قد أغمض عينيه في ضيق ثم فتحها و التفت الى حنا الذى كانت تفوح منه رائحة العطر الجديد و قد اقترب منه حنا عندما وجده غاضبًا قائلاً في تساؤل: ماذا حدث لِمَ انت غاضب؟

اشار بلايو بيده الى غرفة مارلين قائلاً بحده و صوت منخفض حتى لا يسمعه أحد: تلك المُصيبة التى احضرتها الى هنا ستحضر والدتها لحياكة فستان ايفا و غدا ستاتى باخيها و غدًا ستاخذك من هنا و بعدها تحتل القصر و من ثم مدريد و تطردنا منها لترتاح أنت و تتغازل بها كلما رايتها.

وضع حنا قبعته السوداء المستديره ثم وضع يده في جيبه قائلاً ببرود يُصيب بالشلل: و ما ذنبى ان كانت ماهرة، و غير هذا تلك المُصيبه عالجتنى و عالجت أمك و تحل مشكله كانت زوجة اخى ستصنع منها ميتم في البيت، و ان تغازلت بأحد هذا لا يهم انا احبها و سنتزوج عن ما قريب. ثم رجع خطوتين الى الوراء عازمًا على النزول قائلاً و هو يعطيه قبلة في الهواء: صباح الخير حياتى... أشرب شاى يهدء الأعصاب.

لم يذهب حنا الى عمله اليوم بل تخفى بين الاشجار تاره و بين الابنية و الجدران تارةً اخرى يراقب جوليانا و الى اين ستذهب و ماذا ستفعل عند عودتها إلى بيتها و متى ستحين الفرصه التى يتكلم بها معها و ينفذ ما قاله ديغو و يعرض الزواج عليها و يضع حدًا لهذا العذاب و لكن المسكين لا يدرى ان العذاب لم يبدأ بعد.

و لكنه اختبأ مره أخرى خلف تلك الشجرة الضخمه عندما وجد جوليانا قد خرجت من البيت مره اخرى و قد بدلت ملابسها الى ملابس الرعى و امسكت تلك العصا الطويله و الغليظه و بدأت تهش على الغنم و قد خرجت للرعى، ظل يسير خلفها على قدمه من دون فرسه المخبأ في مكانًا ما و قد وضع مسافة جيده حتى لا تراها.

و ظل يسير خلفها حتى وصلت الى منتطقه خضراء على تبه صغيره مليئه بالحشائش و بعض الاشجار و قد وقفت بعد ان نظمت الغنم و اخذت تشرب الماء من تلك القربه الجلدية المعلقه على كتفها ثم جلست أسفل أحد الأشجار على ركبتيها و ساقيها تتابع الغنم عن كثب و لكن لفت نظرها شيئًا ما على بعد نصف متر منها يصدر صوت خرير ناتج عن احتكاك ذلك الشئ بالرياح و قد مدت ذراعها تزيح اوراق الشجر المتساقطه و بدأت تجذب طرف ذلك الشئ و قد كانت ورقه مكتوب فيها دراسه لمنازل القمر و قد فهمت ان احدهم خبأ تلك الورقه مخافة الاتهام بالهرطقة و أعدمه و لكن المسكينه لم تعلم ان زعيم الشرطه خلفها شخصيًا و قد كشف اليوم عن سرًا عظيم و هو ان سُكرته تجيد القرأه و لن أنكر ان حنا كان يشك في ذلك الامر طوال الوقت و بالاخص ان شخص مثلها يفهم في الأعشاب و الطب من المستحيل ان يكون امى لا يقرأ و لا يكتب!

اقترب منها حنا حتى أصبح خلفها و قد ارتعدت خوفًا عندما رات ظلاً لشخصًا ما امامها و قد وقفت بسرعه و التفت تنظر اليه عندما نطق قائلاً بعبث: تقرائين يا سُكره؟

هربت الدماء من وجه حكمت و اتسعت حدقتيها عندما رات حنا الذى كان يبتسم بعبث و قد القت الورقه في الأرض بتوتر قائله: أقسم لك ان الاوراق ليست لى لقد وجدتها ارضًا.

فلتت منه ضحكه صغيره من دون ارادته و قد امسك كف يدها و ربط عليه قائلاً بهدوء: اهدئى لقد رايتك لن اخبر احدًا هذا سر و لكن بشرط.

نظرت له جوليانا و قد توجست خيفه و رفت عينها بخوف قائله: و ما الشرط؟

مط حنا شفتيه بهدوء و تفكير و نظر الى الارض ثم التفت ينظر إليها قائلاً: أريد ان اقابل والدتك... و لا ترفضى اريد فقط التعرف عليها.

هزت حكمت رأسها بالموافقه بسرعه و سحبت يدها من يده بتوتر قائله و هى عازمه على العوده الى المنزل: حسنًا ساحدد لك موعد لكن امى لا تعرف شئ.

اطرق التفكير و هز رأسه دلاله على فهمه تلك الشفرة ان جوليانا لم تخبر والدتها بعد بمكوثه أثناء مرضه في منزلها و قد أعطاه العذر فلو عرف أحد لن يهتم بأن يتاكد من عفتها بل اول شئ سيفعله سيتهمها في شرفها و ان لم تمت ستتعفن فى زنازين مدريد جزائًا لما فعلت؟

ترك حنا يدها و قد حاولت الرحيل من امامه ممسكه بعصاها من على الأرض و التفت تهش الغنم القريب منها لكن توسعت حدقتيها برعب و دهشه ما ان نطق حنا بمنتهى الثقه و البرائه و هو يضع يده في جيبه قائلاً: جوليانا انا احبك.

التفتت إليه بسرعه و عينيها تلك لم تلتقى اهدابها لمده بدهشه تحاول تكذيب ما قيل لكنه أعاد الكره قائلاً: انا احبك يا جوليانا.

التقت اهدابها لثوانى و اقتربت منه في حالة الفزع تلك قائله برعب: أصمت، أصمت انت لا تعى ما تقول، اياك تكرار كلامك مره أخرى.

رفع حنا كتفيه بلا مبالاه قائلاً بهدوء: على العكس تمامًا انا في كامل وعى و احبك يا جوليانا و اتمنى الزواج منكى و ان تشاركينى ما بقى من عمرى.

هزت حكمت رأسها بالنفى بشده قائله: ارجوك توقف، انا و انت لسنا لبعض، أمى و اخيك سيرفضون هذا الزواج، ارجوك انت تضعنى في مئزق و لن ترحمنى السنة الناس سيقولون جوليانا تحايلت على شاب من علية القوم، ارجوك توقف و لا تفسد على حياتى و حياتك، مشاعرك تلك ستفتح علينا ابوابًا من النار.

نظر الى صلب عينيها و قد أطال النظر قائلاً بثقة و يقين: انا اجدر بكل هذا النار و سينطفى متى تزوجنى، انا لا يهمنى رأى احد انتى كل ما يهمنى، انا احبك يا جوليانا، احبك كرريها و افهميها فانا لن أدخل معركه و اعود منها خاسرًا و لاجلك ان اضررت لحرق مدريد سافعل.

ثم التفت دون ان ينتظر رد و قد رحلت حكمت الخائفه و حنا السعيد و قد افترق كليها في طريق عكس الاخر و كلاهما يعطى الاخر ظهره و القلوب تتراقص و الاحاسيس تتنافر لكن هناك في ناحيةً ما تراقب عن كثب ما يحدث بسعادة و خبث و قد تمنت لو طال الحوار و أحضرت أهل الحى الى هنا و صنعت فضيحه و ضجه لكن الحظ كان في صالح المسكينه حكمت و قد عبس في وجه الخبيثه كاترينا.

في يوم روتينى و رتيب أشدّ ما يكون عادى.... أعلم أعلم اسمع صوت تافكم و السب و اللعن لا تلعن اخى و اختى هداكم الله، ان كنتم تظنون انى امط بالاحداث و سرعة الحكاية تتباطء لا تتسارع و كاننى أكتب بسرعة عشرون نملة لكل دقيقة زمنية لكن على رسلكم يا قوم التطور و اهل السرعة و جيل الذكاء الاصطناعى، فمن الآن و صاعدًا قد بدأت القصه و الحكاية و ستشتعل الاجواء بنار الحماس و الحزن و تن كنت من عشاق الدراما فاهلاً و سهلاً بك و ان كنت تفر من لحظات الدفئ و الشجن العائليه فاعصر ليمونه و تحمل الرحله فقد اقبلت سفينتنا المبحره على الرسو عما قريب باذن الله تعالى فى مرسي لن يخطر فى بال بحارة الأرض العظام... هيا بنا الى بداية النهاية.

كان اليوم هو اليوم الموعود الذى حددته ايفا و والدتها لتجهيز فستان خطبتها على فارس الأحلام الأمير تيتوس المبجل و بالطبع بعد الحصول على الموافقه من بلايو بصعوبة و قد كانت تلك الموافقه هى معجزة العالم التاسعه بعد السبع المعروفه و الثامنه هى موافقته على مداوية جوليانا لوالدته.

و لكن المساء قد حل و كانت الشمس تتسلل خلف السحب و اسفل الجبال الشامخة بهدوء و على استحياء من فوق سماء مدينة الامير محمد الاول _اول بانى فى أرض مدريد _ و كانها تستحى ان ترحل بضيائها عن بلاد الاندلس كما رحل نور العلم و الحضارة و التقدم عنها و توقع بلاء اخر فى قلوب المسلمين و لكن لا ينفع هذا الاستحياء فكلما غابت الشمس اعلنت عن اقتراب فجر الامن القريب فى بلاد الاندلس المفقود!

و قد ادى اهل اسبانيا من المورسكينالمسلمين صلاتهم خلصه و اقبلوا على النوم حائفين طامعين فى رب العالمين بإنزال سلطان الامان فى قلوب الخائفين النائمين بين المًا و عذاب.

و كانت حكمت مضجعه على السرير تحاول النوم كعادتها كل ليله و فى نهاية المطاف و بعد طول انتظار و عناء يزور النوم عينيها الحائرة بضع السويعات فى اليوم و يهرب مثل الفأر الذى فُتحت عنه المصيدة بالخطأ و بالطبع تلك الحال لم تكن جديده بل منذ ان تسللت رائحة الحب و قد تسللت معها روائحه اخرى مثل القلق و السعاده و الخوف و التفكير و الحزن و الالم و العشق كلها مجتمعه تمنها من ابسط حقوقها فقط النوم.

اخذت تلعب بذلك الخيط المنسدل من الوسادة بشرود و هى تسترجع ذكريات اليوم و ما قصته والدتها و ما قصه طارق من أحداث عندما ذهب كلاهما لبيت العقرب بلايو و كيف قابلتهم السيده مارلين بإحسان و رحبت بهم بسرور و حبور كرامةً لما قدمته حكمت من رعاية و علاج لمرضها الذى قد اخبرها الحلاق و الاقرباء ان قدمها ستُبتر لكن حكمت اعادت لها الامل و انقذت صحتها و عافيتها و حمتها من شر العوز لغير الرب و قدميها، و اما ايفا و ريموندا فقد كانت مقابله عادية و رسمية للغاية فقط مجرد امرأة ستقضى لهم عملهم و قد حمدت الله ألف ألف مره علي انها لم تقابل لا بلايو و لا حنا و لم تجد في صوت والدتها نبرة الشك و لم يخبرها طارق باى شيء مريب او خبر غريب قد تسرب اليهم عن مبيت حنا أثناء سفرهم خارج البلاد، و كم شعرت بالسعادة عندما أعجبت التصاميم الخاص بفساتين الاعراس و السهرة ايفا و ريموندا و مارلين و قد نزلت مع ايفا لشراء نوع قماش جيد بألوان زاهيه استغلالًا لخبرة خديجه في الاقمشة و انواعها و السيئ و الجيد منها و قد اتفقوا على التسليم بعد اسبوع و بالرغم من سعادة الجميع بان خديجه باتت تعمل عند النبلاء و السادة لكن الأمر مقلق من الوقوع في اى خطأ صغير يكشف السر الكبير.

تنهدت حكمت بارهاق و ضيق و تقلبت لتنم على ظهرها فارده ذراعيها و عينيها المحدده بصفى اهداب كثيف كنت مغلقه في صراع بين النوم و السهر و قد كانت ترغمها على النوم عنوةً لكن قطع نومها ذلك الصوت المحبب الذى اعتادت على سماعه منذ مده قبل نومها.

ازاحة الغطاء و هبطت على الأرض حافية القدمين و ارتدت الروب فوق فستان النوم و رفعت غطاء الشعر الملتصق به و اقتربت من النافذه تفتحها بهدوء و بطء حتى لا تصدر صوتًا للصرير بسبب مفصلاتها القديمه او صوت رجرة الزجاج المتخلخل من الباب و ابتسمت بسعادة غامره و قد صدق حدثها عندما امسكت بتلك الرساله المربوطه بساق ورده مربوطة في القطبان الحديدى لذلك العازل في النافذه و قد كان ذلك صوت حصى صغيرة ارتطمت بزجاج النافذة

التقطت حكمت الورده و فتحت أحد الكتب و وضعت الورده بين صفحاته التى امتلأت عطرًا بسبب رائحة الورود السابقه التى حصلت عليها منذ مده و اغلقت الكتاب جيدًا حتى تُجفف الورده و تحفظها ثم امسك بتلك الورقه تقرأ ما فيها و الذى كان فحواها " قد اقتربت حياتنا يا سُكره و انا عند عهدًا قطعته فى حلمًا من قبل ان أكون حماكى و سندك "

الان فقط يمكنني القول عوده من الماضى للواقع!

——----------

الفصل الرابع عشر
قد عدنا الان الى الحاضر و ارض الواقع و ذهب الماضى مع الذاهبين و فُنيى مع الفانين و لكن هناك من تعلق قلبه و عقله في الماضي و لا يستطيع الهرب منه، و هناك من تمنى الخير من رب الخير في القادم، و هناك من زاد حبه و تعلقه و هناك من زاد خوفه و هروبه من القادم المجهول، و لكن هناك تلك الفتاه التى كانت في غرفتها تتلحف ببطانيه كبيرة و ثقيلة بالرغم من كونهم في نهاية الصيف إلا الشعور بالبرد يكاد يقتلها بسبب اصابتها بدور الانفلونزا الخاصة بالصيف و قد كان جبينها يتفصد عرقًا بالرغم من انها ترتعش بشده من هذا الشعور بالبرد.

و بالرغم من ان عافيتها و مناعتها جيده الا ان هناك همًا أخذ يتسلل ببطء الى قلبها و جسدها بسبب التفكير و القلق و لم يرحم ضعفها و اخذ يسنذف طاقتها بقوة بلا رحمه او شفقه و الآن فقط أدركت معنى كلمة أنهكه التفكير و شعرت بوالدتها عندما كانت تمر عليها ايامًا ثقالاً من التفكير الذى كان يُلبسها رداً المرض و العجز و ينشر في قلبها اليأس و بدنها الكسل.

و لكن انا أريد ان اضيف على كل هذا خوفًا ما يتردد في قلب حكمت يزيد من حالتها سوءًا و مرضًا و هو خوف غير مبرر لكن تشعر بأن شئ سيئ سيحدث و لن تستطيع مواجهته سيسحب منها كل املها و حياتها و عائلتها و لم تستطع تفسيرة او معرفة سببه لكنها على إيمان ان القلوب لا تخطأ أبداً.

بدلت خديجه ملابسها و قد جهزت بعض الأغراض التى طلبتها مارلين و بعض الادوات و التصميمات الخاصة بفستان زفاف ايفا و كانت تتمنى لو بيدها ان تؤجل ذلك الامر ليومين فقط لكن لا يمكنها و قد اعتذرت منهم الأسبوع السابق بسبب انشغالها طوال الأسبوع.

تمنت لو مكثت مع جوليانا طوال اليوم لكن ما باليد حيلة.

دخلت غرفة حكمت و من خلفها طارق الذى قد ساعد السائس و وضع الأغراض في العربة و جاء ليخبرها ان السائس يستعجلها لكن وقف قليلاً و هو يرى خديجه التى اخذت تتحسس حرارة حكمت و تعطيها كوب الليمون قائله و هى تمسح على شعرها بحنان: ساذهب و لن أُكثر هناك و ساعود بسرعه فقط ارتاحى انتى.

تمسكت جوليانا بيد خديجه قائله برجاء: امي ارجوكى لا تذهبى ابقى معى.

ربتت خديجه على كف جوليانا قائله بحنان و هدوء: جوليانا ابنتى لقد كبرتى على تلك الافاعيل اخبرتك انى لن أكثر، نامى و عندما اعود سايقظك. ثم ساعدتها على التمدد و دثرتها جيدًا غير ملاحظه لدموعها التى تهبط بغذاره و بلا توقف ثم التفتت إلى طارق قائله: راعى اختك حتى اعود و لبى احتياجاتها اتفقنا يا بطل.

هز اخيلا رأسه بالموافقه و سار خلفها قائلاً و هم على اعتاب باب البيت: لا تقلقى يا أمى ساهتم بجوليانا جيدًا.

قبلت خديجه رأسه و ربتت على وجنته قائله بحنان: هذا هو بطلى هيا لا تترك اختك انا ساغلق الباب.

امتثل لامرها و دخل الى غرفة حكمت و جلس على السرير جانبها قائلاً و هو يمسح دموعها باصابعه بقلق: اختي لماذا البكاء هل هناك شئ يؤلمك؟

تقلب على الجهه الأخرى من السرير معطيه ظهرها الى اخيلا و لم تستطع الإجابة عليه فقط اكتفت بالبكاء و قد هزت رأسها بالنفى و بماذا ستخبره اصلاً؟ و هى لا تفهم لِمَ ذلك الشعور المر و المؤذي كالعلقم يراودها الان، و لكن اكثر ما يخيفها هو ان احساس القلوب لا يخطأ ابدًا_ فالحق سبحانه و تعالى جعل القلوب كاجهزة الإنذار فعندما يرتكب العبد ذنبًا يؤنبه قلبه و عندما يخطأ في حق احدًا يؤنبه قلبه و عندما يقترب الخطر ينقبض قلبه و عندما يقبل على الخير ينشرح قلبه فسبحان من خلق ذلك القلب الذى صوته أشدّ وطئتًا من أى صوت تئنيبًا او توبيخ_.

لف اخيلا حول السرير و جلس الى جوارها و اخذ يمسح دموعها قائلاً باهتمام: جوليانا اخبرينى بما يحزنك و انا ساهتم بالأمر.

مسحت حكمت دموعها بظهر يدها و اعتدلت في جلستها بعد ان ساعدها اخيلا و وضع وسادة خلف ظهرها ثم امسكت المنديل تمسح انفها المذكوم و شربت الماء حتى هدئت قليلاً ثم نظرت الى اخيلا و اخذ تتحدث معه بنبرة غريبة عنه و كانت تلك اول مره تعتبره فيها جوليانا رجلاً كبيرا و قد تمسكت بيده بقوه قائله: اخى بعد عدت ايام ستبلغ الرابعة عشر انت في هذا السن اصبحت رجلاً بحق لم تعد ذلك الصغير الذى ندلله او الصبى الذى نضربه بل صديق لى و لامك و حماية لنا، انا قلبي يؤلمنى يخبرنى ان شيئًا سيئًا سيحدث لى لن اكون معكم، انتظر لا تقاطعنى، احيانًا يكون احساس خاطئ لكن انا فقط اريد منك ان تعرف انك ستتحمل المسؤولية ستكون رجلاً صلبًا فى الصعاب و حنونًا على امك و زوجتك و ذئبًا فى وجه الأعداء و اخًا لى و رجل حكيم في افعالك و اقوالك، قد ننفصل عن بعض في اى وقت و هذا شئ بيد الرب ليس بيدى لكن ان حدث اريدك ان تعلم انى احبك كثيرا يا اخى، و احب امي، و أريد منك ان لا تنسانى من دعائك و تحكى عنى لاطفالك و اخبرهم أنني رحلت و انت فخورًا بى اتفقنا يا بطل.

مسح اخيلا عينيه من تلك الدموع المتحجّرة المزعجه و بلل شفتيه و هز رأسه قائلاً و هو يعانقها بقوة: أطال الرب في عمرك يا اختى، لا تقولى هذا انا لن انساكي ابدًا ما حييت و ساظل فخورًا بكى طوال عمرى، و لن ننفصل عن بعض ابدا.

ربتت على ظهره بحنان و اخذت تمسح على شعره بهدوء و قد الفت هذا العناق الذى لمحت به لامها في الصباح و لم تفهمه و قد جائها ما تمنته فقط عناق صادق يخفف عنها ذلك الكمد الذى يلتهم قلبها بوحشية بلا رحمه.

و لكن كسر جمال تلك اللحظه الدافئه و تلك الراحه و العاطفه صوت طرق الباب العالى ليترك اخيلا اخته و هو يهرول الى الباب في اعتقاد انها امه لكن تلاشت ابتسامته و حماسه بقوة و حل موضعها الدهشه عندما وجد طارقًا لم يكن يتوقعه اطلاقًا.

" يا أمى لا اريد العسل انا لا احبه... ابتعدى كرامة للعذراء" كان هذا صياح بلايو في غرفته منذ ان عادت مارلين الى عافيتها و است واستردد صحتها وهي على هذا العهد ان تعطي كل اطفالها ملعقه عسل كل صباح كما اخبرتها جوليانا عن فوائد العسل التي لا حصر لها و قد لامت نفسها كثيرا على انها لم تكن تعرف شيء عن هذا السلاح الجبار الذي يقي من مختلف الامراض وقد كانت على العهد ان تعطي نفسها وطفليها ملعقه عسل.

صاحت مارلين بغضب أمام بلايو الذى قلب عينيه في السقف بضيق و جز على شفتيه بضيق قائله: لا يوجد شيء اسمه لا أريد ستاكل العسل الآن اتظن نفسك كبرت علي. ثم مدت يدها بالملعقه بالاكراه ناحيه شفتيه و قد امتثل لامرها و اخذ العسل و مسح شفتيه بضيق عندما غادرت والدته و اخذ يشرب قنينة الماء كلها حتى يخفى مذاق السكر و ما ان انتهى حتى زفر انفاسه بقوة و حنق قائلاً: عليكي لعنة الرب يا جوليانا منذ ان دخلتى حياتى و قد قلبتيها راسًا على عقب.

و لكن في الغرفة المجاورة كان حنا يضحك بشماته و سخريه على تذمر بلايو و اكراهه على تناول العسل و يحمد الرب ألف مره علي ان مارلين قد استعادت صحتها و ألجمت جموح بلايو الذى لا يلجمه أحد سوى أمه.

جلس حنا على طرف السرير يرتدى حذائه العسكري ذو الرقبه الطويله باللون الأسود عندما دخلت مارلين غرفته قائله بود: صغيرى حنا افتح فمك هيا.

تناول حنا محتويات الملعقه و مسح شفتيه بعدها و امسك يدها يقبلها قائلاً بمرح: ما هذا الصباح الجميل؟ عسل يطعمنى العسل!

ابتسمت مارلين حتى بانت نواجذها ثم جلست على السرير الى جواره قائله بحنان: الشكر للرب على عودتك سالمًا معافى لنا انت لا تعلم كيف كانت حالتى كنت أموت من الخوف عليك و على فقدانك يا صغيرى.

احتضن كتفيها و ضمها الى صدره ثم قبل رأسها قائلاً بهدوء: اه يا أمى! لقد عشت في رعب أكبر و انتى مريضه لكن الشكر للرب.

ثم ربت على كتفها و ابتعد عنها قليلاً قائلاً باهتمام: أمى انا أريد ان اخطب فتاه و أريد منكي المجيئ معى.

ابتسمت مارلين بسعادة بالغه و أمسكت يد حنا بيدها المليئه بالتجعيد و اعتدلت في جلستها و هى تعدل فستانها الارستقراطى الرمادى قائله بفرح: حقًا يا حنا! بالطبع يا بنى ساتى معك من هى تلك الفتاه؟

اخفض حنا رأسه و تلاعب باصابع مارلين بهدوء ثم نظر لها قائلاً بهدوء: جوليانا يا أمى، ارجوكى لا تعترضى، لقد عاينت جوليانا و عشت معها و انتى بنفسك اختبرتى معدنها و اخلاقها ارجوكى يا أمى انا احب جوليانا، احبها كثيراً و لن اجد راحتى إلا معها فقط طاوعينى.

امالت مارلين رأسها بتفكير و هى بحق تفاجأت و لم تتخيل اطلاقًا ان جوليانا هى المختارة و المنشودة من قبل ابنها و لم تتخيل ايضًا ان حنا غارقًا الى قمة رأسه في حب تلك الفتاه و بالرغم من تعدد محاسنها الا ان كل ما يهمها في النهاية هو راحة ابنها و صغيرها.

ربتت مارلين على وجنته قائله بعقلانيه و هدوء: لا مشكله عندى فقط ننتهى من عرس ايفا و أتى معك و اطلبها لك.

ثم وقفت قائله و هى تهم بالخروج: هيا انهى ملابسك حتى لا تتاخر على العمل.

لثم حنا يدها قائلاً بسعادة و صدق: شكرا يا أمى.

ربتت على كتفه بهدوء و اخذت تدعوا له براحة البال و السعادة حتى خرجت تاركه اياه يرفرف قلبه من السعادة و الفرح، ثم وقف أمام مرأته التى امتدت بعرض الحائط يصفف شعره و يعقدة برباط الشعر على هيئة ذيل حصان و قد نظر الى لحيته التى ازداد طولها بضيق و قد سحبت جوليانا كل ما تبقى من تفكيره و عقله و اسخلصته لنفسها و استأثرته لها وحدها، و لكن يا مسكين تزعجك لحيتك المتطاوله غدًا سيزعجك نسيان الكثير من الأمور كلما ازداد حبك و تعلقك بتلك التعيسه و اكثر ما يثير حنقه هو انها لم تاخد له موعد مع اليزابيث بعد طوال الأربعة اشهر الماضية.

زفر انفاسه بضيق و هو ينظر في ساعته الذهبيه و قد اقترب موعد عمله و لا وقت الان لتهذيب لحيته، وضع ساعته في جيب زيه العسكرى و سلاحه النارى في محفظته بخصره و سيفه في الناحية الأخرى و ارتدى قبعته و قد هم بالخروج و بالفعل قد فتح الباب لكن استوقف مسيره صوت اليزابيث _خديجه _التى كانت تتكلم مع والدته و ريموندا زوجة اخيه في مواصفات فستان زفاف ايفا لكن اكثر ما لفت انتباهه و أثار حزنه هو قول اليزابيث بان اخيلا في البيت بجانب جوليانا لانها مريضه و لا تقوى على الحراك من الفراش.

أغلق باب غرفته بسرعة و اختبأ خلفه عندما صعدت النساء الى غرفة ايفا و ما ان رحلن و تاكد من اغلاق باب الغرفه حتى خرج بهدوء من دون إحداث اى ضجه و قد نزل علي السلم بسرعة ناحيه العربة غير منتبه إلى بلايو الذى كان يجلس في الصالون و بين يديه كتابًا ما و كاسًا من النبيذ الابيض العتيق و قد هز بلايو رأسه بيأس هو يري حالة أخيه في الفترة الأخيرة من تخبط و تيه و سرحان في أفكاره الخاصه و كانه انفصل عن الواقع و العالم إلا من جسدة الذى يتحرك به مثل الاشباح و هو نقطة الوصل الوحيدة بينه و بين عالمه الخاص، ليزفر بلايو قائلاً بحنق و ضيق و هو يقلب صفحات الكتاب: عليكي غضب الرب يا جوليانا.

صعد حنا الى عربته و قد تحركت العربه و لكن الى وجهه أخرى غير مخفر الشرطه بل الى بيت جوليانا.

ستقولون جنون و هو بالفعل كذلك جنون و لكن مع عاشق محموم مثل حنا لا يوجد شيء اسمه جنون!

استوقف السائق في مواطن عده حتى يشترى بعض الاغراض المختلفة من الخضراوات و الفواكه و الطيور الحية و اللحوم و بعض الاعشاب القليلة التى يفهم فيها و يعلم انها مفيده للانفلونزا و قد امتلأت العربة على بكرة ابيها إلى جوارة بالحقائب و الأغراض و كعادت حنا ان يتسلل مثل الفأر إلى جوليانا كلما تمنّى و أراد رؤيتها تسلل تلك المره خلف السائق بعد ان صف العربه في مكان بعيد و سبقة بالحقائب ثم جاء حنا و قد وقف امام الباب الخلفى يطرق عليه عدت مرات بلا صبر حتى فتح له اخيلا و لكن اخيلا لم يسمح له بالدخول و ظل واقفًا أمام الباب مثل الحائط و هو يتبادل أنظاره المندهشه مع انظار حنا الباردة لعدة ثوانى حتى تحدث حنا قائلاً لذلك الصبى الذى يصل بالكاد الى كوع ذراعه بهدوء: اريد ان ادخل.

رفع اخيلا كتفيه بلا مبالاه قائلاً ببرود: أمى عندكم في المنزل لا يمكنك الدخول.

نزع حنا قبعته العسكرية واضعًا ايها اسفل ابطه و أرجع بعض الخصلات المشعشه من شعرة إلى الوراء قائلاً و هو يتنفس بهدوء حتى لا يغضب فلا صبر له مع الاطفال: اعلم يا بطل لكنى جئت الاطمئنان على جوليانا اريد رؤيتها.

هز اخيلا رأسه بالرفض القاطع قائلاً بعناد: اعذرنى لكن لا يوجد أحد كبير هنا و لا يوجد داعى لرؤيتها عندما نصبح اقرباء تعال لكن الان لا او أحضر معك أحد كبير.

تقلصت عضله صغيرة بجانب فكه لتدل على انه يطحن أسنانه قائلاً بغضب لم يعد يستطيع السيطرة عليه: اخيلا! لا وقت لهذا العناد.

انتفض اخيلا و اهتز كتفيه برعب عندما صرخ حنا في وجهه و تمسك بعنادة اكثر و كاد ان يغلق الباب قائلاً: لا يوجد أحد اسمه جوليانا هنا.

و لكن قبل ان يغلق الباب قد دفعه بيده و تخيلوا معى فرق القوة و القدرة البدنيه بين الإثنين و انتصر حنا دون عناء ليرتد اخيلا عدت خطوات للوراء و هو ينظر الى حنا بغضب و قد التحم حاجبيه بضيق و لكن حنا امتص غضب الموقف بهدوء.

جلس حنا القرفصاء أمام اخيلا حتى يصبح في مستوى طوله و أمسك بكتفى اخيلا و زفر انفاسه بهدوء قائلاً بعقلانيه و صدق: اخيلا صدقنى انا احب جوليانا و أريد الزواج منها و ساتقدم لطلب يدها حالاً لو ان الخالة اليزابيث هنا، صدقني اختك باتت هي حياتى كلها و همها همى و راحتها راحتي و عائلتها عائلتى، انت في مثابة ابنًا لى لو تزوجت في سن أصغر لكان ابني في مثل عمرك، انا لن أُزى جوليانا ما حييت بل ساكون حماها و هى سكنى و سكونى، فلا تمنعنى من رؤيتها و الاطمئنان عليها ارجوك يا اخيلا.

طأطأ اخيلا رأسه لاسفل بتفكير و اخذ يعبث في طرف ثوبه ثم نظر الى حنا لدقيقة بتفكير ثم هز رأسه قائلاً و هو يرفع سبابته امام وجه حنا: موافق لكن بشرط لا تطل المكوث فقط خمس دقائق.

هز حنا رأسه بالقبول و اعتدل في وقفته و بينما اخيلا يغلق الباب قد خرجت جوليانا من الغرفة ترتدى فستان النوم و من فوقه وشاح أبيض و غطت شعرها بإشارب صغير بينما كانت تستمع الى تلك المُشادة الكلامية الصغيرة قد عزمت على فض الاشتباك لكن سرعان ما فُض الاشتباك من تلقاء نفسه و لكن وجود حنا هنا وحده و عدم وجود خديجه في البيت هذا مصيبه و اشتباك اخر لا يُفض بمجرّد الكلام.

أسرع اخيلا في مشيته و اقترب من جوليانا و أمسك يدها قائلاً بهدوء و تحذير: اختى فقط خمس دقائق. ثم رمق حنا بنظرة ناريّة كرجل اشتعل رأسه شيبًا و هرم حتى اكل الزمان عليه وشرب و كأن افاعيل و الاعيب الشباب قد مرت عليه و حفظها عن ظهر قلب قائلاً: ليس كل ما يُقال يُصدق حتى يحدث، يهوذا باع المسيح ببعض الفضه و قد كان يدعى محبته.

ابتسمت حكمت بارهاق و ربتت على وجنت اخيلا قائله بود: لا تقلق يا عزيزى السيد حنا سيقول ما يريد و يرحل لن يفعل شيء. ثم نظرت الى حنا قائلاً بنبرة فهمها حنا انها تريد تهدئة الاجواء: أ ليس كذلك سيد حنا؟

امال حنا رأسه بالموافقه قائلاً: بالطبع ثم تابع باهتمام قائلاً: لقد عالمت انكى مريضه و جأت الاطمئنان عليكي، كيف حالك الان؟

سعلت قليلاً قبل ان تجيبه ثم اعطاها اخيلا بعض الماء لتشرب قائله: انا بخير لا تقلق لكن مجيئك هنا خطأ كبير لا تكررها.

رفع حنا كتفيه بلا مبالاه قائلاً ببرود تام: ليس ذنبى أنى اريد الاطمئنان عليكي لقد اخبرتك ان تاخذى لى موعد مع السيدة اليزابيث و انتي لم تفعلى، انتى المخطئه لا انا.

زفرت انفاسها بقوة و مسحت انفها بالمنديل ثم نظرت الى تلك الحقائب الموجودة على الأرض و تلك الدجاجة و البطه الاحياء و قطبت جبينها قائله بدهشه و قد اتسعت حدقتيها: هل جننت ما كل هذا؟

ارتدى قبعته العسكرية و اقترب من الباب حتى يخرج قائلاً بهدوء: شيء بسيط يا جوليانا فقط اهتمى بنفسك، الى اللقاء.

ثم خرج و أغلق الباب من خلفه تاركًا كلاً من جوليانا و اخيلا ينظرون الى بعضهم البعض بدهشه من أفعال ذلك العاشق غريب الاطوار و الافعال و قد نطق اخيلا بتلقائية و هو ينظر الى اثر حنا في الهواء: هذا بالتأكيد مجنون.

هزت حكمت رأسها بالموافقه بكل اريحية: بالطبع مجنون.

ثم نظرت الى تلك الحقائب قائله بحيرة: ماذا سنفعل في تلك الحقائب.

رفع اخيلا رأسه و نظر لها و رفع كتفيه قائلاً في حيرة و قد مط شفتيه: لا أدرى لكن امى يجب ان تعرف بما حدث اليوم لن نخفى عليها شيئًا هى ستتصرف.

جلست حكمت على أقرب كرسى و نظرت له قائله و هى تهز رأسها بالموافقه: معك حق يا اخى، اترك كل شيء كما هو حتى عودت أمى.

اقترب منها اخيلا و ربت على كتفها قائلاً بعقلانيه و نبرة رجل عاقل لا طفل في ذمرة الاولاد: لا تقلقى اختى انا ساخبر أمى انه اقتحم المنزل و انه لا ذنب لكي لا تخافي أنا معك.

ابتسمت حكمت بهدوء و ربتت على وجنته قائله بحنان: باركك الرب يا اخى و ادامك في حياتى، صدقني أنت رجلى و حمايا الوحيد في الدنيا بعد رحيل أبى.

ضيق اخيلا عينية قائلاً بخبث: و السيد حنا أ ليس كذلك ايضًا؟

قرصت حكمت أذنه بسرعه قائله في غيظ و نوع من التربيه في صوره مرح حتى لا يكرر كلامه مره اخرى: ايها الوغد الصغير تأدّب. ثم تركته و هو يمسح أذنه المحمره بالم و رفعت ساقيها على الكرسى قائله بارهاق و أمر: احضر لى البطانيه من الداخل هيا.

" و هذا التصميم كم مترًا سيحتاج من القماش؟ "تفوهت ريموندا بتلك الكلمات عندما اختارت أخيرا ايفا بعض عناء و عذاب تصميمًا لفستان الزفاف باللون البيج الاقرب للون السكر _و قد كانت تلك هي موضة الازياء و فساتين الزفاف قبل ان تبتكر الملكه فيكتوريا فستان الزفاف الابيض و تنتشر تلك الموضة جميع انحاء العالم _ اعتدلت اليزابيث في وقفتها بعد ان كانت تاخذ مقاس خصر ايفا ثم اخذت تدونه في دفترها الصغير قائله بعمليه: على الأقل عشرة امتار لان به عدت طبقات و زينه و غيره فسيكون ثقيل قليلاً.

هزت ريموندا رأسها بالموافقه قائله: حسنا ساتاتين معنا عندما نشترى القماش رجاءًا.

وضعت اليزابيث ادواتها في حقيبتها الصغيره و هزت رأسها بالموافقه قائله: تحت امرك سنيورة و فى اى وقت تختارينه، فقط اعذرونى لقد تاخرت و كما تعلمون جوليانا مريضه قليلاً.

امتثل الجميع لها العذر و اشارت لها ريموندا ناحيه الباب قائله: لا مشكله، عفاها الرب.

_ لكن مارلين لم تكن معهم في هذه الغرفه بعقلها و لا حتى بنصفه بل كانت حاضرة بجسدها فقط و عقلها في ما قاله حنا قبل قليل و اختياره لجوليانا و حبه لها الذى صرح به دون تردد او خجل بل و كانه امرًا واقعًا يجبرها على تقبله و لا يحتاج سوى تلك الإجراءات الرسمية للزواج منها و لكن هي عكس بلايو لا تاخذ الأمور بشخصية و حساسية بل تدرس الأمر جيدًا فاذا نظرت الى مزايا جوليانا كثيرة و يفكى كيف عالجتها و عالجة ابنها و ذلك الاجر الزهيد الذى اخذته في علاجها و رفضها أخذ الاجر في علاج حنا، مهذبه و مثقفه و ودودة، يكفي انها تعرف أهلها منذ ان كان والدها يعمل عند زوجها، و امانة والدتها و مهارتها التى اقسم الجميع بها عندما شاهدوا فستان ايفا في حفل الخطوبه، و لكن العيوب معيقه اول عيب فارق السن هى لا تنكّر ان فارق السن أمر شائع في الزواج و هى قد كان الفارق بينها و بين زوجها الراحل خمسة عشر عامًا لكن جوليانا تربت في وسط و طبقه و بيت معين يختلف عن تربية و بيت و طبقة حنا تمامًا و قد لا تتاقلم معه و تفهم عقله و طبعة و غير هذا هى امرأة تجاوزت السبعين و تفهم و تعى ما يحدث حولها و اول شئ كره بلايو لجوليانا الغير مبرر و خلال الأيام التى كانت تعالجها كانت تتعمد تجاهل بلايو و بالمثل هو، فان كانت تريد الراحه لابنها لا تريد ان يخسر الاخ أخاه و ترى البغضاء و المشاحنه بينهم في اخر عمرها _.

ثم تحركت معها ايفا ناحيه الباب قائله و هى تقف في الرواق أمام غرفتها تنتظر صعود الخادمه التى سترافق اليزابيث: ابلغى جوليانا سلامى.

ابتسمت اليزابيث بود و هزت رأسها بالموافقه قائله: بالطبع سنيورة شكرا لكى و لذوقك.

ثم هبطت مع الخادمه إلى العربه الخشبيه التى تجرها الخيول و اخذت تنظر الى الحدائق الخضراء و القصور الأخرى في هذا الحى و كل قصرًا افخم و اروع من الاخر و كان سكان الحي قد تصارعوا و تسابقوا على من صاحب أفضل و بات من الصعب التميز بينهم.

تنهدت بهدوء و هى تتابع الطريق لكن قطبت جبينها بقلق و دهشه و هى ترى ان السائق قد غير خط سير العربه بعيدًا عن الطريق المؤدى الى الميادين العامه و فى طريقها الى البيت و قد اوجست خيفة من ان السائس يريد بها شرًا و بالاخص انها قد حصلت مبلغ مالى جيد من ريموندا اليوم و قد يكون طامعًا بهم لذلك حاولت عدم لفت الانتباه الى خوفها و قلقها و قد تمسكت بحقائبها و فتحت النافذه الصغيره التى في ظهر السائس في العربه و تسائلت في محاولة ان تظهر هدوء قائله: اعذرنى لكن هذا ليس طريق البيت.

ضرب السائس الخيل بحبل اللجام قائلاً و هو يزيد من سرعة العربة: لا تقلقى سيدة اليزابيث السيد حنا يريد ان يتحدث معكى في المقهى الذى يتردد عليه كدنا ان نصل.

رفعت خديجه أحد حاجبيها دون الاخر بدهشه و تفكير و قد اغلقت تلك النافذة و اعتدلت في جلستها و لكن لم تطمئن بل انفجر في عقلها ينبوع من الافكار و السنريوهات التى لا حصر لها و تدفق شلالاً عنيفًا من الافكار التى لا حصر لها و كلها تدور و تتمحور حول شئ واحد ماذا يريد؟!

و لكن لم تطل حيرتها كثيراً و قد افاقت من غيبوبة التفكير و خرجت من وحل الشرود عندما توقفت العربة امام أحد المقاهى الراقية التى لا يدخلها الا خواص الخواص و علية العليه من اهل مدريد الغير عادين، نزلت من علي سلم العربه و وجدت نادل ادخلها الى داخل المقهى و قد وجدت حنا في انتظارها علي أحد الطاولات بيده كاس كبير من الجعه و قد وضع قبعته العسكرية على الطاوله امامه و ما ان راها حتى وقف اجترامًا لها حتى جلست ثم جلس هو الاخر قائلاً و على شفتيه ابتسامه هادئة قائلاً: انا أشرب بيرة اطلب لكى قدحًا.

هزت رأسها بالنفى قائله بعمليه: اشكرك لا أريد الان فقط اخبرنى ماذا تريد.

اعتدل حنا في جلسته و شبك اصابعه قائلاً في هدوء: سيدة اليزابيث انا أريد ان اتكلم معكي في موضوع مهم، منذ مده و انتى تعرفين اني و عائلتى تعرفنا على جوليانا، و كم اعجبت عائلتى بأخلاق جوليانا و ثقافتها و تادبها و قد حاولت كثيراً فتح ابواب الحديث مع جوليانا لكنها كانت تتهرب منى خجلاً منى و خوفًا منكى و لكن بصراحه قد طال الوقت و بات الأمر سيئًا حقًا و من دون ان اطيل عليكى انا اطلب منكى يد جوليانا للزواج ما قولك؟

الفصل الخامس عشر

رمشت خديجه عدت مرات و اخذت تقرص فخذها بنفسها حتى تتاكد من ما سمعته و انها ليست نائمه او فى حلم او حتى قد ضربها احد على رأسها بل في كامل وعيها و ما سمعته من ذلك المختل صحيح و لكن كيف يجرُء على الاقتراب من صغيرتها و التفكير بها من هذا المنطق و المنطلق. و قد حدث ما كانت تخشاه على نفسها و هى شابة قبل الزواج و ما تخشاه على صغيرتها الان ان بالرغم من التخفى و التستر و عدم الاختلاط بالعامه و الناس حتى لا ينكشف ذلك السر الاعظم و يحدث ذلك اللغط و تلك الضجة التى وقعت بها الان!

رفع حنا حاجبيه قائلاً بتأكيد و هدوء عندما لم يجد ردًا: سيدة اليزابيث انا اتحدث معك، ما قولك فى ما قلت؟

هزت اليزابيث رأسها بالنفى لثوانى و كانها تفق من صدمتها تلك و تعود للعالم الحاضر قائله و هى تنظف حلقها: اعذرنى لكنى تفاجأت بما تقول.

ثم تابعت بعمليه و ضيق مبطن لم يخفى على حنا قائله و جميع حواسها متحفظة لما يحدث و يُقال: لكن اعذرنى ألا ترى انك كبيرًا على جوليانا قليلاً اعنى فارق السن بينكم ليس بقليل.

ارتشف حنا القليل من البيرة من الكاس العملاق الذى امامه ثم نظر لها قائلاً بهدوء و جدية: ليس مبرر للرفض، اعذرينى لكن اغلب نساء مدريد بينهم و بين ازواجهم فارق سن كبير امي و أبى الفارق بينهم خمسة عشر عامًا، اخى و زوجته الفارق عشرة اعوام، جدى و جدتى الفارق بينهم تسعة عشر عامًا، و غيرهم الكثير مِن مْن يردوا عليا بطبيعة عملى، انا لا أرى فارق السن مانع أبداً.

اخذت خديجه تطرق على الطاوله الخشبيه باصابع يدها الممتلئه بعصبيه و توتر قائله: جوليانا ليست من نفس عالمك، تفكيركم و طبقتكم و حياتكم على النقيد تمامًا في كل شئ، جوليانا انا اراها طفلة بريئه و ليست لانها ابنتى لكن جوليانا بالفعل كذلك لن تقدر على تحمل حياة القصور و تلك المسؤولية كونها زوجة صاحب الشرطه في مدريد، اعذرنى لكنك تخرج كل يوم و حياتك على المحك و اليوم في مقر عمل او وظيف غدًا في اخرى انا لا اريد لجوليانا سوى الهدوء و الاستقرار.

ابتسم حنا بهدوء قائلاً برزانه: انا لم أحب جوليانا الا لانها بريئة و لم يجذبنى شئ لها سوى برائتها و عطفها و حنانها في التعامل مع الجميع و أمر انها من طبقة أقل ليس مانع ايضًا جوليانا ذكية و ستعتاد على تلك الحياة بسرعة و ستتاقلم و لن يكن هناك مشكله اطلاقًا، اما بالنسبة لعملى فصدقينى انا واثق انه من المستحيل ان يتم نقلى الى خارج مدريد لقد قضيت خدمات و مده طويلة خارج مدريد و تعينت هنا للاستقرار فمستحيل ان تتضرر جوليانا، صدقينى انا احب جوليانا و مستحيل ان أذيها او ان يمسها ضر ما دمت على ظهر الارض جوليانا قطعة من قلبى مستحيل ان يقع عليها ضرر بسببى فقط اريد منكى ان تصدقينى و تثقى بى فقط.

التفتت اليزابيث الى جهة اليمين مختبئه عن انظارة المترصدة بها حتى تفكر في رد يسكت ذلك الاخرق الغارق في محيط غير معلوم نهايته من حب جوليانا و العشق بها.

لكن الكلام سهل ولا تنكر ذلك لكن للاسف و اكرر للاسف حنا صادق بما يقول و ايجادة التبريرات و طرق الاقناع و نظرات عينيه و ثقته في حديثه تدل على انه صادق بما يبوح و انه راغبًا في ابنتها حقًا ليس مجرد حديث لكن ما بينهما اكبر من كل تلك الحجج ما بينهم دين نهايته اما الجنه او النار فلا خيار اخر و لا يمكنها ان تغضب الله لاجل بشر و متع الدنيا الزائله و لكن الان اشيروا على تلك المرأه في ورطه بالفعل الصواب!

بللت خديجه شفتيها و هزت رأسها قائله بهدوء: دعنى اخبر اخوالها في مدريد و أعرض عليها الأمر، و رجاءًا لا تقابلها من وراء ظهرى ارجوك نحن اصحاب الطبقة الفقيرة ليس لنا شئ نورثه و نمتلكه سوى السمعه الحسنه و عمل صالح لبعد الموت ارجوك ان كنت تحب ابنتى حقًا لا تلطخ سمعتها و تجعل احد يخوض في حرماتها، ارجوك يا سيد حنا.

زفر انفاسه بهدوء و أغمض عينيه لثوانى ثم نظر لها و قد وافق على ما تقولة تلك المرأه من حقيقة قد تناسها تمامًا و ما كان يجب عليه ان ينساها قائلاً بهدوء: تحت امرك و لكن ارجوكى لا تتاخرى على فى الرد انا انتظر بفارغ الصبر.

هزت اليزابيث رأسها و وقفت عن ذلك الكرسى الخشبى بلا مساند و خرجت من ذلك المقهى المضائه زواياه بالشموع التى اثرت على لون دهانه الزيتى الفاتح و البار بنى اللون الذى يعمل عليه ثلاث شباب في زى مخملى و من خلفهم براميل نبيذ عملاقه و زجاجات خمر اخرى و اتجهت الى العربه و صعدت اليها بتوتر و جلست بجانب النافذه تنظر الى الطريق بتيه و حالة من اللاوعى قد تلبستها و هى تعيد كلام حنا في رأسها و تحاول ان تجد اى حل لتلك الورطه و الحماقة التى وقعت بها لكنها لم تجد اى حل سوى حل واحد لا ثانى له الهرب، نعم الهرب خارج اسبانيا تمامًا و بلا عوده لكن لا لن يتحقق ما ترجوا و تتمنى الا ببلوغ طارق الرابعه عشر عامًا و فقط كل ما في يدها الان الصبر و الدعاء!

عادت خديجه إلى البيت و قد طرقت عليه بتوتر نوعًا ما حتى فتح لها طارق الباب و قد وجدت حكمت تجلس على احد كراسى حجرة المعيشه متلحفه بالبطانيه و متكورة على نفسها.

وبالرغم من حالة جوليانا المرضية السيئة إلا انها بالغت في ردت فعلها و اخذت تسعل بشده و ترفع رأسها بثقل عندما اقتربت منها خديجه تتحسس حرارتها حتى إذا علمت خديجه بما حدث لا تزد عليها و تُثقل في اللوم والملامه وبالفعل سارت الخطه كما خططت و لكن الفضل لله الذى أبقى في عمرها وتوتر وقلق خديجه الذين فتكا برأسها وعصفا بتفكيرها فيما قاله حنا منذ قليل فلم تُجهز عليها الان فقط الصبر و ستُجهز عليها لا داعى للقلق فمدريد كلها ستُجهز على حكمت!

جلست خديجه على أحد المقاعد و قد خلعت غطاء شعرها ومعطفها لكن ما لفت نظرها واصم اذنها هو صوت تلك البطة الذى يصدح في الاجواء و هى بالاصل لم و لن تُربى البط أبداً بسبب خدمته المتعبه، لكن لم يطل انتباهها وحيرتها عندما خرج اخيلا من غرفته و هو يحمل تلك البطة وقد اخذت تقلب النظر بينه وبين حكمت وما زاد الطين بله تلك الحقائب الكثيرة الموجودة على الأرض وقد رمشت عدت مرات لتتسائل في دهشه قائله: ويلكم، من أين لكم كل هذا؟!

بللت حكمت شفتيها واعتدلت في جلستها واقبل عليها اخيلا واقفًا الى جوارها حتى تحدثت حكمت قائله بتردد: امي... امي ما حدث.. ان الحقائب تلك... جأت هنا.

صاحت خديجه بنفاذ صبر قائله بغضب: جأت وحدها؟ كيف جأت اجيبوا يا بقر.

اندفع اخيلا قائلاً في شجاعة مطلقه وهو يدفع عن أخته شرًا محتم ومحيط بها: امي جوليانا ليس لها ذنب ذلك السيد حنا عندما عرف انها مريضه جاء للاطمئنان عليها و قد حاولنا اثنائه و طرده لكنه لم يرجع و اجبرنا على اخذ تلك الحقائب ونحن قررنا انه عندما تأتي ستجدين حلاً. ثم تابع برجاء و استعطاف قائلاً: امي ارجوكى لا تذبحى البطه دعيها هنا.

لم تهتم خديجه بما قاله ذلك الصغير بقدر أُنملة او بمعنى اصح لم تكن خالية الوفاض لتركز مع أحد أو امانى أحد بل عقلها كله منصب حول تلك المصيبه التى اسمها حنا و قد سقطت فوق حياتهم لتتسلل إليها كالسرطان الذى يأكل جسد المريض ببطء مميت و بلا رحمه، ألا يكفى تلك المسكينه ما تحمله في قلبها من هم و رعب ليكثر حنا همها بطلبه الاخرق هذا لقد سأمت من تلك الحياة.

وقفت خديجه بغضب و ركلت احد الكراسى المحيطه بالطاولة الخشبيه قائله بصراخ و غضب ارعب الصبى و الشابة: اللعنة على حنا هذا، فليذهب الى الجحيم!

ثم دخلت غرفتها و اغلقت الباب بقوة مصدرًا صوت ارتطام عالى و قد اهتز زجاج النافذة بقوة وقد انتفض اخيلا عندما قفزت البطه من يده فذع و اخذت الدجاجه تركد حولهم لينظر اخيلا إلى حكمت قائلاً بدهشة: أمك فقدت عقلها.

لتوافقه الراى قائله و هى تنظر الى غرفة خديجه و تهز رأسها بالموافقه: اقسم بذلك و كله من حنا.

قد مر أسبوعين على حديث حنا مع خديجه و قد كان ينغمس فى عمله منذ الصباح الباكر حتى الليل الدامس المتأخر و قد باتت حياته مملة و كئيبه لا شئ بها يدعوه للاقبال عليها ما دام لا يراها كل يوماً و يستبشر بوجهها كل صباح حتى تلك الرسائل و الورود قد توقف عن ارسالها و التسلل اليها و هو ينتظر و لا يوجد شيء يفعله سوى ان ينتظر و مجبر على ان ينتظر.

فلا يريد ان يقحم نفسه في اى حماقة او يقحمها معه في مصيبة لن يتحمل عواقبها سواها و بالاخص كلام اليزابيث عن شرف الفتاة و بالاخص فتيات الاحياء الشعبية و الفقراء لا يملكن شئ سوى السمعه الحسنه و ان تلوثت فعلى تلك الفتاة السلام و لن ينظر صرصور في وجهها و يأمنها على بيته و ابنائه.

أغمض عينيهزبضيق و امسك بمنتصف التقاء عينيه بانفه بارهاق و قد زفر انفاسه بضيق و ملل و قد انهى الكثير من الاعمال و القضايا اليوم و الشؤون و لم يبقى سوى استلام القنابل التى ستذهب الى مخازن الجيش عن طريق تامينهاومن قبله اليوم و ينتهى من عمله و استلام الاسلحه الذى يتم منذ بداية الاسبوع و لكن اوكل تلك المهمه الى ادواردو الذى قبلها بشرط ان لا ياتى الى العمل لمدة من الزمن و قد وافق حنا بلا جدال او تردد.

اعتدل حنا في وقفته و رتب الاوراق على طاولته و عدل وضع قبعته العسكرية و اخذ يطفأ المصابيح التى تعمل بالجاز و الشموع و قبل ان يطفأ اخر شمعه قد دوى صوت انفجار شديد في القسم اصم الاذان و اختل من اجله التوازن و تساقطت المصابيح و الشموع على الارض و تشققت الجدران و خرج منها غبار كثيف و قد اختل توازن حنا و كاد ان يسقط لولا ان تمسك بارفف المكتبه خلفه بقوة لكن تلك القوة لم تدم كثيراً عندما خرج من مكتبه بسرعه و نظر الى بركة الدماء التى عند مدخل المركز و قد امسك العساكر و الملازمين ببعض جنود الكنيسه و قد عرفهم من زيهم و لكن ما صدمه و جعله يجن جنونه هو رؤية اصحاب الدماء و الجثث!

و ان قلنا ان هناك مصيبة و فاجعه عند حنا فهنا ايضًا همًا و بلاء عند حكمت و عناء فلان قد بلغ اخيلا الرابعة عشر من عمره الان و قد كانت كلاً من حكمت و خديجه اعدت حفلاً صغيرًا بمناسبة ذلك اليوم السعيد الذى لطالما انتظروه و قطعوا الايام الثقال و الساعات الطوال و عدوا الياالى و الدقائق حتى ياتى هذا اليوم و يعرف فيه اخيلا انه طارق سليل مسلمى الاندلس و أبنًا لجنودًا و علماءً و شيوخ ً عظماء حملوا منارة الحضارة و التقدم الى بلاد أوروبا باسرها و لولا حرق كتب المسلمين في الاندلس لكنا نتجول بين المجرات الان.

و لكن بالرغم من السعادة و الفرح إلا انه كان هناك خوف و ترح و اول الخوف هو هل سيقبل اخيلا بعد اربعة عشر عامًا من حياة اعتاد عليها و كذبة كانت كل عمره الماضى هل سيصدق بسهوله انه مسلم هارب؟

بالطبع امر لا يقبله الصغير قبل الكبير لكن لا حل أمام حكمت و خديجه سوى اجبار الفتى على تقبل الحقيقة رغمًا عن أنفه.

انتهى الحفل الصغير و قد قسموا قالب الكعك بالتساوي و قد التهمه طارق بسرعه و شرب العصير باستعجال حتى يفتح هديته الغامضة، و ما ان انتهى حتى وضع الطبق و الكوب على الطاوله قائلاً بحماس و هو يصفق: لقد انتهيت وقت الهدية الآن!

ضحكت كل من المرأتين تركن اطباقهن و اخبرت خديجه حكمت بان تحضر الهدية و قد دخلت غرفتها و خرجت و هى تضع علبه كبيرة خلف ظهره قائله بمرح:أغمض عينيك يا بطل. انصاع اخيلا للامر و أغمض عينيه ثم فتحها عندما مدت حكمت العلبه امام وجهه قائله: افتح عينيك.

و بالفعل فتحها ببطء و لكن اتسعت حدقتيه بدهشه و هو يرى كبر تلك العلبة و قد وضعها على ساقية بسرعه و قد اخذ في فتحها ثم شهق بسعادة و صرخ بمرح و هو يمسك بصنارة الصيد و الأدوات الخاصة بالصيد، ثم صاح بمرح و هو يتفحص الأغراض قائلاً: شكرا شكرا شكرا... كما تمنيتها بالضبط شكرا لكم.

اقبلن عليه المرأتين و عانقته حكمت و من ثم خديجه التى جلست على الكرسى جواره و ربتت على كتفه بهدوء قائله: كل عام وانت بخير يا طارق خالد محمد!

اتسعت حدقتى طارق بدهشه وهو يبدل الانظار بين والدته وحكمت غير مصدق لما قالته أمه الان وكانه في حلم لقد نعتته بأسم من هؤلاء الهمج البربر المتوحشين الذين سلبوا بلاده من اجداده قرابة الثمانى مئة عام واجبروا أهلها على اعتناق دينهم وقتلوا ملوكهم و كل عامًا في الثانى من يناير يحتفل أهل اسبانيا بذكرى طرد هؤلاء الوحوش السفاحين من البلاد و عودتها لهم مرة اخرى و كم الخذلان و الخزى الذى أحاط بهم بعد خروجهم من اسبانيا و عليه ان يسكت عن ما قيل هذا امرًا دُبر بليل و لا سكوت عنه ابدًا!

ترك اخيلا الصندوق على الأرض و التفت الى خديجه قائلاً بدهشة و حدقتيه متسعتين على قدر استطاعته: امي ماذا تقولين؟ أنا اخيلا لست طارق ذاك إذا علمت الكنيسه بما قلتيه فسيغضبون عليكى.

سحبت خديجه نفس عميق ثم زفرته بهدوء قائله _و قد تذكرت كم كانت حكمت عنيدة مثله الان عندما علمت و قد اتخذت نفس اسلوب الهدوء لا الهجوم حتى لا ينفر منها _: ابني طارق لقد بلغت الرابعة عشر من عمرك و فى قانون بلادنا يحق لنا ترك اسبانيا و السفر خارجها عند ذلك السن، انت مسلم يا طارق و اباك مسلم و انا خديجه مسلمه و حكمت اختك مسلمه... جديك مسلمان، عائلتنا كلها مسلمه.

قفز طارق من فوق الكرسي مثل الفرقع لوز و نظر الى حكمت قائلاً بدهشة و هو لا يصدق ما يحدث من حولها و ما يسمعه و قد تشوش عقله: جوليانا قولى شيئًا ما الذى تقوله أمى؟

ارجعت جوليانا شعره متمرده خلف اذنها قائله بهدوء هى الاخرى لتسيطر على الموقف: اخى امى تقول الحقيقة، تذكّر عندما اخبرتك و انا مريضه ان عند بلوغك الرابعة عشر ستكون رجلاً صلبًا بحق، حياتنا كانت كذبه حتى لا نموت و تلك الحقيقة نحن مسلمين يا طارق، و لكن بسبب سياسة بلادنا التى لا تسمح سوى بالكثلكه قد اجبرنا على اخفاء اسلامنا حتى لا نموت، الأمر غريب و قاسى لكن تلك الحقيقة يا اخى، الم تتسائل لما امى تبكي عندما تذهب للكنيسة لانك مسلم، و ماذا نفعل في السرداب نصلى لله و نعبده، نحن لسنا كما تعلمت طوال عمرك نحن مظلمون، نحن لسنا وحوشًا يا اخى. ثم اقتربت منه حتى تمسك يده لكنه اندفع من مكانه ناحية غرفته و قد تلألأت عينيه بالدموع قائلاً بضياع و تشتت و قد تثاقل عليه التفكير و بدأ يصدق القليل من كلامها: اتركونى وحدى دعونى و شأنى ابتعدوا.

ثم فر إلى غرفته بسرعة و أغلق الباب بقوة مصدرًا صوت ارتطام عالى و قوى اصم اذان الجميع و قد اغلقت حكمت عينيها بقوة و زفرت خديجه بضيق و وضعت يدها على جبهتها تفركها بارهاق قائله: اتركيه يا حكمت مع مرور الوقت سيقتنع، أنتى كنتى مثله لم تقتنعى بسهوله، و انا ايضا كذلك لقد مر من عمره الكثير و هو مخدوع في حياة معينه مستحيل ان يصدق تلك الحقيقة بسهوله و لكن سيقتنع ان شاء الله.

هزت حكمت رأسها بالموافقه و اتجهت الى الطاولع تلملم الاطباق قائله بارهاق و حزن على افساد فرحة ذلك الصغير بادوات الصيد الذى تمناها كثيراً: ان شاء الله يا أمى ان شاء الله.

---------- " اه! اترك يدى على رسلك انا لن اهرب، هل انا خروف امامك لا تجرنى " كان هذا صياح أقرب إلى مشاجرة و صراخ خرج من فم كاترينا التى كانت عائده من أحد مراكز الشرطة في المساء بعد ان تأكدت ان ابنها قد غرق في نومًا عميق و لن يفيق من ارهاق اليوم في العمل والدراسه في الكنيسه فمن سابع المستحيلات ان يشعر بخروجها او دخولها من والى البيت.

ولكن ماذا عسيًا ان اقول سوى ان سوء عملها و قبح فعلها قد بدأ يجذبها و يجرها ببطء الى بناء أول الألواح الخشبية في نعشها و باتت نهاية الواشى و الظالم قريبه، قد يظن البعض اننى اهزى او انطق بما لا يعقل او يصدق لكن صدقونى كلما ضاق المخرج و تعقدت الامور و شعرنا ان الهلاك قادمًا لا محالة فاجأنا ربنا و رب محمد وعيسى وموسى _صلوات الله عليهم و سلامه _ بفرجًا غير متوقع و كانه المطر المنتظر بعض جفافًا و مجاعه واقعه لا محالة.

ظلت كاترينا تصيح و تقاوم ذلك الرجل قوى البنية الذى كان يجذبها من ذراعها بقوة و عنوة الى تلك العربة الخشبية التى تصرخ بالثراء و البزغ سواء من تصميمها او فقط زى قائدها اللامع او لجام الفرس المرصع بالاحجار الكريمه و قد رمشت عدت مرات لتتسائل في داخلها لو هذا المظهر الخارجى فما بلكم بصاحب العربة؟

و بالفعل لم يستمر تسائلها و لم تدم حيرتها طويلاً عندما اجبرها ذلك الرجل قوى البنية ضخم الجثة على الصعود الى العربة و قد ركبت بالفعل و لم تكف عن الثرثرة و الوعيد الذى لن تحقق منه شيئًا و جلست على المقد المقابل لصاحب العربة الذى كانت رأسه مختفيه في الظل سقف العربة و كان يرتدى زي جلدى باللون البنى الفاخر و حذائه ذو الجوارب الطويله و قد تحدث بهدوء و رزانه و هو ينظر في ساعته الذهبيه قائلاً: لماذا كل تلك الضجه يا كاترينا الناس نيام؟

صاحت في حنق و هى تُشير إلى ذلك الرجل الذي كان يسحبها عنوةً قائله بصوتها الحاد المؤلم للاذن: هذا الرجل أنظر يجرنى خلفه مثل الخروف و لا يخبرنى إلى اين سنذهب حتى و احدثه و لا يرد علي ما هذا بحق ياسوع؟!

ابتسم ذلك الرجل صاحب العربة قائلاً بهدوء من بينه تلاعب بالحديث و خبث و سخرية: اعذرينى سوف اعين حراس يعرفون كيف يتعاملون مع النساء جيدًا... ثم ضرب بعكازة الخشبى _و غرضه الزينه لا التعكز عليه _بخفه على الارض قائلاً: لقد سمعت الكثير عنكى يا كاترينا و كم انكى امرأه مخلصه للدولة و للكنيسة و لياسوع الرب و لهذا انا اخترتك و أريد منكي خدمة صغيره.

ثم أشار إلى الحارس باصابعه بمعنى اقترب او هات ذلك الشئ و قد اخرج ذلك الحارس كيس جلدى مليئ بالذهب و قذفه الى كاترينا التى التقطته بسرعه و فتحته و قد سال لعابها و لمع مع لمعان الذهب على ضوء القمر قائله و هى تغلق الكيس و تخبئه في صدرها بدونيه: انا تحت امرك، ما الامر؟

ابتسم ابتسامه جانبية خبيثه تنم عن مكنون الشر و الحقد داخله قائلاً: فضيحه، اريد فضيحه، جوليانا ابنت اندرو الحداد و اليزابيث أريد منكي ان تجعلها لا تخرج من بيتها اجعلى سمعتها اسوء من ممسحة الغائط و لكى ان تحقق الامر ضعف ما معك، ماذا قلتى؟

حكت كاترينا وجنتها بتفكير و قد جائتها فرصتها لتقضى على اسطورة اليزابيث الامينه و ابنتها على طبقًا من ذهب لتهز رأسها بالموافقهو على شفتيها ابتسامه قذرة قائله: اعتبر ان جوليانا قد دُفنت حيه، و لكن اعذرنى من انت يا سيدى؟

اخرج ذلك الرجل رأسه من ظل العربة أخيرا و قد ظهر وجهه لينظر لها بعينيه الخبيثه و المخيفه قائلاً بنبرة غريبة و هادئه تصيب بالرعب: السيد بلايو!

الفصل السادس عشر

كانت عينى حنا الزرقاء أشبه ما يكون لزُرقة العما عافاكم الله من صدمته و من هول و صعوبة المشهد امام عينيه و هو يرى بركة دماء كبيرة انتشرت في الأرض مثل النار في الهشيم و لطخت جدران المدخل بغزارة و فوق هذا هناك بعض الاشلاء الادمية من جثث المغدورين تناثرت في المكان و قد كان مدخل المركز اقرب للمجزرة من ساحة الحرب و النزال.

اقترب حنا ببطء وخوف وتوجس وقد أخذ يرتل الأدعية وينذر النذور حتى يكون ما يفكر به خاطئًا و لم يحدث او لعله الآن في كابوس سيئ و بشع سيستفيق منه الان ما ان يحدث شئ خارج عن توقعه لكنه لم يستفيق و لم يحدث شئ بل صدق حدثه و أصبح كابوسه حقيقة و امر واقع و نافذ.

كانت الجثث لثلاث عساكر و ادواردو صديق عمره و تؤمه الاول الذى منذ ان تعرف عليه اثناء الخدمه العسكرية لم يفترق عنه و لا عن ديغو ايضا لكن ادواردو مختلف، فلم يكن صديقًا و حسب بل كان الاخ الاصغر الذى لم تنجبه أمه، كان قطعه منه ارتبطت برباط طاهر و صافى يخلوا من الحقد او البغضاء او الكره، و كان الله قد قذف في قلوب بعضهم البعض الاخوة و التراحم.

جلس حنا على ركبتيه و نظر حوله بدهشه وكأنه في حلم و يحتاج إلى اثبات ذلك لكن ديغو الذى كان مصاب في جبهته ويجلس في زاويه المدخل يبكى وينتحب بقوه مثل الاطفال على فقدان صديقه اكد ان كل هذا لم يكن حلم بل الحقيقة الكامله بعينيها.

بايدى مرتعشه أمسك حنا قميص ادواردو الملطخ بالدماء وقد فقد ذراعه بسبب قربه من القنابل الشديد وتحسس وجه صديقه ودموعه الابيه قد نزلت اخيرًا ما ان لامس قميص صديقه وقد تذكّر يوم زفاف ادواردو وكم كان خائفًا من خوض تلك المغامرة الجديده واخذ حنا يمثل امامه دور الرجل وديغو دور الانثى ليعرف ماذا سيفعل و الان قد رحل اطيب قلب بينهم، و هنا قد افاق حنا من صدمته لتخرج معها صرخه عاليه هزت ارجاء المركز و الحى صارخًا باسم ادواردو و قد اخذه الى احضانه وهو يودعه قائلاً بألم: اخى! لماذا يا اخى لماذا فعلت هذا لماذا لم تصمد اخبرنى؟! اه! يا اخى، ماذا العمر امامك لماذا رحلت لماذا؟ من سيمرح معى ومن سيربى اطفالك؟! اه!

صرخ بقوة والم وقد انتفض من مكانه واثبًا مثل الأسد الجائع بين قطيعه ناحيه فريسته ولكنه الان ذاهب الى ناحيه جنود الكنيسه بغضب وقد امسك احدهم من تلابيب قميصه وظل يسدد له اللكمات بقوة و وحشيه و ينعتهم بابشع الالفاظ و لم يثنيه عن هذا الا بعض الضباط و العساكر الذين ابعدوه عن الجنود بتعقل بحجه انهم سيموتوا و يجب التحقيق معهم اولاً، صرخ حنا بالعساكر الممسكين بجنود الكنيسه قائلاً بغضب ودموعه لم تجف: هؤلاء الكلاب يبدأ التحقيق معهم فورًا و بعد ان يدفن زميلكم يحالون الى المحكمه و اياكم ان يهربوا، واحضروا طبيب الى المصابين و اخبروا اهالى المصابين و الضحايا.

"كإنسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا. ان عشنا فالرب نعيش وإن متنا فالرب نموت فإن عشنا وإن متنا فالرب نحن. الذين يعزينا في كل ضيقتنا حتي نستطيع أن نعزي الذي هم في كل صيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الرب " هكذا القى احد اقرباء ادواردوا العزاء في الكنيسه اثناء مراسم القداس الخاص به.

وهناك في بدلته الكلاسيكيّة السوداء و على رأسه قبعة مستديرة سوداء كان يجلس حنا في الصف الاول بين مقاعد الكنيسه يتلقى العزاء من أصدقائه و يستمع إلى تعازى البابا و أقوال بعض أفراد عائله ادواردو عن اخلاقه و صفاته الجيدة و أعماله الصالحه بينما إلى جواره زوجته و طفليه الصغيرين الذين تركهما للعالم و الحياة هكذا من دون حماية او ظهر او سند لهما و لم تكف ابنته الكبرى ذات الأربع سنوات عن البكاء و بالرغم من صلابة زوجته و التخفيف عن طفليها إلا انها بين اللحظة و الأخرى تفر من عينيها دمعه و تقبض على قلبها بأمل كلما صعد احدهم على منصه الكنيسه واخذ يعدد محاسن ادواردو واعماله الصالحه والبابا يدعوا له و للضحايا الاخرين بالغفران وان يسكنوا الملكوت ويجاوروا الأخيار.

لكن حنا كان في عالم اخر حتى لم يستطع ان يقف و يتكلم، و عن من سيتكلم؟ سيتكلم عن قطعه منه و صديق عمره الوفى الذى لم يغدر به او يخن عهده او يكسر بقلبه ابدًا فكيف يتكلم عنه؟!

و الى جواره من الناحية الاخرى ديغو الذى لم يكن أقل من حنا حالاً و لا حزنًا بل كلما صعد احدهم على منصه الكنيسه واخذ يعدد محاسن ادواردو تذكّر اخر ليله سهر لهم سويًا عندما ذهبوا الى أحد المناطق الغير مئهوله بالسكان عند النهر بعد ان انهوا سهرتهم في احد الحانات وقد اسرفوا في الشرب احتفالاً بحنا الذى انفكت عقدة لسنه و اخبر اليزاليث عن حبه لجوليانا و طلب يدها للزواج وكم كان مرحًا واخذ ينصح حنا بأن يكون رومانسي و يتصرف برومانسيه وحنان مع زوجته المستقبليه حتى لا تتالم ولكن تلك الحياه تاخذ منا الطيبون دائما وليس بيدنا سوى الانتظار حتى يوم المحشر واللقاء.

انتهت مراس العزاء و الجنازه ليحين موعد الدفن و الرحيل ليقف ديغو وحنا و ينظران الى بعض بلا حياة ويتجهان الى التابوت الخشبى من خشب الابانوس المحفور عليه الصليب الكبير بطوله و مضائه شمعه يسر بها احد القساوسه من الامام حتى وضع التابوت في عربه لنقله الى المقابر و من خلفه زوجته وطفليه وعائلته واصدقائه تودعه الوداع الاخير حتى اللقاء يوم الحساب و

طوال الطريق كان القس يقرأ بعض الايات من الانجيل حتى وصلوا الى المقابر الكاثوليكيه و نزل التابوت و بدأ حنا يرمى عليه التراب و من بعده ديغو وبعض اقرباء ادواردوا بالتناوب حتى انتهى الامر وسجى الى مثواه الاخير.

وقد جلست زوجته وطفليه على طرف المقبره المرتفعه واخذت تدعوا له بالرحمه والغفران وطفليه يبكيان ليقترب منهم حنا تاركًا ديغو خلفه ويقف امام زوجته قائلاً بجمود ونبرة صوت تخلوا من اى معالم الحياه: من اليوم انتى وابنائك امنة ادواردو في رقبتى الى يوم وفاتى لا تترددى في طلب اى شئ يخصك او يخص الصغيرين، ادواردو كان يحبكم حقًا.

لم تجبه المرأه بل وضعت المنديل عن انفها و اخفضت رأسها المزينه بالقبعه السوداء ذات القماش الدانتيل واخذت تتشنهج وتبكى بلا هواده او اراده منها وقد كور حنا قبضته بألم ونظر الى السماء وهو يقمع تلك الدموع من النزول الآن و عليه ان يكون مصدر قوة لولدي صديقه وزوجته.

ثم مسح عينه باصابعه الملطخه بالتراب باهمال و هى ينظر الى بلايو الذى قد جاء ومعه شخصًا ما تبدوا عليه علامات الثراء والاهمية في الدوله وقد كانا يقفان مع ديغو يتحدثون معه ليقترب منهم عندما اشار له بلايو.

وقف بينهم حنا الذى كان يتطاير شعره باهمال بفعل الهواء و_ لا ننسى حالته المزريه هو وديغو وبلابسهم ملطخه بالتراب وايديهم _ ابتسم بلايو بفتور واسف قائلاً بحزن على حزن أخيه: تعازى الحارة لك.

هز حنا رأسه باقتضاب دون ان يتحدث ليتابع بلايو و هو يشير إلى ذلك الرجل قائلاً بهدوء: هذا السيد اغسطس ضابط محكمة تفتيش مدريد يريد التحدث معك على انفراد.

بعينى حنا الزرقاء الضيقه بسبب اشعة الشمس و الاتربه المتطايرة نظر الى بلايو بشك ثم نظر إلى ديغو الذى طأطأ رأسه للاسفل باسف وخجل ثم التفت الى ذلك الرجل الذي مد يده ليصافحه وقد بادله حنا التحيه بفتور وسار معه عدت خطوات حتى ابتعد عن مجال سمع بلايو وديغو في منطقة ما يتكلّم ذلك اغسطس قائلاً بعملية ومراوغه: انت لا تعرف كم حزنت على هذا الخبر المؤسف ولكن تلك هى حياة تاخذ الأخيار دائماً، والبابا ايضًا غاضب بشده لما حدث وحزين على ضياع خيرة شباب بلادنا غدرًا لكنه بعثنى برساله.

رفع حنا احد حاجبيه ونظر الى اغسطس بشك وكان نظرته تقول ايها الكاذب لكنه فضل الصمت ليعرف نهاية تلك المسرحية ركيكة التمثيل تلك، لمسك ذلك اغسطس كتف حنا ويربت عليه بهدوء قائلاً: البابا يطلب منك اطلاق سراح الجنود وهو يتعهد لك بانه بنفسه من سيحاسبهم على فعلتهم تلك واعذرنى لكنى كنت امرت باعتقال او قصف من يشكون به انه من الفرنسين وللاسف اخطئوا، ولكن اذا رفضت انت هكذا تضر بمصلحه البلاد وتهز صورة الكنيسه امام الشعب والفرنسين وانت ضابط مخلص لا تقبل بهذا.

نفض حنا يد اغسطس عن كتفه وكانت عينيه القاتمه أبلغ من اى حدود او من ردت فعل لكنه الان فقط ادرك انه يعادى الدوله والكنيسه ومهما حاول ففى النهاية لا خاسر سواه.

ذهب حنا الى ديغو قائلاً بتهكم وضيق وهو ينظر الى اخاه بازدراء: نفذ ما جاء اليه حضرت الضابط اغسطس وسلمه الجنود بنفسك.

ثم رحل وهرب واسرع في خطواته وقد شعر ان الأرض تضيق عليه بقوة من كل ناحية ومن كل جانب وقد أخذ يخلع رباطة عنقه بضيق ويلقها ارضًا وهو يركب فرسه متجاهلاً منادات أخيه له وكان صوته ذو حياء ومرؤه عنه ويرفض الخروج بعد ضعفه وتنكيس العهد بينه وبين ادواردو على ان يرجع له بحققه، وقد ركل الفرس في اسفل معدته بقوه وهو يفر من المكان بسرعه اقرب لسرعة الريح من حوله وهو حقًا لا يعرف الى اين يذهب وماذا سيفعل

" خالة جوليانا أين اخيلا ألن يأتى للعب معنا اليوم؟ " صاح بتلك الكلمات هيكتور صديق اخيلا المقرب الذى قد اسوحشه و افتقده بسبب غيابه عن اللعب او الذهاب للكنيسه قرابة الاسبوع و هو متقوقع في البيت حتى لا يذهب ليرمى القمامه بل جالس في غرفته لا يتحدث الى احد و عينيه زائغه في الفراغ بلا كلل او ملل.

فتحت جوليانا النافذه المطله على الشارع الرئيسي و جلست بركبتيها على الاريكه الملتصه بالجدار الذى يحوى النافذه و وضعت إشارب أسود على رأسها حتى تخفى شعرها ثم نظرت الى هيكتور الذى قد دفع ذلك الباب الصغير و دخل الى حديقة المنزل الصغيره قائله: لا يا هيكتور اخيلا ما يزال متعبًا، و امي لا تريده ان يخرج حتى لا ينشر العدوه.

ضم هيكتور شفتيه بضيق وحزن على حال صديقه وهز رأسه على مضد قائلاً بحزن: حسنًا خالة جوليانا فقط الاب انطونيوس قد سأل عنه لانه تغيب عن درس الأمس و انا اخبرته انه مريض لكن عليه المداومه الأسبوع المقبل.

هزت جوليانا رأسها بالموافقه قائله بهدوء: بالطبع سيكون تحسن بمشيئة الرب فقط ادعى له.

هز هيكتور رأسه بالموافقه ولوح لها بيده قبل ان يرحل وهو يرى ان بقية أصدقائه قد تجمعوا في الشارع يتجزون للعب وقد شرعوا في إحداث ضجه حتى لا يمر الوقت المخصص للعب دون اللعب.

اغلقت جوليانا النافذه ونزعت ذلك الإشارب ووضعته على أحد المقاعد باهمال ثم نظرت الى والدتها التى كانت تمسك بمصفاه نحاسيه و بعض حبات الفاصوليا و تقسمها و تنتقى الطازج منها قائله بهدوء: اخيلا لا يريد التحدث بعد؟

توقفت والدتها لبرهه وزفرت الهواء من رئتيها بضيق قائله وهى تهز رأسها باسف: نعم، وقد حاولت منذ قليل التحدث معه لكنه رفض، ثم تابعت بأمل ورجاء قائله بنبرة معينه حتى تستميل عطف حكمت: ابنتى ادخلي تحدثى معه هو يستمع اليكى دائماً و يحب الحديث معك تكلمى معه لعله يرتاح و يهدء قليلاً.

قضمت حكمت شفتيها بتفكير ثم هزت رأسها بالموافقه ثم حملت البطه التى كانت تشرب من طبق المياة في احد زوايا ارض الصالون قائله بمرح وكأنها تتحدث الى شخص عاقل: انا والانسه بطه سنتحدث مع طارق قليلاً، أليس كذلك انسه بطه؟

اصدرت البطه صوت بطبطه وكأنها توافق على ما قالته حكمت لتضحك خديجه وتهز رأسها بيأس وتزفر بضيق و تتنهد باسى والان كان همها فقط حزن طارق صار الان همها زواج حكمت من حنا والذى لا يجب ان يتم بجميع الأحوال وباى طريقه كانت حتى لو اضطرت لقطع قدمى حكمت حتى تمنعها عن حنا، ولكن السؤال لماذا دائماً عندما يُلاحق شاب فتاه نضع اللوم على الفتاه و تتحمل الذنب والشاب بريئ برائه الذئب من دم بن يعقوب؟!

دخلت حكمت غرفة طارق بعد ان طرقت عدت مرات على الباب و كالعاده منذ ان دخل في حالة الكمد والعزاله تلك وهو لا يجيب على اى احد او يستمع إلى احد فقط وحده مع نفسه المصدومه والمتالمه من كذب أهله عليه وإخفاء امر كهذا عليه طوال عمره المنقضى ونعته بأسم هؤلاء الهمج البربر مغتصبوا البلاد كما تعلم و عرف طوال عمره.

نظر طارق الى حكمت نظره جانبية بلا اى اهتمام ليعرف من دخل ثم تقلب على جهته الاخرى على السرير ليعطى حكمت ظهره كاجابه من قبل ان تتكلم تقول لها اغربى عن وجهي لكن حكمت لم تهتم بردة فعله التى اعتادت عليها منذ ان عرف الحقيقة وجلست على سرير جانبه وهو يوليها ظهره لتضع البطه على السرير قائله بمرح: لقد جئت انا و الانسه بطه لزيارة هذا الكهف الغريب ونتعرف على رجل الكهف.

لم يلتفت لها اخيله ولم يهتم ولكنها لم تستسلم وابد ان تخسر المعركه لتتابع قائله بهدوء وعقلانيه: انا اعرف ان الامر ليس سهل عليك وان تصحوا على شيء وتنام على الاخر شيء صادم وصعب لكن ضع نفسك مكان امي و انظر الى ما فيه البلاد من توتر و انقسام و قل لى ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاننا يا طارق؟

انتفض طارق من مكانه بقوة كمن لدغه عقرب والتفت ينظر الى حكمت قائلاً بغضب و قد انحلت عقدة لسانه اخيرًا واخرج كل ذلك الكمد والغضب الذى في صدره: انا اخيلا اندرو اغسطس لست ذلك طارق افهمى، انتم الكاذبون و المخادعون، اخترتم دين هؤلاء الهمج و الوحوش و تريدون الصاق الامر بى يكفى كذبًا الى هنا لقد سئمت.

بللت حكمت شفتيها وزفرت الهواء من رئتيها بهدوء قائله: اسمعنى يا اخى جيدًا ثم قرر واحكم بما تشاء. منذ الف و مئة عام حكم لوذريق بلادنا عنوة بعد ان مات الملك جيتشا وهدد ولاة العرش بالقتل و من بعد ذلك هربوا الى حاكم سبته جوليان كان يحب الملك

جيتشا وكان عادلاً وعاقلاً فاستقبل أبناء جيتشا عنده وكان طارق بن زياد يحاصر سبته حتى يستسلم جوليان وتصبح تحت الحكم الاسلامى لكن طارق تراجع عن خطته فجاه وعاد الى طنجه في المغرب وفي تلك الاثناء كانت فلوريندا الجميلة ابنة جوليان تتعلم في قصر لوذريق ولكنه اغتصبها واعتدى عليها وعندما بلغ جوليان ذلك قرر التحالف مع طارق بن زياد لسلب الحكم من يد لوذريق والاخذ بثائره لشرفه لكن طارق كان يريد ان يرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله في اوروبا وينير سماء العالم بنور الإسلام فوافق واخذ موافقه حاكم القيروان القائد موسى بن نصير وموافقة الخليفه الاموى الوليد ابن عبدالملك في دمشق وساعده جوليان بالاسلحه والسفن ليعبروا المضيق الى اسبانيا والبرتغال وحدثت معركه وادى لكه وانتصر المسلمين المجاهدين بسبعة الاف مقاتل فى السابع والعشرين من رمضان على جيش لوذريق الذى كان قوامه مئة الف مقاتل و فتحت الاندلس ودخلت فى عهد وذمة المسلمين وقد امن المسيحين و اليهود ابناء اسبانيا الاصلين الخليفه الاول عبدالعزيز بن موسى بن نصير على دينهم ومعابدهم واموالهم وبيوتهم وتجارتهم وقد صدق وعده وعشا المسلمين سواء من اسلموا من اهل البلاد او من النازحين من انحاء العالم الاسلامى الى الاندلس مع اليهود و المسيحين في سلام، لكن هناك كان الحاكم بلايو كان خبيثًا وكارهًا للمسلمين ودينهم لانهم دخلوا بلاده عنوه لكنه كان على يقين انه زمن المسلمين الان وقرر الهرب مع شباب واطفال زرع في قلوبهم كره المسلمين جيلاً بعد جيل وقد حارهم الخليفه وتبقى منهم ثلاثين نفراً احتموا في صخرة بلايو وقد رائف واستهان بهم المسلمين وكانت تلك الكارثه فتكاثر هؤلاء تلاميذ بلايو وتكاثر معهم كره المسلمين وحقدهم حتى ضعف المسلمين وتفككوا وحادوا عن طريق الله وسقطت الاندلس بعد حكم اسلامى ثمانى مئة عام و بالرغم من العهود التى قطعها ابو عبدالله الصغير مع فرنالدوا و ازابلا ملكة قشتاله على حماية المسلمين وعدم المساس بهم الا انهم نقضوا العهد و انشئوا محاكم التفتيش التى قتلت الآلاف من المسلمين واليهود و هجروهم خارج اسبانيا وقطعوا رؤسهم و من يفعل ذلك ياخذ مكافأة وسلبوا اموالهم و اجبروهم على التنصير ومن يرفض جزائه الموت وقد هرب من هرب الى المغرب والجزائر واسطنبول واستنجدوا بالازهر في مصر والسلطان قايتباى وقد افتى لهم الازهر بتنصير خارجين واعتناق الاسلام في السر وهكذا حافظ اجدادنا على الاسلام حيًا حتى يومنا هذا قلى الان هل ما زلنا بربر وهمج الان؟

جلس طارق امام حكمت متربعًا وقد استند بمرفقه على ركبتيه واضعًا راسه بين كفيه وهو ينظر الى حكمت بضياع وقد بدات تلك السحابه السوداء تتقشع عن عينيه شيئًا فشيئًا وقد شعر بشئ غريب في قلبه استيقظ لا يستطيع تفسيره سوى انه كان احمق وبدأ يقتنع بالحقيقه لكن بعض الشكوك تراوضه.

على حالته تلك ووضعه تسأل بشك قائلاً: ويسوع المسيح ومريم العذراء و الاصدقائى كيف نتخلى عنهم.

هزت حكمت رأسها بالنفى سريعًا قائله: على العكس نحن نؤمن بهم كما نؤمن بنبينا محمد، السيده مريم العذراء عليها السلام قد ذكر الله اسمها في القرآن الوحيده دونًا عن نساء العالمين حتى لم يذكر الله اسم زوجات نبينا محمد او بناته، و نبينا عيسى قال الله فيه هو روحًا منه وكلمته القاها الى مريم البتول وقال نبينا محمد انا اولى بعيسى اخى من قومه، كيف نكره الطاهره مريم عليها السلام و روح الله عيسى عليه السلام نحن؟ واصدقائك المسيحيون اهل كتاب وذمه وقد وصانا نبينا على اهل الكتاب يهود ونصاره وكانت زوجة نبينا محمد ماريا القبطيه مسيحية مصرية و اسلمت فيما بعد، على العكس في الكثير من البلاد المسلمين والمسيحين اخوه يحبون بعض كما في مصر وبلاد الشام والمغرب وغيره كلهم يعيشون في حب وسلام فقط المشكله في بلادنا نحن فقط.

نظر لها طارق بشك قائلاً: ان صدقتك ساموت؟

هزت رأسها بالنفى سريعًا قائله و هى تكور وجهه بين يديها حتى ينظر الى عينيها الصادقه: ان شاء الله لن يمسك سوء فقط لا تخبر احدًا و لا تتكلم مع احد انت امام الجميع اخيلا اندرو اغسطس الكاثوليكى وفي البيت طارق خالد محمد اتفقنا يا بطل؟

حك طارق رأسه بتفكير لمده ثم هز رأسه بالموافقه قائلاً: اتفقنا يا حكمت.

ابتسمت حكمت بسعاده وعانقة طارق الذى بادلها العناق بصدق لتربت على ظهره قائله بمرح: هيا بدل ملابسك سنخرج للصيد عند النهر وانا سوف اقنع امى، هيا يا طارق.

كانت حكمت تسير إلى جانب طارق الذى قد بدأ يتحسن بعض الشئ و يكسر حالته النفسيه السوداوية تلك و يخرج منها رويدًا رويدًا بهدوء وببطء وقد كان اقتراح حكمت صائبًا و فعالاً وقد كانوا يسيرون في الطريق وطارق يتسائل عن اسماء بعض النباتات والازهار وفوائدها وقد كانت ترد عليه حكمت بصدرًا رحب و بلا ملل او سأم على العكس كانت سعيده للغاية برجوع روح أخيه المتفاعله وحيويته في الحياة مره اخرى.

"انظرى ما رأيك ان نجلس...." كان هذا صياح طارق الذى أشار الى هذا الموقع النائى عند النهر واسفل اشجار الزيتون_ التى ادخلها المسلمون الى الاندلس وقد كانت و مازالت زراعة الزيتون في الاندلس مصدر اقتصادى كبير _تحت ظله العليل لكن توقف طارق عن الحديث وابتلع كلماته بقلق و دهشه و هو ينظر الى حنا الذى قطع عليهم الطريق وخرج من حيث لا يحتسبوا وقد كانت هيئته اقرب الى هيئه المتشردين وقطاع الطرق.

نظرت حكمت الى طارق بتوتر ودهشه وقد زاد توترها عندما اقترب حنا بهيئة الاشباح تلك ووقف امامها قائلاً بضيق و حزن والم: أريد ان اتحدث معك وارتاح واينما ستذهبين ساذهب لكن لا ترفضينى ارجوكى لا احد لى غيرك.

الفصل السابع عشر

نظرت حكمت الى طارق بتوتر ودهشه وقد زاد توترها عندما اقترب حنا بهيئة الاشباح تلك ووقف امامها قائلاً بضيق و حزن والم: أريد ان اتحدث معك وارتاح واينما ستذهبين ساذهب لكن لا ترفضينى ارجوكى لا احد لى غيرك.

نظرت حكمت بتوتر الى طارق الذى كان يشعر ببعض الخوف والقلق من حالة حنا المزريه تلك التي قد تدفعه لاى جنون أو حماقة تجاه أخته اذا رفضت الخضوع لأمره وفي نفس الوقت خائف من ان يراها احد مع حنا وتكون فضيحه وضجه لا داعى لها وقد ادرك منذ ان عرف الحقيقة الكامله كم ان اسرته الصغيرة بحاجة ماسه الى الستر والتخفى بعيدًا عن اعين الناس وقد احتار عقله في حزم الأمر.

لكن حكمت كان لها رأى مغاير لطارق ونظره أخرى قد تخللها الحب والاشفاق على حال الحبيب بالرغم من انها قد فكرت بنفس منطقة طارق إلا ان قلبها يكاد ينفطر على حال حنا و يرق له وقد عاهدته صلبًا رابط الجأش حتى في لحظات مرضه لكنه لم تعده خائر القوى ضعيف العزم كالطفل الصغير يتطلع إليها بأمل ان توافق على الحديث معه وتخفف عنه ذلك الحمل الثقيل المعلق في رقبته كالاغلال الحديديه تقيض عنقه بشده.

اغمضت عينيها لثوانى معدوده و سحبت نفسًا عميقًا قبل ان تزفره بقوة و تهز رأسها بالموافقه وكأن شيئًا ما غير عقلها يدفعها للقبول.

هزت حكمت رأسها بالموافقه قائله بهدوء و عينيها تأبى ان تلتقى بعينيه الميته: اخيلا ذاهب للصيد سنجلس اسفل شجرة الزيتون هناك.

امسك يدها و سار الى جوارها بتثاقل وخطى ثقيلة قائلاً بصوت خالى من الحياه: اي مكان المهم انكى معى.

لم ترفض ان يتمسك بها بتلك الطريقه بالرغم من صراخ ما تبقى من رشدها وعقلها ان تتوقف عن تلك الحماقه وتدرك حرمة ما تفعله لكن نفسها الامارةبالسوء ابت ان تستمع الى نداء العقل وتمسكت بيد حنا التى تشبثت بيدها بقوة و اتجهت الى اسفل تلك الشجره والى جانبها طارق الذى كان يكاد ينفجر من الغيظ من أفعال اخته المتهوره وكل مره تقول انه اخر لقاء وتنقض العهد فور رؤيتها لذلك الابله حنا.

شرع طارق في الصيد والقى صنارته والى جواره لكن على بعد قليل تمسك حنا بيد حكمت بقوة وشبك اصابعهم سويًا واراح رأسه على كتفها بلا تردد او تفكير واغلق عينيه بهدوء وسلام شعر به الان فقط ورائحتها الذكية تتغغل الى قلبه قبل انفه اما هي فكان الخجل يلتهمها من كل جانب بسبب فعلته الحمقاء تلك ولم ولن تكون قريبه من اى رجل في حياتها من قبل بتلك الطريقه.

زفر انفاسه بهدوء وكانه غريق وصعد الى الهواء ومازال مغمض العينين ليتحدث بثقل قائلاً حتى ينزل ذلك الحمل من علي صدره: ادواردو صديقي واخى الصغير مات، منذ ان رحل وانا اراه في كل مكان لا يفارق عقلى، لم انم منذ يومين، ثم رفع يده الحره ونظر الى يده قائلاً بألم وعذاب: بيدى تلك البسته بدلة زفافه وبيدى ايضًا سجيته الى قبره،ثم اخفض يده باهمال وقد استسلم لثقلهاثلترتمى على فخذيه بقوه ويكمل فيشعور كبير بالدونيه والجُبن والوضاعه اه يا جولياناا! واكثر ما يؤلم قلبى ويعذبنى اننى لم استطيع ان أخذ حقه من قاتله ونظرات عيني اطفاله يوم دفنه كانت كالرصاص اخترقت قلبى بشده وكلما نظرت في عينيهم لا اجد

سوى ادواردو، لماذا رحل باكرًا يا جوليانا لقد كان صغيرًا وصالحًا لم يكن يتغيب عن الصلاه ابدًا ولم يرتكب خطيئه ابدًا لماذا رحل وامامه العمر كله؟

ربتت حكمت على يده قائله بهدوء واشفاق على حالته المزريه تلك: اهدء يا سيدى، هذا امر الرب لا تعترض فقط ادعى له بالغفران والرحمه، انظر الى.

رفع رأسه من علي كتفها ثم تابعت قائله بحكمه: عندما مات ابى كان في الخمسين كان صغيرًا ايضًا وبعده بمده ماتت احدى صديقاتى وكان عمرها سبعة عشر عامًا اكتئبت بشده وكان كل ما افكر فيه ان الحياه ظالمه وليست عادله لكن عندما تقدم بى العمر اكتشفت ان الدنيا اختبار ومن ينجح فيه ينتهى عمره لينال جزائه في الجنه مع الصالحين الخوف ليس عليهم بل علينا نحن في تلك الدنيا وما فيها من مغريات، احزن الحزن شيء طبيعي لكن لا تجعله يعكر حياتك وخذه قدوه في افعاله الحسنه اتفقنا يا سيدى.

نظر حنا إلى عينيها وامسك كفيها بين يديه وقد نسي ألمه وحزنه بين يديها وفى ثنايا قلبها وقد اطال النظر واكثر التمعن حتى همس بهدوء ورزانه قائلاً: قد اقسمت بالرب ان لا احب امرأة عينيها بنيه وها انا لا ابر بقسمى واخونه كطعنة بروتس للقيصر.

بللت جوليانا شفتيها الوردية التى اتخذت من وجنتيها امامًا قائله وعينيها اسيرة عينيه: لماذا سيدى؟

قطب جبينه بعض الشئ وقد ازداد تعمقًا وقد غرق في بحر القهوة هذا قائلاً بهدوء لكن غامض وعشق لكن عميق: انتِ لا تعرفين ماذا تفعل الشمس بعينيكى... تصنع من قدح القهوه هذا جبلاً من الذهب الساطع الذى ياسر القلوب ويعمى الابصار وكأن الرب اختزل في عينيكى جمال السموات والارض يا سُكره!

ما ان انهى كلامه حتى انتفضت حكمت التى اشتعلت فيها نيران الخجل وبات لون وجهها لا يفرق شئ عن فستانها الوردى وقد وقف طارق هو الاخر من دون كلام وذهب مع اخته بهدوء الى البيت تاركين ذلك الحنا يبتسم بمراره ويهز رأسه يمينًا ويسارًا بسخريه من حاله التى في اوج حزنه وضيقه يتغازل بمحبوبته.

ولكن اثناء سيرهم في الطريق لاحظ طارق ان سكان الحى غير طبيعيين اليوم وينظرون الى جوليانا ثم يتهامسون فيما بينهم بكتمان وانظارهم مشحونه بالغضب والكراهيه اما عن حكمت فلم تلاحظ شئ بسبب عقلها الغائب عن ارض الواقع وقد عادت حكمت مُحمله بالهموم ومملؤ صدرها على اكمله بالضيق والغم حزنا على حزنه وحزنًا على حالها اليأس البأس وحظها العثر الذى اوقعها في حب رجل مثل حنا وقد اغضبت ربها بهذا التفكير، ولكن هل كان لها عقل او بات لها وجدان يرشدها في اى شئ!

دخلت المنزل هي وطارق وقد استقبلتهم خديجه بسعاده وابتسامه وهي ترى طارق قد زال من وجهه سواد الغضب والحزن وسعادته بما اصطاد من اسماك، اما حكمت فقد حيا والدتها وفرت الى المطبخ تعد الطعام وهي شبه غائبة عن العالم من حولها وفي الخارج كانت خديجه تعلم طارق حفظ سورة الفاتحه وقد كان طارق بنصف عقله لان النصف الاخر كان يفكر في انظار الحى اليهم اثناء رجوعهم من الخارج، وقد انقذه من تيهه هذا حكمت التى خرجت تحمل الاطباق الى الطاولة وبينى هي تضع الاطباق قد اخترق حجر في حجم قبضه اليد زجاج نافذة البيت واصطدم برأس حكمت التى صرخت بألم وهي تمسك بموضع الحجر وقد خرجت الدماء منه بغزاره واقبلت عليها خديجه في قلق وصرخت بهلع: حكمت ابنتى، ماذا يحدث؟

ثم اخذت الايشارب حول عنق حكمت وربطت به رأسها حتى توقف الدماء لكن في الخارج جذبها صوت سب بشع موجه الى حكمت واليها ليخرج طارق في غضب وقد دفع باب البيت ومن خلفه خديجه وحكمت.

ليصتدموا بمنظر بعض المتسولين واهل الحى يصرخون قائلين بغضب وهدير قوى: اخرجوا الخائطه من حينا، تلك العاهرة التى يبيت عندها الرجال، اخروجوا من حينا لا نريد ان يغضب علينا الرب بسببكم.

ثم بدأ سيل من الحجارة الصغيره يقذف في وجوههم وقد أقبل عليهم فيكتور وماريز وابنها هيكتور وبعض الجيران يحاوطوهم ويحموهم من الحجارة التى هبطت كالمطر ليصرخ فيهم فيكتور بصوته الجهورى العالى بغضب قائلاً: اخرسوا... يا عالم اصمتوا اتقوا الرب و اعطوها فرصه تدافع عن نفسها.

ثم من حيث لا يحتسب فيكتور خرج طارق الذى صرخ بهم وهو يرد عليهم الحجارة بغضب قائلاً: يا كلاب... هذا بيت اندروا الحداد واليزابيث التى تلبسون من صنع يديها كيف تقولون هذا، اقسم انى ساقتلكم.

دفعه فيكتور الى الوراء بصعوبه وهو يقصيه عن حماقته تلك ليرجعه داخل دائرة الحماية وبمساعدة بعض الجيران ادخلوهم الى المنزل وامنوا عليهم الباب ثم أمسك فيكتور أحد الزجاجات الملقاه ارضًا وقذفها على الارض بقوة لتعطى صوت انكسار عالى هز ارجاء الحى ليصيح فيكتور بقوه وهدير غاضب: توقفوا وعودوا الى رشدكم تلك التي تتهمونها في عفتها العشابه والقابله جوليانا التى عندما يمرض احدكم او ابنائكم يلجئ اليها وكم منكم شفى على يديها ومن دون وكم منكم عالجته من دون مال، كيف تتهمونها باتهام بشع حذرنا منه يسوع وتكررون خطأ بنى اسرائيل عندما اتهموا مريم المقدسة في شرفها، نحن نعرف بيت اندروا الحداد منذ ان سكن هنا ولم يخرج من اهل بيته العيب، يكفيكم ما تحملوه من ذنوب واوذار الان وقد اقتريتم على فتاه مسكينه لا رجل لها، ا واقسم ان تعرض لهم احدًا عليه ان يواجهنى قبل اى شئ، انفضوا!

بالفعل انفض الجميع المقتنع وغير المقتنع وعاد كل واحدًا الى بيته وعمله اما كاترينا فكانت تقف خلف أحد البيوت تتابع الامر باستمتاع وشماته غير طبيعيه بالرغم من حديث ابنها الا انه حديث لن يستمع اليه أحد فقد تلوثت سمعة جوليانا والى الأبد.

طرق فيكتور باب بيت خديجه وقد فتح له هيكتور صديق اخيلا ودخل وقد كانت ماريز جارة جوليانا ووالدة هيكتور وماريا الصغيره تضدمض جرح جوليانا وتوقف نزيفه وقد انتهت بالفعل عندما تحدثت خديجه التى كان على وجهها اثار الدموع مثل ابنتها التى كانت تنتحب بالبكاء قائله بامتنان: شكرا لك يا بنى لولاك لكنا هلكنا اليوم.

هز فيكتور رأسه بالنفى قائلاً بهدوء واسف: لا تشكرينى يا خالتى هذا حقكم علينا، وانا اعدك انى ساعرف من اشاع هذا الأمر.

ثم نظر إلى جوليانا قائلاً باسف وخجل: سامحينى يا اختى حقك علي.

هزت حكمت رأسها بالموافقه واخذت تمسح دموعها بالم وقد كانت تقضم شفتيها مانعه نفسها من البكاء مره اخرى وقد ربتت ماريز على كتفها قائله بشفقه وود: عزيزتى جوليانا لا يضايقك ما حدث دائماً الصالح في تلك الدنيا يأذيه الحاسدون لا تضعفى امامهم قوتك ستخرس كل تلك الالسنه.

لم تقدر على الحديث بشى وابتلعت دموعها حتى لا تبكي مره اخرى وقد اشار عليهم فيكتور بالخروج وتركها حتى ترتاح وقد امتثل الجميع للأمر وخرجوا ولكن خديجه شعرت بالشك من جديد تجاه حكمت وقد ربطت كلام حنا بمعرفته بحكمت وكلام الجيران وقد بدأ الشيطان يعطس في انفها ويصور لها اشياء كثيره خبيثه وسيئه لم تحصل أبداً.

اقتربت من حكمت التى اخيرًا بكت بحرقه وقد أخذ طارق يربت على ظهرها بحنان ويهدء من روعها ومن دون مقدمات صفعتها بقوه ثم قبضت على ذراعها قائله بحده: منذ ان عدت وتصرفاتك غريبه وذلك الخنزير حنا تجرا وطلب يدك وحديث الجيران، انا اشك بكى يا قذرة.

حاولت حكمت الدفاع عن نفسها قائله من بين شهقاتها: ا.. امى.. اقسم بالله العظيم... ان... انهم يكذبون... انا... اه!

صرخت بألم مره اخرى عندما صفعتها ثم قبضت على شعرها تجرها امامها الى المخزن وقد القتها بداخله واغلقت الباب قائله بحده: لن ترى الشمس مره اخرى الا عندما تتحدثين وتقولى ما الذى يحدث والا سوف ارسلك الى خالك في غرناطه وعندها ستنحل عقدة لسانك.

ثم نظرت الى طارق قائله بتهديد ووعيد: اقسم بالله ان اقتربت منها او حاولت الحديث معها ساقتلها وانا لا امزح في هذا الامر

في منتصف إحدى الليالى لم ينم طارق بعد وقد شغلت اخته المسكينة تفكيره ولم تغيب عن باله للحظه طوال اليوم او اليوم المنقضى وقد حاول طوال اليوم ان يدخل لها لكن أمه تمنعه وقد علقت مفتاح المخزن القابعه فيه حكمت ولا طريقة للتواصل بينهما.

دخل غرفة نوم خديجه وكان يامل ان تكون قد نزعت ذلك المفتاح من رقبتها ولكن ما ان تسلل اليها ووقف جانبها على ضوء الشمعه الممسك بها حتى زفر بيأس عندما وجد ان المفتاح معلق في عنقها و لم يعد هناك امل في تخليص حكمت من سجنها سوى ما فكر فيه الان واقسم على تنفيذه!

قد مر يومين او أكثر لا أدرى فالأيام باتت متشابهه مثل قطرات الماء لا فرق بينها أو اختلاف، وبالاخص عند حكمت التى بات طارق بالنسبة إليها هو عينيها للعالم الخارجى واذنيها التى تسمع، وكم كانت محظوظة وايضًا إن الله تعالى رئف بحالها الرثه تلك وجعل لها أخًا متفهم وعطوف مثل طارق يخفف عنها وحشة الوحدة وضيق السجن وقسوة أمها والناس عليها وقد بدأت الآن ومنذ تلك اللحظه تدفع ثمن نُبلها وغبائها في وقتًا واحد.

فنُبلها متجسد في مساعدتها لحنا يوم ان كان مصاب لا يقوى على طرد بعوضه متطفله من فوق وجهه وقبولها بموكوثه عندها، اما غبائها يتهيأ في شكل وقوعها في حب حنا وعدم اعتراضها على حُب حنا له ووضع حد لتلك المهزله التى قد حرمها رب العالمين من سابع سماء من فوق العرش الكريم بقرارًا مكين، حفاظًا على حق المرأه المسلمه فى ابنائها وحقها في الطلاق وغيره من ما احله الله في الزواج في الدين الاسلامى.

ولكن في الخارج على الناحية الاخرى كان طارق في سريره يدعى النوم والنعاس الشديد نائمًا على وجهه واضعًا وساده فوق رأسه تحب عنه ضوء الشمس المتسلل من النافذه بقوة وعنوة مستفزه، لكن الفدائى طارق والبطل المغوار كان مستيقزًا منتظرًا خروج خديجه من البيت حتى ينفّذ خطته الانتحاريّة لانقاذ حكمت من ذل ومرارة الأسر الذى هي فيه.

وقف طارق وازاح الغطاء من على جسده لتنكشف ملابس الخروج التى نام بها حتى لا تعطله عن مهمته و اتجه الى شباك المطبخ يقفز منه الى الخارج وقد كان الوحيد في المنزل بلا اسلاك او عوائق وبالرغم من ضيقه الا انه نجح بسبب جسده النحيل، سقط على ركبته ليلتقط انفاسه لمهمله من الزمن ثم ركد بقوة يسابق الرياح حتى وصل بعد مده من الزمن ومده من تنمر المتشردين على ركده وسبُاب المارة الذين استطدم بهم باهمال الى بيت العم جورج او محمد ان كنتم تتذكرونه!

ظل طارق يطرق الباب بقوه وبسرعه افزعت من فى المنزل حتى فتح له جيرجيوس او أسلم الذى ظن لوهله انهم جنود محاكم التفتيش ولكن ارتاح لكسر الثانيه لكنه عاد لفزعه عندما رأى طارق في تلك الحاله وملابسه ملطخه بالتراب والعرق وشعره مشعشع وكأنه كان في حلبة مصارعه وعاد لتوه الان.

اتسعت عيني جيرجيوس بهلع قائلاً: ماذا حدث يا اخيلا هل انت بخير؟!

هز اخيلا رأسه بالنفى قائلاً وهو يلتقط انفاسه بصعوبه: اريد عمى جورج ارجوك... جوليانا في مشكله بسرعه.

ادخله جيرجيوس البيت بسرعه وقد خرج جورج او محمد من غرفته بعد ان انهى ارتداء ملابسه وقد خرجت زوجته الينور من المطبخ هى الاخرى وكل ما يجول فى خاطر الجميع ان محاكم التفتيش القت القبض عليهم لكن اطمئنوا قليلاً عندما اقترب طارق من محمد قائلاً في لهفه وتوتر: عمى جورج، امى ضربت جوليانا و حبستها في قبو المنزل ولا تريد اخراجها.

مسح محمد جبهته بقلق و ربت على كتف طارق بهدوء قائلاً: حسنًا اهدء يا بنى واجلس واخبرنى بكل شيء على مهلك، فقط اهدء.

بالفعل أخذ الماء من يد جيرجيوس وشربه بسرعه حتى ارتوى وهدأ قليل ثم أخذ يسرد عليهم كل ما قصته حكمت و ما حدث في الحى قبل عدت أيام وما فعلته والدته مع حكمت وكيف هرب من البيت وجائه بسرعه.

وما ان انتهى حتى مسح محمد جبهته بتوتر وزفر الهواء من رئتيه بضيق ونظر الى الجميع من حوله وقد كانت تعبير وجوههم غير مفسره او مفهومه ومعهم الحق كل الحق فالامر معقد للغايه ولا يستطيعوا الان معرفه من المخطئ ومن الضحيه ولكن حكمت مخطئه لانها اعطت لحنا ذلك وجه وسمحت له بالحديث معها والاقتراب منها وفي نفس الوقت ضحيه لسياسة بلاد ولحب غير مشروع ولقاذفى محصنات غافلات وكم ان عذابهم عظيم عند رب العالمين.

هز محمد رأسه بعد ان فكر ماليًا ووجد حل لتلك مشكله ثم ربت على كتف طارق قائلاً بهدوء: حسنًا يا اخيلا عد الى البيت قبل ان ترجع اليزابيث وانا غدًا ساتى اليكم لكن أظهر انك لا تعرف شيء عن زيارتى ولا تخبر احدًا.

وقف طارق واتجه الى الباب قائلاً بامتنان وامل: شكرا لك عمي جورج اتمنى ان تُخرج جوليانا من ذلك المازق صدقنى هى لا ذنب لها.

هز محمد رأسه قائلاً بهدوء: اعلم يا اخيلا غدًا الرب سيظهر الحقيقه كن حذرًا.

خرج طارق من البيت واخذ يسير في الطريق وباله مشغول بما سيحدث غدًا والاهم هل سيستطيع جورج على اقناع والدته بترك جوليانا وانها بريئة من ما يُقال وقد أخذ يفكر في عواقب الامور المترتبه على فشل محمد واولها انه لن يخرج من البيت طوال عمره مره اخرى وثانيها سيشتد الحصار على حكمت ويضيق، ان البرائه من دون دليل ليست حلاً يجب ان يكون هناك دليل يسكت الالسنه التى تتحدث في وتثرثر وتخوض في عفة وشرف أخته وحتى تستطيع حكمت اكمال حياتها من دون خجل او خوف بل يجب ان يُرفع رأسها عاليًا بعزه وكرامة.

وقف للحظه على جانب الطريق واخذ يحك فروة رأسه بتفكير حتى وجد ان حنا هو ايضًا متورط بتهوره في ما تعانى منه حكمت وعليه ان يبحث هو ايضًا على دليل البرائه.

ركد مسرعًا ومركز الشرطه الرئيسى صوب عينيه عازمًا على الوصول الى حنا ولن يرجع البيت خالى الوفاض من دونه أبداً.

وصل إلى المركز وقد دخله متجاوزًا الحارسين الواقفين على يمين ويسار الباب يحملون البنادق الطويله وتجاوز عمال البناء الذين يرممون الجزء المتضرر من حادث الانفجار ثم نظر إلى ذلك العسكري الذى كان يستقبل المشتكين واقترب منه قائلاً بهدوء و تادب: اذا سمحت اريد التحدث مع السيد حنا ارجوك.

نظر له ذلك العسكري واخذ يتفحص هيئته المريبه كان يبدو على هيئته انه يجري من لصوص او قطاع طرق او قاتل متسلسل لكن طريقه كلامه الهادئه عكس ما يبدو عليه من انهاك وتعب جعلته يعتقد انه يريد واسطه لشيئ ما او يتسول، لذلك قرر تجاهله واكمل ما كان يكتبه في دفتر كبير امامه قائلاً بلا مبالاه: ارجع لبيتك يا فتى لا نستقبل الشكاوى اليوم تعال غدًا.

هز اخيلا رأسه بالنفى ونظر له برجاء والحاح قائلاً: انا لا اشتكى من احد انا اريد مقابلة السيد حنا في امر مهم للغايه اخبره اخيلا يريدك.

قلب ذلك العسكري عينيه بسئم وترك القلم الذى بيده على الطاوله باهمال قائلاً بحده و صراخ وقد نفذ صبره سريعًا: اخبرتك لا يمكن عد الى البيت والا حبستك هنا الليله.

هز اخيلا رأسه بالنفى وصاح بصوت عالي وجنون قائلاً: لن اتحرك قبل ان اتكلم مع السيد حنا اخبره اخيلا اندرو اغسطس في الخارج يريد التكلم معك.

اشار ذلك الرجل الى احد العساكر بان يلقوا القبض عليه وبالفعل قد اجهز عليه احد العساكر واخذ طارق يقاومه بشراسه ويصرخ بقوة بانه اخيلا ويريد مقابلة السيد حنا ولن يرجع وقد عم الصراخ والشجار ارجاء المركز ولكن لحسن حظ طارق ان ديغو قد انهى عمله وسيعود الى منزله وقد استوقفه هذا الشجار ليصيح بحزم قائلاً: ماذا يجرى هنا علي انتم في زقاق؟!

اعتدل الجميع واعطاه التحيه العسكرية ليُقبل على طارق قائلاً بجديه: ماذا تريد؟ لماذا كل تلك الضجه التى احدثتها؟

افلت طارق ملابسه من بين يد العسكري واقبل على ديغو قائلاً في رجاء: سيدى انا احتاج للحديث مع السيد حنا وهم يمنعوننى رجاءًا خذنى إليه.

ضيق ديغو عينيه قائلاً بحيله ومكر: ان اخبرتنى ماذا تريد او من انت ساخذك للسيد حنا.

تطلع اليه طارق قائلاً بأمل: انا اخيلا اندرو اخو جوليانا العشابه.

رفع ديغو حاجبيه في تفاجأ ودهشه ثم اقبل عليه وحاوط كتفه قائلاً الى احد العساكر وهو يتحرك مع طارق ناحية مكتب حنا: احضر للسيد اخيلا ماء بارد وعصير الى مكتب السيد حنا.

دخل ديغو وطارق إلى المكتب بعد ان جلس كلاهما على كراسى خشبيه مطوقه حول الطاوله الخشبيه الكبيرة في منتصف مكتب حنا الفسيح ثم ربت ديغو على كتف طارق قائلاً بتشجيع وهو يشير إلى العصير البارد: اشرب يا فتى تبدوا منهكًا... حنا في الطريق لا تقلق.

امسك طارق العصير وقد ارتشفه بهدوء وعلى مهله حتى لا يظن ديغو انه جشع او جائع وما ان وضع شئ امامه انهاه بلا أدب.

ما ان انهى طارق الكوب كان حنا قد وصل_ الذى كان يزور ابناء ادواردو كما تعهد منذ وفاة صديقة_ وقد هرول اليه طارق بسرعه وعانقه من خصره قائلاً برجاء: سيد حنا لقد وعدتنى ان لا يمس جوليانا سوء وهي الان في مشكله كبيره بسببك.

ربت حنا على ظهره وسار معه ناحية المقاعد قائلاً بقلق: خير اخبرنى ماذا بها جوليانا؟

اخذ طارق يقص عليه كل ما حدث مع جوليانا منذ عودتهم من عند النهر حتى صباح اليوم وبين اللحظة و الأخرى كان يذكره بوعده بحمايتها وعدم اذيتها حتى يتحرك ولا يتلكع في ايجاد الحل.

أنهى طارق كلامه ليضرب حنا بقوة على الطاوله جعلت كلاً من طارق وديغو ينتفضون برعب خفيف.

مسح حنا وجهه بعنف قائلاً بحده: لماذا لم تخبرنى منذ يومها.

دافع طارق عن نفسه قائلاً بسرعه: صدقنى امى كانت تحبسنى في البيت انا هربت وعليا العوده قبل ان ترجع للبيت، لكنى أعرف اين يمكن ان تجد هؤلاء الصعاليك.

نظر له كلاً من ديغو وحنا باهتمام ليشرح لهم قائلاً: كل يوم بعد الواحده ظهرًا يخرج فتى يرتدى فميص رمادى ممزق من عند الصدر وبنطال بنى مهترء يتسول عند الكنيسه في حينا هذا الفتى هو من بدأ الشجار وان انتظرت ستجده عند الكنيسه منذ يومها وهو لا ينفك عن التسول بلا خجل او خوف من أحد.

ربت حنا على كتف طارق بهدوء قائلاً: حسنًا يا اخيلا عد الى البيت و انا ساتصرف ولا تخبر احدًا ولا تخبر جوليانا بانك كنت هنا وغدًا صدقنى سيعود لها حقها واعاهدك على ذلك.

وقف طارق وانحنى بهدوء ثم خرج من المكتب قاصدًا منزله باقصى سرعه قبل عودة خديجة.

وعلى الناحية الاخرى كان ديغو ينظر الى صديقه بأسف وقف استند حنا بمرفقيه على الطاوله وخلل أصابعه بين شعره ونكس رأسه لاسفل بحزن قائلاً: انا السبب فيما تعانيه الان، لو اننى لم اعترض طريقها كل مره وطلبت بدها مبكراً ما كان لهذا ان يحدث.

بلل ديغو شفتيه وربت على ظهر خليله قائلاً بهدوء و عقلانيه: حنا اهدء لقد اخطأت وانا و ادواردو نصحناك اكثر من مره لكن الان يجب علينا ان نفكر كيف سنحل هذا الأمر وانا عندى حل.

نظره له ذلك المشتت الضائع باهتمام ليتابع ديغو قائلاً بهدوء: بما ان ذلك الفتى متسول وهو من حرض العامة عليها ولا يعرفها فهذا يعنى انه هناك احدهم حرضه على ذلك، اسمع الاتى.....

أصوات مضغ طعام مقززه تثير الغثيان والتقزز وطريقة اكل بشراهة مفرطة تنم عن مدى جوع وجشع هذا الشاب الذى أمسك الطبق بيده اليسرى واخذ يأكل بيده اليمنى ويلعق أصابعه الاربعه دفعةً واحده بعد ان أنهى طعامه وقد كان ديغو الذى أمره حنا بالتحقيق مع ذلك الشاب يجلس على مقده في مقابلته رافعًا قدميه على الطاوله الخشبيه التى تفصل بينهم ويضرب بعصاه بيده اليمنى بخفه على يده اليسرى في انتظار حتى ينهى ذلك الخنزير تناول طعامه ليبدا التحقيق معه وقد انهي اخيرًا هذا الوغد طعامه وتجشئ بطريقه مقززه مصدرًا صوت عالى واخذ يمسح فمه بظهر يده ثم مسح يديه في ثيابه الملطخه بالاتربه وتفوح منها رائحة العرق النتنة.

اعتدل ديغو في جلسته وانزل قدميه ارضًا ثم بدأ بالتحقيق قائلاً بسأم: انهيت طعامك، تكلم من اخبرك ان جوليانا سيئه السمعه والسلوك؟

حك ذلك الشاب لحيته قائلاً: ساخبرك بكل شيء، منذ عدة أيام كنا نجلس في في المكان الذي نجتمع فيه بعد نهاية التسول ونعطى المال للزعيم الذي يفرقه علينا وياخذ النصف له جاءت امرأة اسمها كاترينا عمرها يفوق الستين او السبعين واعطت الزعيم عدت عملات ذهبيه قسمها علينا واخبرنا ان هناك فتاه اسمها جوليانا في حى ***علينا التشهير بها وتلويث سمعتها وقد فعلنا ما امرنا به، لكن ارجوك احمينى من كاترينا تلك المرأه شيطانه متخفيه بين الناس.

قطب ديغو جبينه قائلاً بتعجب: لماذا؟ ماذا تعمل تلك المرأه؟

اقترب منه ذلك الشاب برأسه واخذ يوشوشه بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد قائلاً بتوتر واضح وقد خبأ فمه بيده: تعمل مع محاكم التفتيش، تلك المرأه واشيه هناك، وقد تفترى على اى احد يقترب منها او يزعجها واخشى ان عرفت تفعل بي ذلك.

صفف ديغو شاربه بابهامه وسبابته قائلاً باهتمام: وهل محاكم التفتيش هى من امرتها ان تُشهر بسمعة جوليانا.

هز ذلك الشاب رأسه بالنفى قائلاً: لا تلك المره سمعتها تتحدث مع الزعيم قائله بان تلك أوامر شخص مهم في الدوله وعند الملك يسمى بلايو.

حبس ديغو انفاسه بتوتر ودهشه كانها الصاعقه قد هبطت على رأسه ما ان سمع اسم بلايو واوصافه تلك حتى شعر بان اللعبه الان تغيرت والامور احتدت وان الامر بات الان حرب الاخ واخيه ليست فقط حرب الحب.

خطف ديغو نظره سريعه الى شراعة الباب الخاص بغرفة التحقيق المفتوحه ولكنه لم يرى سوى عينى حنا القاتمه بل قل السوداء كليلة لم يظهر بها القمر وقد كانت كفيله وابلغ من اى حديث لتعلم ان ذلك الرجل الان بانه بات وحش كاسر وشرس وقد فقد ما تبقى من عقله الان وعن قريب ستحدث حرب طاحنه الناجى منها محظوظ.

امسك ديغو ذلك الشاب من تلابيب قميصه واقترب من الباب بعد ان رحل حنا واخذ يطرق على الباب الحديدى بعنف حتى فتح عسكرى صغير السن فصاح به ديغو بتحذير وغضب وهو يرفع سبابته في وجهه قائلاً: هذا الكلب ينام في زنزانه وحده و غدًا في الصباح توصله بنفسك إلى حى***ينهى مهمته وترجع به حيًا الى هنا واياك ثم اياك ان يلمسه احد او يتعرض له، ثم هدر بقوة هزت ارجاء الغرفه قائلاً: أ تفهم؟!

سحبه ذلك العسكري قائلاً باذعان: سمعًا وطاعه ياسيدى.

الفصل الثامن عشر

كان الوقت الان هو صباح ذلك اليوم الذى توعد الجميع فيه لطارق بالمجئ وانقاذ تلك المسكينه من ذل ومرار الاسر وبالرغم من ان والدتها قد ادخلت اليها الافطار الا ان حكمت لم تاكل شئ منذ الامس ترفض الاكل حتى تخرجها خديجه وتسمعها وخديجه رأسها اصلب منها وقد تلبسها شيطان سوء الظن والشك واقسمت على ان تعرف الحقيقه وقد تشاجرت معها عند دخولها اليها وساومتها اما تتكلم وتخبرها بالحقيقة او ستعاقبها بطريقة سيئة لن ترضى بها ولن تنساها ابدا ولكن حكمت اصرت على نيل حريتها اولا ثم الحديث ولكن انتهى الامر بان صفعتها خديجه للمره الالف ولم يسبق ان يرى بيته السعيد في حالة التوتر والبؤس تلك وكل هذا بسبب هؤلاء الواشون النمامون الذى لا يعرفون حرمات الله.

لهذا لا استغرب ابدا لماذا قذف المحصنات الغافلات من السبع الموبقات والسبب واضح امامنا انظروا لام مثل خديجه كانت هي وابنتها مثل الاصدقاء واكثر فقط كلام القاذفون اشعل نار الشك في قلبها وتلبسها سلطان العمى عن الحقيقه الجليه والدفاع عن عفة ابنتها التى ربتها بنفسها وكان الاثنين والعشرون عامًا من عمر حتى لا شيء يذكر.

وعلى الناحية الأخرى كان طارق يجلس في غرفته وعلى سريره وينظر الى النافذة بتوتر وقلق وقد قاربت الظهيرة ولم يظهر احد بعد وقد بدأ اليأس يتسلل الى قلبه بان امر اخته اتنسى وستظل على تلك الحال السيئه.

لكن بدأ الامل يتجدد من جديد ويظهر مفعوله عندما لمح خيال جورج او محمد يطرق باب البيت وقد تانى فى الخروج حتى ينتظر والدته تفتح اولاً وبالفعل وقد خرج طارق من الغرفه الى محمد قائلاً بسعاده: عمى جورج كيف حالك اليوم؟

ابتسم محمد وهو يتقن دور الضيف المار بالصدفة قائلاً: بخير يا اخيلا كيف حالك؟ ثم أخذ يقلب بنظره في ارجاء البيت قائلاً: اين جوليانا لا تقول انها نائمه حتى الان.

نظرت خديجه إلى طارق قائله بوجهها الجامد: طارق إلى غرفتك انا والسيد محمد لدينا حديث خاص.

رفع طارق حاجبيه عاليًا واتسعت حدقتيه عندما علم ان جورج هو محمد ومسلم مثلهم وقد شعر بدلو ماء بارد سُكب عليه في ليالى يناير البارده ليبتسم محمد ببشاشه قائلاً بسعاده لمعرفة طارق حقيقة دينه: مرحبًا بك يا طارق، اخيرًا يا بطل والدك كان ينتظر هذا اليوم طوال عمره ليرحمه الله.

ثم التفت الى خديجه بوجهه الابيض المحمر ولحيته البرتقاليه تلك قائلاً بهدوء و عقلانيه: خديجه زوجة اخى طارق اخبرنى بما حدث مع حكمت، ما فعلتيه ليس صحيحًا بالمره وحرام.

تخلصت خديجه من جمودها هذا واندفعت مثل الذئب المفترس على الفريسه طارق حتى تضربه وقد سبته لكن يد محمد الذى اختبئ خلفه طارق منعتها ليصيح بحده قائلاً: اعقلى يا امرأة واهدئى يكفى اتباعك للشيطان وانا أراه قد عطس في انفك، طارق فعل الصواب.

توقفت خديجه لتنظر له بدهشة ووضعت يدها في خصرها قائله بحنق: اى صواب تلك السافله التى بالداخل وهذا الوغد قد تامروا على وضاعت تربيتى.

رفع محمد حاجبه قائلاً بضيق: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات ومنهم قذف المحصنات الغافلات وابنتك محصنه غافله، وربنا يقول في تلك الحاله يجب ان ناتى باربعة شهداء، ابنتك لم تفعل شئ لتاتى باربعه شهداء بل وقع عليها افتراء والصحيح ان تساليها ونسال من قالوا هذا عن مصدر كلامهم لكن لا تحبسيها هكذا ماذا فعلت ابنتك ضحيه وليس جانى.

ثم التفت الى طارق قائلاً بهدوء: استغفر الله، طارق احضر حكمت الى هنا هيا.

اقترب طارق بتردد من خديجه التى كانت تنظر له بنظرات نارية احرقته ثم خلعت العقد الذى فيه المفتاح عن رقبتها وقذفته في وجهه وقد هرول الى المخزن وفتح الى حكمت التى وقفت بدهشة قائله: طارق ماذا يحدث؟

ابتسم طارق بسعاده قائلاً: لقد اخبرتك انى سانقذك والحقيقه ستظهر الان هيا بدلى ملابسك وتعالى الى الخارج عمى محمد ينتظرك وبعد قليل حنا سياتى.

ابتسمت بسعاده وقبلت رأسه قائله بامتنان: مهما فعلت انا لن استطيع رد جميلك يا اخى.

تملص من عناقها واخذ يجذبها ناحية المرحاض قائلاً: هيا لا وقت اسرعى.

بالفعل امتثلت الى امره وبينما هو ذاهب الى حجرة المعيشه قد اوقفته طرقات على الباب ليفتح ظنًا منه انه حنا لكن كانت مارلين التى كانت تتكا على عكازها الخشبى الانيق وترتدى فستان ارجوانى وعلى شعرها الابيض قبعه ارجوانيه مربوطه عند عنقها باشارب متصل بها قائله بهدوء: كيف حالك يا اخيلا؟ هل اليزابيث موجوده في البيت؟

هز اخيلا رأسه وادخلها قائلاً وهو يغلق الباب: نعم تفضلى سنيورة.

ثم ذهب بها الى حجرة المعيشه قائلاً وهو يشير الى محمد: هذا عمى جورج.

وقف محمد وهز رأسه بالتحيه وبالمثل مارلين وكذلك خديجه وقد جلست مارلين مدت ساقيها المتهالكه قائله بهدوء و عقلانيه: انا اليوم هنا لازورك لاول مره ولكن ليست لاخر مره بمشيئه الرب وكنت اريد التحدث معك في شئ مهم بخصوص جوليانا هل ممكن؟

ثم نظرت الى محمد بحرج ليتدخل طارق بسرعه قائلاً و هو يزيد من رصيد غضب وحنق خديجه: عمى جورج يعرف كل شيء سنيورة لا تقلقى.

هزت مارلين رأسها قائله براحه: هذا جيد جداً والان منذ ثمانية اشهر مضت قد دخلت الى هذا البيت لاول مره ابكى وقد كان حنا ابنى الصغير يموت، وانتى ام وتعرفين ما معنى انه قد تفقدين قطعه من قلبك، كان حنا مصاب بطعنه في بطنه غائره وقد كان معه بلايو ودلهم احد على بيت جوليانا وتلقى العلاج في بيتها حتى برئ، جوليانا قد عاينتها بعينى ابنتك فتاه صالحه الرب يحبها مثال للفتاه مستقيمة الخلق، بالرغم من مكوث ابنى ومراعتها له الا انه لم تاخذ بزيتا واحده، وقد حكى لى حنا عن معاملتها وكم كانت ترعاه ولم يرى منها شعره واحده وانا بنفسى عندما داوت دمامل قدمى قد اختبرت امانتها وصدقها، لا يمكن ان يكون لديك ابنه مثلها في امنتها واخلاقها وتصدقين بعض النمامون اين الثقه؟ انا امرأه قد جاوزت السبعين ورايت ابناء احفادى ومر على الكثير ما حدث كما حكى اخيلا يبدوا بوشايه من احدهم يكيد لابنتك، اعقلى الامور يا اليزابيث.

ثم التفتت الى طارق قائله بهدوء: اخيلا نادى جوليانا.

هز طارق رأسه وقد هم بالفعل وهو يشعر بالسعاده بان ملامح وجه خديجه بدات تهدء وتعيد حساباتها وتفكر من جديد ولكن ينقص الدليل وقد عاد بعد ثوانى ومعه حكمت المتورمه عينيها من البكاء واثار الصفعات علي وجنتيها واضحه وهذا الجرح جراء الحجر في جبهتها.

ما ان راها محمد حتى هز رأسه باسف ونظر الى خديجه بحنق وضيق وقد كانت خديجه ترفع رأسها بانفه وكانها لم تفعل شئ وعلى الناحية الأخرى مارلين التى زفرت بضيق قائله: جوليانا صدقيني الرب سيظهر الحقيقة وحراس الرب كثيرون لا تقلقى يا ابنتى.

هزت حكمت رأسها بالموافقه قائله بوجهها محتقن بحمرة الخجل وحبس البكاء: بمشيئة الرب.

ثم استدركت مارلين قائله بهدوء: جوليانا لقد جات في امراً اخر، حنا يطلب يدك للزواج ما رأيك؟

رفعت خديجه حاجبيها ونظرت الى حكمت بحده تحذرها ان تقبل اما طارق الذى لا يفهم شئ كان مثل الأحمق اما محمد فقد اتسعت حدقتيه واخذ يقلب بنظره بين حكمت و خديجه ليفهم ما يحدث هنا.

ولكن حكمت فكرت جيد وحزمت أمره وقد اوشكت على الرد لكن طرق الباب القوى اوقفها وقد فتح الباب اذ بهكتور ابن ماريز جارتها يقتحم البيت قائلاً بسرعه وهو يجذب حكمت من يدها الى الخارج: خاله جوليانا تعالى هناك احد يريدك بسرعه.

وعلى اثر فضولها وقوة هيكتور خرجت خلفه و من ورائها طارق ومحمد وخديجه ومارلين، اذ بها ترى ذلك المتسول يقترب منها هو وبعض الذين خاضوا في عرضها وقد قبل قدمها لتبتعد حكمت بسرعه وتنظر له قاطبه جبينها وقد جثى هؤلاء الواشين قائلاً كبيرهم: سيدتى سامحينا نحن اخذنا مال لأجل الوشايه ارجوكى سامحينا وكل الحى عرف الحقيقة فقط سامحينا.

نظرت لهم بتقزز قائله بضيق: ان سامحتكم فلن يسامحكم الرب، عليكم اللعنه جميعًا قذرين. ثم دفعت ذلك المتمسك بطرف ثوبها بقوه قائله بضيق الى اهل الحى المتجمهرين مطاطئى الرؤس الخجلين من فعلتهم: لقد عفوت لكن عقاب الرب سيصيبكم مهما كان ومثل ما حدث معى سيحدث معكم جميعًا سواء انتم او بناتكم، وانا اعرف

ربتت مارلين على كتفها حتى تهدئها قائله مره اخرى بصوت مسموع لاهل الحى: السيد حنا ولدى يطلب يدك للزواج ما رأيك؟

نظرت الى خديجه واهل الحى بتحدى قائله: قبلت طلبه.

هزت مارلين رأسها بالموافقه ثم اتجهت الى عربتها في هدوء وقد اكتفت من العرض ومن بعدها محمد الذى شعر بان الامور باتت خاصه للغاية ووجوده سيزيد الوضع سوءًا لن يصلحه.

دخلت حكمت الى المنزل وخديجه خلفها مثل الطلق النارى وقد لحقت بها قائله بحده وامسكت ذراعها بقوة: انت مجنونه وحمقاء كيف تقبلين بشئ حرام؟

جذبت حكمت ذراعها بقوة قائله بضيق: امى يكفى، هذه الطريقه الوحيده التى يمكن اسكات بها كل تلك الالسنه ولينتهى شكك بى انا اليوم فقط عرفت قيمتى جيدًا عندك.

ثم هرولت الى غرفتها وقد اغلقت الباب بقوة وبالمثل فعلت خديجه ومن خلفهم طارق الذى كان يضحك بسعاده لبرائة اخته ولان خديجه نسيت ان تعاقبه!

كان بيتهوفين اصمًا لكنه من اروع الموسيقين في العالم اعطى موسيقى استلهمها من الطبيعه الانسانية المعقده ومن محيط الحرب والجوع الذى عانى منه وبلاده صنع موسيقى ما تزال محفوظه ومحفور فى عقل العالم حتى اليوم بالرغم من مرور قرابة الثلاث مئة عام على وفاته.

وان كنت تسأل لماذا بيتهوفن بالتحديد، فلانه لم ينظر للاعاقه على انها حاجز او مانع يدفعه للتقاعس والاحجام والخور بل دفعته لان يكون مميزًا في هذا العالم ولا يرحل قبل ان يعطي كل ذوى الهمم مثالاً انهم قادرون على الوصول الى شُم الجبل لكن كن كـ"بتهوفين "أبدع واعطى وسخى من موهبته بلا حدود او عناء اليأس ليظفر بالنجاح عبر مئات السنين ولكن الجانب المحزن اننا صرنا نرى النجاح مدعاه للحسد والحقد والسخريه والقله القليله هي من تقدر عناء النجاح وتعبه وألامه ولعلى أُشبه النجاح بمقولة احد الاساتذه الانجليز" الجميع يهنئك بالحمل لكن لا أحد يعلم كمره تمت مضاجعتك _اعذرونى على ابتزال المثال _.

ولكن انا لست هنا لاتغنى واتغازل في جمال مقطوعات ومعزوفات بيتهوفين الرائعة بلا شك، بل انا هنا لان بلايو هنا في مكتبه في قصره وعلى كرسيه وامام كومة من الأوراق يراجع أعمال ويحل مشكلات ستُناقش في مجلس مستشارين الملك قريبًا وعلى الجميع ان يقدم حلولاً جوهرية ومجدية لحل مشاكل الحرب مع فرنسا ومشاكل تقسيم الحدود مع البرتغال القائمه منذ سقوط الاندلس والخلافه الاسلاميه عندما كانت اسبانيا والبرتغال دوله واحده اسمها الاندلس.

ولا أنكر على بلايو أنه مجتهد جدًا في عمله ومتفانى ومراعى لذلك أبداً وقد استحق وظيفته عن جداره حقيقة اثبتها في عدة أعمال ناجحه اسندت إليه ولكن مزاجه كان رائقًا مثل ماء الجير الرائق قبل دخول ثانى اكسيد الكربون عليه وقد احس بلذة النصر واطمئن قلبه بأنه أطاح بجوليانا إلى أبد الابدين بعد ان باتت ممسحة الغائط أفضل سمعه منه سمعتها والاحمق يظن ان كل الامور طيبه وتسير على أكمل وجه وبتلك الطريقة سيساوم حنا على طبقته الاجتماعيه ووظيفته اذا فكر في ان يُصرح بحبه لجوليانا مرة اخرى وبالطبع الاحمق فقط من يبيع طبقته الاجتماعيه ووظيفته من أجل الحب، أليس كذلك؟

لكن بالرغم من مزاجه المعتدل والسعيد الا ان صوت معزوفه لبيتهوفين كان يصدح في الاجواء عن طريق الكمان ارق تركيزه وشوش على تفكيره وقد كان صوت تلك المعزوفه يقترب منه رويدًا رويدًا حتى دخل ثانى اكسيد الكربون عليه وعكره اعنى حنا الذى كان يرتدى بنطال اسود وقميص أبيض قد فتح ازراره حتى منتصف صدره وكان يضع الكمان على كتفه ويحرك جسده تناغمًا مع جمال تلك المعزوفه التى تاخذ المستمع والعازف الى عالم اخر من الهدوء والسكينه.

لكن حنا كان يقصد اثارة غضب وحنق بلايو لا أكثر فقط حتى يعطيه الخبر المفرح والبشارة بأن والدتهم هناك في منتصف المدينه تطلب له يد جوليانا للزواج وقد بات الحلم ان يصبح حقيقة.

أخذ حنا يلتف حول بلايو الذى رفع احد حاجبه ببرود ونظر له بزرقاوتيه الداكنه بعض الشى بصمت حتى يصل إلى نهايى تلك الأفعال الصبيانية التى لا طعم لها او معنى ولاول مره يعود لمرحه هذا منذ وفاة ادواردو صديقه.

وقد انتهت المعزوفه وتوقف حنا عن الرقص والعزف اخيرًا ثم حرك كرسى أخيه الدوار حتى أصبح في مواجهته وقد اتكا على مسندى الكرسى باستفزاز رفع حاجبيه معًا وبزرقاوتيه الباردة رسم ابتسامه مستقزه تزامنًا مع شعره الذى عقده للوراء قائلاً باستفزاز: هل تعرف اين امي الان يا جدى بلايو؟

بنفس الهدوء والبرود تحدث بلايو قائلاً: ماذا تريد يا حنا لدى عمل مهم؟

امال حنا رأسه وتابع بنفس الوتيره: امم يبدوا انك لا تعلم لكنى اعرف وساخبرك، امى فى بيت اندرو الحداد تطلب يد جوليانا للزواج منى ووصلنى البشير بان جوليانا وافقت ما رايك في هذا الخبر المفرح؟

رفع بلايو زاوية شفتيه بسخرية وارجع ظهره للوراء قائلاً بسخريه واريحيه: بالطبع ستوافق لقد سمعت بالفضيحه التى حدثت لها فاى فرصه للزواج ستوافق حتى تدارى على الفضيحه.

هز حنا رأسه بالنفى واخذ يتاتى بمعنى لا ثم زم شفتيه قائلاً بسخريه مدعيًا الحزن: يا إلهي! ألا تعلم انها قدمت محضر بالواقع وبعد التحقيق امسكنا بالفاعلين واعترفوا بكل شيء واعتذروا منها امام جميع اهل الحى، لكن لا تقلق كاترينا بخير لم اقترب منها وانا لن اخبر احد بفعلتك تلك لانى احبك يا اخى الكبير وابى الذى ربانى بعد أبى.

ثم اعتدل في وقفته وربت على صدر بلايو الذى احتقن وجهه الابيض بالدماء بقوه من فرط الغضب وان ضغط عليه سيفرقع مثل البالون المملوء على اكمله بالهواء قائلاً بهدوء مملوء بالجديه: انا لست متدينًا واحيانًا لا اصوم في العام عشرة ايامًا حتى، لكن الا النساء يا اخى، لديك ايفا ولديك ديف في قرطبه مع زوجها تتمنى لها السعاده، الرب لن يرضى بفعلتك تلك ولتصلى للعذراء ان جوليانا عفت عنكم جميعًا.

ثم اعتدل في وقفته والتقط كمانه من علي المكتب وامسك بمقبض الباب لكن قبل ان يفتحه استدار ينظر الى بلايو الذى وقف ووضع يده في جيب بنطاله البنى قائلاً بتحدى وسخرية: وان اثبت لك انها ليست كثوليكية ماذا ستفعل؟

امال حنا رأسه قائلاً بلا مباله: بلايو لن يفرق الامر كثيراً حتى لو كانت برتوستنت أو ارثاذوكس وتخفى الامر ستتغير عند الزوج.

قهقه بلايو بسخرية لازعه على سزاجه أخيه ومحدودية تفكيره ليسكت بصعوبه تحت وطئة انظار حنا المحتقنه بالغضب من افعال بلايو وسخريته، ثم تابع وهو يقترب منه حتى اصبح امامه قائلاً بعبث ونبرة بارده: دائماً ما اقول ان عقلك ضيق الأفق ووظيفتك ومنصبك بالحظ، بروتوستنت او ارثاذوكس فقط هذا ما فكرت به، جوليانا ان كان اسمها جوليانا تلك اكاد اقسم انها مسلمه وسياتى يوم واثبت هذا.

القى حنا كمانه ارضًا وقد اشتعلت عينيه بغضبًا مستعر وقبض على تلابيب قميص أخيه بقوة قائلاً بغضب وحده: لا مكان للمسلمين بيننا، مادمت في السلطه هؤلاء البربر لا مكان لهم بيننا واياك ان تتهم من ستكون زوجتي بهذا الوسم القذر كافعالك.

ثم خرج وقد وضع كمانه فوق كتفه مثل الجوال وترك بلايو وهو يستمع الى صوت زئيره وصراخه الغاضب وتكسير زجاجه الخمر والكاس الذى كان يشربه وتلك الاوراق التى تطيح في الهواء لكن بلايو يحتاج الى من يصفعه على وجهه ليفيق من جنونه هذا، لكن فعلت حنا تلك لن تفعل شئ سوى ان تزيد من جنونه هذا.

وكيف لا وشكه في كثلكاتها ونصرانيتها يتفاقم يومًا بعد يوم.

في مساء اليوم اسفل رف خشبى فوقه عرائس صغيرة قطنية وخشبيه كانت هناك صاحبتنا تجلس على كرسي دوار صغير امام مراه صغيره وتمسك بالفرشاه الخشبيه تصفف شعرها المسروق من سماء الليل وقد اشتاقت لفعل هذا منذ ان حُبست في مخزن البيت، وقد كان تفكيرها كله منصب على هول تلك الابتلائات والمصائب المتلاحقه الواحد تلو الاخر بلا هواده منذ ان اقتحم حنا حياتها بلا اذن وسرق قلبها من مكانه بكل هدوء واريحيه على علمًا منها لا فائده منه.

ارجعت شعرها للوراء واتكات على التسريحه بمرفقيها ووضعت رأسها بين كفيها وزفرت انفاسها المشتته بارهاق واخذت تفكر في اخر الاحداث رغم انها عفت فقلبها وروحها لن ينسوا ولن يعفوا بشى، قلبها اسود أليس كذلك؟

لكن ما حدث مع المسكينه ليس هين اطلاقًا فلا حتى بائعة الهوى ترضى بان تتلوث سمعتها وشرفها حتى ولو كانت كذلك بالفعل، وعلاقتها بامها لن تكون بخير ابدًا وقد شُرخت بشك خديجه بها وبتصديق كلام الناس عليها وقد كانت اول من خذلها وحنا اول من وقف جانبها وصدقها وبالرغم من انها وافقت على طلب الزواج المحرم الا انها لا تجد شئ افضل لسد تلك الافواه التى تفوح بالخبث والخبائث سوى ان توافق على طلب حنا ولا تملك من امرها شئ او من علم الغيب مثقال ذرة لكن هي على ثقه تامه بان الله لن يتركها وحدها تعانى مراره الحسره والخوف والاقدام على شئ ينافى أوامر وتعاليم الله رب العالمين.

زفرت بهدوء اخذت تعقد شعرها للوراء على هيئة كعكه مرتبه واتدت حجابها الذى ربطته للخلف وامسكت بشال صغير تضعه على كتفيه وقد همت بالخروج من الغرفه الى حديقة البيت الخلفيه وما ان خرجت من الغرفة الورديه الصغيره حتى خرج طارق هو الاخر من غرفته لينظر اليها قائلاً وهو يتثائب: الى اين... اه... يا حكمت الوقت متاخر.

هزت كتفيها قائلاً بهدوء: الى الحديقة الخلفيه ساشم الهواء تعال معى.

حك فروة رأسه قائلاً بتفكير: حسنًا لكن اريد ان اتحدث معك الان.

اتجهت اليه وحاوطت كتفه قائله بهدوء وود: انا تحت امر البطل طارق الذى انقذني من مصيبه كبيره.

ثم جلس كلاهما على الاريكه اسفل النافذه المفتوحه لينظر اليها قائلاً باهتمام: حكمت هل ستتزوجين من حنا فعلاً؟

اعتدلت حكمت في جلستها وقد اصبحت مقابله مباشرةً قائله بجدية: انظر يا طارق، الله في ديننا حرم على المسلمه الزواج من غير المسلم واباح للمسلم الزواج من غير المسلمه. ثم اخذت تشرح وهي ترى على وجهه علامات الغباء وعدم الفهم قائله بهدوء: انت رجل تتزوج من مسلمه او مسيحيه او يهودية لا مشكله لا الزوجه تسير بشرع الزوج اى يمكنك تطليقها والطلاق مباح في الاسلام لاى سبب مهم ليس بعشوائيه، والاطفال سيكونون على دينك ماعدا اليهود الطفل على دين أمه، وستعطيها حقوقها من نفقه ومهر ومؤخر وغيره والعلاقه ستكون حلال اما انا وحنا لا يمكننا الزواج ستكون علاقة زنا فلا الاطفال سيكونون على دينى ولن يمكنني الطلاق لان الطلاق محرم في المسيحيه الا في حالة زنا احد الزوجين، وقوانين الميراث في الإسلام غير المسيحية وكذلك النفقه وغيره، لذلك الله عز وجل حرم زواج المسلمه من غير المسلم.

نظر لها طارق قائلاً بحيرة ودهشه: لكنك وافقتى على عرض الزواج ماذا ستفعلين الان؟

امسكت بكفه قائله بجدية ودفاع عن نفسها: كنت مضطره الجميع يتحدث على بالباطل والعاطل ولا شيء سيسكت تلك الالسنه غير ان احدًا مثل حنا سيتزوجنى، انا لا اعرف ماذا سيحدث لكن انا ادعى بان يحل الله تلك المسأله من عنده انا في مشكله لا اتمناها لاحد ابدا.

زم طارق شفتيه قائلاً بضيق و جديه: لكن حنا يحبك حقًا وفعل المستحيل لاجلك، هل تحبيه انتِ ايضًا.

نكست حكمت رأسها وبللت شفتيها في توتر وعينيها اخذت تنظر الى بيت العنكبوت في زاوية الارض خلف الكرسى بخجل وقد احمرت وجنتيها وتفاجات من سؤال طارق لها ولكن لن تصمت ويكفى ما فعله الصمت بها وفي نفس الوقت لن تكذب ويكفى ما فعله الكذب بها.

رفعت رأسها وبللت شفتيها قائله بصدق ونظرت في عينى اخيها: اسمع يا اخى، انا لن أكذب واراوغ بعد الان انا أعرف حنا منذ ان كنت في الرابعه من عمرى وكان هو شاب في السابعة عشر كنت العب معه وكان يدللنى مثل اى طفل حتى جانا الى مدريد ولم اراه الا منذ ثمانية اشهر مضدت ولا أنكر يا اخى انا احب حنا احبه كثيراً عندما كان مرضًا كان قلبى ينفطر عليه وعندما يفرح افرح انا ايضًا لقد تعلقت روحى بروحه ولا مجال للانكار ، ولكن كان شئ ضدّنا ماذا افعل وحدى امام دوله بأكملها؟

"ولكن انا ساحارب العالم كله لاظفر بكى ليست الدوله فقط يا سُكره." كان هذا صوت حنا الذى كان تطلع اليها من النافذة المفتوحه وقد صرخ طارق وحكمت بفزع ورعب من دخوله الرائق المسبب للحرائق.

وضعت حكمت يردها على موضع قلبها الثائر وقد تدفق الادرينالين بقوه الى رأسها ونظرت اليه وجلست على ركبتها لتواكب طول النافذة قائله برعب: منذ متى وانت هنا؟

داعب حاجبيه قائلاً باستفزاز: منذ ان احببتينى وتعلقت روحك بروحى يا سُكره.

زفرت بهدوء و قد بدات تهدء وتطمئن من انه لم يسمع اى شئ سابق يقذفها الى وراء الشمس، بينما هو كان يسلم على طارق الذى بات رفيقه وانتهى الامر قائلاً بود: كيف حالك يا بطل؟

ابتسم طارق بود وبادله التحيه قائلاً: بخير سيدى، اشكرك على ما فعلته معنا لولاك لكنا في وضع سيئ الان.

قلب حنا عينيه قائلاً بمرح: ان كنت تريد شكرى احضرى لى كوب ما فقد جات علي قدمى الى هنا.

امتثل طارق الى امره وذهب الى المطبخ لتنفيذ طلبه لكن حكمت استغلت فرار طارق اخذت تضربه في صدره وكتفه قائله بغيظ وغل: عليك اللعنه، انت السبب في كل شيء انت السبب ايها البارد.

أمسك يديها التى تضربه وفرقهما عن بعض قائلاً باستفزاز: يا سُكره هل هناك فتاه تقابل خطيبها بهذا العداء اين الحب، صحيح ايفا غاضبه لانكى لم تحضرى حفل زفافها الأمس.

ابتسمت باصفرار قائله: اعذرنى كنت في مجلس مستشارين الملك اناقش مشروعاتى المستقبليه، ثم تابعت بغيظ وغل وهي تحاول جذب يدها: اخبرتك الف مره ان اخاك هذا سيقتلنى يومًا ما انا اثق انه وراء ما حدث ، وانت ايضًا لن ترتاح حتى اموت على يدك، بسببك انا محرومه من مغادرة المنزل الا مع امى او مع اخيلا، يعجبك هذا؟

جذبها من يديها ناحيته اكثر قائلاً بعبث: ليس لبلايو شئنا معك حديثك معى او مع امى فقط وغير ذلك اجل هذا جيد حتى لا يراكى أحد غير قبل حفل الخطوبه. ثم ترك يدها للحظه وعبث في ثوبه يبحث عن شئ ما حتى اخرج من جيبه رباط شعر حرير وامسك يدها اليمنى يلفه حول اصبع البنصر قائلاً بسعاده: خطوبة سعيدة لا تقلقى ساشترى الخاتم لكن هذا دليل على محبتى لكى.

فلتت منها ضحكه هادئة وهى تقلب يدها في الهواء تنظر الى ذلك الرباط الحريرى الاحمر بلطف وسعاده ولا ننسى الحزن لكنه قطع حبل وصال شاعرها عندما امسك يديها مره اخرى ثم نظر حوله والى داخل البيت يتاكد ان طارق في المطبخ ليقترب بوجهه اكثر منها وهى تنظر له في دهشه قاطبه جبينها ليهمس لها بعبث: اعطيني قُبلة وضعنا مغرى بصراحه.

اتتذعت يديها بقوه واخذت تضربه في صدره بقوه قائله والخجل يسيطر عليها من كل مكان ويتهمها: ايها السافل الوقح هل تظن انى لعبه اغرب عن وجهى عليك اللعنه وقح متبجح قليل الادب والحياء.

وبالرغم من انه كان يقصد ان يناوشها ويمزح معها وقد كان يقهقه على غضبها وخجلها باستمتاع وهو يرى اخيرًا الجانب المرح من شخصيتها إلا ضحكه توقف فجاه وامتقع وجهه من ما راه خلفها واخذ يلتف ويرجع للوراء حتى يهرب لكنها تمسكت بمعطفه الطويل قائله بغيظ: الى اين تهرب انا لم.... اه!

صرخت هي الاخرى برعب ايضًا عندما استمعت الى صوت خديجه خلفها التى صاحت بغضب قائله: ماذا تحسبون انفسكم فاعلين؟ ماذا تفعل هنا؟
نظرت لها حكمت قائله برعب وهى تتمسك بحنا الذى يحاول الهرب: اقسم بربي انه جاء مثل اللصوص دون ان اعرف ثم اشارت الى طارق الذى اقبل يحمل كوب الماء: وها هو اخيلا اسئليه.

جذبتها خديجه من ذراعها وسحبتها الى الوراء ثم اقتربت من حنا قائله بحده: ماذا تريد؟ كلامى مع والدتك ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر؟

بلل حنا شفتيه وقد ارجع شعره الى الخلف قائلاً بهدوء: امى تعزمك على الغداء نهاية الاسبوع وقد اخبرتنى ان اخبركم لكن كان لدى عمل طويل ولذلك انا هنا واذا سمحتى لا ترفضى هذه دعوه من امي.

رفعت خديجه احد حاجبيها وهزت رأسها بالموافقه قائله و هى تغلق النافذه: حسنا سوف ناتى هي الي منزلك لو سمحت لا نريد مشاكل.

ثم اغلقت النافذه والستائر من دون ان تنتظر منه المغادره ثم صاحت في وجه ابنائها بغضب قائله: اياكم والسهر في وقت متاخر كهذا بعد الان كل حمارًا منكم على غرفته والا لا خروج نهائي من البيت

"تحت الأرض!" دائماً ما تتبادر تلك الجملة كدليل على الغموض أو لاثارة الفضول والرعب ومن كثرة تكرار تلك الكلمة على لسان الصغار قبل الكبار بات تاثيرها ضعيف للغاية على العقل البشرى واصبحت تحت بند القبول الضمنى لاغلب مستمعيها الا قله قليله مَن مْن يستمعون ويعقلون ويحللون تلك الكلمة سيجدون ان لها معنى كبير وواسع ليس مقتصر فقط على العالم السُفلى او جهنم عافاكم الله.

وانا كنت مِن مْن تمر عليهم تلك الكلمة مرور الكرام دون ان اعى معناها وافهم مغذها حتى قرات في كتابنا المحفوظ من رب البرية تلك الايه الرائعة بلا شك و هى "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " اخذت أطبق تلك الأيه الكريمه على كل موضوع وموقف في حياتي وقد لاحظت ان نظرتى للامور باتت اوسع واخذت افكر في كل شيء بمنظور اوسع وقد فتحت امامي ابواب من المعرفه المخفيه والمختلفه واكتشفت ان القرآن كتاب لا يخلوا من المعجزات التى لا تنضب على مر العصور وكلما تقدم العلم تواكب تفسير القرآن العظيم معه.

حقًا كلمة تحت الأرض تحمل الكثير من المعجزات والخفايى والاسرار التى تنتظر مغامر ومستكشف قلبه عامر بالاقدام وحب المعرفة والحق وستنفتح له اسرار العالم أجمع.

ولكن هذا ليس سياق حديثى وسردى إلا ان معنى كلمة تحت الأرض كبير وواسع فهناك اسفل احد الاراضى والحارات معمل وبيت في نفس الوقت وبالطبع أُناسًا مثلهم سيعيشون في تخفى تحت الأرض فقد كان ذلك المعمل وهذان الزوجان في سن الأربعين يعملون في صناعة السموم الفاخرة وقد تفنن الزواجان في صنع السموم التى تتراوح في القوة والشده والتأثير من عدة أيام الى كسر الثانيه ومن غير لون او طعم او رائحه الى ذو لون وطعم ورائحه.

وقد كان هناك ذلك الرجل قصير القامه اصلع الرأس إلا من مؤخره راسه ببعض الشعر الاسود يكمم نفسه بذلك القناع الذى يشبه انف الغراب حتى لا يستنشق تلك الرائحة السيئة السامه المنبعثه من تركيبة سم رخيص السعر للعوام يظهر مفعوله في يوم واحد او عدت ايام.

لكن طرقات ما على الباب جعلته يترك الدورق المخروطى وانبوبة الاختبار ويتجه للباب ظنًا منه انها زوجته التى ذهبت لشراء بعض الاعشاب السامه لكنه أخطأ التقدير عندما فتح وكان ذلك الرجل الأحدب الذى يتردد عليه احيانًا طلبًا لوصفه طبيه او للسم وانواع مختلفه.

ابتسم ذلك الأحدب ذى السن المكسور وهز رأسه قائلاً بابتسامة بلهاء: طاب مساؤك سيدى جات اليك في طلب مخصوص.

ادخله ذلك القصير واغلق الباب وجلس معه على كرسيين حول طاوله صغيره بها ثلاث مقاعد ومهترئه ثم امسك بورقة وقلم قائلاً بعمليه الى ذبونه المميز وهو يدون ما يقول: قل المواصفات يا أحدب.

ابتسم ذلك الأحدب ثم أخذ يشرح الامر وهو ينظر له بعين ونصف عين مفتوحه: اريده بلا لون او طعم او رائحه ويظهر مفعوله بعد تناوله بمده جيده خمس او ستة ساعات تقريباً.

نظر القصير إلى الورقه والمواصفات قائلاً بسخريه: يبدوا انك تطلبه لشخص مميز، لكن لا تقلق طلبك عندى لكن غالى الثمن ليس سهل أبداً

ثم وقف واتجه إلى خزانه تضم الكثير من زجاجات السم سواء سائلة أو عبارة عن مسحوق واخذ يعبث بهم حتى وجد مراده وقد كتبت مكوناته في ظهر الزجاجة.

ثم اقتربت منه ليخرج ذلك الأحدب سره نقود ذهبيه من اسفل وشاحه المهترء المرقع ثم سكبها على الطاوله قائلاً بثقه : اظن ان ذلك يكفى.

أخذ ذلك القصير يعد العملات الذهبيه وقد كانت اكثر من ما سيطلب لكن الجشع داء عفاكم الله منه جعله يمط شفته بتصنع الضيق قائلاً: ليس كرمك لكن كرامة لك يكفى.

ثم مد يده بالزجاجه لكن توقف في منتصف الطريق قبل ان يعطيه الزجاجة قائلاً بتحذير ووعيد: اياك ثم اياك ان يعرف احدهم من اين جات بالسم وان شفى المسموم منه قد تتضرر احدى حواسه اتفهم يموت او يعيش باعاقه.

هز ذلك الأحدب رأسه ثم أخذ الزجاجة قائلاً بسخريه بعد ان خبئها اسفل وشاحه: فليحفظك الرب يا ايها الرجل الطيب.

ثم خرج من الباب وخرج الارض اخيرًا وبالرغم من انه يستنشق هواء طبيعى الا ان رائحة المجارى تلك لم تترك انفه وقد أخذ يسير بين الازقه والاماكن الضيقه في الحارات الضيقه في خطوط متعرجه حتى ان رآه أحد ضاع أثره بين الازقه حتى بعد مده ليست قليله خرج من الحارات الى شارع مهجور وكان جائًا قد تلبسه فقط لا غير عندما أخذ يفرد ظهره وطوله ويصبح ظهره مستقيم لا حدبة به ولا أعاقه ثم نفض ذلك الوشاح الممزق ووضعه فى حقيبه على ظهره خيله الابيض الذى كان مربوط بأحد الاشجار ونزع ذلك السواد عن أحد أسنانه ويرمى عن رأسه قبعه تشبه قبعة الرهبان وتلم عينيه الخبيثة على ضوء القمر واسنانه على ضوء شموع عمود الاناره قائلاً بسخرية وهو يرفع زجاجه السم الى عينيه: سنشتاق تلك المره لكى حقًا يا جوليانا.

الفصل التاسع عشر

كانت اجارس كنيسة المُدينه تدق لتعلن عن موعد صلاة يوم الاحد مثل كل اسبوع وكانت من عادة خديجه وابنائها ان يؤدوا الصلوات في احدى كنائس الحي القريبه والصغيرة بعيدًا عن الضجه والزحام والم القلب من دخول كنيسه قديمة وكبيره كانت في الزمن الخالى مسجد أُقيم فيه الأذان يشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وكم من مصلى صلىٰ لله في هذا المسجد سواء في عيد الفطر والاضحى وكم قيام ليل اقيم في رمضان وكم افطار وكم تهجد وكم اعتكاف وكم فرض وكم نافله وكم طفل قلد اباه في الصلاه وبيده الأخرى بعض الحلويات وكم فتاه حضرت اشهار زفافها وكم صلاة جنازة وخوف واستسقاء وكسوف، واهً عليكى يا مدريد وعلى مساجدك الممتهنة والمشتاقه جدرانك وزواياكى الى سماع صوت الاذان ولو بالخطأ!

وقد تحقق الكابوس والخيال المؤلم على ارض الواقع وقد شهدت تلك القلوب المتألمه الخائفه ما كانت تهرب منه طوال العمر.

وللاسف اليوم يوم عزيمة مارلين وحنا قد تفرغ اليوم وقد مر على بيت حكمت من دون سابق إنذار وكاد ان يتشاجر مع خديجه لاخذهم للصلاه معه والذهاب للبيت لولا حكمت وطارق الذين حلوا الامر وتدخلوا بينهم لكانت حدثت مشكله وللاسف ايضًا اخذهم الى مسجد اسفه كنيسة المُدينه حاليًا لإقامة الصلوات وبينما حنا مشغول ومنكب في الصلاة يدعوا ربه ان يحقق امانيه واحلامه في تلك الحياه كانت من خلفه حكمت و خديجه وطارق في عالم اخرى من الكمد والغضب لما حدث الى هذا المسجد المقدس وكيف انقلب حاله بسبب تفكك ملوك الطوائف لاهواء شخصية شيطانيه جعلتهم اضعف من بيت العنكبوت وها هم يدفعون ثم حقد ونزاع وغباء لا ذنب لهم فيه.

قد انتهت الصلاة وانفض الجميع بعد ان اخذوا خبز التناول وكاس الخمر _وبالطبع بالاكراه لاصدقائنا _ تقابل حنا مع طارق وخديجه بعد ان بحث عن حكمت ولم يجدها ليسال طارق قائلاً ببعض القلق: أين جوليانا؟ لم اجدها في الكنيسه ولا في مكان الافتراف.

اشار له طارق الى الجهه المقابله ناحية حكمت قائلاً: انها هناك.

التفت حنا الى تلك الجهه متجاهلًا نظرات خديجه النارية له وقد التحم حاجبيه وهو ينظر الى تلك المرأه التى معها طفله في عمر السادسة على الأكثر وكانت تقف مع حكمت هناك والتى لأول مره يراها مع حكمت على الإطلاق طوال الثمانية اشهر الماضية التى انقضت في معرفة حكمت لكن لا يدرى لماذا يشعر بانه رأى تلك المرأه أو قابلها مرةً ما لكن عقله لا يسعفه الآن ويساعده في التعرف عليها ولكنه يقسم بكل ما هو مقدس انه قد قابل تلك المرأه من قبل.

مرت حكمت واجتازت الطريق اليهم امام االعربة بعد ان صعد الجميع وقد صعدت الى جانب والدتها ومقابلهم حنا و طارق وبالرغم من ان حكمت قد ركزت على الطريق الذى حفظته الا ان حنا كان في عالم اخر مع حكمت ليس الحب فقط الان بل الغموض وامر تلك المرأه يشغل باله وتفكيره بصدق ولا يستطيع ان يتذكر تلك المرأه حقًا. يا ربي ما هذا الغباء الان؟!

وبعد مده ليست قليله توقفت العربه في بهو الحديقة الخاصه بالقصر وقد نزل حنا وطارق اولًا بالاكراه من قبل خديجه حتى لا يفكر ان يمسك يد حكمت بحجة انه يساعدها على النزول وقد بدأ حنا حقًا يشعر بالضيق والغضب من طريقة تعامل خديجه معه وقد كانت طريقة سيئة حقًا ولو انها رفضته لكان اهون عليه من نظراتها الحارقة او كلماتها المقتضبة مثل الحجارة الصغيرة تقذفه بها كلما راته ولكن ان صبر فلاجل جوليانا وعيون جوليانا لكن ايضًا للصبر حدود مهما بلغت قيمة الإنسان عند أخيه.

استقبلتهم الخادمه التى اخذت متاعهم سواء حقائب او قبعات وقد خلعت حكمت وشاحها الأسود الذى أبرز اسفله فستان أخضر من الدرجه الغامقه وقد كانت تلك هي الدرجه التى قسمت ظهر حنا فاذا كان يحب الاخضر فما بالكم بالاخضر على جوليانا!

اتجهت حكمت مسرعة الى مارلين التى وقفت على عكازها من علي الكرسى العملاق في الصالون واتجهت اليهم ولكن حكمت سبقتها وقد انحنت اليها بهدوء لكن مارلين ازالت ذلك الحاجز وعانقتها بهدوء وترحيب قائله بود: مرحبًا بالعروس الصغيرة، تلك الزيارة مختلفه تمام.

ربتت حكمت على ظهرها المحدب برفق قائله: شكرا لكي سنيورة هذا فضلاً منك.

ثم ابتعدت عنها مارلين ورفعت سبابتها قائله بتحذير مرح: ساتقبل سنيورة تلك مؤقتًا حتى ينعقد القران.

ثم اقبل عليها طارق الذى قبل يدها وبدورها قد ربطت على ظهره وحيته بحفاوه ثم خديجه التى نظرت لها مارلين بعتاب لكن سبقتها قائلاً بهدوء مقتضب: كيف حالك سنيورة مارلين، شكرا لكى على الدعوه.

نظرت لها مارلين بهدوء ونوع من الضيق بعض الشئ قائله: العفو منك سيده اليزابيث لولا اني غاضبه منكي لكن سلامك يكفى... ثم نظرت الى ماوراء خديجه حيث حنا الذى يجر بلايو جرًا ويجبره على النزول_ وقد كان وجهه مسودًا حانقًا غاضبًا لما يحدث من دون ارادته ويشعر انه يتم التلاعب به كالدميه بين افاعل حنا ومارلين التى يقصدون بها استفزازه واثارة غضبه وكان لا كلمه له في هذا البيت _ ثم ربتت على كف يدها قائله بنبرة ذات مغزى: سنتحدث فيما بعد فلدى الكثير لاقوله لكى.

هزت خديجه رأسها بنعم وقبلت بما تقوله مؤقت وقد اقبل عليهم بلايو الذى القى تحيه مقتضبه فقط "صباح الخير "ولكن ما أثار انتباهها هو وجه بنتها الممتقع والغاضب وكان جنًا قد تلبسها وانقلب حالها من جيد الى سيئ جدا وهنا فتحت حكمت على نفسها مدخل من مداخل الشك الجديد الذى ليست بحاجه إليه على الإطلاق!

قضى على هذا الجو المتوتر صوت الخادمه التى انحت تخبرهم بان الطعام جاهز وبالفعل حثتهم مارلين الى الطاولة وقد كانت كالشوكة في الحلق لخديجه عندما جثت حنا على الجلوس جانب حكمت واخذت خديجه بينهم وقد كان البيت هادئًا يخلوا من ايفا التى في عش زوجيتها ومعها ريموندا التى تزورها كل احد بعد الصلاة وتطمئن عليها.

ولكن بالرغم من سعادة حنا الكبيرة والبالغه مثل اليتيم الذى حصل على ثوب عيد ميلاد جديد لاول مره في حياته إلا ان بلايو كان اشد فرحًا وسعادة من اخيه ولولا انه من العيب لكان وقف ورقص فوق الطاوله الان واقام الولائم وامامه جوليانا التى بدأت في تناول طبق الارز والشوربة الساخنه والفاصولياء الموضوع بهم السم الذى اشتراه من صانع السم قبل عدت ايام واجل كان هو ذلك الأحدب الذى يتردد علي صانع السم، والان سيقول بعد عدت ساعات قليلة اكثرها على صباح الغد فليرحمك الرب يا جوليانا!

ولكن الجانب المُشرق في الغداء الأخير انه كان دجاج اى لحم حلال وقد شُفيت صدورهم من قلق داهمهم قبل العزيمة ان يكون لحم خنزير فيكفى خمر الصباح الذى تناوله كراهية.

جلست مارلين والى جانبها خديجه بعد انتهاء الطعام وقد ذهب بلايو إلى مكتبه بمنتهى الوقاحه والبرود وطارق الى اسطبل الخيل وحنا وحكمت الى الشرفه المقابله للصالون وقد رتبت مارلين كل هذا حتى تستطيع التحدث مع خديجه بعقلانيه وهدوء.

اسندت مارلين عكازها البنى على مسند الكرسى الفضى المزركش ببعض الرسومات الذهبيه والحمراء متناغمًا مع رخام البيت الابيض.

ثم مالت بيدها واتكات على المسند بمرفقها ناحية خديجه قائله بعقلانيه وهدوء: الان يمكننى ان اتكلم معك بهدوء وانتى من دور ابنائى يا اليزابيث الفارق بينك وبين بلايو ابنى الاكبر ليس كثير ولكن اسمعينى وبعدها ردى.

امالت خديجه رأسها بالموافقه قائله بهدوء: بالطبع سيدتى هذا شرف لى كبير.

"اسمعي يا اليزابيث، موقفك سئ مع جوليانا لانك لم تساندیها بالشكل الكافى في ازمتها، اى فتاه في تلك اللحظه حتى ولو كانت مخطئة فعلاً تتقوى بعائلتها، جوليانا ان خبئت عليكي أمر حنا فهى خافت من عقابك..."

قاطعتها خديجه رافعه احد حاجبيها باستنكار واشارت الى نفسها: انا اعاقبها لم يحدث في حياتي ان ضربتها يومًا.

نظرت لها مارلين بجديه قائله بحزم: لكنك فعلتى ولم تساندیها، ما لا تتقبليه هو ان جوليانا كانت مجبره على الوضع وليس برضاها نحن اقتحمنا حياتها ببلانى وشرنا وهي وحيدة بين كل هذا وفعلت ما يمليه عليه ضميرها.

"على الاقل كانت اخبرتنى لم تلف وتدور على"

"كانت ستخبرك، انا وانتى كنا فتيات في سنها وفعلنا مصائب وكان يمر الوقت ونخبر اهالينا من دون ضرب او سب او حبس في المخازن.. خلاصة القول تحدثى معها وضعى
حد لهذا الخصام ابنتك مثل صديقتك تشكليها على يدك وتتخذين منها كاتمة اسرار وهى كذلك انتى فى نعمه كبيره. "

زفرت خديجه بهدوء قائله: عندما نعود سنتحدث بمشيئة الرب.

ربطت مارلين على يدها بحبور وسعاده وود لكن قطع تلك اللحظه الدافئة واخرجهم من هذا المزاج الرائق هو هرولت حنا وعدم رده عليهم وقد دخلتا الى الشرفه ليرتفع صراخهم وعويلهم ويشق سكون القصر من هول بشاعة المنظر امامهم.

في شرفة القصر الارضيه المطله على الحديقه الخلفيه للقصر دخلت حكمت ومن خلفها حنا الذى أغلق الباب الزجاجى حتى يستطيع ان يتحدث معها على انفراد وهدوء ويبدا يخطط لحياته القادمه معها والان ادرك قيمة والدته الحقيقة ومعنى كلمة مكر النساء وذكائهم الجبر واخيرًا وجد احدًا يستطيع كبح جموح خديجه ويوقفها عند حدها ويوقف نظراتها الحارقة وكلماتها الحادة اكثر من سن السيف.

ولكن حكمت كانت في عالم اخر من الانبهار بهذا الجانب الخفى من القصر وقد كانت تلك الشرفه كبيرة واسعة من الرخام الابيض وعلى عموديها الذين يحملين الطابق العلوى تمثال من نفس نوع الرخام لجسد المسيح المصلوب وبها طاوله صغيرة واربعة مقاعد وقد جلست على احدهم واخذت تنظر الى تلك المساحة الخضراء الفارغه الواسعة من الحديقة بانبها وتلك النافورة الرخاميه ومائها المنهمر وبعض الطيور كانت تستقى منها وهناك لمحت طارق عند اسطبل الخيل يلاعب احد المهور الصغار ويطعمهم وكانهم في الجنة بمعنى الكلمة.

نظرت الى حنا الذى جلس امامها بتساؤل قائله وهى تُشير الى تلك المساحة الخضراء: لماذا لا تستغل تلك المساحة وتزرع بها بعض النباتات والاشجار وتضع حولها سياج وتكون مساحه خاصه ستكون مفيده وجميلة جدا.

ابتسم حنا بهدوء وعقد ذراعيه امام صدره على قميصه الرمادي قائلاً: فقط حددى موعد الزفاف وستكون تلك المساحة لكى وحدك ازرعى بها ما تريدين وقد ابنى لكى معمل خاص.

شبكت أصابعها بتوتر واستدركت: هل سنعيش هنا بعد الزواج؟!

هز رأسه قائلاً بهدوء: نعم هذا القصر ارث عن جدى الأكبر بعد ان انزعنا مدريد من ايدى المسلمين وعائلتنا كلها تزوجت فيه.

ابتسمت له يتوتر واثرت الصمت وقد شعرت ببعض الدوار الذى يداهمها والم بسيط للغاية في معدتها لكنها تجاهلته وامسكت كوب الشاى تشربة بهدوء وبسبب كلماته تلك شعرت ان قوالب السكر الثلاث لم تغير مرارة الشاى اطلاقًا لكن حنا كان هناك امرًا يشغله وغاب عن نظره اي شئ غيره.

نظر لها قائلاً بتساؤل وهو بنفس جلسته: من تلك المرأه التى كانت تقف معك عند الكنيسه بعد الصلاه.

ارتشفت القليل من الشاى وبللت شفتيها بهدوء ثم وضعت الفنجان عن الطاوله ونظرت له بهدوء قائله: ساخبرك يا سيد حنا لكن هذا سر وارجوك لا تخبر به احد.

هز رأسه باهتمام لتتابع حكمت وعينيها تتواصل مع عينيه لثبت له صدقها: تلك المرأه اسمها روزيتنيا جارتنا مات زوجها منذ خمسة اعوام وترك لها ابنتها الوحيدة ولكن كان يعمل عامل نظافه ودخله محدود وهي كانت يتيمه لا احد لها واضطرت لان تعمل في البغاء حتى تطعم ابنتها وقد أراد اهل الحى طردها لكن انا واخى فيكتور الشماس واختى ماريز وزوجها عرضنا عليها العمل في شئ اخر يعطيها رزق حلال وقررت ان تعمل في الطهى وقد استعارت منى مبلغ لشراء موقد واوانى طهى واغراض ستساعدها وقد تحسنت احوالها تمامًا وكانت تسدد المبلغ الذى استعارته منى.

زفر حنا بهدوء واغمض عينيه لثوانى بعد ان انتهت من كلامها والان تذكر ان تلك المرأه قد كانت رفيقة له قبل ثلاث اعوام وكانت تاخد منه مال طوال رفقتهم التى استمرت لشهرين وقد انهى هو الرفقه لمللله منها وكم كان حقيرًا حقًا وتلك الفتاه تشعره الان بمدى حقارته وكانها سكين قد طعنه بقلبه وايقظه على قذارت ماضيه.

فتح عينيه ينظر اليها وقد ابتسم بهدوء قائلاً بصدق: انتِ اجمل واروع انسانه في الوجود، ليت هناك الكثير منكى في هذه الدنيا لكانت انتهت حروب العالم. ثم تابع بفضول وهو يغلق على هذا الموضوع الذى يؤلمه واستئنف: اخبرينى بحق، أين تضعين تلك الورود التى احضرتها.

ابتسمت بفخر واخذت تشرح وهى تضيق يديها بحجم الصندوق: في صندوق خشبى متوسط لونه بنى في السرداب الايمن ووضعت فيه الرسائل ايضًا وقد كتبت به رسائل لك ايضًا لكن لن تحصل عليها الا عند... اه!

خرجت منها انه عاليه وقد أمسكت بصدرها بألم وانحنت بجزعها الى أسفل قليلاً وقد وقف حنا بقلق واقبل عليها ورفع وجهها المحمر بعض الشئ وربط علي وجنتها قائلاً بخوف: جوليانا ماذا يحدث معك.

حاولت سحب انفاسها بصعوبه قائله بصوت خافت بلا طاقه: لا استطيع التنفس اريد ماء.

دخل حنا الى القصر بسرعه وهو يركد الى المطبخ يحضر كاس ماء متجاهل اسئله خديجه ومارلين عن ما يحدث وبينما يملأ الماء من السطل الكبير استوقف شئ اسفله لامع وقد انحنى ياخذه وينظر اليه وحاول قراته وقد كان سم! ولا احد في راسه يفعل هذا الان سوى بلايو وهو المتهم الاول والوحيد الان بسبب رصيده السيئ مع حكمت.

ولكن لم يجد وقت للتفسير وقد سقط الكوب وتكسر من يده عندما صرخت خديجه ونادت عليه مارلين باعلى صوتها وكذلك طارق.

وقفت العربة امام باب المشفى الصغير الفاخر الخاص بالساده والنبلاء وهبط منها حنا برعب وبسرعه ومن خلفه خديجه التى كانت لا تستطيع السيطرة على بكائها وقد شحب وجهها بشده وهي ترى حالة حكمت ولم تكن طبيعية على الإطلاق بداية من وجهها المزرق المتورم بشده ونهايةً بصعوبة تنفسها البالغه وقد هرول بها الاطباء الى أحد الغرف وقد منعوا حنا وخديجه من الدخول، لكن حنا استوقف الطبيب بعجله وسرعه قائلاً بقلق وهو يخرج تلك الزجاجة التى وجدها في القصر: انظر لقد وجدت تلك الزجاجة وربما تكون خطيبتى قد شربت منها ارجوك افعل اى شئ وانقذها ارجوك.

نظر ذلك الطبيب الى مكونات الزجاجة المدونه عليها وقد ربت على كتفه يطمئنه قائلاً بعمليه: فقط اهدء وهدء السيده ولا تقلق لقد انقذتها بالفعل.

ثم ركد ذلك الطبيب الى الغرفه التى بها حكمت واخذ الممرضين يدخلون ويخرجون ببعض العقاقير الطبيه والمستلزمات الطبيه وعلى الناحية الأخرى قد جلس كلاً من خديجه وحنا على تلك الكراسى الخشبية في رواق المشفى امام الغرفة وقد كانت خديجه تبكي بصمت لكن بقوة تدعوا الله في سرها بعودت ابنتها سالمه والى جانبها حنا الذى تمسك بالصليب المعلق في رقبته يدعوا ربه بان تعود سالمه وبصعوبة بالغه كان يسيطر على اعصابه وكلما مر الوقت يزداد توتره واحتمال ان تنفلت اعصابه في اية لحظه ولكن قمع ذلك التوتر وهو يرى خديجه تستند بمرفقيها على ركبتيها واضعه وجهها بين كفيها متكورة على نفسها تبكي بصمت وتحاول التماسك والدموع تغرق وجنتيها بقوه وبلا توقف مثل مياه الصنبور المعطل وكيف تتماسك وتلك ابنتها الوحيدة والكبرى قد فى اى لحظه ترحل عن عالمنا نهائيًا ويكفى ان حكمت غاضبه منها.

كيف فعلت هذا بابنتها حقًا وصدقت كلام الوشاه؟!!

وقف ثم اقترب منها وجثى على ركبتيه امامها ثم امسك كفيها بين كفيه الشاحبين كلون وجهه وقد نظرت اليه بعينيها التى تشبه كاسًا من الدم وقد تسللت اصابعه المرتعشه تمسح دموعها عن وجنتيها بهدوء ثم امسك بيدها قائلاً بهدوء ظاهرى وهو يبث اليها طاقه موجبه: امى اليزابيث، سناديكى امى فيكفى انكى المرأه التى انجبت جوليانا الى تلك الدنيا وربيتها وكبرت على يديكى حتى اعطيتنى قطعه من سماء الدنيا الصافية، صدقينى يا امى اليزابيث جوليانا ستكون بخير توكلى على يسوع وادعى وستكون بخير، جوليانا قوية وصغيرة وتنتظرها حياة وعمر طويل لا يمكن أن ترحّل بتلك السهولة، أقسم لكى انها ستعود الينا لاننا من نحتاجها ليست هي ولكن عدينى انكى ستتحدثين معها وتنهى هذا الخلاف.

بللت خديجه شفتيها قائله بصوت متحشرج من البكاء: لتلك الدرجه تحب جوليانا؟

ابتسم بفتور قائلاً بصدق يشع من عينيه نافذ كشعاع الشمس: لقد وهبتنى جوليانا الحياة وانا أموت ليست حياة عادية بل حياة هي فيها وتنيرها بوجودها، انا سافعل المستحيل لاجلها جوليانا قد حملتها وهي طفله على يدي ورعتنى وهي شابه جميله كيف لا احب جوليانا، يكفى اخلاصها للرب، وايمانها بان عملها مهنه سامية لا تحتاج للمغالاه في الاجر، يكفى ابتسامتها وحنانها الذى تغمر به الكل، يكفى موقفها مع فتاة الليل، يكفى انها تحبنى بكل ما بى من عيوب.

مسحت خديجه دمعه فرت من عينها اليسرى دون اليمنى قائله بارهاق وحزن على حالة هذا الشاب وابنتها : ولكن جوليانا عصبية وعصبيتها مدمرة قد تخرج منها كلمات قاسية وعندما تغضب لا تغفر.

رفع رأسه بلا مبالاه قائلاً: ليست اكثر منى، انا احب جوليانا ولا أرى عيوبها يا امى فالحبيب المخلص لا يرى فى حبيبه اى عيب لقد احببتى السيد اندرو وقد كان اعرج بسبب ذلك الحادث الذى أصاب قدمه وتحملتى غضبه ولم تشعرى باعاقته ابدًا لانكى تحبيه من قلبك لا من رؤية عينك فقط او تفكير عقلك فقط... ثم اختنق صوته بالبكاء وكبح دموعه التى تحجرت في عينه من النزول قائلاً بصوت متخشرج مثل الاطفال بتعلق وتيه: انا احب جوليانا يا امى اليزابيث، لكن حبى مؤذى لها منذ ان عرفتها ودائمًا ما ياتيها الالم بسببى، لو ضاعت جوليانا ساضيع ليس لى غيرها
....ثم توقف لبرها يتحكم في صوته ودموعه تهبط في سلام واستانف: منذ شهر خسرت اعز اخوتى واصدقائى وكنت أراه في كل مكان وكل خطوه وعندما تعبت لم اجد سوى جوليانا اتحدث معها وتخفف عن قلبى وقد كانت سكنى وسكونى لكن ان رحلت... ثم انفجر بالبكاء من دون سابق إنذار قائلاً من بين شهقاته : الى من... سوف... الجى... ليس لقلبى سواها... يا امى!

ثم خبئ وجهه البكاى بين احضانها وانخرط فى بكاء مرير وكانه شخص اخر غير ذلك الذى كان يبث اليها الاطمئنان والسكينه وقد انهار الجبل وتحطم صمود الصخر بين احضانها التى احتوته بهدوء والم لمشاعره الصادقه وكم الالم الذى سيتعرض لو عرف الحقيقه وبالتاكيد لن يقدر على ان يتحمل صدمة الالم والحقيقة التى لا بد من معرفتها سواء عاجلًا ام اجلًا ولكن عقلها الان مشلول يعطف على ذلك البأس المدعى للتماسك ومع حكمت التى بين يدى الله وحده القادر على انقاذها.

استمر هذا الوضع عدت دقائق حتى خرج الطبيب قائلاً ببشاشه: اطمئنوا تمامًا ابنتك بخير يا سيده وخطيبتك بخير فقط هي نائمه وتحتاج للملاحظه والرعاية حتى يخرج السم من جسدها تمامًا.

ثم أشار الى حنا بان يقترب منه وكانت قد دخلت خديجه الى غرفه حكمت حتى تطمئن عليها.

اخرج الطبيب زجاجة السم من جيبه قائلاً بعمليه وهو يشير اليها: هذا السم من المفترض ان يظهر تاثيره ببطئ ويقتل بهدوء وخلال ستة ساعات او سبعة لكن يبدوا انها قد شربت خمر اليوم ولم تشرب منذ مده فلم يتحمل جسدها وظهرت الاعراض وبالرغم من هذا هذا ليس جيد، فتاثير السم سئ وقد تعيش بإعاقه وستظهر مع الوقت وعلى المدى البعيد بالتدريج ولكن قد تكون في العينين او الحركه او الانجاب هذا ما يمكن ان نجزم به الان وعلى الارجح عينيها هي المتضرر الوحيد هنا.

نكس حنا رأسه بغضب والم وكل هذا بالتأكيد بسبب بلايو ولا احد غير بلايو ولكن كيف يوقفه عند حده ومحبوبتة الان ستتضرر لاخر عمرها.

نظر الى الطبيب ودموعه لم تجف قائلاً بحزن وكمد: ارجوك لا تخبر اى احد.

هز الطبيب رأسه بتفهم وربت على كتفه بهدوء يواسيه ثم رحل وقد دخل حنا الى غرفة حكمت غافلاً عن زوجى الاعين الداكنة البنية التى كانت تراقبه من بعيد!

صوت تكسير كراسى خشبية قديمه وصراخ وهدير غاضب يخرج من ضبعًا غاضب قد انتزع منه ذئبًا شجاع فريسته الضعيفة اليوم.

وقد كانت الالواح الخشبيه تتطاير يمينًا ويسارًا في الهواء حتى اصتدمت بجبين ذلك الفتى مساعد بلايو طويل القامة ضخم الجثه عظيم البنية عريض المنكبين الذى كان يتجسس على حنا في ذلك المشفى وقد اوصل له الاخبار السيئة والمؤلمة ان حنا قد انقظ جوليانا وقد تعافيت تمامًا ليجن جنونه ويشتد غضبه وقد شعر بانه سيصاب بجلطه دموية او نوبة قلبية وكاقل الخسائر البول السكرى من فرط الغيظ الذى غلب على الكره وكم كانت حكمت محظوظه لابعد حد وكانه خسر كل الحظ الجيد في حياته وقد كسبته جوليانا بلا حساب او اذنًا منه.

ولم يجد شئ يفرغ به غضبه وعصبيته وضيقة سوى مستودع المنزل والاشياء القديمة فيه ولم يعد هناك شئ سليم تحت وطئة يده.

انهي تهشيم اخر كرسي في الجدار بقوة وكل ساق منه علي حده ليصرخ باعلى صوته بغضب قائلاً: شُيئًا لا يُطاق لا يُطاق، يا يسوع ساعدنى، ماذا افعل لاتخلص من عدوة المسيح تلك، اه! اكاد أفقد عقلى!

نظر له مساعده فرانسيس قائلاً بهدوء واستحياء ويديه مضمومه على بعضها عند حزامه الجلدى: سيدى اعذرنى لقد تلوثت سمعتها ونجت واعطيتها سم ونجت وضربتها ولم يؤثر بها لماذا...

اقترب منه بلايو بعينيه حمراء البياض سوداء الزرقه وشرعه المشعشع ولحيته غير المنتظمه وقميصه الممزقه اول ثلاث أزرار منه جراء شده بعنف وضيق عينيه قائلاً بهدوء ما قبل العاصفه: لماذا ماذا؟ قل يا فرانسيس تكلم.

رفع فرانسيس نظره اليه قائلاً ببلاهه: لماذا لا تتركهم وشانهم والسيد حنا يكتشف خطأه وحده ويدرك قيمة افعالك لأجله؟
او...صمت لبرهه قبل ان يكمل بغباء لا محدودية فيه: لماذا لا تبلغ عنها محاكم التفتيش وهم سيجدون حلاً ان كنت تشك في كثلكاتها ونصرانيتها ولا تملك دليل هم سيجدون الدليل؟

انهى فرانسيس كلماته المعدودة الحمقاء لتهبط صفعه قوية على وجنته اليمنى من دون سابق إنذار من كف بلايو الغليظ وقد أدرك الان كيف كان شعور جوليانا التى صفعها هذا الكف من قبل.

ولم يستطع حتى ان يضع يده على وجنته بل جذبه بلايو من تلابيب قميصه بقوة وصرخ في وجهه بنفاذ صبر قائلاً: اقسم ان قتلك وحده ليس جزاء لغبائك هذا بل انى ساغتصب جثتك بعد قتلك يا أحمق ثم دفعه في صدره بقوة حتى تراجع عدت خطوات للوراء ليكم بلايو بحنق قائلاً: حركة الترقيات على الأبواب وبالتاكيد اسم حنا بها ان علم احدهم ان خطيبته مشكوك في امرها باي طريقه كانت حنا اول من سيتضرر، انت غبي!

نطق فرانسيس بدفاع عن نفسه بسرعه قائلاً ليتفادى كم السب والاهانه: انا كنت اقصد ان محاكم التفتيش كل فتره تقبض على مدعين الكثلكه سواء من بيوتهم او من علي الحدود يحاولون الهرب وبعد مده تضي النيران المشتعلة في جثثهم ليل سماء مدريد.

خلل بلايو أصابعه داخل شعره ويده في خصره وهو يستمع الى حديث فرانسيس بلا مبالاه وقد اعتقد انه سيتفوه باى غباء اخر لكن ما ان انتهى من حديثه حتى اشتعلت في رأسه شرارة شمعة اعطته فكره جبارة تلك المره لن يثق في نجاحها لكن سيحاول وليرمى ورقته الاخيره ولتربح او تخسر لم يبقى امامه سوى تلك الفكره الأخيره.

التقط بلايو سلاحه النارى للصغير من على الطاوله ووضعه في خصره قائلاً وهو يربت على صدر فرانسيس: صدقنى ان نجحت تلك الفكره براسى لك مكافأة كبيرة هيا اتبعنى.

أتتذكرون صانع السم القصير الذى يسكن في مختبر دكستر العبقري تحت الأرض؟!

اجل ذلك الأصلع مثله مثل الوطواط قد كان يعمل في الليل عندما تسكن الحركه وينتهى استقبال الوافدين المشترين في الصباح ويرتح قليلاً ثم يعاود العمل في الليل وزوجته المخلصة الوفية تسعى له على النباتات السامه والطبيه وبعض المواد الكيميائية العلاجية والسامه هذا هو.

قد كانت زوجته الشقراء ذات العينين الخضراء عادت لتوها الى مختبرهم الواسع وعش زوجيتهم تغطى وجهها بحجاب اسود من الشيفوان على وشاحها الأسود وبيدها سلة من القش متوسطة بها ما قد قيل وبعض البقالة وقد ازاحت تلك النباتات عن الباب فى الارض بعد ان دخلت هذا الكهف الصغير ونزلت الدرج المؤدى الى باب المختبر ولكن صرخت بقوة ورعب عندما نظرت الى جثة زوجها مفصولة الرأس وقد وضعت راسه على صدره والدماء تغرق الارضيه واثار العراك واضحه في ارجاء البيت وقد كانت هناك ورقة على رأسه اقتربت منها بايدى مرتعشه لتصرخ بخوف والم وهلع وهي تقرا ما قد كُتب "هذا جزاء من يصنع سموم غير نافعه، الأحدب ولكن لا يوجد شخص اسمه الأحدب تعازى الحارة مدام!"

ولكن ان كنتم تظنون ان بيت صانع السم وزوجته فيه كرب وبلاء ومصيبة فانت لا تعرفون على ماذا استيقظ اهل الحى فجر قتل صانع السم!

وقد استيقظ اهل الحى على صراخ عالى وعويل نساء واطفال بسبب اشتعال النار في بيت حكمت وقد وصلت النار الى حد السماء في ارتفاعها وقوتها قد التهمت جدران البيت والاشجار الورود على جانبه وصوت صراخ الغنم في الحظيرة بالحديقة الخلفية كان اكثر ما يسمع وكانت النيران تلتهمهم احياء بلا رحمة أو شفقة مثل نار جهنم عافاكم الله تلتهم الكافرين احياء!

وقد تكاتف اهل الحى اغلبهم_عادا كاترينا التى حاولت منع فيكتور من الخروج من البيت ولكنه لم يستمع لها وخرج بالقوة _ الذين خرجوا من بيوتهم بملابس النوم و النساء بشعورهم حره من دون حجاب يطفئون تلك النيران والسنة اللهب سواء بالماء أو بالرمال أو بالبطاطين ولكن لا فائده من ذلك فلقد التهمت النيران المنزل حقًا ولن تطفأ بسهوله.

وتخيلوا معى اعزائى القراء منظر اهل الحى الذين تشحمت وجوههم وتلوثت بهباب الحريق وملابسهم وكل شئ بات أسود سواء حديقة حكمت المزروعة بالاعشاب النادرة والطبية وجدران البيت البيضاء والورود والاغنام الميته والبطه الخاصه بطارق كل حيًا قد مات ولا حياة في هذا البيت بعد الان ولا مكان لخديجه وابنائها في هذه الحياة بعد الان.

ويا ليت ان البيت فقط قد احترق بل الحياه والذكريات والصداقه والشباب والطفوله والفرح والحزن كل شيء قد احترق ايضًا كل شيء!

وقد دخل بعض الرجال الى البيت بياس وقلوب ثقيلة محملة بالهم من موت تلك العائلة الطيبة وقد تذكّرت النساء كل اللحظات والذكريات معهم وشرعن في البكاء والنواح والالم حينما شرع الرجال في اخراج الجثث لكن مهلاً ما الذى يحدث بحق الله الواحد الأحد لا يوجد اى أثر لاى جثث اين اذًا خديجه وابنائها؟!! وهنا قد حط على رؤوس اهل الحى الطير وتحول الحزن الى خوف من ان تكون ارواح شريره غاضبة اصابت خديجه وابنائها بالسوء والبعض مندهش وبات الشك يساورة في امر هذا الحريق الذى ربما يكون مفتعل.

ولكن هناك في مكان اخر بعيد جدًا كان بلايو يقف عند احد التلال العاليه الكاشفه للمدينه بأكملها الى جانب خيله الأسود ويتخذ وضع ذلك الأحدب للتخفى وينظر الى ذلك الحريق المشتعل بسعاده بالغه وقد تحقق حلمه الان ونال ما صبر عليه وقد طال الصبر.

وقد ازادت سعادته وفرحته عندما التفت الى ذلك الفتى مساعده فرانسيس وهو بنفس هيئة الأحدب وقد انحنى ذلك الفتى ثم اعتدل قائلاً بادب وعينيه مُسلطه على النجيلة الخضراء: لقد تم الامر سيدى أبشر.

الفصل العشرون

"هل بامكانك أداء الصلوات وتملى علينا صلوات الزفاف انسة جوليانا" نطق بتلك الكلمات ضابط برتبة متوسطة القيمة بين رتب ضباط محاكم التفتيش وبالاخص نحن الان تحت اقبية محكمة مدريد وللاسف قد سقطت حكمت كفريسة بائسة وبمنتهى الزل والمهانة من دون ان تقاوم حتى واستسلمت الى اغلال الأسر وقيوض الرعب تسلب منها ما بقي من عمرها الى نهايته فالداخل هنا مفقود وعليه اليقين ان رؤية شعاع الشمس باتت اصعب من السفر الى المريخ.

حاولت حكمت التحلى بالهدوء والثبات الانفعالى بقدر ما هو مستطاع بالرغم الضغط والاضراب من حولها في تلك الغرفه الصغيره والاعين كلها عليها وحدها، وكيف لا وهى الان تسلية الليله!

بللت شفتيها المشققه الجافه قائله بهدوء وفى تواصل بصرى مع ضابط التحقيق: بالطبع سيدى.

أشار الى محراب الصلاه حيث يقبع صليب خشبى عليه جسد المسيح وبعض الشموع قائلاً: تفضلى ادى الصلاة امامى.

جرت قدميها ثقيلة الخطوات بفضل الرعب الذى تلبسها ثم جثت على ركبتيها أمام المحراب واغلقت عينيها ثم ضمت كفيها أسفل ذقنها واخذت تتلوا الصلوات بصوت مرتفع نسبيًا حتى يتثنى له سماعه وقد انتهت بالفعل ثم وقفت وتزامًا مع وقوفها قد دخل احد الجنود يرتدى وشاح طويل ابيض عليه صليب أحمر مثل قميصه ثم وضع صينية طعام وقد كان عليها كاس بيرة كبير وقطعت لحم كبيرة نسبيًا وخبز وقد كان اللحم لحم خنزير وقد كان الهدف من هذا الاختبار معرفة ما إذا كانت ستاكل من اللحم وتشرب البيرة ام لا وان لم تفعل فقد بات امرها واضحًا للعيان اما مسلمة او يهودية _ففى اليهوديّة لحم الخنزير محرم كما في الإسلام _وقد وفرت عليها عناء التعذيب والخداع ولكن هذا لن يحدث أبداً فسواء ان اعترفت ام لم تعترف فستحصل على حصتها من العذاب لا محال بينهم غير امر الله.

اشار الضابط الى الطاوله ثم وقف قائلاً بعمليه: تفضلى تناولى الغداء حتى ياتى البابا والضابط ونبدا التحقيق.

ثم خرج وخرج الجندي وقد باتت وحدها مع صينيه الطعام وذلك الضخم الملثم وكان يرتدى قميص وبنطال باللون الزيتى والبناطل اخمق في الدرجه وفي خصره سيفه ويغطى وجهه بشئ يشبه الجوال باللون الزيتى ايضًا ماعدا عينيه المثبته عليها بكثب وبلا توقف حتى يراقب اى فعل صادر منها ويحسب نقطه عليها.

سحب نفس عميق وجلست على الكرسي ثم بدأت في التناول على مضد تحاول إخفاء علامات التقزز على وجهها بجهاد كجهاد النفس وقد نظرت الى ذلك الملثم نظره اخيره قبل ان تنظر الى فتحه التنفس في الارض وتتذكر ما قد حدث قبل يوم وما قد اوقعها في اسوء كوابيسها الان.

والان سنعود يوم الى الوراء قد كانت تماثلت الى الشفاء تمامًا وما عاد هناك مشكله الا انها تشعر بالم يناوشها من فتره إلى اخرى في عينها اليسرى دون اليمنى الا ان حنا والطبيب احتالوا عليها فقط بانه اثر السم _وبالطبع لم يقدر حنا على القول بانه بلايو فقط احد يكيد بها وقد فكرت خديجه بانها عدوت الحى اللدوده كترينا وبينما ذهبت حكمت الا انه بلايو بلا مناذع _ وسيزول قريبًا ولكنه لم يزول بعد ولكن اكثر ما ادهشها هو تحسن العلاقه بين حنا وخديجه الى حد كبير مقلق ومُبشر بالخير ايضًا وكانها أمه وهو ابنها بحق ولكن طلاما في مصلحتهم فلا مشكله ولكن الجانب السيئ هو ان حنا عليه السفر خارج مدريد الى قرطجنة في مهمه خاصة بعمله وقد يستغرق اسبوع او أسبوعين على الاكثر ولكن السيئ هنا هو شعور بالانقباض والخوف الم بقلبها ومشاعرها بان شئ سيئ سوف يحدث لمن هي لا تعلم بالضبط وليس خوفًا فقط من مرحلة الخطوبة الرسمية التى تبدا بها تلك العلاقه المحرمة بل شئ سيئ اخر ينقبض اليه القلب عفاكم الله.

ووسط كل انشغالهم بايجاد طريقة للهرب من تلك الزيجة ومن حنا وقد كانت محاولاتها في التفكير هي ووالدتها واخيها تنتهى بصفر كبير على اليسار لا فائدة ولا حل وكيف سيهربون اصلاً وحنا صاحب شرطة مدريد باى وسيلة سياتى بهم، وفي النهايه شرعت في الصلاه بتهور وجنون داخل حجرتها ليس داخل السرداب بلا ادنى حذر وقد باتت بلا عقل يملى عليها الحذر.

واخذت في الدعاء والصلاه ومناجات الله بان يمن عليهم بالخلاص والنجاه وعدم الوقوع في الخطيئة المحرمة التى لا يقدر عقلها البسيط ولا قدراتها المحدودة حلها، وظلت على تلك الحالة تدعوا الله وتستغفر وتصلى على نبينا محمد صلاة يذول بها الهم وتنحل بها العقد.

وقد تحقق وعد الله للقائل ﷺ فى كتابه "ادعونى استجب لكم" والقائل فى معجزة خلاص ذو النون _عليه السلام _"لولا انه من المسبحين للبث فى بطن الحوت الى يوم يُبعثون " وقد شعرت بيدى طارق التى اخذت تهز كتفها حتى تستيقظ من غفوتها على سجادت الصلاة مُفترشه الارض ولم تجف دموعها بعد.

وقد كانت هناك زيارة من بلايو لهم والتى لم يتوقعوها ابدًا وان يخطوا المستشار بلايو من بلاط الملك هذا من العجب العُجاب!

اخفت سجادت الصلاة اسفل سريرها وعدلت حجابها ليُلائم ذلك المنتشر في اسبانيا واوروبا، ثم خرجت إليه وقد كان يجلس على احد كراسى الصالون مرتديًا افخر ثيابه وساعته الذهبيه المعلقه في جيب صغير بمعطفه بسلسلة ذهبية، وعكازه الخشبيى الانيق البنى وكانت رأسه على شكل صليب مطلى بالفضة.

وقف أصحاب البيت الثلاثة الى جوار بعضهم البعض متكاتفين امام المحتل الضيف غير المرحب به وكانت الانظار المندهشه من قبل خديجه وصغيرها اما حكمت فكامت انظارها مشتعله غاضبه تحرق انظار بلايو الباردة.

مدد بلايو عصاه على الكرسي المقابل ثم نظر الى حكمت ببرود قائلاً: انتِ في ورطة يا جوليانا وانا هناك اليكي بالخلاص.

ثم بلل شفتيه وتابع بنفس الوتيرة: زواجك من حنا لن يجلب سوى الخراب عليكما وغير هذا انا لن اقف اتفرج على زواج حنا من امرأه اشك في كثلكاتها ونصرانيتها لذلك عندى حل مُرضى للجميع.

لم تحيد انظار حكمت عنه ووقفت بنفس الحده والتحدى ثم عقدت ذراعيها امام صدريها قائلاً بتساؤل: ما حلك؟

وقف بلايو والتقط عصاه قائلاً: هناك مركب تجارة ستنطلق في التاسعه غدًا من الشرق اي مسير خمس ساعات تجهزى قبل الفجر وانا ساتولى امر غيابكم وتجهزوا الان ، ستذهبون الى المغرب اخر مكان يتوقعه حنا، اتفقنا؟

قبضت حكمت على يد خديجه قبل ان تتفوه باى شئ يضر بمصلحتهم ونظرت لها بمعنى اصمتى ثم تقدمت عدت خطوات لتقف امامه قائله بحزم: موافقه لكن اريد بيت وعمل نحن لن نذهب من دون ان نؤمن حياتنا.

وضع قبعته الطويله الاسطوانية السوداء قائلاً بلا مبالاه: رتبت كل شيء فحالتكم مثيرة للشفقه، على العموم عند وصولكم الى الساحل المغربى اسئلى الصيادين عن درياح خطابى وهم سيدلونك عليه وهو قد رتب كل شيء اتفقت معه عليه.

ثم رحل تُجاه الباب حتى يخرج تاركًا وراء ظهره زوجى من الاعين السوداء من الغضب والحقد خلفه تدعوا عليه بالوباء والبلاء والهم والغم لما فعله بحياتها وقد قلبها راسًا على عقب بمنتهى الوقاحه والبرود التام.

وقد هم بلايو بامسك مقبض الباب والخروج لكنه التفت قليلاً براسه الى جوليانا التى صاحت بغضب: انت من وضع لى السُم ذلك اليوم؟

ارتفعت زاوية شفتيه المغطاه بشاربة بسخريه وظهر لمعان نابه الابيض تزامنًا مع زرقة عينيه بسبب ضوء مصباح الجاز قائلاً بسخريه: ذكيه للغاية يا جوليانا، للغاية! وعلى العموم تجهزوا بعد ساعتين سياتى احدهم بخيل سيوصلكم الى نقطة تجمع مع المسافرين هى بلنسية وستتحركون وسطهم. ومنها الى طنجة.

ثم رحل وتركهم لتهرول خديجه تجاه حكمت وتجذبها من ذراعها قائله بجدية: حكمت ما الذى يتفوه به ذلك الرجل؟

رفعت حكمت كتفيها بلا مبالاه قائله: امي بلايو منذ ان جاء بحنا الى هنا وقد تشاجرت معه بسبب اتهمه لى بعدم كثلكتى وهو من صلت على الوشاه وامامك اعترف بانه وضع السم بلايو لا يريد ان اتزوج من حنا ويرمى لنا باخر كارت في جُعبته وعلينا تصديقه وليس امامنا غير هذا... صدقينى هذا ما كنا نريده ولا وقت للشرح في المركب ساخبرك بكل شيء هيا بنا.

صوت شخلله واحتكاك خمس عملات ذهبيه في كف متسخ مليئ باللتربه والقذاره اسفل اظافره التى لم تُقص منذ عام لاحد الرجال هو ما كان يسيطر على مخزن بيت كاترينا الى جانب صوت صرصور الليل كان القاطع لحديث كاترينا الواشيه مع ذلك المتجسس الذى استاجرته على الفور من جانب نصبة الخضروات التى يقتات عليها عندما رأت بلايو بهالاته وطلته التى تصرخ بالثراء يدخل بيت اليزابيث وكان الهدف هو التصنت على حديثهم ومعرفة ما يدور هناك وقد تشَتت وتشْتت تفكيرها عندما علمت صلة القرابة القوية بين بلايو وخطيب جوليانا المبجل ومنذ عدة اسابيع طلب تلويث سمعتها والان هي خطيبة أخيه.

شيء معقد وغير قابل للتصديق بالفعل ولذلك هذا الجاسوس هنا بعد ان تنصت عليهم واخبرها بموعد ركوب السفينه واللقاء والى اين سترسى براكبيها المتاعيس الذى هم غافلون عن تلك المكيده التى تُدبر لهم من خلف ظهورهم.

رحل ذلك القتى بعد ان أقسم انه لا يعرف امرأة تدعى كاترينا حتى لو صُلب لن يشي بها.

ثم تلحفت كاترينا بعبائتها السوداء ووشاحها الاسود وتسللت من البيت خلسَة بعد ان تاكدت من نوم هيكتور وقصدت في مشيتها العرجاء بسبب تقدم سنها محكمة التفتيش بمدريد لتشى بما وصل إليها منذ قليل.

بينما هناك في منتصف المدينة وعلى ضوء الشمس كان الاهالى مشغولين باطفاء الحريق الذى أفترس منذ جيرانهم كانت حكمت تركب فرسها الأبيض وامامها بقليل فرس عليه خديجه وطارق الذى لا يحسن ركوب الخيل والقليل القليل من المتاع وقد اجتازوا حدود كوتيكا واقتربوا من بلنسية في وسط فوج من قرابة المئة فرد وفي مثل حالهم هاربون ولكن لا احد يكلم الاخر خوفًا من وجود الوشاه بينهم وقد يكونوا ينصبون لهم كمين وفخ قبل الوصول والجميع يدعى في هذا الفوج بانهم تُجار لا اكثر ولا اقل.

وقد كان بينهم شيوخ راكبين ومترجلين واطفال ورضع ونساء وشباب وفتيان وفتيات يحملون ما يسد عطشهم فقط وجوعهم حتى بلوغ طنجه أملًا وطمعًا في الأمان الذي قد نسوا معناه في بلاد الخوف والرعب.

وليتها اجساد فقط التى تمشى على الأرض، بل أحلام مدفونة وطموحات ميتة وهوية مسلوبة عنوة وذكريات ضائعه.

انزلت حكمت قربة الماء من علي شفتيها بعد ان اكتفت بالقليل من الماء حتى تُبلل شفتيها المشققه فقط وربطتها مره اخرى وارجعتها في جُعبتها ولكن لتفتت الى الوراء وهي تسمع صوت صراخ رضيع يريد الاكل في احضان امه الى جانب أبيه الذى تولى امر حمل المتاع وبسبب الزحانم لا تقدرى على اطعام صغيرها.

فكرت حكمت قليلاً في أمر مساعدتها وقد حسمت امرها بأن تساعدها مُقتضيه في فعلتها بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم "صنائع المعروف تقى مصائب السوء".

ركلت بطن فرسها الذى أطلق صهيل منخفض وعادت الى الوراء واقفه امام تلك المرأه ثم ترجلت قائله بهدوء: دونكى الفرس اطعميه ثم انزلى واركب أنا.

نظرت المرأه الى زوجها بقلق وهو كذلك لكن ما باليد حيلة سوى القبول وبالفعل صعدت على الفرس وغطت جسدها واخذت تعطمه والى جانبها حكمت التى أمسكت بلجام الفرس تقوده على مهل وقد اشارت بيدها الى خديجه التى نظرت لها بقلق بمعنى اهدئى.

وقد انتهت المرأه بالفعل بعد مده ونظرت لها قائله بامتنان: شكرًا لكى اختى باركك الرب.

ابتسمت حكمت قائله: لا شكر على واجب المهم....!

قاطعها صوت صراخ واطلاق رصاص في الجو وقد التفتت اذ بجنود الكنيسه من خلفهم قد امسكوا ببعض الشباب في الخلف وامراتان ويقتربون منهم وقد هاجت الخيول وفلت لجام الفرس من يدها وقد هرب الخيل بالمره برعب وبالمثل خيل خديجه وطارق الذين صرخوا عليها بقوه وقد حاولت الركد واللحاق بهم لكن الجنود كانوا اسرع منها وقد أمسك بها احدهم الذى كان على خيله من خصلاتها واخر ما راته هو دموع خديجه وصراخ طارق باسمها قبل ان يختفوا عن الانظار خلف الغبار المنتشر في الجو وقد قيد ذلك الجندى يديها واعلى جسدها ولفه بالحبال ووضع حبل غليظ حول رقبتها واخذ بسحبها وقد استسلمت تمامًا لمستقبلها الاسود الذى ينتظرها لا محاله.

وهناك في الحى الجميع خارج بيته يجلس على عتبتة بيته في انتظار قدوم أحد اقراباء الجيران المفقودين لعلهم عندهم او حتي قدوم الشرطه ليعرفوا ما مصير هؤلاء المفقودين.

ولكن هناك كاترينا كانت تجلس على كرسى متهالك مثلها في منزلها تضع ساق فوق الأخرى وبيدها كاس من النبيذ الردئ تحتسيه على تمهل واستمتاع وهى تنتظر قدوم الجنود ومعهم جوليانا واليزابيث واخيلا بفارغ الصبر حتى تستمتع برؤيتهم بالاغلال وقد انتظرت ذلك اليوم بشده وهرمت من أجله.

قد تسالون لماذا كاترينا شريرة وقلبها أسود قد استحوز عليهم الشيطان ساقول لماذا السماء زرقاء والنبات أخضر والقمر مستدير؟!

الشر والكره مشاعر امهم الغيرة ولا مبرر للغيره سوى النقص وذلك ما يزين للمؤذى عمله بأن حيان يكره بيان لذلك على بيان ايذائه!

المهم قد قفزت كاترينا من علي كرسيها وخرجت بسرعة الى جوار ابنها عندما سمعت صياح اهل الحى وتهامسهم وصوت الخيول.

وقف بضعة جنود امام بيت حكمت وحكمت خلفهم على فرس مقيضه بالكامل ما عدا قدميها وبالرغم من هذا كانت ترفع رأسها بشموخ وعزه وعينيها بها إصرار وقوة لا يراها أحد الا في عينيى قائد المعركه الفائز.

ترجلت من علي الفرس بعد ان جذبها الجندى من الحبل الملفوف حول رقبتها ناحية المنزل.

وقفت امام المنزل المُتفحم وهى تنظر الى صلب عيني الجندى الذى نظر لها قائلاً بجدية وحزم: ما الذى حدث هنا؟

بمنتها الثبات والبرود اجابت: ضربه البرق فاحترق.

ما ان انهت كلامها حتى ثار حنق الجندى وصفعها بقوة اصمت المشاهدين ومن بينهم روزيتنيا التى خبئت وجه ابنتها بين احضانها حتى لا ترى هذا المنظر الصعب وبالمثل ماريز وابنتها وقد أمسكت بفيكتور الذى كاد ان يذعب اليها حتى يساعدها وهيكتور المنكس رأسه بخجل من خوفه ووقفوفه مكتوف الأيدي وكاترينا الشامتة.

اعتدلت حكمت من انحنائها وعاودت النظر له بثبات بينما الجنود البقيه دخلوا يفتشون البيت وبعد مده خرجوا بلا اى شئ او دليل ادانه لترتفع زاوية شفتيها بسخرية قائله: أ لم اخبرك؟ كل شيء قد دخل النار.

صفعها مره أخرى وتلك المره قد بسقت الدماء على الأرض لتصيح كاترينا قائله بشماتة: باركم الرب، على بلادنا ان تُنظف من الخونه واعداء الكنيسه والمسيح والعواهر.

احتدت انظار حكمت ومن دون سابق إنذار قد ركدت من مكانها بقوة تجاه كاترينا وهى تصرخ بغضب: تلك الخائنه ستكون لعنتك الابديه.

لكن توقفت بسبب ذلك الحبل الذى جذبها الجندى به لتزئره وتصرخ في وجه كاترينا التى تضحك بشماته وهى تخرج كم الكبت والكمد الذى يحبسه صدرها حتى لا تبكى امامهم.

ثم صعدت على الفرس بالاكراه وهى تصرخ في اهل الحى: اللعنه عليكم جبناء، انتم تعيدون التاريخ ومثلما باع الحواريون ويهوذا المسيح تبيعوننى، انتم مثل النعام ستظل رؤوسكم تحت الارض بمنتهى الذل والمهانه ولتحل لعنتى ولعنة كل مظلومًا عليكم، انا ساعود وسيعود حقى انا لم اسقط بل انتم جبناء ساقطون ليلعنكم ربى دائمًا!

عودة للحاضر.....

انهت حكمت ما وضع امامها من طعام بالكامل وانهت جلسة الذكريات تلك تزامنًا مع دخول ذلك الضابط ومن خلفه ثلاثة من امثال ذلك الملثم ولم يشفع لها تناول تلك الوجبه بشئ بل على العكس تقدم منه اثنين من هؤلاء المرعبين وقد نزع احدهم حجابها عنوة لينسدل سواد الليل هذا على كتفيها وحول وجهها وهي تقف بلا حراك وقيد يديها امامها ووضع ذلك الطوق الحديدى حول رقبتها وبالاسفل قُيدت قدميها وغُرزت في اصابع قدمها كلاليب حديدية مدببه جعلتها تصرخ بشده وهي تشعر بالم شديد وقد اخترقت اصابعها وسالت منها الدماء لكن صوت الصراخ هذا ومحاولت الاستناد على الطاوله تلك لم تعجب ثالثهم الذى لكمها بكفه الغليظ بقوة حتى تصمت وقد اهتزت مُقلتيها برعب وهى تُجر جرًا الى غرفة التحقيق والدماء تسيل من قدميها.

دخلت غرفة التحقيق وقد رأت ابشع منظر رأته في حياتها وهى تُقسم أن ذلك المنظر لن ينمحى من ذاكرتها حتى موتها.

رأت رجلًا قد جلس على الخازوق وقد كمم فمه وخرجت منه انات متألمه فما يزال حيًا والخازوق في منتصف بطنه، وامره معلقه من أصابع يديها التى تشققت من ثقل جسدها وطول مدة التعليق.

تجمعت الدموع في عينيها بخوف من ما هو قادم ورعب من ما ستنال من حصة الألم إلى ان ينقضى اجلها.

وقفت أمام طاولة مستطيله عليها الضابط المسؤول في المحكمة والبابا والكاتب ومن خلفها زبانية جهنم ممسكون بالسياط الرفيعة الناعمة.

بدأ الضابط التحقيق متسائلاً: إلى أين كنتِ ذاهبه؟

ضغطت على شفتيها بألم ثم اجبت بصوت مرتعش بعد ان وكذها ذلك الملثم بقوة في ظهرها بمقبض السوط: الى بلنسية ومنها الى انجلترا.

لم تتحمل الوقوف اكثر وتلك الكلابيب في اصابعها لتسقط على ركبتيها بألم وقد صرخت بقوة لينظر اليها البابا قائلاً بهدوء: قفى يا ابنتى عليكي الاعتراف بخطاياكى.

نظرت اليه بضعف والدموع تنسكب من عينيها: لا اقدر يا ابانا.

انهت جملتها وقد توالت عليها الصفعات على وجهها بالسياط من كل حدبًا وصوب حتى تشققت وجنتها اليسرى وهبطت ضربة قوية على عينها اليسرى لتمسك بها بألم وقد شق صوت صراخها الغرفه والاماكن حولها وقد بدأت الدماء تسيل منها كدليل على فقدانها بصرها في عينها كما تنبى الطبيب.

ولكن هل تعتقدون ان هذا شفع لها على العكس جرها الملثم من خصلات شعرها بقوة حتى وقفت على قدميها من جديد متجاهلًا بكائها وتوسلها وصراخها وبالمثل الضابط والبابا وقد تابع الضابط ببرود: ولكن زملائك الذين قبضنا عليهم قالوا انها كانت ذاهبه للمغرب.

تحدثت بصعوبة وخوف من تلقى اى ضربه او صفعه وقد اختلطت دموعها بدمائها وقد أدركت انها باتت عوراء قائله بشنهجه عاليه: أنا... تاج... تاجره وعشابه.. ابيع الاعشاب وكنت ذاهبه الى... انجلترا لبيع وصفاتى واعشابى.

نظر لها الضابط بسئم قائلاً: انتِ تكذبين وعقوبة الكذب هى النار.

ثم اشار برأسه بعد ان اخذ موافقة البابا الى الملثم خلفها قائلاً بلا رحمه او شفقه: الى المحرقه احرق شعرها حتى تعترف!

وهناك في الوطن الجديد قد رست المركب ورست على الساحل ورست معها الكثير من الاقدام للكثير من الافراد لتحكى وتخط الكثير من القصص والحكايات وكم مشتلق الى اهله سيراهم وكم مشتاق الى الحرية والامان سيحصل عليهم الان.

وقد كان طارق الان هو القائد ومن يتولى ذمام الأمور وقد كان هو وخديجه التى تقرحت وتشققت عينيها من كثرة البكاء على ابنتها منذ ليلة الامس وقد وصلوا الى ساحل طنجة عند شروق الشمس بعد ان رست السفينه التى تأخر وصولها بسبب تغير منطقة الالتقاء عند اليكانتة حتى لا يعثر عليهم الجنود وهم الان في طريقهم الى بيت درياح خطابى بعد ان سائل عنه قوى القلب رابط الجائش طارق احد الصيادين وقد وقفت العربة أمام بيته وقد كان بيتًا كبيرًا نوافذه عبارة عن مشرابيه مزخرفة بالاربسك والنقوش العربية وقد امسك ذلك الصياد مقبض الباب الكبير وطرق عليه بقوة حتى فتح له شاب في اواخر العشرينات من عمره قصير ونحيل القدمين والجسد وكثيف شعر الرأس وحليق اللحيه وبصدره صليب خشبى كبير وهذا ما ادهش طارق اذ ظن انه بوجوده في بلد عربى واسلامى لا وجود لغير المسلمين.

تحدث ذلك الصياد قائلاً: جرجس اخبر سيدى خطابى بوصول الضيوف.

ابتسم المدعو جرجس قائلاً: حسنًا أذهب انت وانا معهم.

وبالفعل قد ذهب ودخلت خديجه ومن خلفها طارق خلف جرجس وقد اجتازوا فناء المنازل الاسلاميه المنعطفه ثم الى ساحه كبيره بها زرع قليل ونافورة بيضاء ومن حولهم مبانى بيضاء متلاصقه على هيئة دائرة ثم الى ممر وانتهى بهم الأمر إلى مكتبه متوسطه مليئه بالكتب الاندلسيه وقد كان هذا هو حال جميع البيوت المغربية، وبها رجل اسمر البشره متوسط الطول حليق الراس ملتحى وقد شابت لحياته وبيده مسبحه طويله بنيه ويرتدى جلباب ونطاق وعبائه وقد التفت اليهم ليتقدم جرجس قائلاً بهدوء: شيخى هؤلاء الضيوف من الاندلس كما اتفقت معك.

ابتسم ذلك الرجل وقد كان درسه الاول في فكه العلوى مكسور ووضع الكتاب الذى بيده في رفه وتقدم اليهم قائلاً بود وترحيب: اهلاً بأهل الاندلس نجاكم الله من الكرب والهم ومرحبًا بكم في بيتى.

هز كلاً من طارق وخديجه رؤوسهم بالتحيه ليشر خطابى قائلاً بسرعه إلى جرجس: جرجس بنى خذهم الى ام الخير في بيتها لتعد لهم الغرفه واخبر ست الحسن بان تعد الغداء.

ابتسمت خديجه بوهن قائله: اشكرك على كرم اخلاقك نحن فقط متعبون ونريد الراحه لا تتعب احدًا.

هز خطابى رأسه بالنفى قائلاً بنفى قاطعه: لا يمكن سيده خديجه انتم من اعز بقاع الارض وضيوفنا غير هذا انا لا اتعب احد او اتكلف هؤلاء زوجاتى وقد انتظروكم منذ ان جاءنا الخبر.

ثم اشار الى طارق بود ومرح قائلاً: هيا يا طارق الى غرفتك مع امك هيا ولا شئ اسمع لا.

دائماً ما نقول انه لا شيء اسرع من الايام ولكن ليس على الجميع فاذا قلنا خديجه وطارق وان كانوا احرار فالحزن ياسرهم وحكمت كل شيء من حولها يضيق الخناق حول عنقها، واما حنا فقد عاد فرحنًا مسرورًا من ابلائه الحسن في عمله ولانه سيرى سُكرته مره اخرى.

وقد كان بين أمه مسودت الوجه وبلايوه البارد في العربة لرؤية جوليانا والمسكين لا يدري انه ذاهب إلى المقابر بعد ان زيف لها ولعائلتها قبور وقد تمنت مارلين ان تنشق الارض وتبتلع بلايو على قساوة قلبه وهذا الموقف المحرج الذى وضعها به.

وقفت العربة أمام المقابر الكاثوليكيه وحنا على رأسه الطير لا يفهم لما هو هنا؟

وقد هز بلايو رأسه وسحبه من ذراعه ومارلين من خلفه وقد وقف أمام المقابر المزيفة لينظر حنا الى الاسامي وتتسع حدقتيه بصدمه وهو يرى اسم جوليانا يتوسط صخرة القبر نظر الى امه قائلاً بغضب ورعب: امي ما هذا ما الذى يحدث؟!

نكست مارلين رأسها بخجل وقد تجمعت الدموع في مقلتيها المترهلتين ومسحت انفها بالمنديل قائله وعينيها تتفادى النظر الى عينيه: جوليانا واليزابيث واخيلا قد ماتوا قبل اسبوع في حريق منزلهم ولم نستطع انقاذهم.

لم يرحمه بلايو وتابع ببرود وهو حالة الشلل والصدمه التى تلبست حنا ليكمل: لقد جئت بامى لانك تصدقها عنى ولتاكد لك الحقيقة.

وقد أسرع الحارس للمقبرة قائلاً بتأكيد بعد ان قبض مبلغ حسن من بلايو: اجل اجل سيدى لقد وضعتهم في قبورهم بيدى تلك وشهد اهل الحى عزائهم.

واحد اثنان ثلاثه قد شعر حنا بان الجو بارد وكانه بليالى يناير الشتويه ونغزات على طول كتفه الأيسر ودوار كبير داهمه وعقله يرفض تصديق اى شئ من ما قيل وبالرغم من كم التاكيد الا ان عقله وقلبه يرفضون التصديق وما هى إلا ثوانى حتى سقط حنا مغشيًّا عليه من دون أى مقدمات!

كانت معلقه على ترس دوار منذ الامس بزاوية مائله قليلاً لا ترى شئ ليس بسبب عمى عينها اليسرى بل بسبب الظلام الحالك الا من نافذه صغيره فوق رأسها تشع ببعض الاشعة الضئيلة والباهتة من الضوء.

هي هنا منذ ثلاثة اسابيع هذا ما تفعله تعد الدقائق والساعات والايام حتى تبلغ اجلها الذى تدعوا به الله في سرها لتتخلص من هذا العذاب.

عذاب من كل جهه وجانب.

عذاب جسدى ويكفى دمائها المنسكبة على الأرض والالام لتى تشمل رأسها التى بدأت بالاتهاب واصابعها المتورمه بشدة.

وعذاب نفسى من رؤيتها لهذا المنظر البشع وهو ترى مراهق يصرخ ويموت بالبطئ امامها وقد وضع فوق بطنه قفص من الفئران وفوقعا خشب مشتعل لتخترق الفئران بطنه وهو حى الى الجهه الاخرى.

وصوت انبوب المياه الذى يقطر بجانب اذنها ويزاولها جعلها تلعن اليوم والساعة التى ولدت بها وعطفها على تلك المرأه التى كتب لها ان تهرب على خيلها وتقع هي فى الأسر الذى لا سبب له!

لماذا هي وامثالها هنا ولماذا تعانى هكذا؟

هل حظها العثر هو السبب؟

ام حبها لحنا وكره بلايو لها؟

ام دينها الذى هو حق مكفول لاى إنسان منذ ان نزل آدم عليه السلام على الأرض؟

ام هو بلاء وابتلاء ليطهر به الله روحها التى تشعر انها ستخرج منها قريبًا؟

كم اشتاقت الى امها واخيها وشجارهم، تدفع نصف عمرها وتعود وتقبل قدم امها واخيها وتعيش معهم في الضوء فقط ولو ساعة.

تتمنى النوم على فراش دافئ بدلًا من الارضيه الصلبه البارده والمتسخه المليئة بالصراصير والحشرات.

تتمنى ان تعود الى حديقتها واعشابها وزهورها العطره ووصفاتها الطبية وزحام العمل.

تتمنى ان تأتي بطارق من الكنيسه مره اخرى وتتشاجر معه على ترتيب المنزل وقسمة الحلويات والسكاكر بينهم.

تريد الاستحمام وقد باتت راحتها اقرب للجيفه مثل رائحة المكان حولها.

تريد ان تُبصر مره اخرى وتجلس امام المرأه وتمشط شعرها المحترق.

تريد ان تسمع كلمة سُكره من حنا مره اخرى.

تريد حنا وحنانه الان لينتشلها من تلك القسوة المحيطة بها.

تريد ان تصلى وتقرا القرآن وتصلى على المصطفى خير الأنام وتقرا في تفسير القرطبى وتاريخ الاندلس واعمال ابن فرناس وابن حزم.

تريد ان تصرخ ولكن ان صرخت او اصدرت اى صوت ستجلد.

بكت بصمت ولا شئ سوى البكاء!

لعلكم تتسائلون لماذا هى تعذيبها اهون من هؤلاء؟!

وببساطه هؤلاء قد خار عزمهم ولم تعد لهم قوى على التحمل واعترفوا بذنبهم والان ينفذ بهم حكم الإعدام على عكسها ما زالت تتحمل ولكن الى متى؟ الله وحده أعلم؟

فتح احد الملثمين المتشابهين الباب الحديدى الصدئ الخاص بالغرفه ودخل منه احد الضباط وقد أشار الى الملثم بانزالها وبالفعل نزلت وقد سقطت على ركبتيها بضعف ما ان احل قيودها.

انحنى ذلك الضابط وامسكها من تلابيب فستان الخيش الخشن الذى ترتدية بقوة ورفعها لتقف على قدميها المتورمه بالم لم يتجاوز ملامح وجهها.

تسللت يده إلى خصرها يضمها الى صدره العريض ويدها الأخرى الى منديل مبلل بالماء يمسح عن وجهها الدماء المتجلطه والاتربة حتى ظهر لون بشرتها الشاحب ثم القى المنديل باهمال وتسللت يده الثانيه الى وجنتها الشاحبه ومرر ابهامه عليها بنعومه تحت نظرتها المرعوبه وارتجاف جسدها وهى تشعر بانتهاك عذرية وحرمة جسدها بلمساته القذره وغير البريئة.

وقد نظرت الى وجهه الأبيض وشاربة البرتقالى وشعره البرتقالى وعينيه البندقيه غير البريئه على الإطلاق بهلع وتقذذ

ليهمس امام شفتيها البيضاء قائلاً بتلاعب: أ ليس من العيب ان تعانى امرأة جميله مثلك تسر الناظرين من كل هذا؟ مكانك في القصور وعلى ريش النعام يا جوليانا.

ثم مال على وجنتها يلثمها بخفه وقد شعرت بغصه مريرة في حنجرتها كالعلقم وارادت التقيئ من شعورها بالتقذذ الشديد لمساته اللعينه.

ثم تسلل ابهامه الى شفتها السفليه قائلاً بتلاعب على اعصابها حتى تنهار وتعترف: انتِ جميله جدا ومن الممكن ان تتحررى فقط ببضع كلمات صغيره واما ستكونين كهولاء الأموات حولك.

شهقت برعب وابعدت راسها الى الوراء وهى تراه يتحنى ليقبلها مره اخرى لكن كانت حماية الله وعونه انقذتها وقد التفت ذلك الضابط الى الباب الذى فُتح واصدر صوت صرير عالى وقد دخل منه جندى قائلاً بسرعه وهو يلهث: سيدى لقد جاء الضابط المسؤول الجديد ليحلف اليمين هيا الى قاعة الاحتفال البابا يسال عنك!

الفصل الواحد والعشرين

بسم الاب والابن والروح القدس، وبسم الملك والبابا والكنيسه والدوله نوكل الى حنا باخوميوس منصب الضابط الأعلى لمحكمة مدريد العليا ونامل ان يكون كُفَأ لتلك المهمة"

كانت تلك الكلمات خارجه من فيِ البابا المسئول ف محكمة التفتيش بمدريد بعد ان نصب واعلن لسائر العاملين في المحكمه وحضور بعض مستشارين الملك ومنهم بلايو بالطبع بان حنا صاحبنا بات رئيس محكمة التفتيش بمدريد في حركة الترقيات التى تُقام كل بضع سنوات ولو قلنا على المستوى المهنى فقد استحقها حنا بداره ولو ان بلايو قد توسط ليحصل حنا على هذا المنصب لكن لا تخبروا احدًا بذلك!

تحت انظار بلايو الفخوره والمنتصره وقف حنا الراكع على ركبته بذيه الابيض وعلى صدره ووشاحه صليب أحمر وعلى رأسه خوذة الحرب المعدنية ثم أمسك بالسيف من يد البابا قائلاً بطريقة عسكرية: بسم الاب والابن والروح القدس وبسم الصليب وكل فردًا في الدوله اتعهد انا حنا باخوميوس بان احافظ على سلامة وامن البلاد وتطهيرها من الخونه واعداء الكنيسه والمحتلين.

وهكذا قد تعهد حنا وابتدات الاحتفالات ونزلت اصناف الاطعمه والخمور على طاوله طويله جلس عليها كل من في المكان ماعدا الجنود الحراس للمكان وبلايو!

واهً من بلايو! فقد خرج من قاعة الاجتماعات بالمحكمة القائم بها الاحتفال الى احد المكاتب بعد ان أشار له فرانسيس بان عنده كلام مهم.

دخل فرانسيس ومن خلفه بلايو وقد همس فرانسيس في اذن بلايو بعض الكلمات قد جعلته يشطات غضبًا وقد سحب سيفه من غمده ووضعه على رقبة فرانسيس وجذبه من ياقة قميصه بيده الخاليه وصاح بغضب غطى عليه صوت الموسيقى والضحك في القاعة: أ تسمع يا ابن اللخناء ما الذى تنطق به؟ جوليانا من التى بالاسفل؟!!

انكمش فرانسيس على نفسه برعب على الرغم من هالته الضخمه قائلاً: اقسم بيسوع انى رايتها بالاسفل بام عينى وقد قبض عليها هي والبعض ليلة الهرب.

دفعه بلايو بغضب ساحق وحنق مثلما يدفع الدنس عن ثوبة الفاخر ووضع سيفه في غمده ثم أخذ في شد شعر راسه بقوه وهو يفكر وقد وقع في مشكله حقيقية الان ولا حل لها فلم يعد بامكانه تنحية حنا عن منصبه او اخراج حكمت من تحت اقبية الكنيسه ابدًا!

وكأن الدنيا بمن فيها قد تامرت عليه واتحدت على ان تهد كل ما بناه فوق رأسه بمنتهى السلاسه والهدوء.

التفت الى فرانسيس رافعًا سبابته في وجهه بتحذير قائلاً بفحيح وهمس مرعب: اياك ثم اياك ان يعرف حنا عليك ان تحول بينه وبين اى وسيله توصله بالحقيقة.

هز فرانسيس رأسه بالموافقه واخذ يعدل ملابسه وبالمثل بلايو الذى خرج ورسم على شفتيه ابتسامه وملامح سعيده وكانه لم يسمع ابشع خبر في حياته منذ قليل

دائمًا ما يوصينا اطباء القرن الحادى والعشرين باهمية السير على الاقدام لما يعانيه الجيل الحالى من كسل وبدانه وسوء في تنظيم دورتهم الدمويه واكبر دليل الوان بشرتهم السيئه بالاخص في عصر التكنولوجيا والكسل والاطعمه السريعه والمصنعة وسوء التغذية ولكن كاحدى أفراد هذا الجيل يمكنني القول بانه لا حياةً لمن تنادى.

لكن السائر الان حنا ضابط المحكمه الجديد الذى تولي منصبه الجديد وقد كان مثال سيئ في اللا مبالاه وعدم الانتظام والاهتمام بالعمل، فقد كان طوال الاسبوع البائت لا يذهب الى عمله ولم يذهب اليوم الا بعد الحاح قوى من والدته التى اشفقت على حالة التيه والضياع التى هو بها منذ خبر وفات حكمت الكاذب منذ شهر مضى، ولم يمكث طويلاً وقد عرج على الحانه اخذ حصته من الكونياك ثم أخذ في العودة سائرًا على قدميه إلى بيته بلا اهتمام.

لكن اوقفه في منتصف طريقه بجانب سور قصره وقوف وجه مئلوف له وقد اقبلت عليه صاحبت ذلك الوجه وعانقته بقوة بفستانها الوردى ومشده الأسود وقد كان مدهوشًا من ان تلك روزيتنيا التى ابلغته حكمت بتوبتها.

حاول ان يبعدها عن صدره لكنها تمسكت به بقوة قائله بهمس: عانقنى السيد بلايو يراقبنا من خلف نافذة مكتبه رايته وانا اقف هنا منذ الصباح ولدى كلام هام بخصوص جوليانا.

اتسعت حدقتيه على فورها ما ان نطقت باسم جوليانا وقد عانقها كما قالت لتكمل من دون اضاعة وقت: جوليانا لم تمت لقد امسك بها جنود الكنيسة.

" روزيتنيا انتِ متاكده من ما تقولين؟!! " صاح بتلك الكلمات حنا الذى انتفض من احضانها وابعد رأسه لينظر اليه مدهوشًا وقد تفوهت الان ببعض الكلمات قد احيت الامل في قلبه ولكن كيف وقد رأى مقبرتها بام عينيه وقد شهد الجميع في الحى على موتها بلا استثناء والان تاتى هي وتعيد قلب موازين اللعبه والقصه ببعض الكلمات اثقل في الوقوع على قلبه قبل أذنه من ثقل مدفع البازلين الذى هدم به محمد الفاتح اسوار القسطنطينيه!

شدت روزيتنيا على عناقه ودست اناملها النحيله بين خصلات شعره الطويله لتجذب رأسه الى احضانها بقوه قائله بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد: سيد حنا اعقل افعالك، احتاج للحديث معك واعين السيد بلايو لن تتركنا وشاننا هناك الكثير لتعرفه انت لا تعرف شئ عن ما يحدث من خلف ظهرك دعنا نذهب الى اى مكان بعيد عن الأعين.

ابتعد عن احضانها بهدوء ونظر في عينيه التى وسبق له ان راى فيها الانكسار والعهر والعوز والحاجه وقد استغل كل هذا في نزوه فانيه ولذه منقضيه يرى فيها الان الصدق والقوة التى تدفعه ان يصدق ما تقول ويتمسك بها وهي الان تعطيه امل جديد في حياته التى ظن انها انطوت بموت معشوقته وفنائها وفناء احلامه معها الى الابد.

أحاط كتفيها واتجه الى الحارس يغبره عن حاجته الى العربة وقد امتثل إلى امره وفي ثوانى معدوده تحت وطئة انظار بلايو المندهشه من أفعال اخيه وعودتة لتلك المرأه مره أخرى قد جاءت العربه وركب حنا والى جواره روزيتنيا وانطلقت الى بيت الاستراحه الخاص بالضيوف والاجازات في اقاصى المدينه بعيدًا كل البعد عن اعين بلايو وبلايو.

"انا أخاف من الظلام وعندما أنام اشعل مصباح بجانبى لذلك يهرب اخيلا وأمى من النوم في غرفتي"

اتتذكرون اعزائى اللطفاء تلك الليلة التى ولاول مره تفتح فيها حكمت ابواب قلبها الصدئه من طول مدة الإغلاق لصالح حنا يوم التفتيش.

والأن صغيرتنا التى تعانى من رهاب الظلام تقع تحت نوع اخر من التعذيب النفسي وهو مكوثها في تلك الغرفة المظلمة طوال الليل والنهار.

تشعر بان تلك الأشباح التى كانت تُرعبها ليلاً أثناء طفولتها عادت لكن أكثر رعبًا وبشاعة من ذى قبل.

كانت تتشكل على هيئة وسائل التعذيب تارة وتارة على هيئة بلايو بانياب كبيرة ملطخة بالدماء وتارة على هيئة كاترينا وعينيها الغائرة سوداء مثل قلبها المُتعفن.

تتمنى فقط ولو بصيص ضوء صغير.

قد تظنون انها غير منطقية ففتاة في عمرها تخاف الظلام أمر غير منطقى.

ولكن منذ متى كان الرُهاب أمر منطقى؟!

فأنا أعرف رجال ونساء لديهم رهاب من بعض الثقوب المتلاصقة يسمى رهاب النخاريب!

ولكن ليس موضوعى الان فأنا أرى ان حنا المهمل الذى لا يعرف ان حبيبته اسفل الأرض لا يراعى عمله وقد أصدر أمره بمضاعفة العذاب ضعفين وقد خرجت من زنزانتها مع ذلك الملثم الذى حفظت رسمة عينيه عن ظهر قلب وقد كانوا يتخذون هذا الزى مخافة الانتقام في حالة خروج احد المساجين حى من محكمة التفتيش.

لا تدرى كيف جلست على الكرسى وقد اكتشفت لتوها انها فى الصباح من ضوء الشمس الخافت الداخل من فتحت التنفس.

مُدت اصابعها عنوةً داخل ألة كسارت الأصابع التى عبارة عن تروس مثل تروس الدراجات لكن متقاربة بشده بها عشرة فتحات للاصابع تدخل بها وتدار الأله بمقبض يتحرك في حركة يدوية دائرية وما ان بدأت بالتحرك على اصابعها حتى صرخت وهي تسمع صوت طقطة عظام اول أصبع من يدها لتصيح بعلو صوتها وهي تلهث بإضراب من فرط الألم: انا... انا اعترف... كنت ذاهبه للمغرب.

رفع ذلك الضابط البرتقالى الأبيض طرف شاربة كدلاله على الابتسام قائلاً ببرود: وماذا كنتِ ستفعلين هناك؟

ارتجفت شفتيها بألم قائله بشنهجه: انا... هاربة... هناك شاب يلاحقنى واردت الهرب منه.

هبطت صفعه قويه على وجنتها ولكن لا طاقة للصراخ فمن ماذا وماذا ستصرخ؟!

أشر الضابط للملثم بالتوقف قائلاً: يكفى ما سمعت اعدها للزنزانه حتى ياتى المسؤول ويسمع اعترافها، هيا.

وقف طارق امام المرأه وهو يتأمل هيئته برضا وسعادة وقد اخذ يلتف حول نفسه ويتطلع إلى ثوبه العربى والمختلط بالثقافة والزخارف الامازيغية باعجاب وانبهار وقد اختلفت هيئته تمامًا عن هيئته بالزى الاسبانى.

ومن نظر إليه الآن لظن أنه عربى بن عربى _او امازيغى _من هيئته تلك.

ابتسم واقترب من خطابى قائلاً بود وصدق: سيدى خطابى اشكرك على هذا الزى وعلى ما تفعله معى انا وأمى.

ضحك المدعو خطابى وربت على كتفه قائلاً بحنان: يكفى أنك بطل من ابطال الأندلس وقدوكم إلى بيتى زادنى شرفًا.

رفع طارق اصبع الإبهام في وجه خطابى بمعنى جيد قائلاً: انت تتحدث الاسبانية بمهارة.

ثم أخذ يدفعه برفق من كتفه إلى الخارج وهو يسير إلى جانبه قائلاً: انا اتحدث خمس لغات عربيه واسبانية وانجليزية وفرنسيه وتركية، والان هيا جرجس حضر العربة سنذهب الى مراكب الصيد الخاصة بى.

توقف طارق ومعه خطابى لينظر له طارق قائلاً باستحاء: عمي خطابى نحن مسلمون والمسيحيون مختلفون عنا وفي اوروبا يقتلونهم لماذا جرجس مساعدك ويعمل معك.

ضم خطابى شفتيه لثوانى ثم زفر أنفاسه بهدوء قائلاً بعقلانيه: أنظر لى يا بنى ربنا في كتابنا القرآن يقول "طعام أهل الكتاب حلًا لكم" ويقول "وقفينا بعيسى بن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة»،ويقول" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن"،" ويقول ايضًا من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" و ايضًا "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون".

ديننا يا بنى دين محبة ورحبة الهنا هو اله أهل الكتاب، ومثل ما يوجد مسيحيون اشرار يوجد كذلك مسلمون اشرار، الدنيا خير وشر وفي كلا الجانبين يوجد الاف الأديان والاعراق، فقط نحن أخوه في الإنسانية وقد كان خادم النبى يهودى وزوجته مسيحية مصرية واسلمت.

ابتسم طارق وهز رأسه بعد ان اقتنع قائلاً: اعرف اختى حكمت اخبرتنى ثم تثاقلت عينيه الزرقاء بالحزن وتابع بقلق: أنا اخشى على اختى الموت قد امسكها الجنود منذ شهر ونحن لا نعرف عنها شئ ومن يدخل محاكم التفتيش لا يخرج إلا جثة، هل ستموت؟

داعب خطابى شعره بحنان قائلاً: انظر يا طارق كل ما قيل صحيح لكن هناك حالات كانت ياسه على وشك الموت وقد استطاعت بفضل بحارة مسلمون الهرب مثل سلطان الجزائر بابا عروج، حراس الله كُثر وليس بيدنا فتح الأندلس مره اخرى ولا بيدنا انقاذها ولكن بيدنا اعظم من كل هذا الدعاء فقط ادعى لها.

ثم أخذ يمسح دموعه قبل الخروج قائلاً بود ومرح: حسبك يا طارق ماذا ستفعل عندما تعود من رحلة الصيد بلا اى سمكة هل ستبكى هكذا، تماسك يا رجل ما تزال نيئًا.

مسح طارق عينيه بطرف كم قميصه ثم تسائل وهو يركب العربة إلى جوار خطابى: هل صحيح نرى اسبانيا من طنجة.

"يمكنك ذلك من الميدان الرئيسى ولكن نحن الان في حى الحسنى وسنذهب إلى السوق وفي نهاية اليوم ساخذك معى الميدان الرئيسى"

أخذ حنا روزيتنيا إلى الحانة التى اعتاد التردد عليها منذ أيام صباه مع ادواردو وديغو وإلى أبعد طاولة فى المكان وبعيدة عن الأعين والاذان جلس الأثنان.

وقد نظر لها حنا باهتمام لتباشر بالحديث من دون الغاز مفصحه عن حقيقة من المقرف اخفائها.

قضمت شفتيها قائله: منذ شهر جاء السيد بلايو إلى بيت جوليانا وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس اشتعلت النيران فجاة في بيتها ولم نجد جثث لياتى بعدها السيد بلايو بمدة قصيرة نصف ساعه علي الارجح ويرشى الجميع بالذهب حتى لا يتحدث احد بأن جوليانا وعائلتها جثثهم غير موجوده وهم احياء.

تنفست قليلاً لتُكمل: بعدها في الصباح وجدنا جنود محكمة التفتيش قد احضروها للحى مقيده يفتشون البيت ولكن رحلوا ما ان وجدوا أنه لا يوجد شيء وهى معهم.

طحن حنا أسنانه بغضب وقبض على زند روزيتنيا قائلاً بغضب بصوت منخفض: لماذا لم تخبرينى من قبل هل تعرفين ما الذى تعانية الآن وهل هي حية او ميتة؟
رفعت ابهامها وسبابتها المضمومتين قائله برجاء وتبرير: صدقنى سيدى انا لم اكن أعرف طريقك وحاولت الذهاب إلى مقر الشرطه ولم استطع مقابلتك وخفت ان اذهب للبيت ويفعل بى السيد بلايو شئ او بابنتى لكن عذاب الضمير لا يجعلنى انام، جوليانا لا تستحق منى جُبنى هذا لكن عدنى أنك سوف تحمى ابنتى من أى شخص انا لن اعيش والسيد بلايو لن يتركنى وشانى.

ترك زندها وخال أصابعه الغليظه في داخل شعره بعصبية وتوتر واخذ يهز قدمه بتوتر وهي يتأكد الان من كذبة بلايو التى وان صدقها فقلبه كذبها ألف مره كل يوم.

زفر أنفاسه بغيظ ووقف وهو يضع ملاً على الطاوله قائلاً: روزيتنيا اشكرك وصدقينى انتى وابنتك امانة عندي خذى المال واركبى إلى ببتك وانا اليوم قبل غروب الشمس سوف امر عليكي.

ثم رحل وركب العربه قاصدًا المحكمة وهي من خلفه قد تنفست بهدوء وكان رئيتها قد سُدت والان فُتحت وباتت تتنفس هواء نقى وطبيعى وقد ازاحت عن صدرها حمل الصخور واستقلت عربة بعد ان ركلت احد السُكارة الذى حاول التحرش بها متجهه إلى منزلها متغافله عن ذلك الذى سلطه بلايو لمرتقبتها!

هواء الخريف البارد كان يدغدغ وجنتيها ويداعب سواد الليل الكامن في شعرها المموج الطويل.

وقد كانت جالسه فى إحدى الحدائق اسفل شجرة تفاح بدأت اوراقها بالتساقط واحده تلو الاخرى وبفستانها الابيض الطويل الفضفاض اخذت تتامل جمال الأزهار والنباتات من حولها وتطلق على كل نبته وزهره اسمها وفائدتها وقد كانت هناك ارجوحه مكونه من لوح خشبى كبير ومعلقه في جزع شجرة الزيتون العتيقة بتلك المنطقة بحبال كتان غليظة.

ابتسمت بسعاده وفرح وهرولت اليها وهى تُمسك بالفستان حتى انكشفت قدميها العارية التى تتلمس برودة النجيلة بحرية.

ثم جلست على الأرجوحة وبدات بدفع نفسها بنفسها بهدوء مغمضة بحرى القهوة أسفل ستائر جفنيها باستمتاع وهدوء ولا شئ حولها سوى الهدوء واصوات الطيور الشجيه وصوت الكروان وقد رددت خلفه بيقين وايمان "الملك لك لك يا صاحب الملك".

ولكن قاطع صفو مزاجها يد دافئه ربتت على كتفها والتفتت الى صاحب اليد بسعاده وقفزت من علي الارجوحة حتى تعانقة بقوة وهو كذلك قائله تلك الفتاة: أبى اشتقت لك كثيرا لما رحلت وتركتنى وحدى؟

ابتعد ذلك الرجل وكور وجهها قائلاً بحنان: ابنتي حكمت الجميلة اشتقت اليكى كثيراً يا صغيرة ابيكى، لقد جات الاطمئنان عليكى، وابشرك بأنه قريبًا ستعود الحياة الى طبيعتها وستعودين ملكه كما كنتى.

قوست شفتيها ولمعت عينيها بالدموع قائله بتوسل: أبى ارجوك خذنى معك ولا تتركنى هنا انا خائفة، لم اعد اتحمل كل هذا الألم وحدى، خذنى معك إلى ربى الناس هنا سيئة للغاية.

ربت على وجنتها اليمني قائلاً بحنان وايمان تام بما يقوله: صدقينى كل شيء سيتحسن والالم سينتهى وستعود حياتك، لا يمكنك المجيئ معى الان العمر امامك ستنجبين أطفال وستتزوجين وسينتقم ربى من من ظلمك لا محاله فقط كلما ياستى تذكرى ان سيدنا بلال بن رباح كم غذبه اميه بن خلف الكافر وفي النهاية بلال بات سيدًا في الدنيا والاخرة، وكلما زاد العذاب عليكي بدعاء يونس عليه السلام.

اغمضت عينيه بياس من ذهابها معه لتفتح عينيها وتشهق بقوة وقد عادت إلى غرفتها المظلمه النتنه واستيقظت من هذا الحلم الوردى على دلو الماء الذى سُكب عليها وقد انتفضت من مكانها ووقفت بسرعه وعدلت الوشاح الخيشى على رأسها وقد جذبها الجنود بقوه من ذرعيها بعد ان قُيدت يديها وقدميها وغممت عينيها الى حيث لا تعلم ولا تملك الجرأة لتسال او تريد حتى ان تعرف!

منذ ان رحلت حكمت عن الحى ولن اقول انه بلا حياة او طعم أو روح طيبة فالبعض لم يفرق معه الأمر تمامًا والبعض لم يهتم والبعض خجول من موقفه السلبى والبعض حزين والبعض يبحث عن حل والبعض قد تضرر لان لا يوجد عشاب او عشابة في مثل مهارتها وبات عليهم الذهاب للحلاق لتلقى العلاج بمبلغ طائل من بعد الخدمه التى كانت تقدمها حكمت.

ومن هؤلاء المتضررين شخص لن يخطر على بال فرس النهر وكلب البحر.

وقد كانت كاترينا التى منذ عدت أيام وبسبب اصابتها بالدمامل خرجت تركب حمارها إلى غابه معزوله في جنوب المدينة تبحث عن الفطر الأسود واوراق البلوط وقد كانت حكمت توفرهم للجميع وباقل تكلفه.

وبالرغم من معانات البحث والالم الذى يفتك بظهرها المصاب بالدمامل إلا انها حصلت على ماتريد لتبتسم بنصر وتضع اغراضها في حقيبتها ولكن ما ان اقتربت من حمارها حتى ارتفع صوت الضباع ودب بالحمار الرعب ثم فر واسقطها ارضًا على ظهرها وقد صرخت بألم وهى تحاول الوقوف مره اخرى ولكن فشلت بسبب جرح أصاب كاحلها وقد جذبت رائحته دمائها النجسه الضباع الجائعة وقد اقتربت منها وما زادهم صراخها او محاولت هربها البائسة إلا اصرارًا على تلك الوجبه الليلة.

وقد زئر الضبع وظهرت أنيابه المملوئه بلعابه النتن وقفز فوقها عاضدًا بطنها وقد تجمعت حولها الضباع تاكلها وهى حيه.

وظلت تتعذب ببطى وهى ترى الحياة تلوح بالوداع في الأفق وتسود شيئًا فشيئًا وكلما خرجت انفاسها الأخيره رأت وجوه الذين ظلمتهم واحد تلو الاخر نهايةً بحكمت ولتنتهى انفاسها وينقضى اجلها في تلك الدنيا الفانية وصعدت روحها إلى بارئها وقد انقضى اجلها محمله بذنب كل من ظلمته وبكل خطاياها ولم تُكرم حتى بالدفن!

" سلمت يداكى اختى خديجة؛ بحياتي كلها لم أرى تطريز بهذه الدقة والروعة وكان يداكى يدى ملك! "

كانت تلك مُجاملة أم الخير زوجة السيد درياح خطابى الأولى التى قد استضافت خديجة وطارق في غرفة بمبناها الخاص وقد الفت بخديجة وانست بها وقد اشفقت عليها وعلى ابنتها وكم هي بريئة وما تتعرض إليه الآن من ظلم وتعذيب جزاءًا لنُبلها مع غيرها.

وقد ذكرتها بابنها الأكبر الذى قد مات وهو ينقذ طفل قد سقط في بئر وما ان أخرجه حتى انهار البئر عليه بسبب تهالكه وتكسر جدرانه أثناء الإنقاذ.

ابتسمت خديجه بوهن قائله بلا حياة: هذا من ذوقك يا أم الخير، فقط هذا عملى وعلى اتقانه ووضع كل حبى به.

ربتت ست الحسن على يد خديجة _وقد كانت الزوجه الثانيه للسيد درياح خطابى وقد كانت علاقتها بام الخير أفضل من الأخوه ولكن اشفاقًا على وحدت أم الخير بسبب موت ولدها وهجرت الإثنين الآخرين مع زوجاتهم تركت خديجة وطارق لها ليؤنسوا وحدتها ولكن العجيب في الامر انهم بنات خالة فام ست الحسن تكون الأخت الصغرى لام ام الخير _قائله بود: خديجة امرأة ماهره بحق.

ثم وقفت تشير الى فستانها الذهبى قائله بفخر: انظرى هذا الفستان من صنع يديها.

ابتسمت خديجه بفتور ولم تعقب وعادت إلى حالة الشرود تلك مرة اخرى وقد ضمت ست الحسن شفتيها بخجل وهي ترى دموع خديجة الوشيكة على السقوط لتجلس ام الخير جانبها وتحتضن كتفيها وتضم رأسها الى صدرها وقد انفجرت خديجة في بكاء مكتوم منذ شهر بخجل ليخرج أخيرا حاملًا معه كل علامات الألم.

تحدثت بصعوبة من بين شهقاتها: انها ابنتى الصغيرة... صغيرتى لا اعرف عنها شئ... هل هي حية او ميتة... صغيرتى تتعذب ببطى وانا لا استطيع انقاذها... انا ام سيئة... لقد كانت غاضبة منى لانى اخطات بحقها... كان على الاعتذار... لكن... لكن سرقوا منى أغلى ما في حياتي...

ربتت ست الحسن على كتفها بحنان وقد أثرت الصمت بسبب تلعثمها وعدم قدرتها على الحديث في تلك المواقف وقد اكتفت بالتربيت الصادق لعلها تصدق في مشاعرها تجاهها.

زفرت أم الخير قائله بحزن: نحن لا نملك لها سوى الدعاء توسلى إلى الله وناجية بشده وقوة وتوقفى عن اى معصية قد تضر بدعائك فقط ارفعى يديكى إلى السماء وقولى يا الله، هو الوحيد القادر على انقاذها، انا اشعر بكى يا اختى واتكلم من تجربه، عندما فقد ولدى كان ياتى في الحلم حتى مده وانقطع ظللت ادعوا الله واخرج صدقات لروحه واقرا القرآن حتى عاد لزيارتى، ان شاء الله ابنتك ستعود اليكى، كيف الله وحده يعلم وان ربى منتقم جبار سياتى لها بحقها عاجلاً ام أجلاً.

و الان ! ما ان خرج جنود الكنيسه حتى تركوها مُكبله الايدى و الارجل و مغمضت العينين برباط اسود فى حضرت الدوق حنا ، و الذى كان يجلس على كرسيه الفخم المنجد بريش النعام و مغطى بالقطيفه و مطليه مساند بماء الذهب و من خلفه تلك الشموع العطره ذات الرائحه النفاذه و ضوء القمر الفضى الخافت الذى تسلل على استحياء من خلف ستائر النافذه الزجاجيه العاليه . و اى وقت افضل من هذا الوقت من الليل الدامس حتى يتسنى لهذا العاشق الذائب فى شلالاً عنيفًا من العشق لكى يرى هيامه فى الحياه .

و لكن حال هذا العاشق ليس بخير اطلاقًا . و كيف يكون هذا ؟ و هو يرى من قتلته بابتسامتها الخجولة سابقاً الان تقف امامه و قد خسرت نصف وزنها ، خسرت لون بشرتها البرونزي اللامع و اكتسبت اخر اسود مذربي من الأتربة و الكدمات ، خسرت وجنتها الجميله المتورده دائمًا و اكتسبت اخرى مشوهها سوداء و كدمات زادت من تورم وجهها ، خسرت بهاءها فى تلك الثياب المهترئه ، خسرت روحها و ضحكها و املها و حلمها تحت اقبية المعبد هذا .

وضع يده على وجنته فى دهشه و هو يشعر بمرور هذا الشئ الساخن على وجنته و الذى ادهشه انها دمعة فرت من عينيه !! حقاً لا زال الزمان ياتينا بكل غريب !! الدوق حنا الذى مر زمانه و هو غارق بين الابرياء يحاكمهم و يصدر الاوامر و النهى و الامر بالقتل و العقاب و النزال سوء العذاب هو و زبانيه جهنم من جنود المحكمه على الابرياء ، يبكى فقط لمجرد ان من سلبت نومه و عقله امامه بتلك الحاله المذريه و هو السبب و امثاله من ملوك العذاب و الالم .

لا يعلم كيف نزل من على كرسيه و وقف امامه و ساقته قدماه اليها و قد تقبض قلبه و هو يرى ارتجاف جسدها من تلك العباءة الخفيفة من الخيش و هذا الشال الصلب على راسها و الذى انزلق الى الوراء بعض الشيء ليبرز راسها الأصلع المشوه نتيجة حرق

شعرها و تلوث جراحها و تلك الرائحة الكريهة المنبعثة منها بسبب الدماء المتجلطة فى جسدها و لكن مهما حدث ستظل الازكى ريحًا و الاجمَل خلقة و خُلُقًا .

اما تلك المسكينه كانت فكانت اقل ما يُقال عنها انها مرعوبه بل ان الرعب لا يصف فيها شئً . و عقلها يصور لها ابشع الاحداث و الوان العذاب التى ستحل بها من دون سبب و بالفعل ليست مستعده لاى الم فيكفى حصت الالم التى حصلت عليها فى صباح اليوم من كسارت الاصابع و لا تزال تشعر بان تروس الاله تضغط على عظام اصابعها الان . و لكن الغريب تلك الرائحه العطره التى تشمها و الهواء النقى و اخيرًا بعد طول غياب و قد ظنت انها فقدت حاسة الشم بسبب رائحة تفسخ الجثث و الرطوبه التى اعتادت عليها منذ شهر مضى كالقرن .

التف من خلفها و حل اصفاد يديها و قدميها ثم همس فى ازنها اليسرى بهدوء جعلها تنتفض خوفًا قائلاً فى هدوء : لا تفتحى عينيكى حتى امرك جوليانا .اتفقنا ؟

هزت راسها بنعم سريعه و مرتعبه و بالفعل احتضنت يديها الى صدرها منتظره الامر حتى تكلم صاحب الصوت الفخم قائلاً : افتحى عينيكى !

الفصل الثاني والعشرين

فتحت عينيها ولكن ياليتها لم تفعل وهي الان تزيد من حسرتة وندمة الاف الحسرات وهو يرى عينها اليسرى التى انقلبت بكاملها الى البياض واختفى منها قدح القهوى تلذى سلب لُبه وقلبه وشغل عالم احلامه وكم تغازل به وغنى له وقد خسرته مثلما خسرت كل شئ حولها

يريد ان يصرخ! يحطم! يدمر! يقتل!

كل من ساهم ولو بالمشاهدة والصمت على ما وقع علي رأس حبيبته.

والان فقط يا حنا انت تشعر وتتالم مثل البشر وشعرت بفجاعة وبشاعة ما تفعله بالابرياء مثل حكمت؟! ولانها غالية عليك فقط ما اشفقت عليها.

كانت نزعة الغرور وداء العظمة المسيطر على المكان بدات تكبر في قلبة وقساوته زينة له الجلوس على عرشه الفاخر لتفتح عينيها وتراه لكن رؤيته لعينها وحالتها السيئة تلك كانت بمثابة الصفعة على وجه النائم الغارق في بحر عسل من النوم.

ركد! نعم ركد إليها وقد استسلمت هي اخيرًا إلى عناقة ويديه التى قد طوقت خصرها بتملك شديد وراحه وقد وجد السلام الغائب عن عالمه اخيرًا.

اما هي فقد تعلقت بعنقه بقوة مثل الغريق الذى قد تعلق بقشه بايمان ويأس حتى ينجُ من الكرب والبلاء، ولا تفعل شئ سوى البكاء والانتحاب بقوة وكان روحها سترحل إن لم تفعل!

وقد كان الامر كذلك، وكيف تبكى وقد قُتلت امرأة ليلة امس بسبب اصابتها بالربو وارتفاع صوت سعالها؟!

حاول النظر إلى وجهها لكنها شدت على عناقه قائله بتيه وخوف: لماذا تركتنى ورحلت... الغرفة مظلمة وانا أخاف الظلام... اريد العودة لامى واخى... لا تتركنى يا حنا انا احتاجك... لا تتركنى مرة اخرى... قلبى يؤلمونى... رائحة الموت حولى لا تتركنى... اريد ان استحم وامشط شعرى.... اه! لقد حرقوا شعرى يا حنا... لم يعد لشعرى وجود... لقد فقدت عينى... اصبحت مشوهه بشعه.

ابتعد قليلاً وكور وجهها بين كفيه وابهامه يمسح دموعها تلك باصابع مرتعشه من قوة اللحظه قائلاً بحنان وصدق: لا بل مازلتى جميلة، هم المشوهون والبشعون، لكن لا يوجد من هى أجمل منكى، شعرك سيعود، وستخرجين من هنا هذا وعد حبيب حر، فقط اخبرينى ماذا حدث؟

مسحت انفها فى طرف ثوبها الخشن واردفت بصوت مبحوح من البكاء: بلايو عرض على ترك اوروبا وان ابتعد عن طريقك وانه سيستمر فى اذيتى واذية عائلتى، ورتب لنا في مركب ذاهبه للمغرب.

ثم توقفت للحظه وهي تلتقط انفاسها ثم تابعت تحت اهتمامه وغضبه الجلى من بلايو: عند رجل يدعى درياح خطابي وفي الطريق تعرض لنا الجنود امى واخى هربوا وانا لم استطع الهرب.

قبل جبهتها واعادها لاحضانه قائلاً بحنان: حدث ما حدث اهدئى انا ساجد حل لاخراجك من هنا فقط توقفى عن البكاء وان سائلك احد قولى كنت استجوبك.

ثم رفع وجهها وقبل جبهتها قائلاً: اريد المكوث معك لكن سالفت الأنظار عودى وفي المساء سوف اجد حلاً.

تمسكت في قميصه الحريرى قائله بذعر من ذكر القبو: ارجوك لا تتركنى اموت هنا، لن يكون لى قبر ولن ادفن.

رفع كفها الى شفتيه يقبله بنعومه ويداعب وجنتها: اموت ولا اضرك ابدًا الأمر ساعات وسنكون سويًا في الخارج، وحقك سيعود قريبًا يا سُكره.

وقفت عربة حنا عند بيت روزيتنيا البعيد قليلاً عن بيت جوليانا وقد نزل ديغو _الذى جاء مع حنا المجنون على مضدد ليثبت له ان روزيتنيا تلك كاذبة وقد كان يشعر ان حنا اغبى اغبياء الأرض ولم يصدقه ولو لدقيقة وكيف اذ حضر عزاء جوليانا بنفسه؟!!_وحنا على جنب ولكن نظروا الى بعضهم بدهشة عندما كان هناك تجمع كبير من الجيران والمارة في الشوارع حتى الباعة المتجولين ومن يحمل قفص دجاج وطيور فوق رأسه قد توقف امام بيت روزيتنيا.

وقد كان هناك صوت بكاء اطفل وصراخ مُنبعث من البيت يُنذر بالشؤم والمُصيبة التى يبدوا انها وقعت لا محاله.

استغل ديغو وحنا ملابسهم الشرطية الرسمية حتى يفرقان الزحام من أمام المنزل وبالفعل قد نجحا في ذلك وترفق الناس خوفًا من تلك الرُتب الكبيرة التى دخلت الحى ولكن لم يتوقعوا قدوم الشرطة بتلك السرعة إلى حيهم الفقير المتواضع.

قد كانت الصاعقة على رأس ديغو أكبر واعظم من صاعقة حنا الذى كان يشك في الأمر وبات الآن شكه حقيقة.

كانت روزيتنيا معلقه في السقف بحبل غليظ مشنوقة مفارقة للحياة وعينيها تنظر إلى اليسار وقد كان اسفلها كرسى مرمى ارضًا ولكن بالرغم من ترتيب المنزل إلا ان خفيها كانا مبعثرين في المنزل وشعرها مشعشع بفعل أصابع يدين وهناك احمرار على معصمها وتمزق في فستان البيت.

وقد لفت نظر ديغو ورقه في جيب فستانها ليرتفع على أصابع قدمه ممسكًا بالورقه وقد كانت رسالة انتحار وقبل ان يمررها لحنا همس له: روزيتنيا لا تجيد الكتابه أو القرأه تلك جريمة قتل، أبدأ التحقيق يا ديغو رجاءًا.

بالفعل أخلى ديغو البيت وطلب المدد من مركز الشرطة وبدا التحقيق.

وقد كان هناك حنا مع ابنة روزيتنيا المدعوة انطونيت ذات الست سنوات التى عرفته وقد ركدت عليه ما ان عادت من درس الكنيسه وعانقته وهي لا تعرف اى شئ عن ما يحدث بالمنزل ولا ان والدتها فارقت الحياه فقط قد نبهت عليها انه ان رأت ذلك الرجل صاحب العينين الزرقاء والشعر الطويل تذهب معه الى حيث يامرها.

ابتعدت عن عناقة قائله بعينيها المتسعه التى تُشبه عينى امها تمامًا: انت العم حنا، امي اخبرتنى انك ستاخذنى معك.

ملس على شعرها النحاسى الطويل بحنان زرعته به حكمت ليردف بهدوء: سنذهب إلى مكان جميل به امرأة جميله الان وستكون هناك ألعاب وحدائق وورود.

نظرت اليه بعينى القطه قائله بتساؤل: أ لن ناخذ امى معنا؟

غصب على شفتيه ابتسامه قائلاً: امك لانها امرأه صالحه وتحب ابنتها وتفعل الخير اصبحت ملاك كبير بجناحين وفيستان أبيض في السماء، واخبرتنى ان انطونت ستكون ملاك لكن بعد ان تكبر وتهرم.

ثم وقف ومد يده إليها وقد القت نظره اخيرة على بيتها ولوحت إليه لطفوليه واضعه اصبع السبابه في شفتيها قائله: وداعًا ماما ساصبح ملاك والحق بكى.

لمعت عيني حنا الذى كره شخصيته الطرية التى اكتسبها مؤخرًا ومسحها بسرعه ثم أمسك بيدها الصغيره بعد ان ابتسمت له بصدق وامان.

واثناء مروره الى العربه تسائل: هل تعرفين أين هيكتور لقد طرقت على بابه ولم اجده؟

هزت رأسها واهتزت جدلتها الطويله لتنظر بعينيها الخضراء الواسعه قائله: بلا، لقد التحق بالدير واصبح راهبًا بعد ان ماتت خالة كاترينا.

سنه وضعت اصبعها على شفتيها قائله بصوت منخفض: لقد جاء رجل وقال ان جوليانا ماتت لكن جائت بعده ومعها رجال ضربوها عند بيتها المحترق.

حملها من اسفل ذراعيها وادخلها العربه قائلاً بهدوء ظاهرى وقد تشنجت اطرافه بغضب: اسمعى انطونت عندما نذهب للبيت اخبرينى بكل شئ ولكن يجب ان ظل الأمر سرًا بينى وبينك فقط.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانيه بعد منتصف الليل وصوت صرصور الليل وضحك السُكارة وبكاء العاشق مكسور القلب الذى جاء الى الحانة طلابًا للشراب من أجل النسيان كان هو المُهيمن على الجو العام في الحانة حول حنا.

ولكن حنا كان في عالم اخر وإلى الآن انهى ثلاث زجاجات خمر ولا يزال عقله يعمل ويفكر وهو ينظر الى جحر الفئران الصغير التى كل مده تخرج من الجحر تسرق الطعام وتعود وقد كان يفكر في ما حدث اليوم ورؤيته لجثة روزيتنيا ونظرها المصوب الى شئ ما بعينه وبالتاكيد قاتلها بات يوسع افق تفكيره ويشعره بمدى حماقته في تقديره للامور.

تذكر حُلم الاشباح قبل قرابة العشرة أشهر في بيت جوليانا وشك بلايو الذى صرح به بدل المرة ألف، ثم رفض والدتها للخطوبة في البداية، ثم الهرب للمغرب ومدارات الأمر، والأن مقتل روزيتنيا المدبر، وقبل ان تتسمم جوليانا تحدثت عن صندوق في السرداب الأيمن وقد رفضت ان تخبره عنه اي شئ!

كل هذا جعله يدرك كم هو أحمق وأن مرآت الحب عمياء بحق، وكان لا بد من البدايه ان يشك بامرها ولكنه كان مسحورًا مأخوذنًا بعشقه لها والأن فقط قد بدأ يرتب افكارة ويجمع الخيوط والامور ليست عادية أبدًا بل هناك شئ مُريب وغريب مجهول يجب ان يعرفه.

كرع أخر كأس على مرة واحده ثم ترك النقود في طبق مخصص للحساب وخرج راكبًا خيلة الأسود قاصدًا بيت جوليانا وليبحث تحت الأرض وفي كل مكان ليفهم ما يحدث من وراء ظهره.

ربط خيله بلجامه الجلدى في احد الأشجار ثم سار على قديمه وتسلل إلى البيت المُتفحم والمُتهالك حتى دخل بين الهباب وجيفة الغنم والستائر والكراسى المحترقه وبالرغم بالحزن على موت ذكرياته هنا إلا أنه دفن قلبه وايقظ عقله ليكتشف الحقيقه الان.

دخل إلى المخزن المحترق وضرب باب السرداب الأيمن بقبضت يده وقد تحول إلى غبار لم يحتاج لوقت حتى يفتحه فقد تهالك بالفعل.

اخرج الكبريت من جيبه واضاء مصباح كيروسين معلق في الحائط وقد نجح ونزل الي السرداب ليكتشف عالم اخر وكان مكتبة بغداد سُرقت وها هي الآن تحت بيت جوليانا!

كانت كتب كثيره بلا اسم او عنوان واوراق ولكن باللغه العربية والاسوء هو نسخه من القرآن الكريم بالعربية والاسبانية.

وقد أحمر وجهه حتى أذنه بغضب وزادت حرارته وقد بدأت شكوك بلايو تصدق وتنقشع تلك الغشاوه عن عينيه وقد اخذ يفتش بعصبيه في السرداب وبين الرفوف حتى وجد الصندوق الذى حدثته عنه وقد وضع المصباح على احد الرفوف وفتح الصندوق ليجد به الورود والرسائل التى كتبها لها ولجد ورقه كبيره مختلفه وقد اخذ يقراها لتشتعل عينيه بغضب ساحق وقد كان يتم التلاعب به كالدميه الحمقاء من فحواها الذى كان "اذا وصلتك تلك الرسالة يا حنا فاعلم انى ميته حتى ولو كنت حيه فانا ساموت، انا مسلمة اندلسيه اسمى حكمت خالد محمد، قد عرفتك وانا طفله شملتنى بحنانك وكنت أفضل اصدقائى، وعندما كبرنا تغيرنا وباتت الصداقه البريئه تتحول إلى حب عذرى لكن مليئ بالكذب، انا احببتك ولم يكن بيدى شئ، كنت اموت الف مره وأنا ارى فى عينيك الصدق ومشاعر الحب وانا أكذب عليك، العالم كله ضدى لكن لا يمكنني ان اغضب ربى."

صرخ بقوه وهو يركل صندوق الورود بطول قدمه الى عرض الحائط وقد أطلق الفاظ نابيه بزيئة تعبر عن مكنون الغضب من الحقيقه واللعبة القذرة التى كان بها.

ليخرج صاعدًا على السلالم قاصدًا الكنيسه ليحرق الاخضر واليابس ويدمر دن دمرة قلبه قبل حياته.

صوت صرير عالى دليل على فتح باب زنزانة المسكينة الصدئ وقد كانت متكورة حول نفسها في زاوية الغرفة واقل مكان يصل إليه الماء الذى يسكبوه عن قصد حتى تظل وقفه طوال الوقت.

رفعت رأسها الموضوع بألم وارهاق بين ذراعيها على ركبتيها ونظرت بنصف عين إلى الدخول وقد توحشت غربتهم لاكثر من اسبوع لم يقترب منها احد وقد ظنت انهم نسوى امرها وتركوها وموتها البطئ مع نفسها مثلها مثل الآلاف هنا من مات منسيًا في زنزانته، ومن مات منسيًا في العذراء الحديدية بسبب السكاكين التى مزقته اربًا، ومن مات على كرسي الاعتراف المليئ بمئات المسامير، وم مات بحبس الغائط بسبب حزام العفة وغيره، وقد ظنت انها مثلهم ولكن خاب ظنها وهو ترى حنا بزية العسكرى الفاخر ونظرة غاضبة وحاقده تملئ قلبه قبل عينيه والى جانبه البابا وبعض الملثمين وقد تقدمهم اجهرهم صوتًا وقد فتح لفافة ورقيه واخذ قرات فحوها وكان "بسم المسيح وبسم الكنيسه وبعد مراجعة الأدلة والتدقيق في التحقيق ومباركة البابا للطائفة الكاثوليكيه قررنا نحن الضابط الأعلى لمحكمة مدريد حنا باخوميوس معاقبة المدعوة جوليانا اندرو اغسطس بالإعدام حرقًا حتى الموت لاستحالة كثلكتها وذلك في ميدان مدريد الرئيسى بعد غد بحضور جلالة الملك المعظم ولفيف من مستشاريه."

وقع الخبر على قلبها وقوع الموت على عاصى غافل _عافكم الله _مؤلم الأمر وصعب للغاية أ ليس كذلك؟

ولكن تلك الحقيقة المرة التى كرهت حكمت تصديقها وسماعها وقد تاملت فيه هو الخير وقد وعدها بالأمان والأن يخلف بوعده ويهد ما بناه بينهم عبر سنوات في لحظة اقل من ثلاث دقائق.

والأن فهمت ما معنى كلمة خزلان وشعرت بألم الخزلان ولكنه أمر بشع وسيئ ان ياتيك الخزلان من أقرب!

خرج الجميع اما هو قد وقف ينظر اليها بقسوة وحقد عارم وهى لا تقل قسوة وحده عن انظاره وبلرغم من جلوسها ارضًا اسفل قدميه إلا انها تحمل شموخ وعزة العالم كله.

بصقت جانبها على الأرض قائله بكره: كاذب نجس ترك الفرنسيين يمرحون في البلاد وتجرا على النساء والاطفال.
طحن أسنانه بغضب وقد هبط إلى مستواها قابضًا على فكها بقوة ورفعها من فكها قائلاً بتقزز: النجس هو انتي يا ك. افرة، ستحترقين في الدنيا وفي الآخره.. يا حكمت الكاذبة.

قاومته برأسها بغضب وقوة واردفت "الكا. فر هو انت وامثالك أنا سادخل الجنه لانى أمن بالمسيح وامه، أنا لم أظلم أحد ولم اقتل احدًا، كيف ستدخل الجنه انت بما تفعل؟! "

ظل قابضًا على فكها بقوة جسدت كم الغضب والالم الذى بداخله ليهمس بعد ان أسند جبهته على جبهتها: اكره قلبى الذى لا يزال ينبض اليكي، لقد ذبحتنى وقتلتينى وانا حى، يا ليتك رفضى حبى ولا تفعلى بى هذا.

ضربته في صدره بيديها الضعيفة قائله ببكاء مرير: لقد دمرتم حياتي... اه... ما ذنبى أنى مسلمة... هذا حقى المسروق... اكرهك واكره حبى ليك... لماذا ظهرت في حياتى... أنا كنت مرتاحة البال خربت حياتى ودمرت عائلتى... قتلت روحى بالبطئ.. لا استحق كل الألم هذا... كان امامى عمرى وبنيت احلامى وانت دمرت كل شيء... كل شيء ضاع.

سقطت دمعه من عينيه على وجنتها لتختلط بدموع عينيها الساخنه وقد اكتفى إلى هنا من تلك الكذبة الكبيره التى عاش بها ليهمس مرة اخيره قبل ان يرحل: لا يمكنني نسيان حبك ولا التفكير بكى او الوقوع في حبك كلما رايتك، لكن يمكننى كرهك وهذا جزاء ما اقترفته يداكى.

"يا رب موسى وعيسى ومحمد، يا منقذ يونس من بطن الحوت، يا من جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، يا من نجيت نوح من الطوفان، وشفيت ايوب من الضر، واتيت داوود الحكمة، ورفعت يوسف مكانًا عليًا، ونجيت لوط واهلة من القرية الفاسق أهلها، وسخرت الحمامة والعنكبوت لانقاذ محمد والصديق، سخر لابنتى اذن الخير، اجعل طريقها سهلاً لا عثرة فيه ولا سقوط، نجها من القوم الظالمين كما نجيت امرأت فرعون من فرعون وعمله، احفظها بحفظ، سخر لها جنودك، احميها كما حميت مريم عليها السلام وعيسى من الكرب العظيم، يارب آذن لها بالخير والعمر المديد، احمها واربت على قلبى وقلبها، أنا أم اربت على قلبى يا الله"

كان هذا دعاء خديجة على المُصلية الخضراء في غرفتها المُطله على النافورة في وسط المنزل، وقد راودتها كوابيس بشعه ايقظتها من نومها ودفعتها للدعاء والصلاه لأجل ابنتها.

واهً من هذا الدعاء! سحر عجيب لا أدرى لما لا يستغله البعض اليأس والمحبط مثلى ومثاكم في تغير قدرة والالحاح على الله في طاب العون والمدد إلى جانب العمل؟

ولكنى أدركت أنه رزق من عند الله لا يؤتيه الله إلا لاصالحة قلوبهم واعمالهم حتى ولو بفعل صغير، فكم من قصص الخطائين الذى دعوا الله وقد انقلبت حياتهم رأسًا على عقب وتبدل الخطأ بالعمل الصالح.

والاهم هو صلاح ونقاء القلب النادر في اخر الزمان.

في ميدان مدريد الرئيسى وفي منتصف حلقه كبيرة من تجمهر الناس والسكان وحول حلقه أصغر من مجلس الملك الذى توسط دائرة من مستشاريه والبابا الكاثوليكى الأكبر في البلاد ورئيس محكمة التفتيش حنا والبابا المسؤول بها وبعض الجنود والملثمين.

وبالمناسبة بلايو هنا لكنه لا يعرف من هى المحروقة!

وفي حلقه أصغر من الصُغرى كانت هناك طاولة عليها من الطعام كل ما تشتهيه الأنفس من لذات وانواع فاخره ونادرة عليها القليل القليل من المساجين في محكمة التفتيش قد خرجوا مع تلك المسكينه المحكوم عليها بالموت حرقًا اليوم، ولم يكن الخروج بغرض الفسحه أو التهوية بل للعبث والضغط النفسى عليهم ليروا جزائهم القادم لا محال في حالة إخفاء دينهم الاصلى واعتناقهم دين غير الكثلكه ولم يكن الطعام وحث الجنود لهم على تناول الطعام إلا للظهور بصورة لطيفة طيبة للعامه وبالطبع لم يجرا الأسرى على لمس الطعام.

اما المسكينة فكانت ترتدى جلبابًا مُغطى من أوله لاخره بالشحم والكيروسين وكذلك وجهها الذى اكتسب اللون الاسود الذى وقد اختفت ملامحها تمامًا وكانها بثرة سوداء في وجه أبيض!

ولكن كانت روحها التى تحمل كل تعابير الألم والعذاب متهالكه لا تقدر على حمل قدميها وقد رُبطت بالكامل بعمود خشبيى واسفلها خشب وقش فوق منصه خشبيه استعدادًا للرحيل للدار الآخرة وقد فقدت الأمل القليل تمامًا ونظرت الى السماء نظرة اخيرة تتامل الطيور والسحاب وتلعن كل من وضعه هنا الآن.

واما حنا، اتتذكرون عندما تاملته حكمت ووصفته بغليظ الملامح والصلب كان وجهه أسود بالإضافة إلى غلاظة ملامحه وليس السمار خلقة الله بل السواد الذى في قلبه قد ظهر على وجهه وقد نظر الى تلك الكاذبة بتشفى وفخر من ما اقدم عليه.

وقف رجل ضخم الجثه ملثم بالاسود بالكامل ويحمل فأس أكبر من فأس تورجوت الغازى وبيده الأخرى شُعلة نار وبدا بصوت جهورى يعلن بيان موتها "بسم المسيح وبسم الصليب قد تجل عدل الرب في الأرض وحكمت المحكمة بعد مباركة الملك والبابا باحراق تلك المرأه بعد استحالة كثلكتها واتباعها الشيطان وعدم دفن رمادها"

ومع اخر كلمه اغمضت عينيها لتفر منها دمعه تائه لا تدرى على ماذا تهبط والموت الذى تمنته ودعت به ياتيها الان، ولكن تلك الدمعه كانت دمعة ألم الخزلان من الجميع وهي ترى في اعينهم نظرة الشماته والحقد والكرة وبحياتها لم تتمنى الشر لاحد وترى الآن اعز الناس على قلبها يسبها ورفاقها من بين الحشود يلقون عليها الحجارة والقذف البشع، والأن وحدها بجسدها الصغير وقلبها المكسور تحمل خطايا وذنوب العالم كله.

وقد ألقى الملثم الشعله ومعها على صراخها والنار تلتهم جسدها بوحشية وافتراس بشع ومؤلم لكن ليس كالم قلبها الذى ينبض للمرة الاخيرة.

وهناك حنا قد وقف بشموخ واخذ يصيح بقوة وقد سحب سيفه من غمده"المجد للملك.. المجد للملك "

ومن خلفه الجميع يردد المجد للملك.. المجد للملك.

" لا أدرى يا بنى، لكنى أشعر أن الطعام بلا طعم! "

كانت تلك الجُملة ترددت على مسامع حنا كثيراً منذ وفاة والده.

وقد كانت تتكرر من أمه المُتيمة عشقًا بأبيه ولن تكذب إذا قالت أنه لا مذاق للسعادة والبهجه من دونه، وكأن العالم من دون نصفها الأخر مثل شئ جميل لكنه لم يكتمل بعد فغاب جماله وغبرت عنه الأيام وبات نسيًا منسيًا.

ولكن تلك المرة كان قاسى القلب عديم الرحمة حنا هو المُتحسس والشاعر بهذا الأمر.

اقنع نفسه بأنه فعل الصواب ومن عرف بذلك فقد هو فعل الصواب.

فأرواح المسلمين الوحشية تلك لا تستحق الشفقة أو الرحمة حتى.

وإن أشفق عليهم لبسوا جلد النمر له ولبلاده وكل من فيها، فافضل أمر هو العصى لمن عصا!

ولكن سؤالى موجه هنا لقلبك لا لعقلك يا حنا، هل حقًا حكمت كانت وحشه ولا تستحق الشفقة أو الرحمة منك أبدًا؟!

وكيف سولت لك نفسك الاستمتاع والفخر بقتل روح طاهره منحتك الحياة بينما لم تكن تقوى على هش الذبابة من فوق راسك؟

أنت لست سوى قلب أسود متعفن ملئة الحقد واعماه الغضب الذى لا مبرر له سوى تعفن روحك في قصص وهمية وكره متوارث.

وقد كان على طاولة الطعام إلى جانب أمه وبلايو وعائلته، ولكن أمه هي الوحيدة التى تشعر بتغيره التام الذى يزداد كل يوم عن ذى قبل ويتجه للاسوء كلما مر الزمن، ولو فقط يعطها الفرصه ويفتح قلبه لها لاستطاعت مداوات بعض جراحه فالبعض الاخر جوليانا فقط من تقدر على مداويته.

ترك حنا الملعقه المعدنيه وقد شعر ان طبق الخضراوات واللحم والمشروب مثل الماء لا مذاق لهم أبدًا.

مسح شفتيه ويديه في منديل الطعام ثم وقف قائلاً ببرود وهدوء غير مدرك لحجم القنبله التى يرميها الان على الطاوله: أنا فى إجازة لمدة شهر لا أريد ان يسال عنى احد، وبالمناسبة لقد وجدت فتاة من غرناطة وطلبت يدها للزواج وعن ما قريب ستاتى لمدريد لاتمام الزواج!

كقلب اى أم كانت مارلين سعيده وفرحه بهذا الخبر وقد ابتسمت بسعاده صادقة وهي ترى ان ابنها قد اجتاز محنته وفراق خطيبته ليخطو خطوة قد طال انتظارها ولكن لا بد منها في جميع الأحوال.

لكن بلايو قد أفسد سعادتها وقد بدأ في استجواب حنا باستهزاء وبرود: وماذا تعمل تلك المره أم انها تقطات على التسول؟

طرق حنا بقبضة يده على الطاوله بنفاذ صبر وبرز فكه للامام ثم قلب عينيه ليرد بسأم وضيق: لا تقلق تعيش مع خالها وهو تاجر معروف، فقط أنت دعنى وشأنى ولا ترسل جواسيسك خلفى، الأمر مُشين ومقرف حقًا.

أمال بلايو رأسه ومط شفتيه قائلاً ببرود: أنا أفعل كل هذا من أجل مصلحتك، والنتيجة مُبهره قد نسيت جوليانا وكلامك الأحمق عن حبك لها.

وضع حنا يده في جيبيه قائلاً بنبرة ذات مغزى: جوليانا تحت الأرض الان واظن أنك تشعر بالانتصار لكن حياتى ليست لعبة بين يديك لتعبث بها وتحطمها كما تشاء، أنا ادير أمن البلاد ولا انتظر من أحد ان يُدير لى حياتى حضرت المستشار.

ارتفعت زاوية فم بلايو بابتسامة جانبيه ساخره وعاود تناول طعامه وهو على يقين تام وسلام نفسى بأنه فعل الصواب الذى كان لا بد من حدوثه الآن وغلق باب القصر القوى الذى أرعب الجميع عن خروج حنا كان بالنسبة له لحن شجى لم يسمع في روعته الا بكاء جوليانا.

الفصل الثالث والعشرين

قد مر اسبوعين كاملين منذ ان اخذ حنا الاجازة وقرر الابتعاد عن بلايو الذى كل يوم يزداد كرهه له وغضبه يوم بعد يوم تُجاه بلايو.

وكم هو مقرف هذا الرجل يملك شر لا حد لجنونة وبربريته!

فيكفى حقًا أنه السبب في قتل روزيتنيا المسكينة التى كل جريمتها انها فقط حاولت إنقاذ النعجة التعيسة من فكى ضبعًا قذر وجمع قلبين تائهين.

ولكن بلايو يضمر من الحقد والكرة لكل من يقف في طريقة كما يضمر من الحب والعشق للسلطة.

ولا تظنوا ان بلايو أقدم على ما أقدم حتى ولو بطريقة غير مباشرة سواء تفرقة حنا وجوليانا وقتل صانع السم وقتل روزيتنيا _وكل ذلك عن طريق رجال بلا ضمير انساقوا وراء شهوة المال والعوز والحاجه _بدافع حب حنا فقط فقط!

وان ظننتم ذلك فاسمحوا لى نحن هكذا نعيش في عالم كوكب زمردة على سبيستون ونرى العالم مبتهج وسعيد كما رأه شمشون بعين سبونج بوب.

بل دافع بلايو مادى بحت وكله خوفًا على فرار السلطة منه وتلوث سمعته بمجاراته الفقراء والمشكوك في كثلكتهم وبائعات الهوى، وان عرف أحد سيدعى الجميع الشرف والعزه وتُسحب منه طبقته الاجتماعية.

لكن القتل فعل عظيم وسيئ حقًا، فلا أدرى كيف سينتقل إلى الدار الآخره بيدين مُلطخه بدماء الأبرياء هكذا؟!

أ تتذكرون ذلك القصر الكبير المليئ بالحدائق والورود وبه امرأة جميله الذى وعد به حنا انطونيت؟

ها نحنا الآن فيه أو حنا هو من يقتحم ابوابه بهدوء وسلام داخلى وطمئنينة تغزُ قلبه عند الاقتراب منه.

وقد أتبع أصوات الضحك القادمه من الغرفة الواسعة في الطابق الثاني متجاوزًا الخدم القليل جدًا الذين شرعوا في وضع الطعام على الطاولة قاصدًا حديقة المرح بالاعلى.

ابتسم بهدوء بعد ان دخل الغرفة ورأى انطونيت التى تجلس على كرسى كبير ضاعت فيه لضئالت جسدها على مكتب والى جانبها جوليانا التى كانت كلتا قدميها مربوطة بشاش طبى وكذلك رأسها وكانت تغطيها أسفل اشارب صغير حتى لا يرى أحد رأسها المُجرد من الشعر.

مهلًا لحظه، جوليانا!...

نعم جوليانا، هي جوليانا بام عينها ولا أحد غيرها.

مالكم حط على رؤوسكم الطير فلا يزال في القصه بقيه.

قفزت انطونيت من علي كرسيها تاركه جوليانا التى كانت تعلمها كيفيه كتابة أسمها وقفزت في احضان حنا متعلقه برقبته وقد بادلها العناق وحملها من علي الأرض.

قلبت وجنته الملتحية قائله بسعادة: عمي حنا اشتقت لك كثيرا، ثم اشارت إلى الأوراق على المكتب قائله: انظر لقد استطعت كتابة اسمى من دون خطأ، خالة جوليانا ساعدتنى.

اقترب وحمل الأوراق باهتمام وقراها ثم وضعها جانبًا قائلاً بفخر: انتِ اذكى الفتيات يا انطونيت، وعندما تكبرين ستصبحين عالمة كبيرة.

ضحكت الفتاة بسعادة وتعلقت بعنقه وقد اقترب من حكمت وقبل جبهتها وعانقها لتبادله العناق قائله بصوت ناعم مُستكين: أشتقت لك اليوم كثيراً.

ثم رفعت وجهها عن صدره ليقبل عينها المُطفئ ضوئها ليردف بهدوء: ليس أكثر منى يا سُكره.

ثم نظر إلى لؤلؤتيه قائلاً بحنان: انا جائع واريد ان آكل بقرة بحالها من سيأكل معى؟

رفعت كلتاهما يديها قائلتان بحماس: أنا!

ماذا يريد الإنسان في تلك الحياة سوى الراحة والسكينة والطُمئنينة والستر والسلام الداخلى؟

لا شيء فمن ملك تلك المقومات قد ملك الدنيا بمن فيها ومن عليها وبات أغنى من أغنى ملوك الأرض والعالم.

كان هذا حال حنا الذى وجد الراحة والسكينة التى أضاع ما أضاع من عمره في البحث عنها ولم يتخيل أنه سيجدها هنا بين امرأة يحبها وتبادله الحب الحقيقى بلا تكلف أو طمع فقط عليه ان يُقدر حبها له ويبادلها نفس الأمر، وطفلة صغيرة تملأ حياته سكينه وحنان حتى ولم تكن ابنته فيكفى النفس البريئة الطاهرة على الفطرة لم يلوثها خُبث الشيطان ودنس الدنيا وظلم الناس.

وان كانت حكمت وانطونيت تأكُلان بين الضحكات والمرح والسعادة فحنا لاول مره يشعر بلذة الطعام رغم أنه نفس الخضار ونوع الدجاج والاطباق والى اخره... إلا ان للراحه والفوز والسعادة والنصر طعم اخر لا يدركه إلا المحارب الذى كسر في معركته مئة سيف وحطم ألف درع وانتصر على ألف جندى في حربًا ضروس بين نفسه وما يريد وبين نفسه وهوى نفسه والنتيجه امامه، حب حياته يبادله الابتسامات والحديث ويؤنس قلبه ويسكن إليه في الليل ويعطى حياته لونًا اخضرًا مريح وجميل!

صوت تأوهات وانات متألمه كان هو المسيطر على غرفة حنا وحكمت ولولا وجود الباب المنيع لكانت خرجت تلك الاصوات للخارج.

وقد كانت حكمت تجلس على كرسى وثير ودافئ وامامها حنا الذى كان يُطهر جرح رأسها ويضع لها ذلك الدهان ويربطه بالشاش القطنى جيدًا.

(فكرتى في ايه يا قليلة الادب ((٩(ُ_ٰ ٩

وبالرغم من ان الحرق قد كون فوقه طبقة جلديه جديده دليل على اقتراب الشفاء والاستجابة للعلاج، إلا ان النار نار!

تحرق القلب قبل الجسد ولهذا لم يكن أختيار رب العالمين لها عقاب للمنافقين والقتلة والكاذبين والظالمين عبثًا _حاشى لله وتعالى_، بل لأن اصعب ألام الانسان هي النار التى تفتك وتحرق بلا رحمة او هواده.

فما بالكم بحكمت المسكينة التى حُرقت ظلمًا وعدوانًا وفي اعز ما على قلب المرأه شعرها الذى تتفنن فيه النساء سواء بالصبغة او التسريحات والقصات على أحدث صيحة من الموضة أو شراء الزيوت باهظة الثمن للعنايه به والظهور بابهى صورة، والأن تلك المسكينة محرومة منه مؤقتًا وبلا سبب فقط الكره.

وان كان علي حنا فبالرغم من ظهوره الخارجى القوى والمُساند لها، إلا ان نياط قلبه تتمزق بقوة وببطء على شعورها بالام وتجمع تلك الغشاوة البلورية فى عينيها ومحاولات تماسكها الفاشلة التى تنفضح اذ تنتفض او تشهق او تهرب من عينيها دمعه تأبى الرضوخ.

غسل يديه وعاد إليها وقد مسحت عينيها باصابعها المرتجفه بسرعه حتى لا يرى بكائها.

جلس على ركبتيه امامها وكور وجهها بين كفيه الضخمين وداعب وجنتيها بابهامه قائلاً بحنان: حكمت، صدقينى شعرك سيعود كالسابق واجمل فقط الأمر متعلق بنفسيتك، عليكى ان تتحلى بالقوة والثبات ليتم شفاؤك.

بللت شفتيها ومسحت عينيها باصابعها قائله بصوت مبحوح من البكاء: متى سنوعد إلى القصر؟

اردف بعزم واصرار: عندما تستردى عافيتك وقوتك وعزمك، لا يجب ان يراكى أى أحد مهزومة او مكسورة انتِ ملكة يجب ان يكون رأسك مرفوع في السماء.

ابتسمت بدفئ وهدوء هامسه: انا احبك جدًا واحسد نفسي علي وجودك وحبك في حياتي.

قبل جبهتها ثم ابتعد قليلاً قائلاً بابتسامة هو الاخر: ليس أكثر منى يا حكمت السُكره.

ثم وقف واتجه إلى التسريحة واخذ الفرشاه ثم جلس عند قدميها وحل رباط شعره واعطاها الفرشاه لتبتسم بحنوا ودفئ وهي تلتقط الفرشاه وقد شرعت في تسريح وتهذيب شعره الطويل قائله بهدوء وسلام ولا شيء اخر غيرهما سوى الحب: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول..
توقفت ليردف بهدوء مفمضًا عينيه من الشعور الغريب اللطيف الذى يغزُه عندما يُذكر نبى الإسلام مؤخراً بلكنه عربية ضعيفة للغاية: صلي الله عليه وسلم.

لتتابع: من كان له منكم شعرًا فليكرمه وامنا عائشة رضي الله عنها تقول زين الله الرجال باللحه والنساء بالضفائر، واذا نظرت في المرأه تقول اللهم كما حسنت خلقى حسن خُلقى، لذلك كل فعل نفعله ناخذ عليه أجور كثيرة من عند الله، سواء إحياء سنة نبينا محمد وفعل الخير والواجب وذكر الله، فالنظافة لها أجر وقال الفاروق عمر رضي الله عنه لو اسرفت نصف مالك على العطر ما كنت مُسرفًا، والوضوء له أجر وكلما احسنت الوضوء ارتفعت قيمتك عند الله، وبر الوالدين له أجر فعيسى ابن مريم عليه السلام قال في سورة مريم وبارًا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا، و الكلمه الطيبة صدقه، والعطف على المسكين والضعيف والحيوان له أجر، وتوقير الكبير ورحمة الصغير من الإسلام، والعدل واجب وأمر وفرض، وان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر خيره وشره تلك أركان الإيمان، والصلاه عماد الدين من اقامها اقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين، والجهاد له أجر سواء مجاهدة نفسك على المعصية او بالمال او بنفسك، ولقد كرمنا الله ووهب لنا عقول وشهوة اما ان ترتقى بشهوتنى ونغلبها ونصبح كالملائكه عقول بلا شهوة او نتبع الشهوة ونصبح كالحيوانات شهوة بلا عقل، والمرأة سكن للرجل وهو امنًا لها، واخر شيء الليلة ربنا لم يحرم علينا الخمر إلا لحماية جسدنا وصحتنا من الأمراض وعقلنا وروحنا من الدنس.

وقد انهت حديثها الهادئ مع انتهائها من جدل شعره على هيئة جدلة انيقة رجوليه، ليفتح عينيه من حالة الاستمتاع التى عاش بها للحظات قليلة سواء من ملمس يديها او صوتها الدافئ أو نصيحتها الغاليه وكل شيء افضل من الاخر.

أرجع رأسه للوراء ليستقر على فخذها لتلمس لحيته الكثيفه قائله بهدوء: فهمتني يا يحيىٰ؟

أمسك بكفها الموضوع علي وجنته الملتحية ليضعه على شفتيه يقبله بنعومه ثم وضعه على قلبه قائلاً: فهمتك يا حكمت.

ولعلكم تتسائلون ما الذى يجرى هنا؟! وكيف جاءت القلعة إلى جانت البحر؟ وكيف لهذا ان يصبح ذاك.

لكن لاننى امرأة عطوف واكره القصص المأساويه والحزينة قررت تغير النهاية لشئ مُبهج للجميع، ولكن احذروا ففى أى وقت قد اغير رأى والجميع سيحزن عندها _حاليًا أنا اضحك بشر_!

والان سنعود للوراء سويًا وصولًا إلى أسبوعين ماضيين.

بعد تنفيذ حكم الإعدام الذى لا ريب أو شك فيه فقد كان حقيقيًا مئة بالمئة أمام البابا والملك والجميع إلا حنا وحكمت فقد كان هناك رأى آخر.

فبعد ان علم بأمر اسلامها جلس عند النهر الذى اعترف عنده بحبه لها وقد كانت نفسه تشتعل غضبًا وحقدًا من تلك اللعبه التى كان بها كالدميه ذات الحبال وقلبه الغبى هو من يتحكم بها.

جلس وتذكر كلماتها بان ما يفعله خاطئ وكلاهما يقع في ذنب عظيم، ثم نظر للرساله المُجعده بين قبضته وتذكر وعوده لها بأنه سيجارب العالم لاجلها وسيفوز بها، وتذكر كل شيء جميل صنعته لأجله، وكيف داوته وعند البرودة سهرت طوال الليل تُعد له تلك البطانيه، ودافعت عنه ببسالة ليلة التفتيش، وفكر للحظه أ ليس الحب الحقيقى هو نفسه أرض المعركة التى يحارب بها الجندي الحقيقى بكل السُبل حتى ولو بيديه العاريتين!

ألا تستحق حكمت الحرب والمُجازفة؟

ألا يستحق هو ان يفوز بقلبها ويقف أمام الصخر ويصرخ بأعلى صوت أنا من حطمت غرور الجبل؟

بلا يستحق وهى تستحق، كلاهما عانا الألم وداس على الشوك بقدميها العارية منذ بداية الطريق وعليهما الوصول الأرض الخضراء الناعمة.

أغمض عينيه لعدة دقائق يحاول فيها نسيان كل شيء تعلمه وعرفه في بلادة والسلطة منذ نعومة اظافرة.

لاجلها سينسى حقد اجداده الدفين، سينسى ان المسلمين همج ووحوش، سينسى ان هؤلاء المسلمين لا يستحقون العيش وما هم إلا مغتصبى بلاد، سينسى كل ما تعلمة مثل ذلك وسيفتح لقلبه وعقله صفحة جديدة فقط لأجل حكمت!

أمسك تلك الرساله ثم وقف ومزقها اربًا ورماها في النهر لتجرى مع الماء ويجرى معها تاريخ جديد سيخطه حنا بالجنون والعشق.

قد كان حنا مع ديغو الذى جذبه من قميصه في مكتبه بمركز الشرطة عنوةً إلى محكمة التفتيش حتى يبحث معه في ذلك الحل الجنونى.

وقد كان ديغو مزهولاً تمامًا من حماقة صاحبه وينظر له بضيق وهو يُفتش في دفتر أوراق المساجين والتحقيقات حتى يجد اسم مُشابه لاسم جوليانا.

قذف حنا ديغو بريشه القلم بغضب ليردف بنفاذ صبر وهو يرى ديغو يجلس على كرسية عاقدًا ذراعية بلا اهتمام: ايها الوغد ابحث معى لا وقت للكسل.

رفع ديغو كتفيه ببرود ورد وهو ينظر إلى نظافة اظافره: لا شئن لى هي حبيبتك، انت من سينقذها جُل الأمر وما سافعله ساوصلها إلى القصر لا اكثر ولا اقل.

نظر له حنا بزرقوتاه الغاضبه بنظرة جانبيه واطلق لفظ بذئ من شفتيه وتابع بحثه في الدفتر الثامن عشر وقد بدأ في هذا العمل منذ الثالثة صباحًا والان الساعة قد اقتربت من الثامنة ولحسن حظه أنه لا أحد يجرئ على دخول مكتبه مهما كانت سُلطته.

مسح عينه حمراء البياض بارهاق ليصيح بفرح وتتسع عينيه على وسعها ويقفز من كرسيه قائلاً بنصر: أنظر جوليانا اندرو اغسطس نوح، ثم أمسك ورقة حكمت قائلاً جوليانا اندرو اغسطس بيترتوتشوا.

مط ديغو شفتيه المزينه بشاربه ووضع قبعته العسكرية على شعره الخفيف قائلاً بعدم فهم: ماذا في ذلك، أنا عندما كنت في الكنيسه كان معى فتى ذكي اسمه ديغو دانييل وانا ديغو دانييل ايضًا وكنت ابغضه لسرقة الأضواء منى.

صفع حنا مؤخرة رأسه قائلاً بضيق من غبائة وتكرار خطة الهروب للمره السابعة قائلاً: ايها الحمار كم مرة سأكرر؟ فقط بعد غدًا عند موعد التنفيذ تعالى وخذ العربه، أغرب عن وجهى الآن.

نظر له ديغو شرزًا وامتعضت ملامحه وخرج من المكتب يتمتم ببعض السب والكلمات المتذمره التى لم تصل إلى مسامع حنا الذى نزل إلى القبو يبحث عن جوليانا نوح وقد وجدها امرأة في الاربعينات وقد كانت تهمتها هي التحالف مع الفرنسيين.

دخل إلى الزنزانه بعد فتح له الملثم ثم غادر بعد ان أشار له

وقد كانت تلك المرأه لا تقل سوءًا عن حال حكمت بقدر أنمله سوى انها ما زالت تُبصر والضوء في عينيها مُقيم.

عقد حنا ذراعيه خلف ظهره وفي زاد ذلك المعطف من الفراء حجمه ضخامه وهيبه.

نظرت له تلك المرأه ثم نزلت علي قدميه تُقبلها بيأس وألم وخوف من وصلة عذاب أخرى قائله ببكاء ومراره: اقتلونى.. اجروكم لم اعد... اتحمل هذا العذاب... لقد اعترفت... اقتلونى لا أريد ان اعيش!

دفعها حنا بحزائه اللامع بتقزز قائلاً ببرود وهو يُدرك أنه يعقد صفقه رابحه : أنا هنا لتلبية طلبك لقد صدر أمر باعدامك حرقًا بعد غد استعدى.

ضحكت تلك المرأه واخذت تصفق بسعادة وهستيريه مُخيفه ترسم حجم الرعب والمُعاناة التى تعرضت لها خلال مدتها هنا تحت اقبية المعبد.

خرج تاركًا تلك فاقدة العقل على حالتها المُرعبه لياخذ الجنديين الحارسين لغرفتى كلتا الجوليانا ويامرهم بعد ابلاغها بخبر الإعدام بتبديلهم في الغرف من دون ان يعرف احد وبالطبع لا ننسى تلك الاكرامية التى دفعها لتمام المهمه.

وبدل اوراقهم واحرق ورقة حكمت وظلت ورقة جوليانا نوح تلك وبات لا وجود لجوليانا بيترتوتشوا تلك في دفاتر المحكمه.

وقد جاء اليوم المنشود وعندما تشحمت المرأه بالشحم ولم يظهر منها حتى وجهها خرج كل اولوا الأمر من المحكمة وتاكد ديغو من ان الجميع في ميدان مدريد العام حتى تسلل إلى المحكمة واخرج حكمت معصوبة العينين والمقيده إلى عربه خشبيه مغلقه جوانبها بالخشب حتى لا يراها أحد وقد وضع الامانه في بيت حنا الخاص بالاستراحة في اقاصى المدينة وقد كان أختيار متهور من حنا ان تظل حكمت في المدينه وفي بيت قد يصل إليه بلايو بسهولة لكن أفضل مكان تختبئ به هو بيت عدوك لن يظن احدًا بان حكمت في مدريد ابدًا.

وقد كانت انطونيت في القصر عندما كان ديغو يحمل حكمت المقيدة الى الغرفه وقد تمسكت بها الخادمه بحرص كما امرها ديغو فور صعود الطبيب خلفه.

وقد مر ما مر من الوقت وفي نهاية اليوم بعد الاعدام والتنفيذ وقد كان حنا بدل ملابسه لاقل من بسيطة للغاية لا تلفت الانظار ولا تُظهر مدى ثراء صاحبها وقد حزم حقيبة ملابس صغيرة تكفية للسفر وتلك المهمه التى اقدم عليها

دخل إلى القصر فى وقت متأخّر قاصدًا ان لا يلتقى بانطونيت التى لا طاقة له اليوم بها وبنفس الوقت لا يريد ان يجرح مشاعرها الصغيرة.

وضع حقيبتة ارضًا في مدخل القصر وقد قابله ديغو الذى كان يحتسى فنجان قهوة في الصالون وقد ترك الفنجان واقبل عليه ليبادر حنا الحديث بهدوء: كيف حالها اليوم؟

عانق ديغو كفيه بنفسه مع بعضهم وضم شفتيه ثم أمال رأسه بعد ثانية تفكير قائلاً بواقعيه وصدق: ليست بخير، تاكل وتاخذ العلاج لكن خائفه وتبكى بصمت وتستيقظ من نومها مفزوعه حالها سيئ، لقد اخبرتها بما فعلت وما ستفعل لكن اتمنى ان تكون مدرك لما تُقحم نفسك فيه.

هز حنا رأسه بالقبول ثم تنهد قائلاً قبل ان يتجاوزه: شكرًا على كل ما فعلته يا اخى، انتظرني لحظه ستوصلنى للميناء.

وقبل ان يتجاوزه قبض ديغو على ساعد حنا قائلاً بصدق وفخر: صدقنى بالرغم من خطورة الأمر إلا أنى فخورًا بك ولو ادواردو هنا لكان اشد فخرًا منى بك.

ربت حنا على كتف ديغو قائلاً بصدق: وانا أحمد الرب على وجود اصدقاء وفيه مثلكم في حياتى.

ثم تركه وصعد حيث قلبه يقبع هناك في الأعلى.

وقف أمام باب غرفتها للحظه ثم سحب نفس كبير ثم زفره بقوة قبل ان يدخل الغرفة.

دخل وقد وجدها نائمة في السرير البيضاء ملائته ولحافة وخشبه بُنى اللون بتصميم بسيط للغاية وقد كانت تغوص في إتساع السرير بسبب ضئالة جسدها ونُقصًا وزنها الشديد.

جلس على طرف السرير واخذ يمرر سبابته على وجنتها زرقاء اللون واثار السوط التى بدأت في الاختفاء، وقد كانت متعرقة يده بالرغم من اقبالهم على الشتاء والجو البارد وقد كانت ملامحها متألمه غاضبة، ولكن عليها الاستيقاظ الآن حتى يأخذ الموافقة منها.

ولكن انتفض برعب من وضعه عندما استيقظت برعب وصراخ: ابتعدوا عنى!

وقد كانت تتخبط بهستيرية ظنًا منها انها ما زالت في المحكمة إلى الآن.

وقد عانق جسدها حتى يُقيد ويشُل حركتها وقد هدأت بالفعل لكن بصعوبة ووتيرت انفاسها عالية وكانها كانت تركد في مراثون جرى سريع.

ابتعد عنها قليلًا واخذ يربط على وجنتها بهدوء قائلاً بهدوء ظاهرى يُخفى ذلك الألم الذى يعتصر قلبه: حكمت اهدائى هذا انا حنا اهدئى.

ثم سكب القليل من الماء في الكوب وساعدها على الشُرب حتى هدئت.

ثم نظرت له بعينين متناقضتين الحال قائله بتيه: صحيح ما قاله ديغو؟ إنك من انقذني.

زفر بهدوء واردف وكفه يعانق وجنتها والاخر يدها: الأمر ليس سهلًا ابدًا علي، ثم أطلق ببصره الى النافذه قائلاً بتيه: وكان الايام في عيني لم تمضى هناك أبى ضابط محكمة مدريد وبلايو الشاب وابنتيه ديف وايفا وانا هناك اعود من الشمال مُكلل بالانتصار واصيح بأعلى صوت المجد للملك... لا مكان للمسلمين في بلادنا، ثم اصحوا على الجديد وقد تغيرت نظرتى والعالم من حولى، ثم عاود النظر اليها متابعًا بنفس التخبط والتيه: والأن مات أبى، لم يعد بلايو ذلك الشاب مع ابنتيه الصغيرتين، فارقت الجيش، ثم ماذا؟ أسلمت... خنت قسمى بقتل كل مسلم، وطردهم من البلاد وأسلمت، فكرت مليًا في الامر، وجدت نفسى حائرة عند مُفترق طُرق بين نداء قلبى وحبى لكى، وبين السلطة وقسمى بتطهير البلاد من المسلمين واعلاء كلمة الصليب والكنيسة، ولم اجد نفسى إلا انها انساقت وراء نداء القلب وأسلمت، لانى قطعت وعدًا بانى سأحرب واحطم الجُدران لأجل حكمت وعينيى حكمت.

مسح باناملة دموعها التى انسكبت وهى تسمع حديثه بهدوء وقد كانت نظراتها كلها فخر وحب كامل وسعادة لوقوع حظها برجل مثل حنا وبالفعل استحق قلبها عن جدارة فيكفى فخرًا أنه يُهدد عمله بالخطر ويقف اعزل أمام قانون دوله لاجلها فقط.

رفع كفها الأيمن إلى شفتيه يقبله بنعومه وهدوء ثم ابتعد وهو يداعبه بابهامه وزرقواتيه استحالت لون صافى وهداء ليُكمل: بعد حفل الحرق سافرت لغرناطة وطلبت يدك من خالك وهو من لقننى الشهادة، بت أشهد ان لا إله إلا الله وان محمد رسول الله، كان وقوعها على قلبى غريب لا ادري هل انا سعيد ام حزين لكنى خائن، ثم أمسك الصليب المعلق في رقبته قائلاً في صراع بين الماضي والحاضر: لقد خُنت حبى ليسوع وامه وأسلمت واتبعت الهمج كما تعلمت، بعت يسوع وامه لاجلك يا حكمت.

هزت رأسها الملطخه بالدموع والكدمات بالنفى القطع وقد ارتفعت يدها إلى وجنته الملتحية قائله بصوت مبحوح من فرط المشاعر التى تداهمها: لا لا انت لست خائن، صدقني لو نزل عيسى عليه السلام وامه البتول لكنت انا أول من يُقبل قدميهم، نحن نُقدس عيسى روح الله ومعجزته وامه الطاهره التى احصنت فرجها مثل ما نُقدس محمد حبيب الله واهل بيته الطيبون، نبى الله عيسى فخوراً بك لانك انفذتنى،في القرآن هناك سورة كامله باسم مريم الطاهره وقد ذُكر عيسى عليه السلام في اكثر من موقع فى القران بالتكريم ولم تُذكر زوجه من زوجات النبى محمد او بناته فقط مريم العذراء لانها حملت أمنه ما كان لاى امرأه ان تُطيقها، يكفى ان المسيحيون اقرب الينا موده ورحمه كما فى القرآن ويكفى ان زوجة النبى محمد كانت ماريا المصرية المسيحية، نحن والمسيحيون اخوة والهنا واحد هو الذي خلقنا جميعًا، النصارى اهل زمة وكتاب عزيز نزل من عند الله، لم يدخل طارق بن زياد ولا موسى بن النصير اسبانيا إلا لنشر راية التوحيد، البلاد بلاد الاسبان والدين لله ومن شاء فليؤمن، لست خائنًا يا حنا ولست همجيه متوحشه.

ثم تسللت اناملها الهزيله تمسح دموعه التى لأول مره تراها ترقرقت في زمردى حنا الذى أغمض عينيه لعدة ثوانى تحت سطوة يديها ليفتحها قائلاً: خالك ينتظرنى في ميناء بلنسية هو يعرف كل شيء سنذهب إلى والدتك حتى نعقد القران هناك هل انت موافقه.

بللت شفتيها وهزت رأسها بالقبول وضحكت بينما دموعها تتساقط مثل حبات المطر: موافقة، موافقة يا يحيى، من الان اسمك كاسم نبى الله يحيى وابن خالة مريم البتول وعيسى المسيح، قد كان معجزة وقرت عين لزكريا عليه السلام، قال فيه نبينا محمد هو الشهيد بن الشهيد، وقال الله ولم نجعل له من قبل سميًا اى انه اول من أُلقب بيحيي على الارض يا يحيي.

ابتسم بهدوء وقبل جبهتها وربت على وجنتها ثم ابتعد قائلاً وهو يتزوق لحن اسمه الجديد: يحيي، اسمى يحيي.

الفصل الرابع والعشرين

صدق من قال ان المغرب والاندلس مثل الذرة المتماسكة لا ينشطران فإن مشيت في احياء وشوارع المغرب القديمه سترى هناك الأسواق وصوت الباعة في كل مكان والاطفال التى تلعب أو نزلت للعمل في السوق مع أبائهم وأخوانهم والنساء التى تُفاصل في ثمن السلع وغلوا التجار في الأسعار وثرثرتهم عن انواع الطعام وطرق الطهى وهناك على النواصى قهقهة الصبيان على بعض المواقف، وهناك من يصيح يُعلن عن سلعته ويبالغ في جودتها سواء كان بن فيصيح "البن اليمنى... بُنًا طازج"، وان كان خيوط واقمشه" حرير چيان... حرير الأندلس "، وان كان سمك" سمكًا بحرى... سمكًا طازج ".

وهناك أثرى القوم واغناهم باعة البهارات والعطارة وقد كانت ملوك الناس قبل ظهور تُجار البترول والكهرباء والالكترونيات هم تُجار الأعشاب والعطارة وقد أُشتهر العرب باجود انواع الأعشاب والتى ياتون بها من افخر بلاد العالم وقد نُقلت تلك الثقافه بعد الفتوحات الإسلامية للعالم، ولا ننسى ان السبب الرئيسي في التأثير على تلك التجارة هو ارستوفر كلومبوس الذى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى قطع سُبل التجارة والتبادل بين افريقيا واوروبا وباتت طُرق السفر من اوروبا إلى منبع العطارة في آسيا.

وعند أحد الزوايا كان هناك فرقة مُنشدة من الدراويش تُنشد في رثاء الاندلس منذ السقوط وقد اختار العقال الأسود على رؤسهم دائمًا حتى عودة الاندلس باصوات عذبة مجروحة مثل الكروان اسير القفص المحروم من الرفرفة والطيران إلى حيث موطنه ولا يملك سوى صوته مُترنمًا"

جادك الغيثُ إذا الغيث هما

يا زمان الوصل بالاندلُسى

لم يكن وصلك الا حُلمًا

في الكرى او خلسة المُختلسى

يا أُهيل الحى من وادى الغضا

ضاق من وجدى بكم رحب الفضا

لا أُبالى شرقهُ من غربيهِ

فاعيدو عهد أُنسًا قد مضى

تُعتقوا عبدكم من كربهِ"

كل هذا كان أمام زرقاوتى حنا الذى كان يسير إلى جوار أحمد خال حكمت والان قد أدرك انه اضاع عمره من دون المجيئ إلى المغرب والاستقرار بها فبالرغم من خطورة الأمر إلا ان الحياة بين ابناء المغرب قد جددت له الشعور بالتكاتف والانتماء والود الذى يفتقده كما يفتقد الأمن والامان في اندلسه الضائع والمسلوب.

اما حنا.. اقصد يحيى كانت مشاعره متناقدة بين القديم والجديد والراسخ في ذهنه لعقود وما يراه الآن.

فهنا يرى الجارة تُحدث جارتها من النافذة بكل ود واريحيه ويتبادلون فناجين القهوة، والاطفال توقر الكبير والكبير يعطف على الصغير، ويلقون السلام على بعضهم البعض في الازقة والطُرقات حتى لو لم يعرفون بعض فيكفى قوله عليه افضل الصلاة والسلام "افشوا السلام، واطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام" ليرى يحيي كل هذا أمام عينيه.

لا يدرى لكن شعور بالالفه والطمئنينة تسرب إلى قلبه وهو يرى تلك الاجواء الهادئة والسعيده بين الناس وقد بدأ ينشرخ صنم الرعب الذى تربى عليه ولكن ليس تمامًا، لكن المدهش حقًا ان تلك البلاد الطيبون أهلها والسمحون الذين لا ترى في وجوههم اى شراسة أو عدوانيه قد خرجت منها قبل أكثر من الف عام جيوش طارق بن زياد ويوسف بن تشفين والمرابطون والموحدون!

كيف والقوم ارق واطيب من ان يحملوا سلاح؟!

ولكن الشجاعة في القلب ولا تظهر إلا فى موضعها والشراسه لا تظهر إلا فى الحاجه.

والاهم من المشاعر السخيفة تلك من وجهة نظر حنا الآن كيف سيجدون درياح خطابى ذلك؟

وهم لا يعرفون شيئًا عنه سوى اسمه فقط وانه من طنجه وهم الآن في طنجه ولا يجدون السبيل.

وزيادًة على ذلك عربية حنا البشعة التى تضعة في مشكلة كما حاول الحديث مع أحد وياتى أحمد بعربيته اليسيرة ويحل الأزمة.

وقد سائموا من كثرة سؤال المارة ليقرر أحمد السؤال في المسجد لعلة يجد الإجابة.

وقد كان هناك في ساحة أحد المساجد الرخامية البيضاء رجل طاعن في السن وحوله مجموعة أطفال يحفظون القرآن ويتعلمون الكتابة والحساب.

وقد كاد ان يدخل يحيى بحذائه لولا يد أحمد التى منعته وقد فهم الأمر.

ثم وقف أحمد يتسائل مع أحد الرجال الذى أعطاه النور وهو يوصف له الطريق الى مطعمه ودكان السمك فى السوق، ويحيى بينهم كالقروى الساذج لا يجرى ماذا يحدث لكنه سيجرى معه!

ولكن تحركت حواس يحيى وبدا ينتبه إلى صوت أحد الصبيان والاطفال يقرأ القرآن بعربية ضعيفة ويعدل له الشيخ، لتدفعه أذانه الارنبية للالتفات وقد توسعت زرقاوتيه عندما كان ذلك الفتى طارق الذى التفت إلى تلك العينين التى تُراقبة وقد نظر له بدهشة ونوع من الخوف والذعر واول ما فكر به ان حكمت اصابها مكروه.

كسر يحيى تواصل أحمد مع ذلك الرجل ومر من بينهم إلى طارق وانتشله من حلقة الحفظ وقد كان متغيرًا عن اخر مره رآه فقد اكتسب بشرة سمراء اعطته هيبه وبهاء مع عينيه الفاتحه الزرقاء واللباس العربى والعمامه قد زادته وقار.

وقد كان الطلاب والشيخ مندهشون من احتضان الاندلسى كما يُلقبوه ذلك الغريب والتحدث بلهجه أخرى.

ابتعد يحيى عن عناق طارق قائلاً بسعادة: اخيرًا انت هنا، ابحث عنك وعن امى اليزابيث منذ ان وصلت.

رفع طارق حاجبيه قائلاً بدهشة: كيف غرفت اننا هنا؟ ثم تابع بتوتر: ارجوك قل ان جوليانا بخير لم يصبها مكروه؟

ربت يحيى على وجنت طارق قائلاً: لا تقلق حكمت بخير لكن حدث الكثير واصبحت أعرف كل شيء انا هنا لأجل حمايتها يا اخيلا.

وقد قاطعهم أحمد الذى ربت على كتف يحيى قائلاً بتأكيد: يحيى يقول الحقيقة يا طارق فقط دلنا على بيتكم.

عانقه طارق بسعادة قائلاً: خالى اشتقت لك.

ثم أشار بيده بمعنى انتظر ثم تحدث مع شيخ الحلقة وهمس بشيء في أذنه ليهز رأسه بالقبول وياخذ فتى أصغر منه في السن قليلاً والحجم ليُشير إليه قائلاً: هذا مُختار حفيد السيد خطابى سيدلنا على الطريق و...

ولكن قبل ان يُكمل قد قاطع طارق صوت اذان الظهر ليتوقف عن الحديث كما تعلم ان للاذان احترامه.

ولكن وقوع الأذان على مسمع يحيى كان له وقوع اخر وشعور غريب وقد أصابته قشعريرة ورجفه غريبه غزت قلبه قبل جسده، هو لم يفهم ما يُقال سوى أشهد ان لا إله إلا الله وان محمد رسول الله، وقد أدرك ان العبارة تلك مُقدسه عند المسلمين قد نطق بها لينطق بكمال الله واهم صفاته التوحيد والربوبية وحده لا شريك له، خالق كل شئ ومقسم الأرزاق، وايقن ان كل ما حدث معه حتى الان كان بتدبير وترتيب من الله حتى يعيش ما يشعر به الآن.

ولم يفق على ذلك التناغم والدفى الذى يشعر به الآن إلا عندما دفعه أحمد وطارق إلى دورة المياة للوضوء واداء الصلاة وقد كانت تلك أول صلاه لكن على غفلة ومن دون ارادة ولكن شئ بحجم حبة العدس في قلبه يدفعه للقبول بالأمر.

وقف بينهم وقد بدأ أحمد بعلمه الوضوء بهدوء ويعيد له كلما أخطئ حتى تعلم وقد أيقن اهمية النظافة والماء عند المسلمين، اذا وجد من غسل وجهه ويديه بالصابون ومن دخل واستنزه من البول والغائط بعد قضاء حاجته ومن يعمل فى الجزارة او بيع الفحم قد اقبل واغتسل وخلع سترة العمل المتسخه وارتدى الجديده فالجميع هنا علي موعد مع الله بلا حاجز او وسيط فقط أطرق باب الله وسيفتح لك ابواب الخير والرزق والبركة والجنة.

وهنا قد ازدادت دهشته وهو يرى طارق ومختار وأحمد يقفون جانبه للصلاه وجانبهم بائع العطارة والذهب الاثرياء وجانبهم رجل ضرير يقتات على تلميع الاحذية واخر أسود بجانب أبيض والشيخ بجانب الطفل والسليم بجانب المعاق وكانهم لؤلؤ مرصوف جانب بعضه بلا تكلف او أنفه او نزعة الطبقية فقط هنا الكل سواسية

وفي نفس الوقت في اسبانيا في ذلك القصر الكبير كانت حكمت بدات تتحسن نفسيتها بعد سماع تلك الأخبار السعيدة التى شرحت قلبها وقد قررت ان تصلى لله شُكر لما من عليها به مِن خير وسعادة وحرية، وقد جمعها بحلالة مع حبيب الفؤاد الذى تشوقت إليه، وقد استجاب الله لندائها ودعائها ومناجاتها وصلاتها وقيامها وصيامها.

وبالطبع بما ان نفسيتها قد تحسنت فبالتالى بات الشفاء قريبًا وباتت الحياة أفضل الان.

وقد قررت ان تخرج من غرفتها وتتجول في القصر وتتعرف على طرقاته ودهاليزه.

وقد استندت على ذلك العكاز الخشبى بسبب جروح قدميها وهبطت على السلم ببطء وقد اصطدمت بالخادمه الشقراء والبدينة بعض الشئ بفستانها الأسود وفوضه التنظيف والمريول الأبيض والكعكة في شعرها، وقد نظرت لها بدهشة قائله وهي تساعدها على الوقوف: إلى أين سيدتى السيد حنا طلب منك ان تستريحى في غرفتك.

امالت وجهها المغطى بالاشارب الزهرى المماثل للون الفستان قائله برجاء: سنيورة ازادورا انا هنا منذ قرابة الاسبوع وسئمت من الغرفة أريد الجلوس في الحديقه، ارجوكى لن اخبر حنا هيا.

زفرت المدعوة ازادورا وهزت رأسها بالقبول على مضدد قائله وهي تسير معها على مهل_ بعد ان تابطت بذراعها _: فقط نصف ساعه سيدتى حتى تلتئم جراحك، لقد كنتى ميتة وزرع الله فيكى الروح من جديد.

ابتسمت حكمت بهدوء وارهاق ثم اشارت إلى منطقه قريبه من الاشجار والنافورة من الرخام قد حط عليها الطير: أريد الجلوس هناك بجانب النافورة رجاءًا.

امتثلت لامرها واوصلتها وساعدتها على الجلوس على كرسى وثير ودافئ قد حملة الجنينى اليها ثم انصرت لتكمل عملها.

وقد اغمضت حكمت عينيها المتناقضة تلك سامحه لنسيم الهواء الرطب بمداعبة فستانها ووجنتيها بهدوء وصوت انسكاب الماء الهادئ من النافورة مع صوت العصافير والبلبل اللطيف الذى نزل للشرب من النافورة كل شيء هنا يدعوها للهدوء والتعافى والتامل، وتلك الورود الورديه المعلقه على الاشجار، ولم تدخل اسبانيا إلا على يد أحد الخلفاء الذى كان مُتيم بحبه للشام وورد الشام فقرر زرعه في الاندلس ليتذكر الشام وها هي تتذكر الاندلس التى لم تراها.

ولكن استفاقت من نشوتها تلك على يد صغيره قد عانقة رقبتها وضحكات صغيرة وصيحة طفولية قائله: بوه!

ادعت حكمت الخوف قائله بتغير نبرة صوتها إلى أخرى خائفه مرحه: يا ربى أنا خائفه من الوحش العملاق.

ثم قفزت امامها انطونيت قائله بضحك وسعادة طفولية: اخفتك، لقد نجحت واخفتك.

ضحكت حكمت بمرح وجذبتها من يديها لتجلس في احضانها وتربط على شعرها النحاسى الطويل قائله: اشتقت لك كثيرا يا انطونيت، كيف حالك؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها بطفوليه قائله: أنا بخير، لكن عندما كنت العب مع ازادورا وجئتى هنا لم يسمح لى العم حنا من رؤيتك، فانا هنا قبلك.

امالت رأسها بهدوء قائله وهي تستميل رضا الفتاه: فقط كنت مريضه للغاية لهذا حتى لا تمرضى لم يكن مسمح لكي برؤيتى ولكن انا الان بخير وسنلعب حتى نمل من اللعب.

ابتسمت بسعادة لكن توقفت على الضحك عندما اعادت حكمت الايشارب إلى الوراء قليلاً فانكشفت عينيها البيضاء وكدمات وجنتيها لتنظر لها بقلق وتتسائل: ماذا حدث لعينك؟!

بللت حكمت شفتيها وطاطات رأسها حتى تدارى دموعها التى تجمعت على الفور حتى تذكرها بتلك الاعاقه المكتسبة التى ستلازمها طوال العمر ولم تستطع الرد ولكن أصابع الصغيرة قد تسللت لوجنتها وقد نظرت لها حكمت بعينيها اللامعه لتتحدث الفتاه بعقلانية امرأة في الستين: انتي لستى سيئة بل جميلة كما تقول امى، امى كانت تقول جوليانا جميلة وطيبة، لكنك الان مختلفه، انا لست خائفة منك، لازلتى جميلة، لكن امى ليست هنا بل اصبحت ملاك كبير بجناحين وفستان أبيض في السماء.

ابتسمت حكمت وابتلعت دموعها وكأنها لم تتجمع وقبل كفها الصغير قائله: الصالحون فقط من يصبحون ملائكة ولان أمك امرأة طيبة انقذت حياتى وفعلت خير كثير كرمها الرب واصبحت ملاك، وعندما نصنع خير مثلها سنصبح ملائكه في الجنة، لا تحزنى أمك صالحة وبطلة.

امالت الصغيرة رأسها مع جدلتها الطويله النحاسية وقد نظرت لها بعينين واسعة: انا لست حزينه، عمي حنا قال اذا حزنت هي ستحزن وانا لا أريد لها الحزن، ثم مدت خنصرها قائله: لكن عدينى انكى لن تصبحين ملاك حتى أكبر.

ابتسمت بدفئ وشبكت خنصرها معها وصاحت كلتاهما في وقت واحد: وعد!

قد كان يحيى في المركب مع أحمد وكلاهما في غرفته أثناء الغروب وقد نام أحمد تاركًا يحيى في حيرة من امرة وما أقبل عليه، الآن حكمت باتت زوجته رسميًا أمام الله والجميع.

يا الله زوجه! كم كان وقوع تلك الكلمه على مسامع يحيى رائعًا وقد زرع فيه شعور بالمسؤولية والامانة.

الآن هو المسؤول عن شرف امرأه وحمايتها ورعايتها والانفاق عليها، روح تُقاسمة الحب والحياة في بيته وبين احضانه تاسر أنفاسه، كلما نظر إليها تعلق قلبه بها وتشابكت ارواحهم برابط مُقدس ولكن رابط قوي حارب كلاهما من أجله للوصول إليه والتمسك به والفوز بعد عناء طويل.

تقلب يحيى وقد فراق النعاس عينيه وهجرها النوم وقد وضع ساعده أسفل رقبته ونظر إلى السقف مُسرجعًا ذكريات اليوم الحافل.

تذكر بكاء خديجة عند معرفتها بما عانت وقاست ابنتها وويلات العذاب والقسوة التى تعرضت لها على مدارس شهر كبيس لم يرتح فيه أحد حتى الهاربون المنعمون كانت قلوبهم مُضربه غير مُطمئنة.

وبعد عقد القران الذى شهد عليه خطابى وابنه، وقد ذُهل تمامًا عندما اكتشف ان مساعده جرجس المسيحي البروتوستنتى وكيف يعتمد خطابى عليه في أعماله والاخر يعمل بجد واخلاص وكان فارق الدين غير موجود بينهم ولا يمنعه خطابى من ارتداء الصليب او الذهاب للكنيسه وبالمثل جرجس كان يجلس اسفل لوحه خُطت بالعربية بها أيات قُرانية ويأكل من نفس الطعام لا مشكلة في ذلك تمامًا، وابناء خطابى يتخذونه صديق لهم بمنتهى الود والاريحية.

اعتدال في جلسته من على السرير الضيق ثم وقف واتجه إلى ذلك الصندوق الخاص بالمتاع وفتحه ينظر إلى ذلك الفستان البنفسجيّ الذى نسجته وصممته خديجة من أجل حكمت ودفعت به مبلغ وقدرة لأن حكمت تحب اللون البنفسجيّ وقد كان هدية ترتدية عند وصولها المغرب ولكن لا شيء أغلى من يوم عُرسها ترتدى فيه هذا الفستان.

مرر أصابعه عليه متذكرًا دهشته من اسم طارق وخديجه وثقل خديجة في النطق ولكن خديجة أثقلت عاتقيه عندما أنتهى عقد القران واخذته إلى غرفتها تتحدث معه وكلماتها لا تزال مُعلقه بالحرف الواحد في أذنه "قد سلمت لك قطعة من روحى وانا امنك على ابنتى وشرفى، امنتك على دينها وحياتها وابتسامتها، فلا تؤذينى في ابنتي، حكمت تحبك وكلاكما عانى المُر للوصال والود فلا تؤذى قلبها، قد أسلمت وأسلمت قلبك لله ووصى نبينا محمد بالنساء خيراً فمن اكرمهم كريم ومن اهانهم لئيم، وقد كان يفخر بحبه لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويُكرم صديقات أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها، وسهر على تجميع عقد أم المؤمنين عائشة بعد ان انفرط لانها تحبه، ويبتسم على غيرة أم المؤمنين عائشة، وأخذ رأى ام سلمة رضى الله عنها في حل مشكلة بين المسلمين، فقط اقتدى به وحافظ على ابنتى يا يحيى"

الفصل الخامس والعشرون

قد مر أربعة أشهر فى هذا العالم مثل الماء لم يشعر بها أحد واصبحنا فى العام 1821 وبالتحد في شهر مارس شهر الحُب والام.

سريعة تلك الأيام أ ليس كذلك؟

وكيف لا ونحن نرى أنه قد مر أربعة اشهر تقريبًا على انقلاب حياة ابطالنا وتغيُرها تغيُر جذرى تام.

فلم تعد الأسود تزئر والاسماك تسبح.

ولكن لله الحق فإن التغير كان للافضل طبعًا وللغاية.

فامامنا حكمت التى استعادت شطر كبير من صحتها وروحها ورونقها، وقد باتت علاقتها بانطونيت أقوى وافضل من ذى قبل وباتت لها ابنه لم تُنجبها.

وبالمثل انطونيت التى اعتبرتها أمها لا تنم إلا عند سماع
قصصها وعودت يحيى للقصر في المساء ولا تحكى شئ إلا لها ولا تترك يدها وترعاها فى مرضها كانها شابه كبيرة لا طفله لم تتجاوز السادسة.

ويحيى فيكفى اسلامه وقد اثبتت الأيام أنه كان بحاجة للاسلام لكن لم يكن يعرف أو لعل تلك الغشاوة التى كانت على عينيه والاقفال والتروس الصدئة على قلبه التى تراكم عليها الصدء والغبار لمدة خمسه وثلاثون عامًا من التعصب والغضب والحقد كانت تمنعه من ايجاد نفسه وحياته وطريقة الذى يريد ان يمشى فيه ويسلكة للنهاية.

فمثلًا أنا كنت أخاف القطط والاقتراب منها بسبب سمعى الدائم والمستمر عن ما يحمله فراء القطط من أمراض وطُفيليات وعضتها القوية وخربشتها المؤلمة، ولكن عندما تعاملت مع قطة لطيفه باللون الأخضر الداكن بخطوط سوداء تغيرت وجهة نظرى ولم تخدش يدى أو تعضنى باسنانها الحادة لاننى تعاملت معها بلطف ورحمة ولكن ذلك الفتى القصير في حينا الذى يركب عجلته ويسُب المارة بلا تربية أو أدب ووالدته تجلس أمام التلفاز تُتابع المُسلسل التركى وترى أفعال سمر المُشينة مع مهند تاركة ابنها بلا تربيه عندما فكر في اذية القطه شرحت يدية.

والأمر سيان وبالمثل مع يحيى الذى كان يسمع منذ صغره ان هؤلاء المسلمين والاندلسين همج ومتوحشين يقتلون الناس والاطفال ويسلبون الأموال والبلاد تكونت له مناعة وردت فعل عنيفة ضدَّهم ولكن عندما تعامل مع والد حكمت وامانته في صنع الأسلحة والاموال والخامات وحب خديجة له ورعايتها بيتهم وصيانة عرضه وتحملها اعاقته في ساقة ومن ثم حكمت وكل ما تحمل من حسن خلق وخجل وشجاعه وصبر وايمان وخالها الصالح الذى لم يتردد لحظة في حماية ابنت اخته واهل المغرب الذين كونوا وشكلوا صورة بأخلاق الإسلام السمحة غيرت جُل تفكيره وفتحت امامه أفاق وابواب من المعرفه والحقيقة التى كان يجهلها واحيانًا يرفض فهمها.

ولكن اليوم يوم مميز في هذا الشهر.

لا ليس عيد الحب، بل عيد ميلاد حكمت الثالث والعشرين، لنتمنى لها سويًا العمر المديد.

وقد اعد يحيى حفل صغير للاحتفال بتلك المناسبه السعيدة لأول مره منذ ان عرفها.

ولكن غباء منه عكر صفو ذلك اليوم المميز وجعل قدميه لا تقترب من مكان هي فيه بسبب احساسة وشعوره بالذنب االرهيب الذى يُقيضه ويزيد الخناق على عنقه مانعًا عنه الهواء.

وقد حل الليل واسفل ضوء القمر الفضى جلس يحيى على كرسى خشبي مُنجد بالاسفنج ومنقوش قماشه ببعض الأزهار وافرع الاشجار.

عقد ذراعيه أمام صدره واغمض عينيه واراح رأسه على ظهر الكرسي سامحًا لنسمات الشتاء الأخيرة بمداعبة وجهه غير قادرة على تجاوز ذكرياته ورميها في مجرها إلى حيث يشاء الله.

تذكّر في الصباح عندما كانت ُمشط خصلات شعرها العائدة من الموت القصيرة التى بالكاد تجاوزت شحمة اذنها وقد عانقها من الخلف بمرح وهي أمام المرآة وقد قبل وجنتها بمرح قائلاً وهو ينظر لها في المرآة: حكمت الصغيرة كبرت سنه وباتت في السادسة والعشرين، عام سعيد يا سُكرتى.

ضحكت بخجل والتفت واضعه يدها على صدره وذراعيه تطوق خصرها.

ردت وابتسمت بود وحب حقيقي : وانت بخير وفي قلبى دائمًا يا يحيى.

ثم ملست على وجنته قائله وهو تتلاعب بلحيته: كيف حال الاذكار والقرآن واللغة العربية

أمال رأسه مُجيبًا: بأفضل حال، انا في الجزء السابع الآن وقلت اذكار الصباح عندما استيقظت، والعربية وصلت لحرف الطاء لكن لا افهم شئ في تشكيل الحروف، فشلت فشل ذريع.

فلتت منها ضحكة لطيفة لتُردف وهى تبتعد عنده واضعه الفرشاة على التسريحة: لا تقلق سنحل هذا الامر قد كنت سيئة في هذا ايضًا.

ثم عقدت ذراعيها النحيلتين أمام صدرها قائله بتشوش وشعور بالذنب والحزن: أنا أشعر بانى سيئة، اعنى ان امى لن تكون معي عند حفل الزفاف واليوم أول مره احتفل بعيد مولدى من دونها، اعنى هل انا انانية؟

مط شفتيه وامال رأسه قائلاً بجدية مزيفه: نعم انانية للغاية، من اى طينه خلقتى كيف تفعلين هذا بأمك؟

ابتسمت من دون ارادة على تمثيلة الجدية السيئ ووكزته في كتفه قائله: توقف تمثيلك سيئ.

تجرا وتغابى وتحامق وقرص ذراعها مُردفًا بمرح: بربك يا فتاه...

"ابتعد عنى!"

توقف عن الحديث عندما دفعته حكمت بقوة في صدرة وبخوف وصراخ عندما قرص ذراعها وتذكرت بفعلته الحمقاء تلك اسواء كوابيسها وايام حياتها التى لن تنمحى من ذاكرتها مهما حيت، وقد تذكّرت التعذيب والغرف المظلمه والحشرات والفأران ومن دون ارادة وبلا وعي منها دفعته وصرخت كرد فعل دفاعي،فتلك أول مره يتلمسها يحيى باريحية ومزاح ومنذ زواجهم لم يقترب منها مُراعاةً لحالتها النفسية السيئة وقد أقسم ان لا يلمسها إلا بطلبها وارادتها.

ولكن لم يتخيل ان الوضع سيئ هكذا!

وقد توسعت زرقاوتيه وفهم على الفور خوفها وقد اقترب منها وقد كانت تضع يدها على فمها تكتم بفشل واضح شهقاتها وتهز رأسها بالنفى موضحه بصوت متقطع: أنا.. اسفه حقًا... اسفة لم...لم اقصد هذا... سامحني أنا... أنا فقط تنك.. تذكّرت ما حدث.

ثم القت بنفسها بين ذراعيه المفتوحين لاجلها مُستقبلًا بُكائها واعتذراتها بصدر رحب وأخذ يمسد على ظهرها بحنان وحنو واسند ذقنه على شعرها قائلاً بحنان بالغ: أنا لست غاضبًا منكى بل عليكى، لا تزالي صغيرة لا تجعلين تلك الافكار والذكريات السيئة تُنكد عليكي عيشتك، هم وحوش بربريون لا تجعليهم يهزمونك ويحبسونك في زنزانة ابدية لا مخرج منها.

ثم امتدت يده ورفعت ذقنها ناظرًا إلى وجهها المكتنز بالاحمرار والاختناق وشهقات مكتومه ثم قبل جبينها وابتعد قائلاً وهو يمسح دموعها للمرة الألف: اهدئى واغسلى وجهك، اليوم يوم مميز عندى للغاية وهناك مُفأجات كثيرة الليلة، مُتفقين يا سُكرة؟

هزت رأسها ودفنت وجهها في صدره مره اخرى باحثة عن الأمان وقد دس انامله في شعرها الرقيق والقصير ونظر إلى الهدهد الذى توقف عند الشرفة ليهمس بصوت غير مسموع: اقسمت بالله العلي العظيم ان ادمر محكمة مدريد على رؤوس الوحوش واعيد حقك يا حكمت، سأدمر مدريد لاجلك يا حكمت.

عاد إلى عالمه والى أرض الواقع وفتح عينيه ناظرًا إلى السماء هامسًا بجدية واصرار: أمنتُك يا الله ان تجعلنى دواءً لألمها وحزنها وان ترزقنى الثبات والصبر في مشوارى الطويل.

ثم التفت إلى المدعوة ازادورا التى وقفت امامه وقد بدلت ملابس العمل إلى أخرى عادية قائله بعمليها وقد سبقها الخدم القليل لخارج القصر: حضرة الدوق حنا لقد انتهيت من ما اتفقنا عليه وسنذهب كما طلبت.

اعتدل في جلسته وهز رأسه بالقبول ليتسائل بهدوء: أين سنيورة جوليانا؟

اجابت: انها بغرفة السنيورة الصغيره حضرة الدوق، ثم انحنت بهدوء بعد ان سمح لها بالذهاب.

صعد إلى غرفة انطونيت ودخل بعد ان اذنت حكمت للطارق.

ابتسم بهدوء عندما ركدت أليها انطونيت بفستان بلون الفستق واسع وجدله انيقة تلتف حول نفسها بسعادة والفستان يلتف معها وتصيح بسعادة: أنظر للفستان والجدله خالة جوليانا البستنى اياه ما رأيك؟

حملها من علي الأرض وارتفعت قدميها وباتت في الهواء ووضع جبينه عند جبينها وحركوا رؤوسهما سويًا ليهمس لها بمرح: انتِ أجمل الفتيات يا انطونيت الجميلة.

ثم ابعد رأسه وثنى ذراعه الآخر وقد ابتسمت حكمت واقتربت منه بفستانها الوردى المنسدل لاسفل بلا بطانه تزيد حجمه وبالرغم من قصر شعرها وانتشارة بعشوائية حول وجهها إلا انه اعطاها جمال خاص وفريد قد لا نراه لكن يكفى ان يحيى يراه!

نزل جميعهم السلم إلى حجرة الطعام وقد أمر يحيى بتزين المكان بالشموع وقالب كعك كبير وبعض الحلويات وعصير البرتقال والتفاح والكثير الكثير من الهداية.

ضحكت حكمت بسعادة ومالت على صدره قائله بامتنان: شكرًا لك على كل هذا.

مرر يده صعودًا وهبوطًا على ذراعها ليُصحح لها: اشكرى انطونيت هي من اشرفت على الاعداد.

ربتت حكمت على ظهرها قائله: اجمل الفتيات واطيبهم قلبًا.

ابتسمت انطونيت بخجل ووضعت اصبعها في فمها قائله بهمس خجول: شكرًا.

ثم بدأ الحفل الصغير وتقسيم الكعك وأطعمت صاحبة عيد الميلاد الجميع الكعك بيديها ثم انتهت الكعك وصفق انطوانيت بحماس وقفزت مع علي كرسيها مثل القردة لقصر قامتها وهرولت إلى الهداية تُمسك بعلبتها وتصيح بسعادة وهى تقدمها لحكمت تحت ابتساماتهم: وقت الهداية، افتحى هديتى اولًا!

وضعت حكمت طبقها على الطاولة وازالة غلاف العلبه من الورق الأبيض وفتحت العلبه وابتسمت بسعادة وهى تخرج مدق ويد الهون واحتضنتهم بسعادة حقيقية قائله وهى تضم الصغيره بيدها الثانيه وتقبل وجنتيها: اشكرك كثيراً كثيرًا كثيرًا يا صغيرتى، لقد فقدته منذ مدة واردت شراء اخر، شكرا يا صغيرتى.

وقد قاطع تلك اللحظه اللطيفة يحيى الذى أمسك بالكثير من العلب ووضعها امامها قائلاً بمرح: دورى الآن!

ثم أمسك علبه متوسطة قائلاً وهو يزيل غلافها: تلك هدية أمى إليزابيث لجوليانا.

ثم فرد الفستان البنفسجي وقد شهقت بسعادة وتلألأت عينيها بالدموع البلورية وهى تحتضن الفستان وكم تمنت لو كانت أمها جوارها الآن ولكن كل شئ بقدر ولكن ايضًا ليحل غضب الله على كاترينا وبلايو الذين فرقوا شملها وشمل اسرتها.

ثم مد العلبه الثانيه التى كانت تحتوى على اسوارة انيقة من الخرز من عدة طبقات قائلاً: وتلك هديه اخيلا.

وقد ارتدت الاسوارة بسعادة واثنت انطونيت على اناقتها.

ليخرج يحيى هديته ومدها إليها وقد أزالت الغلاف اذ بها دفتر وريشة قلم وزجاجات حبر للكتابة.

وقد اعجبت بها ولكن نظرت له بعجبه قليلاً ليُوضح: اريد منكى ان تخطى بيديكى كل ما مررنا به وسنمر به سويًا وحتى بعد وفاتى وتُهديه لابنائنا وتتوارثة احفادنا حتى لا تموت ذكرانا، فما عشناه أكبر من ان يُنسى.

هزت رأسها ومسحت عينيها الغبية تلك التي تبكى كثيرًا مؤخرا قائله: سيحدث يا حنا، سيذكر التاريخ ان فتى حارب العالم والدولة ليفوز بحبيبته، حُبنا لم يكن سهلًا ولن يكون سهل النسيان يا مالك قلبي.
انت طفولتى وشبابى وهرمى وحياتى، وعندما ندخل الجنة سندخلها ممسكين بأيدي بعض، انا احبك كثيرًا يا حنا.

رفع كفها ولثمه بهدوء واراح وجنته عليه يسرق الهدوء والسكينة في حياته المزدحمة العجيبة.

وقد داعبت وجنته بهدوء ونعومة متناسيان انطونيت التى نامت على الكرسى جانبهم!

جنون!!

ما يحدث الان ليس سوى جنون وحماقة لا شيء يليق على ما يحدث الان سوى الجنون والتهور والغباء.

فانساتى وسيداتى وسادتى نحن الآن في كتدرائية المُدينه وعلى موعد مع أهم حدث في تاريخ عائلة باخوميوس وفي سائر حياة النُبلاء، فنحن الآن ننتظر كما ينتظر يحيى وانطونيت وبلايو ومارلين وايفا وزوجها تيتوس وريموندا والقس على المنصه والمدعون قدوم العروس الغامضة التى لا يعرف أحد هويتها إلا القس.

فبطلنا الشاب المغوار والمجنون قرر منذ اسبوع مضى بعد حجز موعد الاكليل في الكنيسة اخبر أهله مثل الغرباء عن موعد زفافة وقد صدقت شكوك بلايو ومارلين فيه في الاونه الاخيرة سواء من عودته متاخرًا للبيت أو حالة الصمت والشرود التى تلبسته الفترة الاخيرة وعدم حديثة عن تلك الفتاه التى قال منذ أربعة أشهر انه قرر خطبتها، والأن كالاطفال سحبهم خلفه ولا أحد يفهم ما يحدث.

وبالاخص تلك الطفلة التى تُمسك بيد يحيى عند منصة القس ويتبادلون الابتسامات كل فترة حتى واخيرًا فُتحت ابواب الكتدرائية من قبل الحارسين ودخلت العروس التى لم تكون سوى حكمت وخالها أحمد وقد تابطت بذراعيه بفستانها السُكرى المنفوش وبهبعض الكسرات والطبقات والورود البيضاء والورديه والصفراء بيدها اليُسرى وازدلت فوق شعرها قبعه بلون الفستان وبها حجاب شفاف يغطي وجهها وبالرغم من نقص عينها الا ان من نظر بعينها اليُمنى الباقية لوجد سعادة واصرار وعزيمة ونصر.

بل النَصر هو الطاغى مشيتها وخيلائها وعينيها وابتسامتها.

نصر للفوز بالحبيب نصر لهزيمة الأعداء وأولهم بلايو الممتقع وجهه بدهشة من وقوفها هنا امامه وغضب ساحق من تحقق ما كان يخشاه، قد حطمت غرور الجبل بصبرها ومثابرتها ودعائها وصلاتها ونجحت وفازت بمن عانى وحارب مثلها.

استلمها يحيى وسلم أحمد انطونيت، ثم رفع حجابها الشفاف وعينيه تبتسم قبل شفتيه وهي لم تكن أقل منه حالاً.

قبل جبينها بهدوء ثم تابطت بذراعه وسعدت الدرجات المعدوده أمام القس ليقوم بتلك المراسم الشكلية لمدارات اسلامهم.

وهناك فى الجوار كانت مارلين لا تقل دهشه عن ايفا وريموندا وتيتوس الذين قد حضروا عذائها وكيف تعود من الموت بالتأكيد ما يحدث الان حلم سخيف وسيستيقظون.

لكن لا لم يستيقظوا فالقس الآن يقول جملته الشهيره "سيد حنا باخوميوس وسيدة جوليانا باخوميوس أعلنكما الآن زوج وزوجة!

—----------

الفصل السادس والعشرين

"الآن يا حنا ستشرح كل شيء واياك والكذب؛ انا ساموت يومًا ما وافعالك وافعال اخيك السبب."

هدرت بتلك الكلمات مارلين بمنتهى العنف والحدة في وجه يحيى الذى كان في مكتبة معها تزامنًا مع ضربها بعكازها الخشبى بقوة على الأرض الرخامية اللامعه.

بعد ان انتهت المراسم وعاد الجميع للقصر لتتضح خيوط اللعبة الجديدة للجميع.

عقد يحيى ذراعيه أمام صدره واتكا بظهره على جدار المكتبة الخشبية في مواجهة مارلين الجالسة على الكرسي المُنجد الواسع، وقد ألقى سُترته ورابطة عنقه على المكتب باهمال وحل اول زرين من قميصة الأبيض استعدادًا لتلك المواجهه العنيفة.

خلل أصابعه الغليظه بين خصلات شعره الكثيف ثم زفر بهدوء واخذ في الشرح والاستفاضة ويدية تتحرك بتناغم مع حديثة: امى، الوضع معقد، وما حدث لا يمكن شرحه لكن أريد منكى ان تفهمى ان جوليانا وعائلتها قد دُبر لهم مكيدة وجوليانا من تحمل الضرر كله وهي هنا لانها يجب ان تكون هنا، لانى احبها ولحمايتها، ولاسعادها، جوليانا تحبنى وسعادتى ستكون معها، ارجوكم دعونى اعيش ما بقى من عمري كما أريد، لا تكونى نسخه من أبى وبلايو وتحطمين حياتى ايضًا، أبى اجبرنى على ان اكون مثله وبلايو يتحكم بى كالدمية، لا تقفى في وجه سعادتى.

زفرت بقوة ونظرت للارض لعدت ثواني ثم عاودت النظر قائله بحده أقل: والجثث المتفحمه والعزاء والقبر، كيف تفسر كل هذا؟ ثم ضيقت عينيها بشك وتابعت: ثم من تلك الطفلة التى تُمسك بيدك وجئت بها إلى هنا؟

بمنتهى الهدوء والبرود أجاب وقد اتكأ مرة أخرى على جدار المكتبة الخشبية: لعبة قذرة من بلايو لتفريقنا، الأيام كفيله بفضح الأسرار وستعرفين ان الشيطان تجسد في بلايو لتحطيمنا؛ اما تلك الطفلة فهى يتيمة قريبة جوليانا من ناحية ابيها ولا يمكننا تركها وحدها ولا احد لها سوى جوليانا.

ثم تقدم منها وجلس امامها على ركبتيه قائلاً بهدوء وجدية: امي لا اجبرك على شئ ولكن جوليانا الآن زوجتي وفي مقام ابنتك هى تحبك وتقدرك ارجوكى لقد عانت الكثير من أجلى يكفى فقدانها عينها لا تكونى قاسية عليها، ارجوكى عوضيها عن الحنان الذي فقدته، لا اتحدث من منطلق الحب لكن جوليانا حقًا مسكينة.

هزت رأسها يمينًا ويسارًا بقلة حيلة ويأس ثم نظرت له مرة أخرى بعينيها المترهله قائله بحزم: أنت تعلم أنى لا أظلم احدًا وان جوليانا تعرضت للأذى بسببك وهى عندى فى مقام ابنتي لكن يجب ان أعرف كل شيء، وكما قلت الأيام كفيله بفضح الأسرار، ثم رفعت سبابتها بتحذير في وجهه بنبرة جادة مُتابعة: لكن أُقسم بيسوع ان خبأت أمر مهم كهذا ستخسرنى للابد، أنا أحبك لكن لا تدمر نفسك بيدك.

ثم وقفت واتكات على عكازة وهى تخطُ الى خارج المكتب تاركة اياه يزفر بسأم وارهاق من هذا التحقيق الذى الى حدًا ما انتهى على خير.

ألقى جسده باهمال وقوة على الأريكة الأنيقة البنية وفرد ذراعيه كل واحدًا في جهه عكس الاخر وبعشوائية مغمضًا عينيه لدقائق يتخلص من توتره قبل صعوده الى دُرته المكنونة بالأعلى حتى لا ينقل لها كمده وضيقه الآن.

ولكن فتح زرقاوتيه بملل وسْأم عندما استمع إلى صوت طرقْ على الباب وقد توقع ان تكون ايفا او بلايو والذى ان كان هو حقًا لا يدرى هل سيتمكن من تمتالك أعصابه امامه ام لا؟

فتح الباب وقد كان أخرى من توقع مجيئة إلى هنا وقد كانت انطونيت الصغيرة التى ارادت الحديث في أمر مهم انتبهت إليه في هذا البيت.

ابتسم بهدوء وهو يغلق الباب قائلاً: تونى الجميلة، ما الأمر؟

تلاعبت في أحدى خرزات فُستانها السُكرى الشبيه بفستان حكمت ونظرت له بجدية لا تليق بها موضحه: هل من الممكن ان اتحدث معك؟

رحب بسرور وامسك يده متجهًا إلى الاريكه وجلس إلى جوارها مثل الذى يجلس أمام النهر.

تسلل كفها الصغير الرقيق إلى كفه الضخم الغليظ قائله وعينيها الخضراء تلك تشع بشعاع البرئه والصدق: عندما كبرت امى اخبرتنى ان أبى أصبح ملاك في السماء وكنت احب امى كثيراً ولكن لم يحبها إلا القليل ومنهم خالة جوليانا وخالة إليزابيث وخالة ماريز والدة ماريا، واخبرتنى قبل ان تصبح ملاك أنك رجُلًا طيب وستحبنى، ولكن هل يمكن ان اناديك أبى وخالة جوليانا أمى، أم سيحزن أبى وامى؟

تجمعت غشاوة رقيقة في عينيه شوشوة رؤية زرقاوتيه من فرط المشاعر التى داهمته الآن.

وتلك الصغيرة تتلاعب باحاسيس الابوة التى يفتقدها بشدة ويخشى الرحيل عن الدنيا من دون ان يسمع كلمة أبى ولو مرة واحده فقط!

يخشى ان ينقطع نسلة وتتقطع ذكراه ولا يزور قبرة أحد ويصبح طى النسيان.

وتلك الصغيرة الآن تقدم له كل ما يفتقده على طبقًا من ذهب صافي مثل قلبها البرئ الذى لا يحمل من دنس الحياة شئ، وشفافيتها اعطته قدره في عينيها بصدق.

مسح بابهامه دموعه بسرعة ثم حملها واجلسها على فخذه وداعب وجنتها بحنان بالغ قائلاً: أقبل يا ابنتى، لقد قدمتى لي هديه تمنيتها كثيراً يا انطونيت، وامك وابيكى لن يحزنوا على العكس هم فرحون لان لا شيء ينقصك من دونهم، أقبل يا ابنتى.

جلست على فخذه بركبتيها وطوقت عنقه قائله بامتنان: شكرًا يا أبى.

أخذ يمسد على ظهرها بحنان وظل على وضعه عدة دقائق حتى أفاق على طرق الباب وقد قفزت انطونيت الى الباب حتى تفتحه وقد كانت ايفا التى تحمل صغيرها.

وقف يحيى لها لتبتسم بدورها قائله: جات لاودعك يا عمى تيتوس ينتظرنى بالخارج.

ابتسم بود وهز رأسه بالقبول وهو قبل صغيرها بين يديها ثم ابتعد مُردفًا: رعاكى الرب، لا تنسى غدًا سيأتى الرسام لاخذ صورة لنا.

عدلت وضع طفلها قائله: أعرف أمى اخبرتنى، ثم امسكت كف صغيرها تلوح به قبل الذهاب: هيا قُل وداعًا لجدك الصغير.

ضحك يحيى بصدق وامسك بيد انطونيت واوصلها للخارج.

ثم قرر الصعود إلى غرفته وغرفة حكمت مع انطونيت لتعرف الأخبار السعيدة لكن توقف عند الباب يسترق السمع إلى حديث أمه مع حكمت.

قبل قليل كانت حكمت تجلس مع ايفا وريموندا وانطونيت في غرفة ايفا القديمة.

كانت ما تزال بفستان الزفاف وبجانبها الفرد الجديد انطونيت ومدبرة المنزل ازادورا وامامها ايفا التى تحمل صغيرها ذو الشهر الواحد من عمره وريموندا اللتين ما تزالان في نفس حالة الدهشة والصمت من كل شيء يحدث الان.

سواء وجود حكمت امامهم والتى حضروا عزائها قبل سته اشهر تقريباً، وفقدًا إحدى عينيها وتلك الصغيرة التى معهم، كل شيء يحتاج التفسير.

نظفت ريموندا حلقها قائله بهدوء وجدية: جوليانا، اعذرينى لكن نحن الآن عائلة واحده؛ هل يمكنك تفسير ما يحدث الان؟!

بللت حكمت شفتيها المُزينة باحمر الشفاه الوردى قائله بهدوء: لقد حدث لى ولعائلتى حادث ودبر احدهم لنا مكيدة، وانا من تضرر وعينى كانت النتيجة اما امي واخى بخير لكن تركوا مدريد اما انطونيت هي من اقربائى وقد رحل والديها وليس لها أحد غيري.

ضمت ايفا شفتيها باسف قائله بود حقيقى لا تكلف فيه: يا عزيزتى لقد عانيتى كثيراً.

ثم تابعت ريموندا بهدوء: انا سعيده لاجلك يا جوليانا واتمنى من الرب لكى حياة زوجيه سعيدة.

هزت رأسها بامتنان لهم وشكرتهم وقد همت بالحديث لولا طرق الباب ودخول بلايو المسبب للحرائق.

تجهم وجه حكمت ورفعت ذقنها بأنفة وغرور ناظرة اليه بتحدي وثقة وقد فرغت الغرفة من كل من فيها بأمر متعجرف وقاسى من بلايو وظل هو وحكمت سويًا.

النار بجانب القار ولا أمان في الدار!

جلس بلايو بخيلائة نافشًا ريشة كالطاووس واضعًا ساقة فوق الأخرى يأسر بين شفتيه ابتسامة تهديد وسخرية واهية بالنسبة لحكمت.

ضيقت عينيها بشك وتساؤل: كيف لم تكتشف من زوجة اخيك؟ اعنى لماذا لم تُرسل جواسيسك خلفه؟

حك أذنه ببرود يدارى خجله من الهزيمة النكراء تلك موضحًا: قد كان كالاشباح يقفز ويختفى ولا تعثر عليه عينى، لأول مره افشل امامة ويكون هو بكل هذا الذكاء.

ثم اهتز جسده لثوانى عندما ضحك بسخرية قائلاً: لقد غركى ما اصبحتى مقدمة فيه الآن، لكن عندي سؤال هل تقومين بالسحر؟ لأنه من غير المعقول ان تنجين من كل ما سبق ومن اقبية الكنيسة، الأمر مشوق حقًا.

امالت رأسها مُردفه ببرود: ليس من شانك المهم اننى انتصرت في النهاية وبات الحلم حقيقة، فلا تُتعب نفسك بافعالك المُشينة تلك لان الأمر انتهى، ثم نظرت له بتقزز ووقفت قائله وهى تهم بالخروج من الغرفة: يكفى ما فعلته بروزتينا وتدمير حياة تلك الطفلة المسكينة.

ثم خرجت براحة بعد ان افرغت ما في صدرها صافعه الباب خلفها بقوة قاصده عُش الزوجيه بالأعلى حاملة فستانها الثقيل بخطى سريعة.

اما بلايو فقد ابتسم بسخرية مريرة من هزيمته الساحقة تلك واخرج سيجارة الشبيع بالبوق الموسيقى واشعل فوهتها بالكبريت نافخًا دخان سيجارة لاعلى بسخرية قائلاً: ليحترق العالم وتحيى السُلطة، نخب بلايو الخاسر!

وعلى الناحية الأخرى دخلت حكمت غرفتها وقد ارغمت عقلها على النسيان والتناسى ما قد حدث منذ دقائق معدودة بالاسفل مع بلايو، فهى الآن في عالمها الخاص مع فارسها المغوار وغرفتهما لن تكون وكر للشجار والمشاكل اطلاقًا بل عُش الحب والألفة والسعادة بينهم.

فتحت الخزانه واخرجت الفستان البنفسجي الذى اعدته أمها من قبل وتنفيذًا لامرها ارتدت ذلك الفستان وصففت شعرها القصير حول وجهها بعشوائية لطيفه وجلست على الأريكة تنتظر قدوم يحيى بتوتر وسعادة.

نعم سعادة لان علاقتهم باتت شرعية أمام الجميع وقد اعترفت بها الكنيسة والدولة وبلايو وبالاخص بلايو ولم يعد هناك أى عوائق أو حواجز تحول بين قلبيهم وحبهم فباتت حياتهم اخيرًا مُرتبطه برباط مقدس قوى من عند الله، وتوتر لانها قررت اعطائه ذلك الحق الذى منعته عنه منذ ان تزوجها في المغرب وقد أقسم ان لا يلمسها إلا بطلبها وارادتها حتى تتعافى روحها قبل جسدها.

هي تعترف روحها لم تُشفى تمامًا لكن تريد الكمال الغير موجود بالدنيا لها وله، تريد ان يمتلكها وتمتلكه ويكتمل ركن الزواج الأساسي العفة من الخطيئة والعصمة من الشهوة.

وفوق هذا كتابها الذى بدأت بخطه منذ بضعة أيام لا بد من وجود ورثه تستلمه وتسلمه لاجيل واجيال حتى تحى ذكراهم ولا تموت ابدًا، وغير هذا نظرات الابوة والشوق لابن ايفا وانطونيت تلك اشعلت الحزن والشفقة تجاهه، أفلا يكفى ما يغمرها به من حنان وسعادة لترده له بهدية صغيرة وطفل يحمل اسمه ومن صلبه؟!

افاقة من شرودها هذا واعتدلت في جلستها سامحة لمارلين التى استاذنت بالدخول بان تدخل.

ابتسمت حكمت لها وبالمثل مارلين وجلست على الأريكة جانبها ثم وضعت عكازها الخشبى على المسند وامسكت يدي حكمت قائله بود: جوليانا، ابنتى الجميلة، لقد عانيتى كثيراً ومثلك حنا للوصول إلى تلك اللحظه، من الآن وصاعدًا انا أُمك يا ابنتى لا تخجلى من الحديث معى او طلب شئ، وانصحك بان تكوني سر زوجك وغرفتكما للحب والسعادة ولا تجعلين الهجر يعرف طريقًا لكما، وجددى الحب بالود والرحمة بينكم، واياكى والشك والمقارنة وكثرة الملامة فانها مُدمرة للحب والسعادة بين الأزواج، اتفقنا يا ابنتى؟

قبلت حكمت رأسها ويدها قائله بامتنان: اشكرك يا امي علي معروفك هذا.

ربتت مارلين على كتفها وامسكت عكازها واتكات عليه قائله وهى تهم بالخروج: باركك الرب يا ابنتى، ساذهب وانادى حنا.

ولكن قبل ان تقترب من الباب قد طرق يحيى وبيده ان ثم دخل قائلاً بمرح: حنا هنا يا مارلين الجميلة.

ربتت مارلين على كتفه قائله بمرح وهة تهم بالخروج: اترك القليل من الغزل لزوجتك يا رجل، تصبحان على خير.

لكن توقفت للحظة تنظر إلى من بعمر احفادها قائله بلُطف: وانتي انطونيت أ لن تنامى لقد؟ تاخر الوقت.

هزت انطونيت رأسها الصغير قائله: بلا سيدتى ساقول لماما جوليانا تصبحين على خير وسأنام.

ثم اتجهت إلى جوليانا قائله ببرائة جعلت قلب حكمت يرفرف فى قفصة الصدرى وقد اعطتها شعور الامومة بسخاء وبلا سابق انظار وقد كان عناقها مختلفًا مع نُطق كلمة أمى: من اليوم تُصبحين على خير أمى، لقد اخبرت أبى وقال ان أمى روزيتنيا ليست غاضبة من ذلك.

ابتسمت حكمت بقوة وكورة وجهها الصغير قائله: بالطبع ليست غاضبة منكى بل سعيدة لانكى تعيشين بسعادة.

ثم قبلت رأسها وفرت الصغيرة إلى يد مارلين التى كانت تنتظرها وحالها لا يقل سعادة وشفقة على تلك الصغيرة مثلهم، وذهبت إلى غرفة النوم التى احضرها يحيى في ذلك الاسبوع الحافل.

أصبح الجو خالى إلا من عاشقين وعشقهما.

وقد كان العاشق ينظر إلى معشوقته بهيام وحب وسعادة وقد زادها اللون البنفسجى جمال وبهاء واثبتت طلتها انه يجب عليها الولع باللون البنفسجي لا حبه فقط لما يعطيها من طله جميلة ورقيقة.

طوق خصرها وبلمثل فعلت بعنقه ليهمس بحرارة وسعادة: اخيرًا يا حكمت، اخيرًا اجتمعنا بعد عناء، الحمدلله على لم شملنا، انا لا أدرى كيف بدأ كل هذا؟ ومتى حدث كل هذا الضجيج؟ لكنى أعلم انكى الشئ الوحيد الذى اتمناه، وقد حاربت لاجلك، انتِ لى فقد اقسمت بالله الواحد الأحد ان أركب فرسى واشحذ سيفى واهيم على وجهي في الحروب والمعارك ولن اتنازل عنكى ابدًا، وقد ظفرت لان الحبيب الحر يسعى للحبيب، العالم من دونك شئ قبيح وبشع لم يكتمل بعد.

نظرت بعينها اليُمنى إلى زرقاوتيه هامسه بصدق: انا أحبك يا يحيي منذ ان كنت طفلة تتسلق ظهرك وتركب امامك الفرس وتحضر لها الحلوى وعلمتها الفروسية وهى صغيرة انا أحبك يا رجلى الأول والاخير، أنت روحى وزوجي وحبيبي وابنى وابى، اقسمت بالله العلي العظيم ان ارد حبك اضعافة واغمرك في ثنايا قلبى بالعشق والهوى يا مالك قلبي، انا أريد ان أكون زوجتك الليلة، سيكون لنا أولاد كُثر ان شاء الله يحملون اسم يحيى ومن صلب يحيى ودماء حكمت، مسلمين اندلسين، وسيرثون الكتاب الذى خطته لهم وستعيش ذكرانا ان شاء الله إلى الأبد فهل تقبل بى زوجه لك؟

فتح عينيه بنشوة وسعادة من موجة المشاعر العاصفة تلك التي داهمته منذ قليل وقد كانت كل كلمه تزيد الحب والمودة بينهم اكثر من قبلها وها هى تُكمل الرباط المقدس بينهم وتطلب ما يموت شوقًا إليه ويمنعه خوفه عليها من طوفان عشقه الذى سيغرقهما الآن.

قبل جبينها واحاط وجنتها بكفه الضخم الدافئ هامسًا بصوت متحشرج: أقبل بكى زوجه يا حكمت.

——----------

الفصل السابع والعشرون والاخير

قد مرت الساعات والليالى والايام والاسابيع واجتزنا الشهور والحب يزداد ويشتد ويقوى بين قلبين أبىٰ الله إلا ان يجمعهما في حلاله وبسعادة وتفاهم وود ورحمة.

كانت حديقة القصر مُزدهره وازدادت إزدهارًا بتلك الورود والازهار والاعشاب التى غرستها حكمت في تلك الحديقة، والروائح العطرة والوصفات الطبية التى ملائت القصر وجدرانه، وتلك الصغيرة التى اضافت إلى حياة الزوجين وحياة مارلين وريموندا الفارغة طعم من المرح والسعادة افتقده الجميع بلا استثناء.

وبالاخص ريموندا التى باتت تشعر بالفراغ والفتور يحيط بقلبها وعقلها من كل جانب بعد زواج ايفا وانشغالها بطفلها وسفر ديف منذ خمسة سنوات، ولا تقولوا بلايو سيتكفل بالحب والود لا، فزواج بلايو منها لم يكن إلا شكل اجتماعي فهى ابنة دوق وهو يحب السطلة وهى أسهل وسيلة للسلطة حتى ولو بطريقة غير شرعية، فلم يدق الحب باب زواجهم ابدًا على عكس يحيى وحكمت يتمامًا.

فيكفى أنه منذ مدة ارادت حكمت وضع رقعة عين حتى لا يخجل من شكلها مع اقاربة واصدقائة من السادة وقد رفض تمامًا واحرق تلك الرقعة متعللًا بأن الله وهبه في عينيها لؤلؤه وقدح قهوه وكلاهما اروع من الآخر.

وها هو جدار البيت يشهد بذلك التحول الجذرى في حياتهم وحياة العائلة بعد ان رحل الرسام وتعلقت تلك الصورة التى تضم بلايو ومارلين وريموندا وايفا وتيتوس ويحيى وحكمت وانطونيت وقد ادرك بلايو المعمية عينيه ان حكمت وانطونيت حقًا باتوا من العائلة، وها هى زوجته تقربت منها وبالمثل مارلين وايفا عندما تاتى للزيارة وبات هو نسيًا منسية، ولكن هو من فعل بنفسه هذا لم يحب ابنائه او زوجته أو اخيه وامه كما يدعى وينبغى بل احب السلطة اكثر واكثر وفعل كل ذنب وقبيح غير مكترث لعاقبتة في الآخرة.

وان كنتم تتسائلون عن خديجة وطارق فاقول هم في خير صحه وعافيه وقد بدأ طارق بالعمل في مراكب السيد خطابى إلى جانب دراسته وزاع سيط خديجة بين أهل الحى بمهارتها في الحياكة والتطريز وباتت حياتهم مستقرة لا ينقصها إلا حكمت.

وهناك فى غرفة نوم العصفورين قد صففت حكمت شعرها الذى تطاول قليلاً ولامس كتفيها، ومن خلفها يحيى الذى اضجع على السرير معطيها ظهره في حالة من التية غريبة بمر بها في الاونة الاخيرة منذ مدة.

تركت الفرشاه على التسريحة واندست جانبه اسفل الغطاء ومررت يدها على كتفه حتى تقلب واخبا رأسه بين احضانها وطوق خصرها بذراعيه ساحبًا أكبر قدر من الهواء ثم زفر بهدوء وراحه واصابعها الرقية تلاعب خصلات شعره الكثيف ليتحدث بهدوء مغمضًا عينيه يفرغ حمل صدرة: منذ مدة قدمت طلب استقالة من محكمة مدريد واستقلت الأمس وعدت إلى الشرطه وغدًا ساستلم العمل، فكرت مليًا ووجدت اني غير مرتاح نظرات الأسرى تعطيني احساس بالذنب وغير هذا انا احب التحقيق والبحث والتحرى الجلوس على المكتب لا يليق بى.

ضحكت بهدوء غير مصدره صوت وشدة على عناقة بقوة وسعادة وقبلة رأسه بحنان قائله: خيراً ما فعلت يا يحيي دعنا نبدأ حياة هادئة، عندى خبر سار لك.

خرج من احضانها واعتدل في جلسته ونظر إليها باهتمام لتبتسم بصدق وسعادة وتُمسك كفه الضخم وتضعه على رحمها قائله بفرح: منذ مدة شعرت بالتعب وشكت ريموندا وامى مارلين بالأمر وجأئت بالطبيبة وصدق حدثها وانا حامل منذ شهرين يا يحيي، سيأتى وريثك إلى الدنيا قريبًا ان شاء الله.

لا أدرى ولا حكمت تدرى كيف فعل يحيى ذلك لكنه بلمح البصر كان يحملها بين ذراعيه القوية ويدور بها في الغرفة صارخًا بسعادة: الله! ساصبح اب، سيأتى طفلى للدنيا، وانتى امه!

ضحكت بسعادة ومرح وقد انزلها بعد ان أدرك خطر ما يفعله وقد ارتمت في احضانه وصدورهما ترتفع وتهبط بقوة من فرط الضحك والسعادة وقد رفع ذقنها قائلاً بحب: الشكر لله ثم لكى على كل هذه السعادة انا مدين لكى بحياتى كلها ولن تكفى.

هزت رأسها بالنفى موضحه بصوت دافئ وناعم: بل الشكر لله ثم لك لانك لم تاركنى وأنا في عز ألمى ومحنتى وضعفى وضحيت بالعالم كله من أجلى، احبك يا يحيي كثيرًا.

وقد مرت السبعة أشهر بسلام وسعادة وانجبة حكمت صبى يشبهها كثيرًا في لون العينين والشعر وسماه يحيى ادواردو ليحى ذكرى صديقة وبنفس الوقت حمزة لعشقه لشخصية حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول الذى لحبه له وللحمية والرحم اسلم وكان أسد الله وكم شبهة قصة إسلام سيد الشهداء بقصة اسلامة.

ومر عامين وانجبت تؤم صبى وفتاة سرقوا الشبة من ابيهم بقوة وسمى الصبى بعبدالله سرًا ومارك للعامة والفتاة مريم وفي العلن ماري.

وازداد عدد اللوحات الخاصة بالعائلة لتنتهى بلوحة تجمع ابناء يحيى الثلاثة وانطونيت وحكمت مستقلة تظهر شيب وتقدم عمر يحيى صاحب التاسعة والاربعين من عمره وجمال حكمت ذات الستة والثلاثين ربيعًا وقوة ابنائه ورحلت مارلين عن الدنيا وسُجى جسدها لمثواها الأخير وقد مر على تاريخ 1820 أربعة عشر عامًا من الحزن والفرح والسعادة والفراق والحب والام والمكائد والغضب والهجر.

وبالرغم من تلك الحياة الحلوة الهادئة مع أبنائها ومالك قلبها إلا ان ينقصها أمها وطارق لا تريد شئ من الحياة غير عائلتها واحبتها كلهم حولها وقد توعد يحيى بلم الشمل والتجمع مرة أخرى لكن متى هذا؟

ولكن اليوم فريد من نوعة ومميز جدًا في تاريخ الإنسانية والاندلس فاليوم هذا ذلك الذى ستُعتق فيه رقاب وينفُذ القسم ويتحقق العدل ويثبت الانتقام.

فاليوم هو 1834/7/15 وان كنتم لا تعرفون فاصمتوا وتابعوا القادم فالامر مُثير للغاية.

حول طاولة الطعام قد ترأس الطاولة بلايو بعد وفاة مارلين والى جانبه ريموندا ويحيى وحكمت وابنائه الاربعة المتفاوتة اعمارهم من عشرين سنه إلى عشرة سنوات.

كان في فخر وعز بين عشيرتة الصغيرة التى يتمنى ان تكبر اكثر وتزداد اكثر واكثر ولكن يكفى ما حدث في اخر ولادة والتعب الذى تعرضت له حكمت فيها.

كانت وردية عمله مسائية وقد كان يتناول العشاء الأخير وستفهمون لماذا هو الأخير بعد قليل.

انتهى العشاء ودخل الجميع إلى غرفهم وتاكد من نومهم ثم دخل إلى غرفته وبها حكمت التى قد اخرجت له ثيابة وسلاحه وعطره.

ابتسم بود وعانق خصرها من الخلف واستند بذقنة على كتفها وبالمثل شدت على عناق يديه ومالت برأسها على وجنته قائله: حماك الله ورعاك يا حارسى ووطنى، فلا وطن لى سواك.

قبل وجنتها هامسًا: وطنى الوحيد هو قلب العصفور الذى تملُكيه يا سُكرتى.

ثم التفت تنظر اليه قائله بقلق: هل تظن أنه كان من الصائب أخبار الأولاد عن الإسلام وبالاخص الصغيرين؟ اعنى انطونيت تقبلت الأمر وحمزة لكن أشعر بان عبدالله ومريم مُشتتين، في حالة تيه دائمًا ولا استطيع اخراجهما من تلك الحالة، أعنى كان علينا الإنتظار قليلاً لقد تسرعنا بالاخص مع الصغيرين.

ابتسم بهدوء وأعاد تلك الخصلة الشاردة من شعرها خلف اذنها قائلاً بعقلانية: أمر طبيعي، مثلًا انا قبل ان أُسلم وعرفت انكى مسلمة كنت مشتت تمامًا وبالمثل انطونيت وقبلت بالامر عندما خيرناها بين دينها ودينا وكذلك طارق اجبرنى بأنه مشتت، الأمر طبيعى وعن قريب سيعودون لطبيعتهم، وغير هذا كان عليهم المعرفة يا حكمت حتى يعتادوا ولا يسألوا أسئلة نعجز عن اجابتها هذا أفضل للجميع يا سُكره.

ضمت شفتيها بقلة حيلة وسأم قائله: اتمنى من الله هذا.

ثم قلب يحيى عينيه بملل وسأم عندما استمع لصوت بوق العربة والخيل ليصبح في تزمر اضحكها: آه يا الله! لماذا كان علي الترقى واصبح لواء انا رجل عجوز لا طاقة لى بهذا؟!

كان الوضع عادى وعلى ما يرام مثل أى يوم فمنذ ان نُقل ديغو إلى قرطبة وبات لا يأتى إلا في الأعياد والاجازات بات لا يؤنس ليله في عمله أحد، بالرغم من كثرة معارفه وزملائه هنا إلا ان لا أحد يحتل مكان ديغو وادواردو الراحل ابدًا.

نظر في ساعته الذهبية وقد كانت تُشير الى الثانية صباحًا وقد اقترب موعد الفجر.

حك عنقه بارهاق ومسد عضلاته ثم زفر بملل واتجه إلى الحزينة المعدنية في زاوية المكتب واخرج المفتاح من جيب سترته ليفتح الخزينة التى تحتوى على ما هو اهم واعظم وافضل من أى ذهب وفضة ولؤلؤ، بل كانت تحتوى على جموعة أوراق خلاصة تحرياته وتعبه وشكاوى المظاليم وادلة جنائية على بلايو من أصدقائه ومساعديه وكل من أُذى بسببه يومًا ما سواء بائع السم الذى قدمت زوجته شكوى في ذلك الأحدب وبعد البحث والتقصى اكتشف انه ذلك الأحدب، وحادثة تسمم حكمت وحادثة التشهير بها وقتل روزيتنيا وقتل واذية كل من فكر في الوقوف امام وجهه.

منذ ان حصل على تلك الأوراق تمنى ان يقدمها وفي الحال للملك ليأخذ بلايو جزائه فيكفى ظُلمه الفج للجميع لكنه ينتظر الفرصة التى يمكن فيها ذلك ولكن ليس قبل تدمير محكمة مدريد فعلى مدار ثلاثة عشره سنه من زواجه من حكمت وهو كل يوم وليلة يُفكر في الانتقام والاخذ بثأرها وحقها مِنْ مَنْ سلبوه وامتهنوه عنوة وحق كل مظلومًا مثلها وقد بزل جهود لمحاولة اسقاطها إلا انها باتت بالفشل الشنيع.

زفر بهدوء وعاد الأوراق لمكانها واغلق الشموع ومكتبه ليغادر مخبرًا مساعده بأنه ان حدث شئ يرسل في طلبه من المنزل.

ركب فرسه وقد أراد الشعور بنسمات الهواء العليل تداعب شيبته وتجاعيد وجهه التى دائمًا ما تمتدحها حكمت وتثنى على وقاره وهو بالمثل على جمالها وشبابها ويحاول دائمًا ان يُنسيها هو وابنائه أمر اعاقتها المكتسبة تلك وكلما سأل الأطفال الصغار عن سبب ضياع عينها كانت الإجابة سقطت وهي صغيرة على السلم.

ابتسم لا ارادِيًا عندما تذكّر حكمت وابنائه عمار حياته وأُنس قلبه.

ولكن الضحكه اختفت ما ان استمع إلى صوت شجار وقتال بالسيوف حاد ليقبض على سيفه ويقترب من مصدر الصوت بحذر يشاهد ما يحدث من بعيد ويدرس الوضع قبل التدخل وإذ به يرى جندى فرنسى يتناوش مع جنديين من محكمة مدريد ولكن تفرقوة عندما مر الجنود الفرنسين الذين يقومون بالمناورة ليلاً على اثر الصوت وبداوا باطلاق النار وقد فر جنود المحكمة.

اخذ يسترق السمع لهم واذ به يقول الضابط المدعو مارشال سولت: لقد بلغ هؤلاء الهمج حدهم وعلى أحد ايقافهم، هيا بنا علينا اليوم دك المحكمة فوق رؤوسهم.

ثم ركبوا خيولهم مُتجهين إلى ثغرتهم العسكرية وظل يحيى يتبعهم على فرسه حتى وصل الى نقطة خالية ليصيح بأعلى صوته: توقفوا عندى حديث مهم لكم، اسمعونى سوف اساعدكم، أنا ضابط سابق بمحكمة مدريد!

توقف المارشال والجنديين ونظروا اليه بشك وريبه، ولكن خالف ريبتهم بعض الشئ عندما هبط يحيى من علي خيله والقى سيفه وسلاحة النارى ارضًا ورفع يديه باستسلم تام لهم.

أشار المارشال إلى أحد الجنود براسه وقد اقترب من يحيى وفتشه بالكامل قائلاً بعملية: نظيف يا حضرة المارشال.

اعتدل يحيى في وقفته وضم كفيه على بعضهم قائلاً بهدوء: لقد رايت ما حدث وكنت ساتدخل لولا جنودك، ولكن ان كنت ستهدم المحكمة فانا هنا لأساعدك لقد عملت هناك لمدة ويمكننى أخبارك باضعف نقطة للاقتحام.

رفع المارشال أحد حاجبيه دون الاخر قائلاً: أفصح.

اخذ يحيى يشرح موضحًا: تحتاجون سلاح ومدافع السور منخفض لكن مليئ بالحرس والجنود المسلحين والابواب قوية لن يهدمها سوى المدافع، واحذروا هؤلاء القوم غدارين وهمج سيدعون البرائة واللين وان سلمت واستسلمتم لن يترددوا في قتلكم.

اقترب منه المارشال عاقدًا ذراعيه خلف ظهره قائلاً بتساؤل: لماذا تساعدنا ما دمت اسباني وعملت هناك رتبتك كما أرى كبيرة في الدولة أ ليس هذا جنون؟

ابتسم يحيى ابتسامه جانبية وألتقت سيفه ووضعه في غمده وسلاحة النارى في حزامه ثم ركب فرسه قائلاً بجدية واصرار وقد أدرك ان الان هو الوقت المناسب لكى يدفع بلايو الثمن: عندما ترون الأسرى وحالتهم البشعة ستعرفون لماذا فعلت ذلك، انا اسبانى ولواء شرطه لكن حر لا أقبل الظلم.

فر يحيى بخيله من امام المارشال الذى بقى على حالة الشك تلك وقد ذهب هو ايضًا مع جنوده لاحضار العتاد والرجال.

وقد أقبل الشروق وتجمعت مجموعه كبيرة من الجنود الفرنسيون أمام محكمة مدريد وقد كان السور منخفض وعليه مجموعه كبيرة من الملثمين يحملون البنادق وقد تسائل احدهم قائلاً بصوت جهورى: من انتم؟

أقبل من الباب جندى فرنسى يحمل ورقة ملفوفه قائلاً: بسم الملك وفرنسا نأمركم بتسليم الأسرى ومفاتيح المحكمة وتطبيق قانون اللورد نابليون بونابارت والغاء هيمنة محاكم التفتيش.

رد الملثم: لحظة واحده اخبر البابا بقدومكم.

ثم اختفى للحظه وعلى حين غره هبط وابل قوى وبشع من الاعيرة النارية على رؤوس الفرنسيون وقد اخذوا بالتدرع ومبادلتهم إطلاق النار وضرب الباب بالمدافع بقوة حتى تهدم وسقط قتلى من الطرفين.

دخل المارشال والضابط دى ليل والجنود من خلفهم مقتحمين القاعة الرئيسية التى كانت افخر من قاعة قصر الملك سواء من النجف من الذهب والكرستال وصورة مرسومه بطول الحائط للبابا المؤسس لمحاكم التفتيش عند سقوط الأندلس وشموع عطرة وسجاد كبير بقماش فاخر وكراسى مساندها من الذهب واوانى الشرب والطعام من الفضة.

أقبل عليهم الضابط المسؤول والبابا بمنتهى البرائة والرقة وكانه لم تحدث معركة بالخارج ليتسائل بقلق مزيف: خيراً يا بنى لا يمكن ان تتعدوا على حرمات الرب بتلك الطريقة.

ابتسم المارشال بسخرية قائلاً: سنرى من يتعدى على حرمات الرب الآن.

ثم أمر الجنود بالانتشار والبحث عن الزنازين والاسرى ولكن لم يجدوا أى شيء او اى احد وباتوا يفقدون الأمل والبابا والضابط والجنود يبتسمون بنصر وقد مر وقت وبلا فائدة ليصيح المارشال بيأس: هيا بنا يا جنود.

لكن اوقفه الضابط دى ليل وقبض على كتفه قائلاً بيقين وشك: انتظر لم ننتهى بعد.

تحدث المارشال بضيق ويأس: لم نجد شيء، ما الذى تنتظره؟

نظر دى ليل اسفل قدميه قائلاً بشك: السر أسفل الأرض.

ثم أشار الى الجنود قائلاً بأمر وقد لاحظ خوف وارتباك الضباط والبابا: ارفعوا السجاد واسكبوا الماء على الأرض.

وبالفعل حدث ما قال وظل يتبع انتشار الماء حتى بدأ بالانحدار عند نقطة ما ثم تسرب منها ليصفق الضابط دى ليل بحماس ويصيح بنصر: الم اخبركم، هيا افتحوا الباب.

ازداد توتر الضابط والبابا وبدأ الخوف جليًا عليهم والجنود الفرنسيون يكسرون الباب بمقابض السيوف والبنادق بقوة حتى انكسر الباب وقد كان يُفتح بحركة خبيثة من عند المكتب البابا بزر وترس يرفع الباب.

أمسك المارشال بشمعة عطرية طولها متر وقبض على كتفه البابا قائلاً بمسكنة: لا تلوث الشمعة الطاهرة بيدك المخضبة بدماء الابرياء.

نفض المارشال يده قائلاً: سنعرف الآن من صاحب اليد المخضبة بالدماء.

هبط المارشال ودي ليل والجنود الفرنسيون وقد وصف دى ليل في مذكراته ما رأى بابشع ما رآه في حياته.

اذ رأى زنازين طوليه بحجم السجين يظل واقف حتى الموت وبالمثل بالعرض وألات التعذيب والمساجين الذى يسترون عوراتهم فقط وقد خلع الجنود ملابسهم لستر النساء والرجال وخرجوا بهم للضوء على مهل لمدة ساعة حتى لا يصابوا بالعمى من شدة الظلام الحالك بالاسفل.

وبسرعة الضوء انتشر الخبر في ارجاء مدريد وتجمعت الاهالى واهالى المساجين وطبقوا حكم الإعدام في العساكر والضباط والبابا وما هى إلا نصف ساعة حتى انتهى رعب محاكم التفتيش وجاء الحق وبر يحيى بقسمه بتدمير تلك المحاكم وكل من ظلم حكمت.

وعلى الناحية الأخرى قد عاد يحيى واحضر الأوراق التى تُدين بلايو وذهب إلى قصر الملك واضطر للانتظار حتى يتجهز ويهبط اليه بعد اصراره بأنه امر مهم وعاجل لا يقبل التأخير وقد أشرقت الشمس وأقبل الصباح وسمحوا له بمقابلة الملك وقد أطلعه على الأوراق ومعه مساعد بلايو فرانسيس الذى اصيب بشلل في ذراعه الايمن وقد أيقن ان هذا جزاء ما اقترفت يداه واراد تطهير نفسه قبل مقابلة الرب واعترف للملك بكل شئ ليتخذ القرار بعزل بلايو ومحاكمته تجاه أعماله غير المشروعة.

قد كان يحيى مُطأطأً رأسه في حضرة الملك حتى رحل فرانسيس وتحدث الملك بفخر: الشكر للرب لأن دولتنا فيها رجال أوفياء مثلك يا حضرة اللواء حنا بالرغم من كون بلايو اخيك إلا أنك وضعت مصلحة البلاد صوب عينيك شكرا لك.

هز يحيى رأسه بازعان قائلاً: هذا واجبى ان أحمى البلاد من الخونة والاعداء.

هز الملك رأسه بالموافقة وقد كاد ان يتحدث لولا اقتحام أحد الحرس الباب مُسرعًا بتوتر يحمل الاخبار الجديده وقد انحنى بسرعة واعتدل تحت انظار يحيى والملك وزجته واولاده ووصيفة زوجته ووزيره المقرب ليتحدث بتوتر قائلاً: حضرة الملك لقد اقتحم الفرنسيون محكمة مدريد واسقطوها وقتل العامة كل من فيها.

التفت يحيى بسرعة إلى ذلك الرجل وقد اتسعت عينيه بسعادة وفرح لكن كبح ابتسامته وفرحه وأدعى التاثر وهو يرى الملك بدأ بالاختناق واقترب منه الجميع بساعدونه حتى يتنفس وناوله يحيى كوب ما وقد شربه وهمس بصعوبة: ضاعت هيبة الدولة، أعلن من اليوم نهاية محاكم التفتيش في البلاد.

ثم أشار لوزيره قائلاً بصعوبة: نفذ الحكم واعزل بلايو باخوميوس وخذ قوة إلى قصره حالًا.

وما ان سمع يحيى هذا حتى تراقص قلبه فرحًا وقد حقق قسمه بفضل الله وارجع بعد ثلاثة عشر عامًا حق حكمت في الدنيا.

قد مر اسبوع على كل تلك الاحداث والتفاصيل المُبهرة والمُهمه وقد دخل بلايو السجن أخيرًا وتحقق العدل وما كان من ريموندا سوى التسليم بالأمر الواقع وقد شعرت حكمت بالذنب تجاهها وقررت مواستها بعد ان قُبض عليه من قلب القصر تحت انظار الخدم والجميع _وقد تهاوى على حكمت بالسب والقذف البشع لولا انها أمسكت بحمزة ابنها لكان ضرب بلايو بلا تردد وقد كان بلايو لا يحب ابناء حكمت من الأساس متعللًا بانهم أبناء المشكوك في كثلكتها، وبالطبع نال يحيى جزائه من الوعيد والسب والقذف مثلها ولكنه فضل استراتيجية البرود وهي يرى ثورة أخيه الذى كان في يومًا من الأيام أباه ومثله الأعلى لكن حب السلطه أعمى بصره وجعله يكره كل من يقف فى وجهه ولم يتخيل يحيى ان تؤول الأوضاع لتلك المأساوية لكن انك لا تجنى من الشوك العنب!_.

تذكّرت حكمت كلمات ريموندا التى جمعت اغراضها وتركت القصر قاصدة بيت ابنتها حتى تعيش فيه"أنا لا اكرهك يا جوليانا ولا ابغضك صدقينى بلايو أخذ جزائه لقد كان قلبه أسود لم يُحبنى يومًا أو حتى أحب ابنائه على العكس كنا مجرد تُحف مثل اللوحات الانيقة يتباها بنا فقط من أجل صورته الاجتماعية، علمت باذيته لكى وحاولت اثنائه لكنه ضربنى ورفض وهذا جزائه العادل يستحق هذا حقًا لو كان به خير لبكت بناته لكن على العكس الجميع بات حر ويمكنه العيش بحُرية الآن، فقط نصيحتى قبل ان اترك القصر حنا يحبك يا جوليانا بشدة لا تخذلية وبادلية الحب، نادرًا ما نجد رجل في هذا العالم يحب زوجته بحق مثله، اهتمى بابنائك وكبريهم وحبيهم فهم سندك وعزك في الدنيا، وداعًا يا اختى الصغرى، قد نلتقى لكن الرب وحده أعلم متى اللقاء الثانى. "

ولكن الجانب الرائع ان يحيى يُقسم ان حكمت بعد سجن بلايو وانتهاء محاكم التفتيش قد عادت حكمت الصغيرة الخجولة المرحة المُقبلة على الحياة لا تلك التي لا ينطفئ الحزن من عينيها، تذكّر كيف بكت بعد عودة حقها وشكرته وظلت الليل كله قائمة لله تشكره على فضلة وكرمة معها وتدعى ليحيى وابنائها، الان بعد ان سقطت حكمت يمكننى القول ونهضت حكمت!

تحلق يحيى وحكمت وانطونيت _التى اختارت اسمًا لها بعد اسلامها وكان ولادة لغرامها باشعار ولادة بنت المستكفى وقد سمعت عنها الكثير من حكمت _وحمزة وعبدالله وماريا في حلقه صغيرة وقد كانت ابنتيه ولادة ومريم بين احضانه والى جانبهم حكمت وعبدالله وحمزة وقد كان الجميع يبكى ويمسح دموعه بتأثر وقد حكى يحيى لابنائه ما عانت منه حكمت في محكمة مدريد وما فعله بلايو لتفريقهم وفراق حكمت وصبرها طوال سنوات على بُعد أمها وأخيها عنها.

مسح يحيى دموع ابنتيه قائلاً بثبات: يكفى، لقد بكت امكم لاربعة عشر عامًا بسببى ولسنا هنا للبكاء بل للأمر اخر، لكن كان يجب ان تعلموا الحقيقة ولا يجب ان تموت سيرتنا بعد الموت ابدًا الكتاب الذى ستاخذه ولادة سيكون أمانه عندها وستتوارثوه بالتناوب وقد خطت امكم فيه كل شيء وعليكم قصه على احفادكم وابنائكم حتى قيام الساعة، لكن الشئ المهم اننا سوف نعود إلى المغرب الأسبوع القادم ونستقر هناك للابد.

قد حان موعد الطعام وقد كان جسد بلايو على سريره الضيق غير مُضجع بصورة صحيحه وقد كانت تلك عادته منذ ان دخل السجن وقد افتقد إلى فراشه الدافئ الواسع وحصل على ذلك الضيق السيئ ولا ينام مرتاح، وهو يستحق هذا!

وضع الحارس الخاص بالزنزانة الطعام الرديئ واخذ يصيح بأسمه حتى يأكل ولكن لا فائدة، اقترب منه ودفعه في كتفه وقد سقط من علي فراشه مُفارقًا الحياه لا يملك شيء مثلما دخل وهو لا يملك شيء، وانتهت اسطورة بلايو المستشار القوى صاحب الحصانه وللابد واسوء ما في الأمر ان تيتوس من استلمه ودُفن دون ان يحضر عزائه أحد نكالاً لما اكتسبت يديه من ظلم وافتراء غير مكترث لعاقبة الأمور.

ولعل سبب موته الأول بعد انقضاء أجله الحتمى هو الكمد والغيظ والغضب فاخر وجه رأه قبل موته هو وجه يحيى الذى زاره في منتصف الليل متلثمًا وقد جحظتْ عينيه عندما همس له يحيى ببرود وتشفى: أنا يحيى باخوميوس زوج حكمت خالد محمد يا حضرة المستشار.

وقد ثار غضب بلايو وجن جنونه لينتهى به الأمر يضحك بهستيريه عاليه في وجه يحيى واخر ما قاله: لقد كنت على حق يا عديمى الكتلكه!

أكره القيئ حقًا لكن هذا ما يحدث الان على سطح المركب منذ ان ركبت حكمت وهم في عرض البحر لثلاث أيام وقد اقبلوا على الوصول إلى طنجه
وطوال تلك المدة كانت لا تتوقف عن القيئ وقد كانت تتعلل وتتحجج بأن ذلك بسبب دوار البحر.

ولكن يحيى ليس طفل اصبعه في فمه بل رجل بالغ عاقل يدرك ان دوار البحر لا يستمر كل تلك المدة ابدًا وقد بدأت الشكوك تساوره في امرًا ما.

أحاط يحيى كتفى حكمت واخذ يسوقها على مهل إلى سريرهم في تلك السفينة الضخمة _نعم سفينة ضخمة وقد وضع بها كل متاع القصر وخيله وأسلحته والاثاث والخدم وكل ما يخصه في قصره إلى قصره الجديد في المغرب وقد اخذ في بنائه سبع سنوات حتى يصبح شبيه للقصور الاندلسية التى تمنت حكمت العيش بها وبدوره لن يراها تشتهى شئ ويمنعه عنها مدام في مقدرته _.

ابعدت كأس الماء عن شفتيها ليمرر يده على كتفها صعودًا وهبوطًا قائلاً بهدوء: لم أكن أعرف ان دوار البحر سيئ هكذا؟

بللت شفتيها وتلاعبت باصابعها بخجل وتوتر قائله: أنظر... الأمر ليس كما تظن... أنا... نظفت حلقها ونظرت في عينيه مُوضحة: أنا حامل... ثم استدركت بسرعة وهي ترى ضيقه من ما سمع: أقسم بالله العظيم اني كنت سأخبرك لكن أردت ان اجعلها مفاجأة.

قلب عينيه بملل وحنق قائلاً بنبرة عتاب: حكمت لماذا؟ ألم نتفق انكى لن تكررى الأمر مره أخرى؟ ويكفى مرضك في ولادة عبدالله ومريم، لقد كدت ان أموت وأنا اراكى تصارعين الموت، ولماذا بعد كل هذا الوقت تكررين الأمر مجددًا؟ يكفى أبنائنا حولنا.

حاوت عنقه وجلست مُقابله قائله باستعطاف ودلال: يحيى، الوضع كان مختلف لقد جأت بحمزة وكنت بخير عند ولادة عبدالله ومريم كنت متعبه قبلها لا علاقة لتكرير الأمر بشئ كان مجرد حادث، ثم انظر إلينا كلانا تفرق عن أخيه بسبب وبغير سبب وانا لا أرضى لابنائى الفراق والتشتت بل يكونوا قلب واحد ويقفوا وقفة رجل واحد باتحادهم وقوتهم.

زفر بهدوء وألصق جبهته على جبهتها مغمضًا عينيه قائلاً ويديه تشتد في عناق خصرها: آه منكي يا حكمت! ماذا تفعلين بقلبى وحياتى وعقلى؟ غيرتى كل شيء بقوة ايمانك وطهارة قلبك، إلى الآن غير مصدق ما يحدث، غير مصدق اني مسلم وانكى زوجتي ولدى أبناء وعن قريب ان شاء الله سياتى الخامس إلى الدنيا أحيائًا احسبنى بحلم، بالأمس كنت اليد الباطشة بالإسلام والمطهرة منه في اسبانيا واليوم أنا مسلم وساهمت في هروب عشر عائلات من اسبانيا بربك ماذا فعلتى بى؟

مالت على وجنته ولثمتها لعدة ثوانى ثم ابتعدت قائله: لم أفعل أى شئ، بل الله أراد بنا خيرًا، كان عمر بن الخطاب من أشدّ الناس عداوة للاسلام في مهده وقرر في يوم ان يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أراد به خيرًا وأسلم وكان أسلامه عز ونصر للمسلمين والاسلام، والأمر كذلك قد احتسبت عيني عند الله ويكفى رؤيتك الان والى جانبى وعلى ما صرت عليه الان يا حارسى.

قبل وجنتها عدت قبلات صغيرة هامسًا بسخرية: بل قولى يا جدى ابنتك الكبرى على وشك الزواج وتاتين لها باخ وقد اشتعل راسى شيبًا.

ضحكت بمرح رافعة يديها باستسلام قائله: أنت من كبر أنا ما زلت صغيرة.

شد على عناقها بقوة قائلاً: عندما تقابلى اخاكى وامك سيقولن كم كبرتى ولم تعودى صغيرة يا سُكره.

داعبت خصلات شعره المجدولة بحنان قائله بشوق وامل: اتمنى ذلك يا يحيى، لقد اشتقت لامى وطارق كثيرًا، لا اصدق أنه قد مر ثلاثة عشر عامًا على اخر مره رايتهم بها.

ملس على ظهرها بهدوء وود قائلاً بتأكيد: ان شاء الله سيكونوا بخير وستجتمعون سويًا مرة أخرى إلى نهاية العمر وفي الجنة بإذن الله.

في بيت خطابى_ الذى لم يترك خديجة وطارق يغادرون بلاطه ابدًا وقد كان السبب الأول أم الخير التى تعلقت بطارق بشدة لشبهه بينه وبين ابنها الراحل وتعلق طارق بخطابى نفسه وقد وجد فيه مشاعر الابوه التى افتقدها منذ ان سافر أباه إلى الرفيق الأعلى ولم يُقصر خطابى في شئ تجاههم وقد استقرت خديجة في هذا الحى واستقرت تجارتها وعملها وكذلك طارق الذ بات يركب البحر في سُفن خطابى وقد كسب شعبيه وشهره في مهارته في الصيد وكسب حب خطابى وسره وامانته وقوية العلاقة بينه وبين جرجس وزال حاجز الرعب الذى عاش به في اسبانيا وتزوج وانجب طفل صغير _كانت حكمت ويحيى وابنائهم ينتظرون قدوم خديجة وطارق اليهم للقاء بعد اشتياق وفراق.

قد كانت حكمت متوترة للغاية في انتظار والدتها في صالون البيت بعد ان حيت خطابى وزوجتيه وسمعوا قصتها الخزينة واخبروها انها قادمة من مشغلها الخاص بها في وسط المدينة واخذوا يقصون عليها كم ان اخاها أصبح شاب قوى ومسؤول وكم ان زوجته فتاة طيبة وابنه الصغير كم هو لطيف وكم عانى طارق مثلها حتى تزوج من زوجته وقد كانت بينهم قصة حب قوية كالتى بين يحيى وحكمت.

قرضت اظافرها بتوتر في انتظار الوقت الذي لا يمر، لا تدرى لكن صبرت ثلاثه عشر عامًا وصبرت اسبوع منذ وصولهم واستقرارهم ولا تصبر بضع دقائق الان.

زفرت بحده وقبض على طرف ثوبها مغمضه عينيها لثوانى وقد فتحتها على وسعها عندما فُتح باب الحجرة والتفت واقفه من علي الاريكة تنظر للداخل وقد كانت وأخيرًا خديجة ومن خلفها طارق وزوجته وابنه الصغير.

هرولت خديجة إلى حكمت وبالمثل فعلت حكمت وقد أسقطت خديجة عكازها الخشبى ارضًا متشبثه بعناق حكمت التى امسكت بها قبل ان تسقط ارضًا وجلستا على الأرض سويًا وكلتهما تبكى بحرقة وشوق للاخرى.

ثلاثة عشر عامًا من الفراق والحرمان والان ابنتها امامها لكن ليست كالسابق فأقل الخسائر عينها البيضاء.
اخذت حكمت تقبل رأس خديجة ويديه بشوق وشده قائله من بين دموعها: اه يا أمى اشتقت لكى كثيرًا... اشتقت لعناقك... اشتقتك لحديثك وطعامك... اه!

تعلقت خديجة برقبتها وشدت على عناقها قائله بحرقة: قتلهم الله على ما فعلوه فيكي يا ضياء عين امك وقلبها النابض... انا لست غاضبه منكي... ولا اكرهك بل فخورة بكى... اه يا حكمت ثلاثة عشر عامًا من دونك يا قلب أمك مروا بلا حياه... لا حياة من دونك يا قرة عينى.

ومن حولهم كان الجميع يشاهد ويبكى بصمت وتأثر سواء خطابى وزوجتيه وطارق وزوجته ويحيى وابنائهم الكل كان يبكى وقد مر وقت وكلتهما تعانق الأخرى بصمت وبكاء حتى هبط طارق إلى مستواهم وربت على كتف حكمت قائلاً بهدوء وعاطفة: اختى حكمت تشوقت إليكى كثيرًا.

وضعت حكمت يدها الحره من عناق والدتها قائله بفخر وعينيها تلمع بالدموع تتحسس لحيته الكثيفة: اصبحت رجُلاً يا طارق، اشتقت لك يا عزيزى، اشتقت لشجارنا ومرحنا يا منقذى.

هبطت دموعه وهو يقبل يدها بحراره وعانق رقبتها بقوة قائلاً وهو يجهش بالبكاء: أنا فخورًا بكى يا حكمت... لو لم تكوني اختى لدعوت الله ان تكونى... الحياة باردة من دونك يا حكمت...مرالعمر ولم نكبر سويًا... قتلهم الله.

كان جسدها يهتز بقوة جراء بكائها وبكاء طارق ليهبط يحيى إلى مستواهم وربت على كتف طارق قائلاً: يا طارق ظننتك رابط الجائش أكثر من ذلك، لقد عدنا ولن نذهب إن شاء لله.

ثم ربت على كتف خديجة وامسك كفها يقبله قائلاً بحنان: امي خديجة اشتقت لكى كثيرًا، لقد عدنا يا أمى وعادت امانتك وقد اقسمت لكى ان احافظ عليها وقد فعلت بفضل الله.

تركت عناق حكمت وامسكت بيد يحيى قائله بفخر وامتنان: حماك الله يا بنى، اشكرك على ما فعلته لأجل ابنتى يا يحيى اشكرك يا طيب القلب.

تسللت انامله تمسح دموعها قائلاً بابتسامة جاهد في اظهارها: لا تشكرينى على حماية روحى وقطعة من قلبى.

ثم أشار إلى ابنائه وقد اقتربوا ليعرف خديجة عليهم قائلاً وهو يشير إلى ولادة: تلك ابنتنى الكبرى ولادة يا أمى لولا فضل الله ثم روزيتنيا ما كنتى لترى حكمت وهذا أقل جزاء لما قدمته لنا.

فهمت خديجة ما يرمى إليه يحيى واستقبلت ولادة بالاحضان والاشواق والسعادة وكانها حفيدتها بحق ثم أشار إلى حمزة لتعانقة خديجة قائله: نفس عيني أمك يا صغيرى حرسك الله ورعاك.

ثم إلى التوأمين مريم وعبدالله وقد عانقتهما وبالمثل الصغار واخر شئ أشار إلى رحم حكمت قائلاً بابتسامة هادئة: وهبة الله بعد عدة أشهر ستاتى إلى الدنيا ادعي لها.

قبلت رأس حكمت واخذتها بين احضانها وربتت على ظهرها بحنان وهدوء ليقاطعهم طارق الذى وضع بين يدى حكمت ابنه الرضيع قائلاً: ابنى مُعاذ الصغير.

ثم أشر إلى زوجته الواقفه قائلاً: وتلك مريمة زوجتى، عشنا نحن ايضًا قصة حب قوية مثلكم.

حيتها حكمت ثم نظرت إلى طارق وخديجه قائله بشوق: انا هنا للابد ان شاء الله وكل ما اريده ان اسمع ما الذى جرى في الثلاثة عشر عامًا الماضية.

مرت الأيام والاسابيع والشهور والسنين العادية والكبيسة السعيدة والحزينه وقد انجبت حكمت طفله سمتها ليلى وكذلك طارق أنجب طفل سماه أسامة ومن بعده فتاه سماها حفصة ومرت السنين وعمل يحيى فى التجارة وهي الشئ الوحيد الذي يفهم به بعد الشرطة وسلم سُفنه التجارية لطارق ومر العمر ورحلت خديجة الى بارئها وتزوج ابناء حكمتويحيى وامتلاء بيتهم بالاحفاد واخذت ولادة كتابهم الذى خطته حكمت بيديها وقصته على ابنائها واخوتها ولم بشعر أحد بأنها غريبة عنهم على العكس كانت اخت كبرى بحق.

ومر سبعة وعشرون عامًا على وصولهم واستقرارهم في المغرب وباتت حصيلة سنوات الحب والعذاب اربعون عامًا.

اربعون عامًا مرت بحلوها ومرها وقد قضتها حكمت كما تمنت في قلب رجل احبها وقدر حبها ورحلا إلى بارئهم سويًا في نفس اليوم واللحظه عندما وقفت حكمت تنظر بعينيها المترهله إلى تلك اللوحه الاخيرة التى تضمها وتضم يحيى وطارق وعائلتهم كلهم لتنظر إلى يحيى الذى لم يعد في رأسه شعره سوداء وأستحال للابيض قائله براحه وسعادة: الحمدلله يا يحيى الحمدلله، كل ما دعينا به الله تحقق انا سعيده لما مر من العمر معًا واتمنى ان يجمعنا الله سويًا في الآخرة في الفردوس الأعلى.

ربت على وجنتها بكفه المرتعش والمجعد قائلاً: ان شاء الله، هيا نُصلى لله شكر على ما وصلنا إليه.

وبالفعل توضؤا وتطهروا لله العزيز القهار وأمها يحيى فى الصلاة وفي من خلفه وقد سجد وبالمثل هي حتى خرجت الروح لله عز وجل ولم يفرقهما الموت ورحلوا ساجدين لله سويًا وسيبعثون يوم القيامة ان شاء الله سويًا ساجدين لله.

أغلق ذلك النجار مذكرات حكمت ويحيى ومسح جفنيه الممتلئين بالدموع ونظر إلى ابنائه الذين كانوا يبكون هم ايضًا ولم يلاحظوا حلول الظلام وانقضاء الوقت كله في القرأه ليمسك بالكتاب قائلاً بثبات وفخر: حارب اجدادى من أجل الحب والاسلام والاندلس وخطت جدتى حكمت هذا الكتاب بأمر من جدى يحيى لتعيش ذكراهم ولتعيش ذكرى الاندلس فلا تنسوا الأندلس!

تمت بحمد الله رواية وسقطت حكمت!

إلى اللقاء في عمل جديد ان شاء الله ♥.

المصادر

كتاب مئة من عظماء الإسلام غيروا مجرى التاريخ

كتاب تاريخ مجازر محاكم التفتيش

كتاب تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط

موقع الجزيرة نت

موقع موضوع.